

ملیكة أوفقییر میشل فیتوسی

السَّحِیْنَةُ

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

ترجمة
غادة موسى الحسینی

دار
الجديد



هذه نسخة معالجة
لنسخة متوفرة على النت

قمنا بمعالجة مصوراتها
مع تصغير الحجم
ورفع جودة الملف

فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

إلى أمي الحبيبة أعظم امرأة عرفت، وأنا مدينة لها بحياتي.
إلى شقيقتي الحبيبة، مريم الشجاعة.
إلى أخي رؤوف، صديقي، وسندي، وقدوتي الشامخ.
إلى شقيقتي ماريا، التي منحتني الفرصة لأبدأ حياتي من جديد في بلد الديمقراطية، شكراً.
إلى سكتة شقيقتي الموهوبة جداً، وكلّي ثقة وإيمان بها.
إلى أخي الصغير عبد اللطيف، الذي نفخ في داخلي الأمل والمقاومة.
إلى عاشورا، وحليمة، المخلصتين أبداً...
إلى أبي العزيز، الذي أتمنى أن يكون فخوراً بنا.
إلى عز الدين، خالي، وحمزة، ابن خالي، اللذين رحلا باكراً عنا...
إلى ميكائيل، تانيا، نوال. عسى ألا تمنعهم هذه الرواية من حب وطنهم المغرب.

حرفياً جاء الإهداء، إلى «عائلة كاستور»، وهو برنامج رسوم متحركة، باستعارة أسماء شخصياته لكل فرد من أفراد العائلة - كالتالي: إلى «بيكسو»، أمي الحبيبة أعظم امرأة عرفت، وأنا مدينة لها بحياتي؛ إلى «بني بول»، شقيقتي الحبيبة مريم الشجاعة؛ إلى «مونش» أخي رؤوف، وصديقي، وسندي، وقدوتي الشامخ؛ إلى «نيميس»، شقيقتي ماريا، التي منحتني الفرصة لأبدأ حياتي من جديد في بلد الديمقراطية، شكراً؛ إلى «شارلي»، سكتة شقيقتي الموهوبة جداً، وكلّي ثقة وإيمان بها؛ إلى «جيتروف توه»، أخي الصغير عبد اللطيف، الذي نفخ في داخلي الأمل والمقاومة؛ إلى «بارنابه» عاشورا، و«دنفو» حليمة، المخلصتين أبداً... إلى «ميشون لو»، أبي العزيز، الذي أتمنى أن يكون فخوراً بنا؛ إلى عز الدين، خالي، وحمزة، ابن خالي، اللذين رحلا باكراً عنا... إلى أبناء «آل كاستور»، ميكائيل، تانيا، نوال. عسى ألا تمنعهم هذه الرواية من حب وطنهم المغرب.

مقدمة

لماذا هذا الكتاب؟ لأنه كان لا بد له أن يكون. ولو أن طريقي وطريق مليكة أوفقيير لم تتقاطعا فلقد كانت مليكة مستجدة حتماً السيل إلى تسجيل هذه الشهادة، لا سيما أنها منذ خروجها من السجن تحرق لسرقة قصتها طرداً لشياطين هذا الماضي اللؤلؤ الساكن في طيات كيانها. يبطه كان مشروع سرد سيرتها يتبلور في نفسها، لكنها لم تكن جاهزة بعد.

رُبَّ متسائل: ولماذا توقيعان لكتاب واحد؟ وأجيب: هكذا كان يعون حتمية اسمها القدر. فمن لقاء وليد صدفة تحولت اللحظة العابرة إلى صداقة فبوح قَلْبٍ مشاريعي الكتانية رأساً على عقب فتركتها جميعها وأخذت أنصت إلى مليكة، أدوّن ما تقوله لي على تَبَّة صياغته في نص يستجيب لما يصطلح على تسميته بأدب السيرة.

التقينا، مليكة وأنا، للمرة الأولى في شهر آذار/ مارس من العام ١٩٩٧ عند أصدقاء كانوا يلتها يحتفلون بعيد النبروز الفارسي. أشارت إحدى الصديقات إلى سيدة سمراء جميلة ونحيفة، واقفة بين المدعوين قائلة: «إنها مليكة أوفقيير ابنة الجنرال أوفقيير البكر».

صغني الاسم، إذ إن اسم عائلة أوفقيير مرتبط في ذهني بالظلم وبالمأساة. فأطفال الجنرال الستة وزوجته عاشوا عشرين عاماً في المطامير المغربية بحسب ما قرأت في الصحف. في تلك اللحظة تذكرت المقالات التي كنت قد قرأتها حول الموضوع وشعرت بالتأثر.

كيف لهذه السيدة الشابة أن تعيش حياة طبيعية بعد كل ما عانت من عذاب؟ أتمسّطع أن تعيش وتضحك وتحب بعد أن سلبها الظلم أجل سني حياتها؟

نظرت باتجاهها، لم تكن تعرف أنني أتأملها. تبدو كأنها إنسان معتاد على الظهور في المجتمع، لكن عينيها تعكسان هلعاً لا يخفى. كانت واقفة في ذلك البهو معنا، يد أنها لم تكن هنا، كانت حتماً في عالم آخر. حددت فيها ملياً، وبالحاح، راجية أن لا تنبه إلى نظراتي المتحصصة، وبدلي أن الشاب الواقف إلى جوارها يستأثر بجميع نظراتها وأنها متعلقة به تعلق الغريق بحبل نجاة.

حين تبرع أحدهم وعرفنا بعضنا على بعض، تبادلنا كلاماً حلوّاً وعادياً حول بلدنا، المغرب وتونس. فكل واحد منا كانت تحاول قراءة الأخرى وتقييمها. طوال السهرة كنت أسترق النظر إليها. رأيتهما ترقص ولا حظت رشاقتهما وطريقتها في الوقوف مستقيمة، كما لاحظت وحدتها وهي محاطة بكل هؤلاء الناس الفرحين أو المظاهرين بالفرح. أحياناً تلاقى نظراتنا وتبادلنا الابتسامات. قلت لنفسي إن هذه المرأة مؤثرة، كما شعرت بخجل حيالها، فأنا لا أعرف من أين أبداً معها الكلام. أبدأ بطرح الأسئلة المحرجة فأبدو كمن يتدخل في ما لا يعنيه؟ الحق أنني كنت أتمرق لمعرفة المزيد عنها.

قبل انقضاء السهرة تبادلنا أرقام هواتفنا. أيامها كنت بصدد إنهاء مجموعة قصصية كانت في طريقها إلى الصدور خلال شهر أيار/ مايو، وكنت أعرف أن إتمام هذا الكتاب سيحتاج إلى بضعة أسابيع، اقترحت على مليكة أن نلتقي فور فراغي من عملي هذا، فوافقت دون أن تخرج بتأنا عن تحفظها الأول.

خلال الأيام التي تلت لقاءنا الأول كنت أفكر دوماً بها، وكان وجهها الجميل الحزين لا يفارقني. كنت أحاول أن أتخيل معاناتها وآلاف الأسئلة التي تحتاجني. ما الذي عاشته هذه الإنسانة يا ترى؟ ما هو شعورها اليوم؟ كيف يخرج المعبودون من قبورهم؟

كان مصير هذه المرأة يهزني لخروجه عن المؤلف، ولاختراجه شيعين: الآلام التي تكبدها، وتلك القيامة الرائعة الأشبه بالأعجوبة. ومما شددني إلى مصير مليكة ودفعني لبعثه بدقائقه شعوري أننا في مكان ما، على اختلاف مساراتنا، صنوان، فأعمارنا ومشاربنا متقاربة. لقد دخلت مليكة السجن في شهر كانون الأول/ ديسمبر، من العام ١٩٧٢، يوم كانت في الثامنة عشرة والنصف من عمرها، بسنة نيلي شهادة البكالوريا وعشية التحاقها بالسنة التحضيرية لدخول كلية العلوم السياسية. ثم تلت شهادتي وحقق حلم طفولتي حيث أصبحت صحافية ثم كاتبة. عملت، سافرت، أحببت، تأملت تماماً كما يحدث لأغلب البشر. أنجبت طفلين رائعين، وعشت حياة غنية، زاخرة بأحزانها ونجاحاتها وأفراحها المتنوعة. طوال كل هذه السنوات كانت وعائلتها مسجونة بعيدة عن العالم، تعيش ظروفاً مقفزة لا أفق لها إلا جدران الزنزانة الأربعة. كنت كلما فكرت بمليكة توضحت لديّ تلك الرغبة التي أخذت تعذبني، رغبة تجمع بين حشريتي الصحافية وحاستي ككاتبة واهتمامي بالإنسان بالمصير

الاستثنائي الذي عاشته هذه المرأة. قلت لنفسي أريدها أن تسرد لي قصتها وأريد أن أكتبها معها، وقد سيطرت عليّ هذه الفكرة حتى بلغت حد الوسواس.

لم تمض أيام على لقائنا حتى أرسلت لها كتيبي، كي أعبر لها عن بعض ما أخذت أكنه لها، وكي أعبر لها أيضاً عن الرغبة التي باتت تسكنني.

حينما شارف مخطوطي على النهاية اتصلت بها أدعوها للغداء.

عبر الهاتف وصلني صوتها المنهك، فهي على ما يبدو لم تتأقلم بعد مع الحياة الباريسية، رغم أنها تعيش مع رفيقها إريك منذ ثمانية أشهر.

عام ١٩٩١ غادرت عائلة أوفقيير السجن، وبعدها بخمس سنوات تمكنت من الانتقال إلى فرنسا، وذلك إثر هروب ماريا شقيقتها الصغرى وطلبها اللجوء السياسي.

يومها ضجت الصحف الفرنسية بأخبار هذا الفرار، وقد شاهدت وجه ماريا الصغير عبر شاشات التلفزيون، وبعد حين شاهدت أيضاً وصول أفراد العائلة الآخرين: مليكة وشقيقتها سكين وشقيقتها رؤوف، ثم التحقت بهم مريم. أما عبد اللطيف، الشقيق الأصغر، والوالدة فاطمة أوفقيير فقد كانا ما يزالان بقيان في المغرب كما أخبرتني مليكة خلال ذلك الغداء الذي طال حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر.

كنت أصغي إليها وأنا في حالة انبهار، فمليكة راوية من الطراز الأول، وتتسبب بلا أدنى شك إلى سلالة شهرزاد. طريقتها في السرد شرقية بامتياز. تكلم ببطء، بصوت لا يتبدل نبرته، مستعينة أحياناً بحركة يديها الطويلتين لتدعيم قصتها. عيناها بالغتا التعبير وهي تتقل بلا استئذان من الأشجان إلى المرح، فهي في اللحظة عينها طفلة فمراهقة فامرأة ناضجة، تعيش مليكة جميع الأعمار معاً لأنها في الحقيقة لم تعيش أياً منها حقاً.

لم أكن أعرف الكثير عن تاريخ المغرب، ولم أكن مطلعة على خلفيات سجن عائلة أوفقيير. كل ما كنت أعرفه أنها وخمسة من أشقائها وشقيقاتها ووالدتهم قد سجنوا طوال عقدين، كمقاب على الانقلاب العسكري الذي نظمه والدها. ففي السادس عشر من شهر آب/ أغسطس من العام ١٩٧٢ حاول الجنرال محمد أوفقيير، الرجل الثاني في النظام يومها، اغتيال الملك الحسن الثاني. فشل انقلاب

الجنرال أوفقيير وأعدم الرجل فوراً بخمس رصاصات استقرت في جسده. يومها قرر الملك إنزال أبشع العقوبات بمائلة الجنرال الثمرد، فذاقت العائلة أقسى ألوان العذاب في معسكرات الاحتجاز والسجون والمطامير؛ يومها كان عبد اللطيف، الأخ الأصغر، لا يكاد يبلغ الثالثة من العمر.

هذا عن سنوات السجن، أما طفولة مليكة فهي فعلاً متميزة، إذ تبناها الملك محمد الخامس وهي في الخامسة من العمر، وترعرعت مع ابنته الأميرة أمانة لتقارب عمرهما. وحين توفي العامل المغربي أخذاً بته الحسن الثاني على عاتقه تربية البنتين وكأنتها بتاه. أمضت مليكة أحد عشر عاماً من حياتها في القصر، وراء أسوار قصر قلما خرجت منه، أي أنها كانت منذ ذلك اليوم سجينة الترف الملكي، وحين سمح لها بمغادرته أمضت عامين من مرافقتها في كنف أهل متفذين ومتمكنين.

حين وقع الانقلاب تيمت مليكة مرتين، إذ فقدت والدها الفعلي وعطف الملك، والدها بالتبني. هنا تكمن مأساة مليكة أوفقيير وحدادها المزدوج وسؤالها الكبير عن الحب والبغض. فهل للحياة معنى حين يحاول أحز من عندها (والدها الحقيقي) قتل والدها بالتبني (الملك)؟ وكيف يتحول والد بالتبني إلى جلال بلا رحمة؟ عظيمة كانت محنة مليكة، هذه المأساة هي جوهر الرواية.

رويداً رويداً تبلورت في ذهننا الفكرة نفسها. كانت مليكة راغبة بسر مد ما لم تبج به قبل ذلك، ويبدو أن لقاءنا في تلك السهرة النيروزية قد ترك في نفسنا انطباعاً قوياً ومتبادلاً، ولو كانت أشياء كثيرة تفرقنا مثل الثقافة والبيئة والدراسة الجامعية والأوضاع الاجتماعية والمهنة والطباع والدين، فهي مسلمة، أما أنا فيهودية، لكننا من جهة أخرى ننتهي إلى الجيل نفسه وإلى حساسية واحدة تظهر في حبنا للشرق حيث ولدنا، وفي روح نكتة مشترك يجعلنا ننظر إلى الآخرين بالمنظار عينه.

صداقتنا التي كبرت يوماً بعد يوم جاءت لتؤكد حدسنا ومشاعر لقائنا الأول. قررنا كتابة هذا الكتاب معاً، لكننا احتجنا إلى بعض الوقت كي تتحول رغبة مليكة إلى إرادة فعلية. وقّعنا العقد مع دار نشر غراسيه في شهر أيار/ مايو من العام ١٩٩٧، لكننا لم نبدأ بالعمل إلا في شهر كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٩٨، وذلك بعد مغامرات طويلة. بدأنا العمل، وكان شرط مليكة الأساسي أن يظل مشروعنا سرياً، خوفاً من العيون والأذان المتطفلة. فخلال السنوات الخمس التي أمضتها مليكة في المغرب بعد خروجها من المعتقل كانت العائلة تعاني من تدخل الأجهزة الأمنية في جميع شؤونها وشجونها. حتى الأصدقاء كانوا تحت المراقبة. منذ تلك الفترة تعلمت أن لا تحدث

في أي موضوع مهم عبر الهاتف، وأن تحذر وهي تسير في الطريق من الذين يقتفون الأثار. فالرعب الساكن في داخلها منذ ربيع قرن لم يفارقها، حتى في باريس.

لم تكن مليكة تريد أن تصل أصداء الكتاب «إلى هناك» قبل إنجازها، وقد انضويت بدوري تحت ألوية التكتّم، ولم أذع إلا لأقرب المقربين خبر مشروعي. خلال عام كامل عشت حياة مزدوجة، كنت لا أذكر اسم مليكة أمام أحد، علماً أننا كنا نعمل معاً ثلاث مرات في الأسبوع، وتتخابر بوتيرة يومية.

في النهاية، فإن ما لا يمكن ملاحظته أثناء قراءة هذا الكتاب هو قصة صداقتنا التي شيدناها يوماً بعد يوم، والتي رأيناها تترعرع أثناء الإعداد والكتابة. كنا منذ شهر كانون الثاني/ يناير، إلى شهر حزيران/ يونيو، نلتقي عندها أو عندي، وقد أضحت لنا طقوسنا الخاصة: المسجلان لتوأمة الشرائط المسجلة كتدبير احتياطي، فماذا لو سرق شريط أو لم يسجل أحدهما، واحتساء الشاي مع بعض الحلوى، أو دخول أولادي هلينا لمناقشة موضوع ما، ثم هواتف إريك للسؤال عنها إن طالت جلساتنا.

أخذت أكتب، وشرعت هي تقرأ وتعلق، وهذه المرحلة من عملنا لم تكن الأسهل. لم يكن سرد اللحظات المأساوية سهلاً، فكيف إن وصل الأمر إلى تدوينها. مراراً كانت قراءتها لكابوسها، مدوناً، فوق طاقتها بل وفوق أي طاقة بشرية. لقد خشيت مرات أن ترجع عن رأيها أو أن تغلب عليها مخاوفها وشياطينها، لكنها قاومت حتى النهاية.

كانت رواية مليكة مؤلمة ومخيفة وفضائحية، بل ومشيرة. كنت أرتجف، أجوع، أبعد، أخاف، أتضامن معها خلال جلساتنا، لكننا ضحكنا أيضاً معاً لأن مليكة أستاذة في الطرافة، وهذه الصفة هي التي أعانت العائلة على المقاومة في أحلك الظروف، ساخرة من نفسها ومن زحمة الأوضاع.

عبر كلامها عزّفتني بأهلها وأخوتها، وأخواتها، وكيف كانت لهم أمّ، فحمتهم وعلمتهم وأرشدتهم خلال كل هذه السنوات السوداء. كما حدثتني عن الوالدة فاطمة التي ما تزال تحتفظ بجهالها ونفصارتها لدرجة أن الكثيرين يظنونها شقيقتها.

بالنسبة لي كان أفراد عائلة مليكة مجرد شخصيات روائية، إلى أن التقيت بهم الواحد بعد الآخر، فتبين لي أن تصوير مليكة لم يكن حقيقياً، وأنهم جميعاً يتحلون بالصفات الحميدة التي وصفتهم بها شقيقتهم، وتبين لي أنهم جميعاً، مثل مليكة، شخصيات استثنائية.

ملیكة إنسانة ناجية، وهي كجميع الناجين قاسية وقوية. ولأنها عاشت قاب قوسين أو أدنى من الموت، رأيتهأ تعامل الحياة بزهة. فهي لا تعرف معنى الوقت ولا علاقة لها بالمكان. فالمواعيد لا تعني لها الكثير، وقد تضرب لك موعداً ولا تأتي، وهي تخشى قطارات الأنفاق، وتخشى التجمعات البشرية والتكنولوجيا. وهذه السهات المكونة لشخصيتها تدهشني وتبدو لي طريفة.

رغم مظهرها المعاصر وهاتفها النقال الذي لا يفارقها، تبدو مليكة أحياناً وكأنها آتية من كوكب آخر. فأشياء قد تبدو لنا عادية تربكها وتضعها في حالة من الهلع. مرات عدة كان يدهشني حكمها وحكمها وقدرتها على التحليل. إنها امرأة مؤثرة، سهلة الانكسار، متعبة، متأثرة بالأمراض التي عانت منها، وسنوات الحرمان الطويلة والعزلة، لكنها أيضاً امرأة قوية. فعشرون عاماً من السجن والعذاب قد تركت للأسف دماراً لا يرمم، لكن هذه المحن بلورت عند هذه السيدة روحاً جميلة وشخصية تستحق الإعجاب. فحين أنظر إلى حياتنا أتساءل أحياناً أي مناهي التي عاشت فعلاً؟

خلال كل هذه السنوات أبكتني مليكة وأضحكتني. كنت مريبتها ومستشارتها، فكففت دموعها، أصغيت إليها، شجعتها ودفعتها للمضي قدماً في السرد حتى الإنهاك.

لكن علاقتنا لم تكن يوماً من طرف واحد، لأن ما أضافته مليكة إلى حياتي أكبر من أن يقدر، والأرجح أنها لم تعطيني ما أعطتني عمداً. تعلمت منها الشجاعة والقوة والإرادة والكرامة البشرية التي تدفع الإنسان باتجاه إنسانيته، وفي أحلك الظروف وأكثرها هولاً. علمتني مليكة أن الأمل والإيمان بالحياة يمكنهما أن يحرزا الجبال عن أماكنها ويدفعا البشر إلى حفر اتفاق بأيديهم.

لقد دفعته مليكة للنصوص بعيداً في أعماقي، وأن أعيد النظر في جملة من قناعاتي، كما شوقته لاكتشاف المغرب هذا البلد الذي تحدث عنه بحرارة وعشق، وبلا ضغينة لشعب لم يقف معها ومع عائلته في محنتهم. بالتأكيد سأزور المغرب برفتها يوماً.

كان تدوين هذه السيرة بالنسبة لي مساهمة في فضح العنف الذي أدى بأم وستة أطفال إلى عيش هذه المحنة المريعة. فما عانته هذه العائلة سيظل يستثيرني كما تستثيرني على هذه الأرض انتهاكات حقوق الإنسان. فغالباً ما نغمض أعيننا كي لا نرى فظائع هذا العالم، وننسى أن عذاب بشر لا نعرفهم هو أيضاً عذابنا، وأن الآية قد تنقلب ذات يوم فنكون يوماً مكانهم ويكونون مكاننا، كما يمكن لهؤلاء المعلمين أن يصبحوا يوماً أصدقاءنا.

رغم ذلك فهذا الكتاب ليس وثيقة أو دليل إدانة، فالتاريخ سوف يحكم ذات يوم على الجرائم والمجرمين، ولم تكن، ونحن نبلور مشروعنا في هذا الوارد. «السجينة» سيرة وليس استقصاء، فقد دونت في هذا الكتاب ما سمعته على لسان مليكة يوماً بعد يوم، أي شهادتها التي تتضمن ترددها وعدم تحققها من بعض الوقائع، كذلك ما لم تنشأ البوح به ولكن أيضاً دقتها الصارمة.

ما أردت سرده هو ما سردها معاً بكلماتها وكلماتي، بمواقفها وتأثرنا المشترك، هو المسار غير المألوف لامرأة من جيلي سجت في القصور وفي المطاعم منذ نعومة أظفارها، وهي اليوم تحاول أن تحيا. وأنا أواكبها إلى أبعد مدى استطعت الوصول إليه. أتمنى أن أكون قد شاركت كل من يجيها الآن ويحيط بها في أن ترد إليها طعم الحياة.

ميشال فيتوسي

شعر الأميرات

أهـي العزيزة

تنتاهي إلى مسامي أنغام الموسيقى التي تعلن قدوم المدعويين، أنقلب في سريري ذات اليمين وذات اليسار، عبثاً أحاول أن أستدرج النعاس إلى عيني.
يُبدوي صدى الضحكات والمحادثات في أنحاء المنزل وأرجائه، ويصل إلى غرفتي، فينبه حواسي، ويعرضني على ترك فراشي. أهب من فكري، وأنسلل ألياً باتجاه الباب، أجلس القرفصاء على الأرض المغطاة بسجادة مميكة، لأسترق النظر من شق الباب إلى الحضور الذين ينتشرون في قاعة الاستقبال.

تخطف بصري أناقة فساتين السهرة، وتسرجات الشعر، وبريق المجوهرات، ومساحيق التجميل. تبدو النساء وكأنهن أميرات القصص الأثيرية إلى نفسي. عندما أكبر سأصبح أنا أيضاً أميرة.
فجأة تقع عينا على أجهلن، إنها ترتدي ثوباً أبيض ذا فتحة واسعة تُظهر محاسن جيدها وصدرها. أتابعها بعيني، وقلبي يخفق بين ضلوعي من شدة الفرح. تجول على المدعويين، تحيهم، تتبادل معهم أطراف حديث تتخلله بعض الضحكات. ثم تعود أدراجها إلى رهط من الرجال يلبسون بذلات سموكتنغ، إنهم أغراب لا أعرفهم. بعد ذلك تستأذنتهم وتتوجه نحو حلبة الرقص... ترقص... وتغني... وتصفق بكل حيوية وخفة. حتى تستمر السهرة، كالعادة، حتى طلوع الفجر.
تتعبني كثرة التطلع والحملقة، فأعود للاستلقاء على سريري منهكة القوى، حزينة أنا لأن أهي منشغلة عني بهذه الحفلة، فيما أريدها أن تبقى بقربي، أن تدغدغ وجهي بخصلات شعرها الحريرية، وفيما أريد أن أستشق عطرها، وأن أشعر بدفئها، وأنحس بشرتها المخملية الناعمة. إنها أروع أم، وأجل امرأة، ما أجهلها بفساتانها الأبيض. ما من امرأة تضاهيها جمالاً وأناقة. إنها أهي الحبيبة التي سأحرم من عطفها وحنانها، وسأنشأ بعيداً عن حضنها. أي مصير أقسى من مصيري هذا الذي سألاقيه!

ليس التشابه الواضح في الشكل هو ما يجمعني بأمي، بل أيضاً التشابه الكبير في القدر والمصير. عندما كانت أمي المسكينة في الرابعة من عمرها لفظت أمها أنفاسها وهي تضع طفلها الذي لم ير النور. أما أنا فقد انتزعت من بين ذراعيها وأنا في الخامسة عندما قرر محمد الخامس أن يتبناني. كانت طفولتنا الباكرا، نحن الاثنين، خالية من حنان الأمومة.

تكبرني أمي بسبعة عشر عاماً فقط. عندما توفيت أمها في بداية الحرب تلقى أبوها عبد القادر الشنا أمراً بالالتحاق بكتيبته المربطة في سوريا باعتباره كان ضابطاً في الجيش الفرنسي. وحيث إنه كان من المستحيل اصطحابها هي وأخيها، اضطر إلى تركهما في مدينة مكناس في مدرسة داخلية تديرها راهبات فرنسيات. ولكن الهموم والأحزان أثبت أن ترك تلك الطفلة الطرية العود تتنفس الصعداء ولو قليلاً، فبدون سابق إنذار مات أخوها اختناقاً، وهو كل ما تبقى لها من عائلتها، تشد به أزرها، وتلم به شعثها. يومها أضحت أمي وحيدة، لا أم، ولا أخ، ولا أب، تجتر لوعتها وألمها بمفردها، لا تجد من تبته أشجانها وتشكو له ما أصابها. كانت حياتها مشقة بالجرّاح.

لا غرو بعد ذلك أن تغرق أمي في العبادة والصلاة. لقد لاقت تعاليم الراهبات المسيحية صدى في نفسها. كانت كأرض أصابها الجذب والجفاف، والعطش لأي قطرة ماء تروي ظمأها وتعيد الطمأنينة إلى روحها المعذبة، لكنها وجدت ملاذاً للتخلص من كل ما ألم بها، فلجأت إلى التضرع والابتهال للسيدة العذراء وابنها المسيح. لقد رجتها بكل حرقة أن يعيد إليها أباه ليصطحبها مجدداً إلى المنزل. تحققت أمنية أمي، وعاد الأب بعد غيبة طويلة ليعيدها إلى المنزل الذي سبقها إليه عروسه الجديدة التي أقمعه أصدقاؤه بالزواج منها. أكثر ما شده إلى هذه المرأة هو مؤهلاتها في الطبخ، ومهارتها العالية في تحضير طبق الباستيلا المفضل عند جدي. لم تدم فرحتها طويلاً: فهي لا تحتمل أن تشاركها في حب أبيها امرأة أخرى غريبة، تكبرها بعدة أعوام فقط. وزاد الأمر سوءاً بعد ولادة أختها فوزية ومن ثم أخيها عز الدين. كانت الغيرة تنهش صدرها إلى حدّ أضحت معه الإقامة في المنزل جحيماً لا يطاق. كانت تعدّ الأيام والساعات للهرب من ذلك السجن الذي جعلها أبوها حبيسته مجارة للعادات والتقاليد. المشكلة أنه لم يكن أمامها مكان آخر تلجأ إليه طلباً للعطف والدفء والرعاية. لقد كانت تفتقد لأي يد رحيمة تحنو عليها، وتبدد وحشتها وغريبتها.

ولسوء حظها توفي معظم أقارب أمها، وهم من البربر المسورين المقيمين في الأطلس الأوسط.

كان لجلدهما أربع بنات ذاع صيتهن في أرجاء المعمورة بالحسن والجمال. قبض الموت ثلاثاً منهن، في عمر المراهقة، أما الرابعة التي بقيت على قيد الحياة، وهي جلدتي يَمْنَى، فقد تزوجت من الجار الوسيم عبد القادر الشَّتا الذي كانت أراضيهِ مجاورة لأراضيهِم. هذا الزواج الرومانسي لا يحصل عادة إلا في القصص والأفلام. لم تكتب لجلدتي يَمْنَى حياةً مديدة، إذ توفيت وهي في التاسعة عشرة من عمرها. كل ما أعرفه عنها أنها كانت امرأةً رائدة، عصرية، تحب الأناقة والرحلات، وقيادة السيارات. أصبحت أماً في الخامسة عشرة، وكانت تدير صالوناً أدبياً في سوريا حيث كان جدي يعمل في كتيبة الجيش المراقبة هناك.

أمي وعمها الشاب هما كل ما تبقى من هذه العائلة، لذلك آلت إليهما كل تركة العائلة: حقول قمح، وذهب مكس من أجيال. وكما تقتضي العادات المغربية أعطي عمها حصة الأسد ومع هذا بقي لها هي الأخرى حصة لا يستهان بها. فقد فازت بعدة مبانٍ، وفلا، وحي بكامله في مدينة سلا. تولى جدي إدارة تركة أمي ريثما تكبر وتبلغ سن الرشد، ولكنه كان للأسف مديراً رديئاً، فقد أهدر أكثر مما أضاف على الرأسمال، ومع هذا فلن ما حصلت عليه عندما بلغت السن القانونية كان مبلغاً كبيراً ومعتبراً.

في ربيعها الثاني عشر، تفنحت أمي كوردة حمراء. كانت رائحة الجبال: عيَّان وإسعتان سوداوان، بشرة نقية سمراء، جسد صغير بض، ما جعلها تأسر القلوب، وتشد الأنظار إليها، بل لقد نالت إعجاب الضباط الذين يأتون لزيارتهم. لكن كل ما كانت تصبو إليه هو الزواج، وبناء عائلة، تعوضها الشقاء الذي تعيشه في منزل أبيها.

في أحد الأيام التقى أبوها في قاعة طعام الضباط بصديق قديم يعرفه منذ زمن بعيد، كان يحارب في الهند الصينية، وعاد لئوه من هناك محملاً بميداليات وأوسمة رفيعة. وقد ذاع صيته بالذكاء والشجاعة على جبهات القتال. لذا كان جدي يكن له التقدير والاحترام. تكريماً له دعاه لتناول الغداء في منزله، فوافق بلا تردد. أثناء تناول الطعام، كانت أمي تحتبىء خلف الستائر وتتابع بنظراتها التي تتضح بالشقاوة ما يدور في الغرفة من مباحثات وأحداث. لم يطل الوقت حتى تنبه الضيف بفطته إلى فعلتها، وإلى مكان وجودها. لكنه لم ينبس ببنت شفة أمام جدي. كان لا يزال مصعوقاً ونمت التأثير اللذيذ الذي خلفه التقاء عيني بعينيها.

لقد وقع هذا الضابط المخضرم المحنك والمتمرس أسير الحب، كان يكفي نظرة واحدة منها حتى يجزّ صريعاً في هواها. أما هي فقد أعياها وقاره وسحره وهو في بذلة العسكرية البيضاء. لم يعدل أبي عن نيته بالعودة مجدداً إلى الهند الصينية رغم محاولات جدي المتكررة لإقناعه بذلك. ولكن دفاعاته انهارت دفعة واحدة عندما رأى أمي ذلك المساء، خاصة وأنه يفكر جلياً بالزواج والاستقرار. وصار كل هم هو كيف يفوز بها. ولأنه لا يحتمل الانتظار طويلاً، عاد إلى منزل جدي بعد عدة أيام فقط لطلب يدها، وهو يكبرها بعشرين عاماً!

ذهل جدي من شدة المفاجأة. إنها ما زالت صغيرة! كيف يمكنه تزويجها وهي بعد في الخامسة عشرة من عمرها؟ فهو لم يشف بعد من عقلة الذنب التي يشعر بها منذ وفاة زوجته يميني التي كان يحبها كثيراً. إنه يعتقد أنها راحت ضحية الزواج المبكر والحمل المتقارب والمتلاحق. أصرت أمي على القبول، تريد أن تترك المنزل بأي ثمن. إنها فرصة العمر للتخلص مما تتخبط فيه، وتخاف أن تضيع منها. أمام إلحاحها لم يكن أمام جدي إلا الموافقة على عقد قرانها.

لم تكن أمي تعرف أبي جيداً، صحيح أنه أصبح زوجها الشرعي، ولكنه ما زال مجهولاً بالنسبة لها. مع الأيام كانت تقترب منه أكثر فأكثر. إنه لطيف معها، يحبها، ولا يمل أبداً من مغازلتها والتودد إليها، ما أدى بعد فترة قصيرة إلى وقوعها هي أيضاً في حبه.

ينحدر محمد أوفقي من بربر أعالي الأطلس المغربي. وقد ولد في عين شعير الواقعة في منطقة تافيلالت. أما كلمة «أوفقي» فتعني بالعامية المغربية الفقير، وقد اشتهرت عائلته باسم أوفقي لأنها كانت تعطف على الفقراء والمحتاجين، وكانت تجهز المأدب للسائلين، وما كان أكثرهم في تلك المناطق الصحراوية القاحلة. كان محمد في السابعة من عمره عندما توفي أبوه، أحمد أوفقي، الذي كان زعيم القبيلة، وباشا منطقة بودنيب. عاش محمد طفولة حزينة ومعقدة. تلقى علومه في إعدادية أزرو الخاصة بالبربر، القريبة من مدينة مكناس. ولأن العمل العسكري كان تقليداً سائداً في العائلة، التحق محمد بالمدرسة الحربية في الدار البيضاء، وتخرج منها برتبة ملازم أول وله من العمر واحد وعشرون عاماً. بعدما انخرط في جيش الاحتلال الفرنسي. جرح في إيطاليا، ونقل إلى فرنسا للاستشفاء ولقضاء فترة النقاهة. ثم رُقي إلى رتبة كابتن في الهند الصينية. وعندما التقى أمي كان برتبة مساعد للجنرال دوقال قائد القوات الفرنسية في المغرب.

كان أبي يتبع نمطاً قاسياً، من موقع إلى موقع ومن معسكر إلى آخر. لم يعرف طعم الرخاء والراحة أبداً منذ كان صغيراً. وفي أوقات الفراغ كان يلجأ إلى الأندية، والمواخير، وصالات اللعب وطاولات البليارد. لم يكتشف مدى توفقه الدفين للاستقرار إلا عندما وقعت عيناه على فاطمة التي استطاعت، ببراعتها وورقتها، أن تنسبه كل همومه وتعبه، وتعويضه يتمه وحرمانه.

تزوج محمد أوفقيير وفاطمة الشتا في ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٥٢. وأقاما يومها في منزل بسيط ومتواضع قياساً إلى مركزه الاجتماعي ورتبته العسكرية. تعلمت أمي من أبي أشياء لا تعد ولا تحصى. كانت صغيرة السن، لا خبرة لها بعد بأداب السلوك ولا بالعلاقات الاجتماعية. تعلمت منه كيف تختار ملابسها، وكيف تجلس على طاولة الطعام، وكيف تتحدث مع الناس وتتعاظم معهم. بسرعة قياسية أتقنت دورها الجديد، ولم يعد ثوب زوجة الضابط فضفاضاً عليها، بل مفصلاً على قياسها وعلى أفضل ما يكون. كان الزوجان في قمة السعادة، ينهلان من معين الحب بدون توقف. اكتملت فرحتها عندما اكتشفت أمي أنها حامل، وهي التي كانت تحلم دائماً بأن تصبح أما لثانية أطفال.

ولدت أمي في ٢ نيسان/أبريل ١٩٥٣ في دار توليد تديرها راهبات. استقبل أبي خروجي للنور بحفاوة بالغة. كان فخوراً أبي جداً، فلم يزعمه أن يكون مولوده الأول أنثى - كان يرغب مثل أمي بتأسيس عائلة، ولكنه لم يكن متفقاً معها حول العدد. بالنسبة له ثلاثة أبناء عدد كافٍ ووافٍ بخلاف ما تراه زوجته. بعد مضي سنتين على ولادتي كزّت السبعة، ولدت مريم، وبعد ثلاث سنوات تلاها أخي رؤوف، ولي العهد، ولأنه أول صبي في العائلة، حظي يومها بحفل مهيب أقيم على شرفه.

ذكريات طفولتي الباكورة تفيض بالحناء والسعادة. لقد أحاطني أبواي بهالة من الحب والرعاية. وكان بيتنا يرفل بالطمأنينة والسكينة ويسبح في الأمن والسلام.

كان أبي يتغيب كثيراً عن البيت، ويعود غالباً في ساعة متأخرة من الليل. لقد كان منشغلاً ببناء مستقبله المهني الذي كان يسير على قدم وساق، بشكل واضح وسريع. لم أشك قط بمدى الحب الذي يكنه لي. عندما يكون في المنزل لا يترك فرصة تفوته دون أن يظهر لي مدى ولعه بي ومحبتة لي. كنت متعلقة بأبي، ولا أحتمل غيابها لحظة واحدة عن عيني. كنت شديدة الحب لها والإعجاب بها، كيف لا وهي امرأة جميلة وساحرة، تفيض رقة وأنوثة. كان يكفيني لأبلغ ذروة الغبطة والفرح أن أستنشق رائحتها، وألامس بشرتها. كنت أتمسك دائماً بذيل ثوبها وأتبعها كظلها. منذ عمر الستة أشهر كانت

تحمليني في قفة، وتصطحبني معها أينما ذهبت. كانت من عشاق السينما وكان يصل بها الأمر أن تذهب لحضور الأفلام عدة مرات في اليوم وأنا برفقتها. لذا، لا عجب أن أصبح فيما بعد من عشاق الفن السابع.

كانت تطلب من مزين الشعر أن يشرح لي شعري على شكل صفائر، تماماً مثل مكارليت أو هارا بطلة قصة ذهب مع الريح. ولكن سرعان ما يذهب كل الجهد الذي بذله المزين هباءً منثوراً. فنسمة الهواء الخفيفة تكفيه ليعود إلى طبيعته منسداً كالسابق.

كنت رفيقتها الدائمة في كل تحركاتها وغدواتها، في زيارة أصدقائها، وأثناء التسوق، وركوب الخيل، وحمام السباحة، حيث كنت أخرج من نزع ثيابي أمام الآخرين.

كنت أراقبها بلا كلل أو ملل وهي ترتدي ملابسها، وتتزين، وتسرح شعرها، وتكحل عينيها. كنت أرقص معها على نغمات موسيقى الروك لالفس بريلي.

وكأي طفلة مدللة، كنت ألبس كأميرة، من أفخر الملابس المتقنة من أفخم المحلات والمراكات المستوردة، مثل «بون جيني» في جنيف، و«لا شاتلين» في باريس. كنت محط أنظار أمي وأبي ومحور اهتمامها ورعايتها وكالدمية بين أيديها.

كانت أمي تحب البذخ والتبذير، بعكس أبي الذي كان يحذو سياسة الاعتدال في الإنفاق. فما كانت لتتورع عن بيع مبنى تشتري بثمنه مجموعة من أزياء ديور أو سان لوران، المصممين الفرنسيين المفضلين لديها. ولطالما أنفقت عشرين أو ثلاثين ألف فرنك فرنسي دفعة واحدة من أجل شراء بعض الحاجيات. كان المال يحرق أصابعها، لذا لم تكن تطيق الاحتفاظ به، بل تعمل على صرفه وتبذيره.

انتقلنا إلى مدينة الرباط وأقمنا في فيلا تقع في شارع الأميرات. كانت الفيلا محاطة بحديقة خلابة مزروعة بأشجار البرتقال، والحمض، والمندرين. كنت ألعب هناك مع ليل إحدى قريباتنا التي تبنتها أمي مؤخراً.

كانت تربط أسرتي بالعائلة الملكية عُرى صداقة قوية. وكان والدائي هما الوحيدين المسموح لهما بدخول القصر الملكي والتجول فيه بحرية تامة وبدون استئذان حيث نجح أبي بالفوز بثقة محمد الخامس الكاملة، لا سيما أنه كان آنذاك قائداً للحرس الملكي. كان المكان أليفاً لأمي، فهي اعتادت على ارتياده منذ كانت طفلة صغيرة عندما أقامت عند إحدى شقيقات الملك في مدينة مكناس قبل زواج

أبيها مرة ثانية. ولقد رآها محمد الخامس^(١) هناك عندما كان يأتي لزيارة شقيقته. فاستوقفه جمال الطفلة البالغة من العمر ثلثي سنوات آنذاك. وسرعان ما شعر نحوها بعاطفة وإعجاب لم ينطفى أوارهما مع مرور الوقت.

أقام محمد الخامس احتفالاً كبيراً بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على توليه العرش، دعا إليه مساعديه العاملين في الحرس الملكي مع زوجاتهم. فكانت مناسبة للالتقاء بالذقي من جديد. كان ترحيب الملك بها حاراً للغاية. كان يستقبلها بحفاوة بالغة في كل مرة تزور فيها القصر. فهو يرتاح لصحبته ويستمتع بمجالستها، ولكن من الصعب بمكان لمثل هذا الرجل الذي يقدس الأصول أن يدع نفسه يتحدث بإقامة علاقة ما مع هذه المرأة المتروجة.

من جهة ثانية، كانت أمي صديقة حميمة لزوجتي الملك اللتين كانتا تستودعاهما أسرارهما، ولا تتركان يوماً يمضي دون أن ترسلأ طلباً لاستدعائهما للمجيء بغية رؤيتهما ومجالستهما. كانت الزوجتان الملكتان لا تغادran الحريم الملكي. لذلك كانت أمي تشتري لها ما تريدان من حوائج، وملابس، وأدوات تجميل. لقد كانت هي صلة الوصل بينهما وبين العالم الخارجي. كانت الزوجتان تتنافسان بضراوة على حب الملك. كل واحدة منهما تريد أن تستميله إليها. كانتا مختلفتين إلى حد التناقض.

إحداهن تدعى للا عبلة الملقبة بالملكة الأم، أم سيدي^(٢)، لأنها أنجبت ولي العهد مولاي الحسن الثاني، والثانية تدعى للا بية وهي امرأة ذات جمال صارخ وطبيعة نزقة. إنها أم الطفلة الأثيرة لدى الملك، الأميرة الصغيرة أمينة التي ولدت في المنفى في مدغشقر. حملت بها الملكة بعدما كانت تظن أنها عاقر لا تنجب. وكم كانت فرحتها عظيمة عندما تبسم لها الحظ وحصلت المعجزة.

كانت للا عبلة امرأة عنكة وحل علم ودراية بكل ما يجري من دسائس ومكائد في القصر. فهي تحيد بمهارة فن الدبلوماسية. أما للا بية فلم تكن لتكثر بأخبار المجتمع التي تعبرها تافهة ولا تعنيها. فهي لا تطبق أبنة كل أشكال الرياء والفضاق المعمول بها بشدة في الأجواء الملكية. أما أمي فكانت ممزقة بين الاثنين، وحاولت منذ البداية إيجاد حل وسط بينهما. هناك، المرء بين نارين، ومن الصعب عليه الاحتفاظ بحياديه. يجب عليه أن يحسم خياره، ويتضم إلى أحد المعسكرين.

كان مولاي الحسن الثاني الذي ينادونه أيضاً «سمية سيدي»^(٣) يقيم في منزل مجاور لنا. لذلك

كان غالباً ما يأتي لزيارتنا. كذلك الأمر بالنسبة لأخواته الأميرات، وأخيه الأمير مولاي عبدالله. كان يطلب مني في كل مرة أن أحبيهم بمتهى التهذيب والاحترام.

في إحدى أمسيات شهر رمضان، بعد تناول الإفطار، توجهت أمي، محاطة ببعض صديقاتها، إلى غرفة الاستقبال، بانتظار أن تأتيهم مدبرة المنزل بأكواب الشاي الأخضر بالنعناع. أما أنا فقد كنت أركض طولاً وعرضاً محدثة الجلبة والضوضاء. فجأة أوصلتني قدمي إلى المر، وإذ بي أرى رجلاً غريباً يخرج من المطبخ. تجمدت في مكاني وأنا أرتجف من الخوف والارتباك. كان رجلاً وقوراً وذا هبة وجلال. ابتسم لي مطمئناً، ثم عانقني وطلب مني أن أذهب لأخبر أمي أنه يرغب برؤيتها. ما إن أبلغت أمي الرسالة حتى هبت على الفور، لترى ما الأمر! وعندما وقعت عينها عليه انحنت أمامه مظهرة له كل أمارات الطاعة والامتثال.

هذا الرجل الغريب لم يكن إلا الملك محمد الخامس الذي مر لزيارتها بدون سابق إنذار، كما كان من عادته أن يفعل أحياناً. أخبرها أنه دخل المطبخ لأنه اشتم رائحة حريق يتصاعد منه. وكان الملك صادقاً، لأن الطباخة نسبت لإريق الشاي فوق النار المشتعلة. فلم ينبج الإبريق من الزويان لكن جلالة الملك أنقطننا من حريق مؤكد.

عندما وطئت قدمي القصر الملكي أول مرة كان لي من العمر خمس سنوات. اصطحبتني أمي معها نزولاً عند رغبة الملكتين وحاشيتهما؛ فقد أردن رؤيتي والتعرف علي، لهذه الغاية دعينا أنا وأمي إلى تناول طعام الغداء على المائدة الملكية. عندما وصلنا أدخلنا مباشرة إلى قاعة الطعام الخاصة بالملك.

كان المكان ينصّب سكان القصر وضيوفهم، ويبدو كلوحة بدیعة تتداخل فيها الألوان والأشكال. القاعة فسيحة وشاسعة، لم أر بمثل اتساعها من قبل، تزينها شرفات في غاية الفخامة، والجدران مغطاة بأروع الفسيفساء. أما العرش الملكي الذي يبعث الرعدة في الأوصال فكان يتربع في أقصى القاعة فوق منصة مرتفعة عن الأرض. لفت انتباهي في إحدى الزوايا أكوام الهدايا التي تجمعت على شكل جبل شاهق. كانت قد أحضرت للملك لتهنته ببعض المناسبات كالأعياد، والاحتفالات، والزيارات الرسمية.

المائدة الخاصة بالملك معدة على الطريقة الغربية، بصحون بورسلين وأكواب الكريستال، وأوانٍ

فضية ومذهبة. تحت قدمي الملك تفرش الجوارى الأرض المغطاة بسجادة بنية، مع أن طاولته المستطيلة تتسع لأكثر من ثمانية أشخاص.

الملكة الأم ترثس الطاولة الأقرب إلى الملك، تحيط بها وصفاتها وهن في غاية الأناقة والزينة. أمام جمع كهذا، لم يكن بوسعي إلا التمسك بقفطان أُمي لأداري قلقي وخجلي. فجأة... وإذا بهممة تسري في القاعة، وتعلو جلبة من البهجة والفرح. وباهتمام واضح تقف النسوة على ما يبدو لاستقبال شخص ما، لم أتمكن من رؤيته من المكان الذي أقف فيه. وبعدما هذا الجميع وعادوا إلى أماكنهم اتضح المشهد أمامي، ترى من هي هذه الطفلة الصغيرة التي لاقت كل هذه الحفاوة والتكريم؟

كانت ترتدي ثوباً أبيض تزين ظهره شريطة تنتهي على شكل فراشة كبيرة. ينسدل شعرها المصفر على الطريقة الإنكليزية. بشرتها نقية كالخليب، يغطيها بعض النمش الذي يزيدها مسحراً وألقاً. يفرحني أن ألتقي بعد كل هذا العناء فتاة من عمري. ولكن من هي؟ بعدما نفذ صبري من كثرة الأسئلة التي لا أملك أجوبة لها، اقتربوا نحوي، وإذ بهم يبرونني إلى حيث تقف الفتاة قائلين لي: مليكة، هذه الأميرة الصغيرة، لا مينا، حبيبة قلب الملك وزوجته اللاهية. ودون أن أنطق بأي كلمة تعانقتا بارتباك وخجل. ما علمت لاحقاً أن اسمها أمينة ولكنهم ينادونها، للتجيب، لا مينا.

من جديد، تعلو الجلبة والمهممة، إنه الملك محمد الخامس، الذي يصل على حين غرة. قدّم الجميع التحية للملك، وعندما حان دور أُمي لثمت يده، وقدمتني له، أخفني بين ذراعيه، وتمتم في أذني ببعض الكلمات اللطيفة، لم أسمعها جيداً من شدة الخجل الذي اعتراني.

أعطى الملك الإذن بيده الطعام، فأخذ الجميع أماكنهم حول الطاولات. وجلس الملك بمفرده على طاولته. ثم شرع العبيد في تقديم الوجبة العامرة بكل ما لذ وطاب.

ما إن تناولنا قليلاً من الطعام حتى انسحبت للعب برفقة لا مينا. في البداية كنا على انسجام تام، لا شيء يعكر صفونا. لكن للأسف لم يدم الوثام طويلاً لأنني سرعان ما تلقيت عضة في ذراعي من لا مينا. فدفعتها بقوة عني، وركضت كالمجنونة أبحث عن أُمي وأنا أنشج.

أخرج الأمر أُمي، فأمرتني أن أهدأ، وأن أكف عن الصراخ على الفور. لم يسبق لأُمي أن عاملتني بقسوة، ولم أفهم ما الذنب الذي اقترفته حتى تسببت لها بكل هذا الإزعاج. ردة فعلها هذه أثارت

غضبي وحنفي، فهجمتُ على لامي، لأنتم لنفسي، فرددتُ لها العضة على خدّها.
صرخت بشكل هستيري، وارتمت أرضاً تتلوى كحمل ذبيح. ماجمل الكل يهرعون ويقفون
لمعرفة ما أصابها، وللطمئنان عن أحوالها. شعرت برعب قاتل، نظرات الشرر مصوبة إليّ من الجميع.
لا ريب أنهم سينالون عليّ بالضرب كرمي لعيني لامي. ارتعدت فرائصي مما يحصل حولي، فاندفعت
أختي بين ذراعي أمي.

اقترب الملك، أخذني بين ذراعيه، وطلب مني أن أبرره له فعلتي. قلت له وأنا أتحب:
- شتمت أبي، فشتمت أباها، وعصتني في ذراعي فعضضت خدّها.
استهجت الحاشية قلة تهليبي ووقاحتي، غير أن ذلك أثار الملك الذي بدا مستمتعاً ومثاقلاً
بهذه التسلية. فرددت على مسمعه الشتائم التي تناولت بها والد لامي عدة مرات وذلك بناء على
طلبه.

خلال ما تبقى من وقت، جلست كل واحدة منّا بعيدة عن الأخرى. كنا نتبادل نظرات اتهام مليئة
بالتحدي.

قبيل مغادرة القصر، اقترب محمد الخامس من أمي قائلاً لها:
- فاطمة، حباً أنك لن ترفض ما سأطلبه منك، لقد قررت أن أتبنى مليكة. إنني لن أجد لابتي
رفيقة أفضل منها. أهدك أن أسمح لك بالمجيء لرؤيتها ساعة تشافين.
عادة التبني التي كانت سائدة في القصر كانت تسري على الأطفال الفقراء والأيتام. حتى إن
معظم وصيفات القصر تم تبنيهن عندما كن صغيرات، كان من النادر، بل والمستحيل تبني فتاة بمثل
وضعي. كنت لا أخلف منزلة عن أي أميرة.

تلك الكلمات غيرت مجرى حياتي التي أدخلت فجأة في نفق لا نهاية له. ما زال ظل ذلك الكابوس
غيباً على ذاكرتي، وما إن أستعيده حتى تسري في أوصالي الرجفة. حقاً، كنت ضحية عملية قرصة
واختطاف.

كيف أنسى الطريقة الفظيعة التي اقتادوني بها من منزلنا، ووضعوني داخل سيارة انطلقت بي إلى
فيلا ياسمينة، مقر لامي ومريبتها جان ريفل. عندما انتزعوني من حضن أمي، جرّوني للأبد من
الطمأنينة والسكينة، وهجروا طفولتي، وأطفأوا في عيني بريق البهجة والفرح. قاومت بكل ما أوتيت

من قوة، بكل ما تبقى لدي من أسلحة طفولتي المقتنصة والمقهورة: بكيت... صرخت... ركلت... رجوت... ناديت أمي بحرقة... لكنها كانت أبعد من أن تسمعي. لقد أقفلت عليّ المربية داخل غرفة الضيوف بالفتح. وتركتني أنوح وأبكي طوال الليل دون أن يرف لها جفن.

هل بكيت أمي حتى طلوع الفجر كما فعلت أنا؟ هل تجرأت على دخول غرفتي ورؤية ملايبي وأشياي؟ هل ارتحت على فراشي باكية، تبّت وسادتي حزنها ولوعتها؟ لم أجرؤ أبداً على توجيه هذه الأسئلة لأمي، لقد احتفظت دائماً بهذه المواجهات لنفسي.

مع مرور الوقت، أصبح هذا الانسلاخ أمراً واقعاً. تقبلته رغباً عني واللوعة تغمر قلبي. وماذا عساي أفعل؟ هل من أحد يقيم وزناً لرغبتى ومشاعري؟ ومن تراه يهتم إذا كنت قد عانيت كثيراً لابتعادي عن أمي؟ ومتى كنا لا نتحني أمام رغبات الملوك ونزواتهم؟! أليست رغباتهم أوامر ونزواتهم مقدسات؟!

أحب أمي التي لم يعد يربطني بها سوى بعض الزيارات القليلة التي لم تكن تشفي غليلي، بل كانت تؤجج لوعتي، وتزيد حسرتي. كانت تصل عند الواحدة ظهراً وتغادر في الثانية. بالكاد تمكث ساعة واحدة. كانت تستعجل الرحيل، كأنها تهرب من أمر ما كان يزعجها ويحزنها. ربما كانت رؤيتي تنكأ جرحاً لم يندمل بعد. ترى هل كان حال أمي ليس أقل سوءاً من حالي، وأن كل ما تظهره من تماسك ولا مبالاة ما هو إلا قناع مزيف ليس إلا؟!

عندما كانت المربية تزف لي نبأ قدومها، كانت تعتريني فرحة غامرة مشوبة أيضاً بالحزن والألم. كنت أصاب بالأرق في الليلة التي تسبق موعد زيارتها. وتسيطر عليّ حالة من الترقب والانتظار، كان من الصعب عليّ التخلص منها. غداً ستأتي أمي لزيارتي، إنه حدث بالنسبة لي غير عادي. كانت الساعات تمر ببطء شديداً في قاعة التدريس، وأنا في عالم بعيد عن كل ما يدور حولي. أحاني صعوبة بالغة في التركيز والاستيعاب، لأن ذهني مشغول بعد الثواني واللحظات، وكم كان يأمني كبيراً عندما كان يتهيا لي أن عقارب الساعة توقفت عن الدوران. لذلك، ما إن تأذن المدرسة لنا بالمغادرة، حتى أعدو كالمجنونة باتجاه السلام المؤدية إلى غرفة الاستقبال، وعشرات الصور والأفكار تعصف برأسي. وما إن أصل إلى البهو حتى كنت أتمجد في مكاني، يحتاجني خدر اللذيق إنه عطرها، أجل عطر «سأعود» المفضل لديها، بسهولة أستطيع أن أميزه من بين آلاف العطور. إذ لطالما كانت رائحة أمي

تبعث في نفسي الغبطة والسرور، وتسكن روحي.

أريد أن أنعم بهذا العبق، إنه ملكي، لا أريد أن يشاركني به أحد. ألمح سترتها المعلقة فوق المشجب، وكالمسحورة أندفع لأدفن في طياتها وجهي. أريد أن أختزن أكبر قدر ممكن من رائحتها لأعوض ما فاتني منها طوال فترة ابتعادها عني.

أدخل أخيراً إلى غرفة الاستقبال، هذه أمي الحبيبة تجلس على الكنب، الفرحة والحزن يعقدان لساني، فأطلع إليها كغريق يتطلع صوب طوق نجاة. لماذا تستقبلني بكل هذا الهدوء؟ ألا يجدر بنا أن نفجر بالبكاء والنحيب وأن نتشي بالشم والعناق؟ هذا البرود الذي يبدو عليها سرعان ما يتسرب إليّ فيخمد كل بركان الحب والاشتياق الذي يتأجج في أعماقي. أستنفر كل رباطة جأشي لأجاريها في تماسكها ولا بالاتها. أطبع على خدما قبلة مئة لا حياة فيها.

هل حقاً أن أمي لا تباطني هذا الحب المستمر الذي أكنه لها؟ لماذا تبدو لي قاسية وخالية من أي عاطفة في كل مرة تأتي فيها لزيارتي؟ هل كانت تريد معاقبتي بهذا أم معاقبة نفسها؟ تبالهذه المربية المزعجة التي تأتي كل بضعة دقائق لتقطع خلوتي. ما لها ولنا، فلتدعني بسلام أكحل عيني بوجه أمي، وألثم يدها وأتمس بشرتها... أريد أن أروي ظمائي من معين عطفها وحنانها. ولكن ما كل ما نتمناه ندره... الملك وحده يدرك ما يتمناه. كنت فخورة بجهازي وأناقتها، وسحرها. وعندما كانت للامينا تبدي إعجابها بها سرعان ما تغمرني سعادة عارمة.

أثناء تناول الطعام الذي يسبق رحيل أمي، كانت المربية لا تكف عن تعكير صفونا بأحاديثها المملة التي لا تنتهي. فكانت ثمرتها تستأثر باهتمام أمي. بإذعان، كنت أكتفي بمراقبة حركات أمي ومسكناتها. كنت أريد أن أطبع صورتها إلى الأبد في روحي وعقلي، حتى إذا ما خلدت إلى النوم في غرفتي وحدي، أشعر أنها معي تهدهدني وتبدد وحشتي.

ومع الأيام، راحت زياراتها تتباعد شيئاً فشيئاً، ورحت أشعر أنني أزداد انسلاخاً وابتعاداً عنها. انتقلت للإقامة في قصر الرباط. عشت ما تبقى من حياتي في عزلة تامة. الحدود التي كانت مرسومة لتحركاتنا وتقلاتنا هي بعض القصور الملكية التي كنا نذهب إليها لقضاء العطل والإجازات.

أعيش في برج مصنوع من العاج لا يمتد إلى الواقع بصلة، غارقة أنا في بحر من الأبهة والفخامة، ولا أحتك بتاتاً بالناس العاديين، ولا أعرف أي شيء عن أعرافهم وعاداتهم، وحياتهم اليومية.

أنظر إلى العالم من خلال زجاج السيارات الفاخرة التي كانت تقلنا من قصر إلى آخر. لم أكن أعرف من أنا، ومن أكون، ولأي زمان ومكان أنتمي؟ كنت أشعر بغربة دائمة تختفي وتحوّل حياتي إلى جحيم لا يطاق. كنت بحاجة لأكثر من أحد عشر عاماً لأتخلص من كل هذه الكوابيس التي ما انفكت تطاردني. نعم لم يكن الفكاك منها بالأمر السهل واليسير. لقد بدأت، في سن متأخرة جداً، أتعلم كيف أعيش على أرض الواقع القاتم، وأصبح امرأة عادية مثل سائر النساء.

قصر سيدي^(١) (١٩٥٨ - ١٩٦٩)

عهد محمد الخامس

لم يشأ محمد الخامس أن تشأ ابنته المفضلة في أجواء القصر الخائفة. لذا أمر بتجهيز فيلا ياسينة لتقيم فيها. هناك كل شيء مصمم بشكل رائع وبمتهى الفخامة والكمال: الأبهة، الجمال، الدعة والهدوء، كل ما تحلم به تجده مثلاً بين يديك. الحلم هناك يصبح حقيقة وكأنك تعيش في بلاد العجائب، أو إحدى قصص الخيال. في تلك الأجواء السحرية الفاخرة تعلمت كيف أصبح أميرة.

هذا البيت الأبيض الكبير، بمساحاته الشاسعة، يبعد عن القصر الملكي مسافة عشر دقائق، ما إن تجتاز السيارة البوابة الرئيسية حتى تصل عبر نمر صغير إلى المبنى الذي تحتل فيه للامينا ومريبتها جان ريفل الطابق الأول المؤلف من مطبخ، وصالون يتصنّفه ببيانو، وغرفة طعام، وغرفة جلوس، وغرفة ضيوف، وحمامات، وغرفة نوم للامينا التي تتصل بباب داخلي بغرفة نوم مريبتها. تصميم البيت حديث، وأثاثه عصري ومريح للغاية: السجاد الوثير، الستائر، المقاعد والأسرة، كل ما تقع عليه عينك يدل على ذوق رفيع وأناقة عالية.

وفي الطابق الأرضي قاعة مترامية الأطراف مخصصة للعب، تمتلئ بكل ما يجوّه النفس من ألعاب مختلفة: دراجات، سيارات صغيرة، بلياردو، عدة تنكر، وعرائس بكل ملابسها ولوازمها، بالإضافة إلى صالة عرض سينمائية مخصصة فقط لاستعمالنا الشخصي.

الحديقة الخلابة التي تسر الناظرين تزدهن بكل ما يخطر على البال من أنواع الورد والأزهار: الياسمين، الخزامى، الجوري، الكاميليا، زهر العسل، زهر الوهلية، وغيرها. إنها تزهر البيت بحزام مزركش بشتى الأشكال والألوان، وتحفّ بالممرات أشجار المندرين والليمون والحامض والتخيل.

لإدخال السرور على قلب الأميرة وتسليتها، أمر الملك بتشييد مدينة ملاه صغيرة في إحدى زوايا الحديقة تحتوي على الأراجيح والألعاب وعدة حليات للتسلق والتزحلق.

وإكراماً لعميوان الأميرة التي تعشق الحيوانات، أقيمت حديقة حيوانات صغيرة خلف المنزل مجهزة بالإسطبلات، والمرابط، وتحتوي على حمام وخراف وماعز وقرود، بالإضافة إلى سجناب تم إحضاره من إيطاليا في إحدى الرحلات.

خلف المنزل أيضاً بستان كبير زرع بعشرات الأنواع من الأشجار المثمرة، ومدرسة ابتدائية خاصة بالأميرة وبين معها تديرها مدام هيغون، وتدرّس فيها الأنسة كابل التي تربطني بها ذكريات تركت في نفسي أشد الأثر.

عندما أحضرت إلى فيلا ياسمينة، وضعت في غرفة الضيوف القريبة من غرفة لامي ومربيها، بقيت على هذا الوضع حتى مجيء رشيدة وفوزية اللتين وقع الاختيار عليهما من بين الطالبات المتفوقات في كل أنحاء المملكة، ليتسنى لهما متابعة دراستهما جنباً إلى جنب مع الأميرة. إنها من عامة الشعب، وتتبعان إلى عائلتين فقيرتين ومتواضعتين، انتقلت للإقامة معها في المبنى الذي شيد لهما في الحديقة خلف المنزل، بالقرب من حديقة الحيوانات. تقاسمت إحدى الغرف مع رشيدة وكان أجل ما فيها سقفها المصنوع من زجاج، كنا نرى من خلاله السماء.

كان البرنامج اليومي الذي أعد لنا ثابتاً لم يتغير أو يتعدل لا في عهد محمد الخامس ولا فيما بعد في عهد ولده الحسن الثاني^(١). كل صباح يأتي الملك لإيقاظنا عند السادسة والنصف. يصل إلى غرفة لامي أولاً ثم ينتقل بعدها إلى غرفتي حيث يقوم بملاعبتي، يسحب الغطاء عني... يدغدغ قدمي... يسحبني بيها باتجاهه.

منذ البداية لم يميز في المعاملة بيني وبين أخته، كان يحاول دائماً أن يظهر لنا نفس الاهتمام والعاطفة، فقط حينها تكشفان مدى حبه العميق لأخته التي، وحدها، تترجع على عرش قلبه. كان يتردد علينا بشكل دائم ومنتظم، يتناول معنا فطور الصباح، ويتنظر برفقتنا حتى لحظة دخولنا إلى الصف. وغالباً ما كان يعود في الحادية عشرة والنصف لمشاركتنا درس اللغة العربية. تتناول طعام الغداء بمفردنا تحت رحمة وإشراف المربية الإلزامية التي شهد لها عمدة باريس بالكفاءة، بعدما كانت قد أشرفت على تربية أولاده. ويفل امرأة عازبة ومتسلطة، لا شك أنها كانت جميلة في مطلع صباها، حينها زرقاوان

كبيرتان، ورأسها الجميل مكسو بشعر رمادي اللون. إنها ليست شريرة، ولكنها جاهلة بأبسط مبادئ علم النفس والتربية. لا تستخدم إلا العصا في التعامل معنا، وتؤمن بأن العقاب والقسوة وتنقيص العيش أفضل وسيلة للتربية السليمة، وما زالت ترن بأذني حتى الآن جملتها: «الإنسان بهذيبه وتربيته لا يعلمه وثقافته».

كانت لا تملّ من تكرار هذه المعزوفة عشرات المرات في النهار بلهجة حادة تخدش الأسماع. لذلك كانت هنالك حرب طاحنة بينها وبين مديرة المدرسة السيدة هيغون التي كانت تحبنا باستمرار على الاجتهاد والنجاح في برنامجنا الدراسي قبل أي شيء آخر.

كان محمد الخامس ملكاً صارماً، لا يسمح بأي تجاوز من شأنه أن يخلّ بالأداب العامة. كان رجلاً تقياً ورعاً. والشعب المغربي يعتبره رمزاً للوقار والاهتمام. كان كل يوم جمعة يخرج ظهراً من بوابة القصر الرئيسية متطياً جواده باتجاه المسجد المجاور، مرتدياً جلباباً أبيض، وعلى رأسه شاشية حمراء، يحيط به العبيد من كل صوب يظللونهم بمظلة كبيرة تقيه من لظى الشمس الحارقة. يجتاز الملك باحة القصر على أنغام الموسيقى التي تعزفها فرقة تابعة للحرس الملكي، وعلى وقع حوافر الخيول التي تنهادر بقوائمها الرشيقة. يخترق موكب الملك الحشود المتجمهرة على جانبي الطريق المؤدية إلى المسجد، وما إن يلمحونه حتى تتعالى هتافاتهم: «عاش الملك».

كان حب الناس لجلالة الملك وإخلاصهم له لا حدود لهما، لدرجة أنهم كانوا يتسابقون ويتنافسون، ويرتمون أرضاً لالتقاط القليل من روث خيله للتبرك به. أما نحن فغالباً ما كانت تقلنا سيارة للانضمام إلى جموع المهللين.

وما إن نراه حتى نبدأ بالهتاف والتصفيق بحماس شديد. كان منظره مهيباً وهو على صهوة جواده. إنه مشهد أخاذ يبقى محفوراً في الذهن إلى الأبد، ولا يمكن أن يتمحي أبداً. بعد انتهاء صلاة الجمعة كان الملك يعود إلى القصر في عربة خاصة. في عهده ساد جو من الأمن والسلام والوثام، ولم يكن هنالك أي أثر للمشادات والتراعات والخصومات. كنا نجول البلاد بطولها وعرضها لقضاء الإجازات، من القصور الملكية في فاس، وإفران الواقعة في سفوح الأطلس، إلى الوليدية المطلّة على ساحل البحر. أما لعبة الملك المفضّلة فكانت لعبة البتّك وهي لعبة فرنسية شعبية قوامها التباري في قذف كرات معدنية، يمارسها الملك مع سائقه، ومرافق دائم له، بلغ به الوفاء والإخلاص إلى حدّ اللحاق بالملك

إلى مغاه في مدغشقر، وهجر مهنته كمصمم ديكور. بعد انتهاء دوام المدرسة، كنا نذهب أنا وللا مينا لمشاهدة الملك الذي يخوض مباراة البثك لتشجيعه وتحميه.

كانت للا مينا طفلة مدللة جداً في حياة أبيها. فكان رؤساء العالم قاطبة يخطبون ودعما بكميات لا تعد ولا تحصى من الهدايا التي يتم تكديسها في صالات اللعب. ففي عيد الميلاد المجيد فقط تلقت عدداً هائلاً من الألعاب للدرجة أن المربية صادرتها جميعها لتوزعها على الفقراء والمحتاجين.

وقد صممت شركة والت ديزني سيارة أميركية خصيصاً لها، مزينة بصور رسوماتها المتحركة الشهيرة، بالإضافة أيضاً إلى تصميم بيت للألعاب مجهز بأثاث كامل ومطبخ. ولا عجب، إذ إنها كانت محط أنظار المجلات العالية التي كانت تغطي أخبار الأميرة الصغيرة يوماً بيوم وأولاً بأول. وصورها كانت عملاً صفحاتها وتستقطب اهتمام قرائها.

توفي محمد الخامس فجأة عن عمر يناهز الثانية والخمسين، أثناء عملية جراحية بسيطة كانت تجري له. ما زلت أذكر بدقة تلك الواقعة، مع أنني كنت آنذاك في الثامنة من عمري. وكيف يمكنني أن أنسى مراسم الحداد الملكية ولوعة الأميرة الصغيرة التي وجدتها يوم وفاته تتحب باكياً، وهي تتلوى من الحزن وسط أزهار الحديقة. أفجعني مصابها ومنظرها، اندفعت إليها لأضمها بين ذراعي بلهفة وحنان دون أن أجرو على التفوه بأي كلمة.

لقد أحيت محمد الخامس لأنه كان عادلاً وطيباً معي، وكلما انتابني شعور بأن أبي سيموت يوماً ما سرت الرغبة في أوصالي وانقبض قلبي. هذه الفجعية التي حلت مع فقدان الملك أصابتني في الصميم، ألم أكن بمثابة شقيقة للأميرة؟ ألم أشاركها دائماً في أفراحها وأتراحها؟

لا تتوقف مسيرة الحياة عن الدوران، مات الملك، عاش الملك، مات محمد الخامس، فعاش ولده الحسن الثاني. هذا الأمر بدا لي غريباً ومتناقضاً للوهلة الأولى، فلم أستوعب ما يحصل أمام ناظري. إذ كيف يمكن أن يجتمع الحزن والفرح، الموت والحياة، مراسم الحداد والتشجيع؟ كنت صغيرة السن، ولست متمرسة بعد في العادات والتقاليد الملكية التي كانت تحفل بأشياء غريبة ومتناقضة. ففي الوقت الذي كان يجيم فيه الحزن على جزء من القصر، ويتشح الجميع باللون الأبيض، لون الحداد، ويستحي محمد الخامس في نمش في إحدى غرف القصر، كانت تتعالى في غرفة مجاورة أهاليج الابتهاج التي رافقت انتقال السلطة إلى الحسن الثاني الذي أصبح، بوفاة أبيه، الملك الجديد.

أما وضعي أنا فلم يتغير، ومن الذي يملك الحق في تحديد مصيري إلا الملك؟ كان كل هم أمي أن تستعديني، لكنها كانت خائفة من ردود فعل القصر على هذه الخطوة. ربما سيمتد هذا عدم تقدير لشخص الملك الحالي، وقلة أكتراث بمشاعر الأميرة التي تمر بظروف مأساوية، وهل سيطوعها قلبها على حرمانها من رفيقتها التي تشد أزرها وتسليها عن همومها؟ أما أبي فقد كان يتحاشى أي خطوة قد تؤثر على موقعه السياسي الذي كان يسير باضطراب من عالٍ إلى أعلى. وهكذا بقيت عدة سنوات على هذا المتوال حتى تمكنت أخيراً من حسم الأمور بنفسي، وأعلنت للملأ رغبتني بالعودة إلى بيتي الذي هجرته وأنا في الرابعة من عمري.

تربية الأميرة

قبيل وفاة محمد الخامس وعده ولده الحسن بأن يحسن معاملة للا مينا فيما لو غيى الموت، وبالفعل هذا ما حصل، لقد التزم بالمعهد الذي قطعته على نفسه، وأحاط شقيقته بالناية الكاملة، فلم يتغير نمط حياتها عن السابق، بل استمر كما كان، باستثناء بعض التفصيلات الصغيرة، فلم يعد يأتي في الصباح الباكر لإيقاظنا، ولا يشاركنا الفطور، ولا يحضر معنا بعض الدروس كدأب أبيه. إلا أنه لم يمتنع قط عن حضور حفلة نهاية العام الدراسي التي كانت توزع علينا فيها الشهادات والجوائز، ويتخللها أداء بعض الرقصات والأغاني، وإنشاد بعض القصائد وتلاوة الآيات القرآنية، كما كنا نقدم خلالها بعض المسرحيات باللغتين العربية والفرنسية. حيث يجلس الملك في الصف الأمامي تحيط به جواريه وبعض وزراء البلاط، وعدد من أفراد حاشيته.

هذه المناسبة كانت مقدسة بالنسبة للملك لسببين، الأول احترامه لذكرى أبيه، والثاني حبه وتعلقه بأخته الصغيرة التي أوصاه بها محمد الخامس خيراً. ولعل مرد ذلك أن الحسن الثاني لم يكن قد رزق بعد بأي مولود، مما دفعه إلى إغداق كل عاطفة أبوية لديه علي وعلى للا مينا.

بعد انتهاء الحفلة، كان جلالتة يصطحبنا في سيارته إلى القصر الملكي. كنا نراقبه في معظم غدواته، لركوب الخيل، ولعب الغولف، وكرة المضرب، والرحلات إلى خارج البلاد لقضاء الإجازات. كنا مثل ظله ومن أشد المتحمسات له والمشجعات أثناء المباريات الرياضية. لم تكن، للا مينا وأنا، نحفل بأي رسميات أو بروتوكول، كنا في الثامنة من عمرنا ننضح بالشفافة ونلث وراء المرح واللهم،

والضحك، والعبث.

كما كنا في الماضي، تابعتا حياتنا على نفس المنوال: نستيقظ في السادسة والنصف صباحاً، نغتسل، نرتدي ثيابنا، نوضّب أسرّتنا، نرتب غرفنا ونلتمّع أحفيتنا. تداهنا المربية على حين غفلة لتأكد بنفسها من أننا قمنا بواجباتنا على خير ما يرام. أساتلتنا لا نظير لهم في كل المملكة، إنهم الأكثر كفاءة ومهارة. كان من بينهم وزراء في الحكومة. عندما أصبحنا في الصف السادس انتقلنا من مدرسة فيلا ياسمينية إلى أخرى تقع في حرم القصر الملكي. كل صباح تقلنا السيارة بمواكبة أمنية وحراسة مشددة. لاحقاً، انقسم إلينا ست طالبات جديداً، تم اختيارهن من بين مجموعة من الطلبة المتفوقين من كل أنحاء المملكة. أما المواد فكانت تدرس باللغة العربية والفرنسية وفيها بعد بالإنكليزية، وتشمل التاريخ، والقواعد والأدب والرياضيات والدين، فمنذ عهد محمد الخامس اتبع عُرْف يقضي بتعليم الأميرات حتى مرحلة البكالوريا، ومن بين اللواتي لمن واشتهرن بحلة الذكاء الأميرة عائشة شقيقة الملك، ما دفعه إلى تعيينها سفيرة للمغرب في لندن وروما.

كنت تلميذة متمرّدة، طائشة وفوضوية، أعشق تدبير المقالب لأساتذتي، وكان هذا المسلك يؤثر سلباً على علاماتي، وعلى سجل الملاحظات الذي كان يحفل بكل التوبيخات والتوبيخات. في إحدى المرات، وقع اختياري على أستاذ الدين الذي تتلمذ على يديه أيضاً الحسن الثاني. كان عجوزاً، يحيط نفسه بهالة من العظمة، ويفرض علينا، في كل مرة يدخل فيها الصف، أن نهرع لتقبيل يده احتراماً له. لقد أوكل إليّ مهمة سحب عباءته عن كتفيه وتعليقها على مشجب موجود في آخر القاعة ما إن أراه يطل من الباب.

كنت أحب اللغة العربية الفصحى، وكانت هذه المادة من المواد المفضلة لدي، كما أحييت الخط العربي الذي تشبه كتابته لوحة مرسومة. لذلك كنت أستمع جداً بسماعه وهو يرتل سور القرآن بصوته الرخيم الأسر. هذا الرجل الضخم الروع كان يعتقد بالأرواح. كان يؤمن بشدة أن الجن يعيشون بيتاً ليلاً نهاراً. أما أنا فكانت لا أؤمن بأي قوة غير طبيعية. أغاظني ثقته وادعائه للذنان لا يقبلان أي نقاش. لذا قررت أن أحضّر له مقلباً لا ينسأه أبداً. في أحد الأيام اغتصمت فرصة وجوده بالقرب من السبورة لكي أتوارى بلمح البصر خلف أحد الملابس المعلقة على المشجب الذي تمكنت من رفعه وبدأت أتقدم به باتجاه الأستاذ الذي ما إن رآه حتى أخذ يرتجف مثل ورقة في مهب الريح من الخوف

والهلع، وعندما أصبحت على مقربة شديدة منه راح يردد آيات قرآنية، هنا فقدت تماسكي وانفجرت بالضحك. وعندما اكتشف أمرى، اهتز من الغيظ والغضب، ولم يغفر لي فعلتي، لقد تجرأت بالتناول على البطريك الذي يتبارك به الجميع، بمن فيهم جلالة الملك.

أثارت هذه الحادثة جلبة في البلاط الذي ضجّ بالضحك، حتى الملك لم يتمالك نفسه من الضحك بمسلء شديقه، مع أنه كان حريصاً على فعل أي شيء لاسترضاء هذا الرجل الذي اهتمني بالكفر والإلحاد.

ولكن لا حياة لمن تنادي، تابعت على هذا المنوال غير عابئة بكل النتائج. لم أترك أي أستاذ ينجو من شري، لقد حضّرت لكل واحد مقلباً يليق بمقامه. وفي كل مرة كانت المديرية تهرع مقطوعة الأنفاس لتشكروني إلى جلالة الملك. حتى إن دفتر علاماتي الأسبوعي كان يثن من كثرة الملاحظات اللاذعة: طالبة فوضوية، ماهرة، ثرثرة ومشاغبة...

كان لزاماً عليّ تقديم دفتر العلامات إلى الملك بنفسى بينا هو يتناول وجبة الطعام. بعدما أسلمه الدفتر أقف جانباً وأنا أرتجف من الفزع والخوف. ترى أي عقاب سينزل بهي عندما يقرأ فحواه. لا أجرؤ على التوضه بأي كلمة أو القيام بأي حركة. كانت تظهر على الملك أمارات الحيرة والاستغراب، حتى إنه في إحدى المرات التفت إلى جواريه قائلاً: غريب، يقولون لي إنها ثرثرة، وحتى الآن لم أنجح أبداً بدفعها إلى التلفظ بكلمة واحدة.

إنفجر الجميع بالقهقهة وراحوا يتغامزون ويتلامزون، إنهم يعرفونني حق المعرفة بخلاف الملك. جرت العادة، بعدما نفرغ من دروسنا، أن تقلنا السيارة مباشرة من المدرسة إلى ملعب الغولف لإلقاء التحية على الملك. أحياناً كنا نتناول الغداء في القصر الملكي، ولكنا غالباً ما كنا نعود أدرأجنا إلى فيلا ياسمينة. ما إن نصل حتى أسرع إلى صالة اللعب لأغتتم هذا الوقت الضائع الذي تقضيه بانتظار تجهيز المائدة، أعزف على البيانو، أقلب ألبوم صور نجوم السينما، أستمع إلى بعض الأغاني والمقطوعات الموسيقية، وأغرق في أحلامي على أنغامها الساحرة التي تغمرني بموجة من الدفء اللذيذ.

فجأة، في تمام الساعة الواحدة، يأتي صوت المربية ليحكر صفوي وهناتي؛ هيا إلى الحمام، اغسلن أيديكن جيداً، وأسرعن إلى الطعام! يا للهجتها الكريهة والتسلطة، أتمنى لو أنها تغير معزوفتها التي

بتنا نحفظها ظهراً عن قلب ولو لمرة واحدة، إنها حقاً امرأة لا تطاق.

ليست إزعاجها توقّف عند هذا الحد، بل تعدّاه للأسف إلى داخل غرفة الطعام حيث الكارثة الكبرى. إنها تجبرنا على التحدث بالألمانية التي أكرهها لأنها لغتها. ولكن لا مناص من ذلك أثناء تناول الطعام، فهذا أمر محسوم وغير قابل للنقاش، لأن قانون ريفل: نفذ ولا تعترض.

أحب الأطباق المغربية: الطاجين، والحريفة، والحلويات المنمّسة بالعمل. أما تلك التي تقدم لنا هنا فأكرهها، إنها خالية من أي مذاق وطعم لأنها مطهورة، على حد قولهم بطريقة صحية. لكنها غالباً ما كانت تثير رغبتي بالتقيؤ. كانت الملكة الأم وللا هبية على علم تام بهذا «العدوان الغذائي» الذي نتعرض له يومياً، لذلك كانتا تبتان لنجدتنا من حين لآخر، فترسلان لنا بعض الأطباق الشهية، ولكن ما الجدوى من ذلك وريفل تقطع الطريق على أي معونة أو إمداد من شأنه أن يخفف قليلاً من هذا الطوق والحصار؟ إنها امرأة مادية ومتسلطة تتلذذ بقهرنا وتعذيبنا، لا سيما عندما تأمر بتقديم هذه الأطباق لنا ثم، وقبل أن يتسنى لنا الوقت لمُد يدنا إليها، تأمر برفعها وهي تمجدنا بنظرات التشفي والانتقام، لقد حققت مبتغاه، ونجحت بالنيل مثلاً.

قبل أن نجتر مرارتنا ونجر أذيال خيبتنا، تمتلئ طاولة الطعام بسلطة اللحم، والسبانخ، والسمك المسلوق، والبطاطا المطهورة على البخار. لا مفر من ابتلاع ما تقدمه لنا وإلا أنزلت بنا أشد العقاب، وهذا ما لا طاقة لنا به.

وأخيراً يتهيئ مسلسل العذاب، ويأتي الفرج. وبعد قيلولة قصيرة نعود إلى مدرستنا ونمكث فيها حتى الساعة السادسة والنصف، بعدها نتجه فوراً إلى القصر الملكي لرؤية الملك وإلقاء التحية عليه. وإذا ما كان الأمر متعذراً لانشغاله بأحد الاجتماعات الوزارية، نحول وجهتنا لزيارة «أم سيدي»، الملكة الأم، التي كانت على علم تام بما يدور من حرب خفية بيننا وبين ريفل، وتعلم أننا قد بدأنا نتملص من سطوتها، ونضيق ذرعاً بقبضتها الحديدية. والملكة الأم لا شك كانت ترفي لحالنا، لذلك كانت دائماً تحاول، بكل ما أوتيت من حنكة وذكاء، تحويل أنظار المريضة عنا من حين لآخر، كي يتسنى لنا التعمم بقليل من الحرية. ولكن لسوء الحظ، سرعان ما نجبر على العودة إلى قنلا ياسمينية لتناول طعام العشاء الذي يقدم لنا في تمام الساعة الثامنة. ولا يحق لنا مشاهدة التلفاز أو القراءة، بل علينا أن نخلد فوراً إلى فراشنا. فقط في فترة الامتحانات، ويشكل استثنائي، يسمح لنا بالدرس حتى ساعة

متأخرة من الليل.

ما إن ينطفئ ضوء الغرفة، حتى أتمسك بيدي الرايو الصغير الذي أحبه تحت وسادتي أستمع منه خلسة إلى برامج المتوعات الليلية. إنه يؤنسني بعض الشيء، ويزيل ظلال الوحشة والكآبة التي تلف بها العتمة روحي عندما أتذكر أُمِّي التي يزداد شوقي وحنيني إليها، يوماً بعد يوم. لذلك، لطالما كان نومي قليلاً، وبكائي كثيراً. ومع هذا كنت أحب الليل، لأنني أخلو فيه إلى نفسي، بعيداً عن أعين الآخرين، وأستمع فيه بهرير النجوم التي تزين وجه السماء. هذا المشهد الخلاب كان دوماً يبهرنِي ويسحرني. لذلك كانت سعادتي لا توصف عندما حصلت على سرير بالقرب من النافذة الكبيرة التي تطل على البهو.

كنت أعيش في نخبط وحيرة، ومشاعري المتضاربة كانت تنغص حياتي. إذ كيف يمكنني الادعاء أنني حزينة وتعبية، وللا مينا تحبني وتعاملني كأخت لها. كل أهل القصر قاطبة: الملك، للملكة الأم، للابنة، الجواري، جميعهم كانوا يكتفون لي العاطفة. كنت أعرف هذا مع أنهم نادراً ما أظهروه لي. كل ما يمكن أن يحلم به طفل أو يرغب به ويشتهي كان موجوداً بين يدي ورهن إشارتي، وطوع باني. لقد واساني هذا بعض الشيء، ولكنه لم ينسني أهلي الذين ما برح شوقي للعودة إلى كتفهم يؤلمني ويكوي.

أي أخوة هذه التي تجمعني بمريم ورؤوف؟ لقد تبلفت من القصر نبأ ولادتها! وهل تتدفق العاطفة وتتوشق أو تصرها وعراها بمعرفة الاسم؟ إنني لا أعرف أي شيء عنها، ماذا يجبان؟ ماذا يكرهان؟ من هم أصدقائهما؟ ما هي ألعابها المفضلة؟ الأخوة عاطفة وإحساس وليست فقط علماً وخبراً!

نادراً ما كانت المربية تسمح لي بزيارة أهلي. وإذا ما حصل هذا الحدث الفريد المغاير للواقع والمعقول، فإنه لا يتعدى بضع ساعات ليس إلا. هذا القليل كان بالنسبة لي أشد إيلاماً من الحرمان. كنت أعود من هناك خائرة القوى، محطمة العزيمة، أحمل جرحي النازف. لا أجرؤ على البكاء كي لا تفضحني عبرتي. أكتسِم لوعتي ومصابي بصعوبة بالغة. كان يلزمني عدة أيام قبل أن أتمكن من طرد موجة الكآبة التي كانت تجتاحني، وأستعيد شهيتي المفقودة للأكل، والشراب والنوم. بأعجوبة، سُمح لي مرة أو اثنتين بقضاء إجازتي مع أهلي. ولكن سرعان ما كانوا يرسلون في طلبني

بحجة أن للامينا مشتاقة لي، ولا تتحمل غيابي.
أحياناً كنت ألتقي بأبي صدف في القصر الملكي. في كل مرة كان يبدو مضطرباً ويتعجل الانسحاب. لا يريد إطالة الحديث معي لسبب أجهله. ربما كانت تلك عقدة الذنب!
لولا نظراته المعبرة، ولمسة يده الحانية وهو يصافحني لخلت أنه لم يعد يجني!
من المؤكد أن رؤيتي لم تكن تسعده، لأنها كانت تحرك أحزانه وتذكره بأنه لم يكن هو من يحضني ويربيني!

كنت أسمع اسمه يتردد دائماً على لسان من حولي، إلا أنني لم أدرك ماهية دوره السياسي إلا عندما كبرت. كنت أحيث في عزلة تامة عن كل ما يدور حولي من أحداث في العالم. ولولا زيادة الإجراءات الأمنية المشددة من حولي، لما تبعت إلى الأبعاد الخطيرة لقضية بن بركة^(٥)، ولما علمت أن هنالك أزمة سياسية تشغل كافة الأوساط الإعلامية، وأن حياة أبي ومستقبله السياسي في خطر.
أصبحت بالهلع، ووقعت فريسة للهواجس والقلق. ما إن أرى هاتفاً حتى أهرب للاتصال بأبي، أريد أن أطمئن أن كل أمورهم تسير على أفضل ما يرام. وصل بي خوفاً على عائلتي أن أتسلل ليلاً من غرفتي وأتسل من النافذة كي أذهب إلى مكتب المشرف العام على الفيلا السيد برينگار، الذي يقع بالقرب من المدخل الرئيسي، لأتصل من الهاتف الموجود هناك.

أطلب الرقم بأصابع مرتجفة، وأخيراً بعد طول انتظار يأتيني صوت أبي الهادي ليوقظني من غفلتي، إنها تبدو طبيعية جداً، وفي أبي حالاتها، وتلك الأصوات والضحكات التي تنتهى إلي من حولها تشير أن الكل يستمتعون بوقتهم ويعيشون حياتهم باستثنائي أنا!

هل خطر ببالهم قط أنني قلقة بشأنهم، وأني أحب أبي ولا أتحمل أن يصيبه أي مكروه؟
إنني أستحق هذه الصفة القوية، ولا ألوذ إلا نفسي. إنهم لا يبالون بما يتنازعني من مشاعر، يجب أن أعترف أنني لم أعد أنتمي إلى عالمهم، وأن كل ما أفعله هو أنني أنطلق على شؤونهم الخاصة. ماذا أقول لأبي؟ لا أعرف! إن الصدمة تخرسني! هل أعتذر لأنني سمحت لنفسي بإزعاجهم وتعكير صفوهم وهنائهم؟ هل أنا حقاً ابتهم؟ أم أنا مجرد فتاة مجهولة الهوية غريبة؟ لست سوى مستهترّة وحفقاء لأجواز الحديقة بمفردي ليلاً وأنا أحول أنظار الحراس عني. لماذا كل هذا العناء وهذه المخاطرة، وهذا الرعب الذي يسكنني من أن تكتشف المربية القاسية ريفل أمري؟ لماذا كل هذه

المبالغة التي لم يكن لها من مبرر؟ وكل هذه الضجة التي افتعلتها من أجل لا شيء؟ فلتعلمني عائلة أوفير، لقد كنت عاطفية أكثر من اللزوم.

كان برنامج عطلة نهاية الأسبوع موزعاً على النحو التالي:

- نهار السبت نخصص لتعلم اللغة الألمانية. نبدأ من الصباح ونستمر حتى الظهر. نستخدم ريفل المربية لتعليمنا كل وسائل الإيضاح من صفع ومعاقبة، وصياح وتوبيخ، وتأييب...
- عند الظهر نذهب للامينا التي تعشق ركوب الخيل لممارسة هوايتها المفضلة برفقة مدرّبيها الذي يكون باصطفاؤها بالقرب من الإسطبل. أما أنا فأتوجه إلى صالة اللعب حيث يمكنني أن أرسم، وأستمع إلى الموسيقى، وأعزف على الأكورديون، وأحياناً ألعب «بيت بيوت» مع ديمتي، كما تفعل كل فتيات الأرض.

- نشاهد بعض الأفلام الأثرية لدينا، أو نرتدي الملابس التنكرية الملائمة للأدوار المسرحية التي نكون قد اتفقنا مسبقاً على تأديتها، مثل الفرسان الثلاثة، أنشودة السعادة، الكرملين، روملوس وريموس... كنت أقوم شخصياً باختيار المسرحية وتوزيع الأدوار والسيناريو والحوار.

- بعد تناول وجبة الغداء تصر ريفل على اصطحابنا إلى الريف لاستنشاق «كاسة هواء» على حد تعبيرها. تقودنا السيارة إلى مكان يعد حوالي ثلاثين كيلومتراً عن القصر الملكي وهناك ترغمنا ريفل على العودة سيراً على الأقدام إلى مقر إقامتنا، وكان يستغرق ذلك مئتي ساعة أو ثلاثاً. كانت سيارات الحراسة تحلونا حولنا ببطء، حتى نتأكد أننا وصلنا إلى وجهتنا سالمين.

عندما كانت ريفل تغط في النوم - ونحن في طريقنا إلى الريف - كنت أوصل إشارة خفية للسائق اللطيف الذي كان على الفور يفهم قصدي، فيدير زر الراديو فتبعث منه الأغاني الرائعة التي تطرب الأذن لسماعها، وأبين منها تلك الأناشيد الشعبية الألمانية التي كانت تفرض علينا ريفل إنشادها وسماها بقوة السيف.

كنت أنتظر مساء السبت بفارغ الصبر لأنه يسمح لنا بمشاهدة الأفلام السينمائية القديمة التي كنت مولعة بها. أما تلك الجديدة التي كانت ما تزال تعرض في دور السينما، فكنا نشاهدها في القصر الملكي، بعيداً عن ريفل ورقابتها المشددة، وعن مقص رقابتها الذي يقطع المشاهد التي تجدها غير مناسبة. ما أجل سهرات السبت التي كنا نقضيها برفقة الملك الحسن الثاني وجواريه خلال شهر رمضان

المبارك في القصر الملكي. كنا نشاهد الأفلام السينمائية طوال الليل ونحن تسلى بتذوق أشهى الأطباق والمأكّل التي يسيل لها اللعاب. كان الطباخون يتفننون في إعدادها، ويضعون فيها كل مهاراتهم إرضاءً لجلالة الملك وجواريه. لا يأوي الجميع إلى أسرهم إلا بعد أذان الفجر. وهكذا يستقبل أهل القصر معظم ساعات نهار الأحد وهم نيام.

عندما كان محمد الخامس على قيد الحياة، تلقت لالا مينا فيلاً صغيراً، هدية من حكيم الهند نهرو. تمّ وضعه في حديقة قصر دار السلام الرائعة، والقصر يقع في قلب الطبيعة الخلابة على طريق الرباط. ولكثرة ما استحوذ على إعجابنا الشديد كنا نذهب يومياً لزيارته لتقديم له الخبز الذي يلتهمه بخفة ونعومة. كان حيواناً لطيفاً وأليفاً، لم نخف أبداً من الركوب فوق ظهره بمساعدة السائق الهندي الذي أرسل خصيصاً للإشراف عليه. ولكن للأسف عندما أراد الرجوع إلى بلاده حلّ عمّه سائس مغربي لم يحسن معاملة الفيل الصغير، ممّا أثّر نغمته ووحشته. وبعدما استحالت السيطرة مجدداً عليه، أمروا بقتله بدون هوادة لثلاث تطال عدوانيته أحداً منا.

هذه النهاية المأساوية لهذا الكائن الصغير أصابتنا في الصميم أنا ولالا مينا، ولم تتخطَ هذه الصدمة المؤلمة إلا بعد وقت طويل. إذ كنا ندرك أنه لم يكن الهادي بالشر، إنما رد على عدوانية السائس وهمجيته بمثلها.

كنا لا نملّ أبداً من رقعة الحيوانات وملاعبتها. كم كنا نعشق الذهاب إلى البحيرة عند الظهيرة لإلقاء الخبز للبط الذي يرتع بفرح وجور في الماء.

وكم ابتهجنا عندما سمح لنا السائس باصطحاب الناقة البيضاء زازيت في الرحلة التي قمنا بها لزيارة جنوب المغرب برفقة «مولاي» أحمد العلوي، ابن عم الملك. كان على اطلاع وإلمام بالتراث المغربي، لذلك أوكل إليه الملك مهمة تثقيفنا وتعريفنا بحضارة بلادنا الغنية والعريقة. جينا بمعيته معظم المناطق والمدن والقرى. لم نترك جبلاً، أو صحراء، أو برجا، أو زاوية صغيرة في المغرب نتعب علينا. قبل كل رحلة ميدانية كان يعطينا دروساً نظرية تتناول تاريخ وجغرافية المكان الذي نعتزم زيارته. إنني مدينة له بكل ما أحرفه، سيما المنطقة التي تحلّى منها أجدادي «الشرفاء»، كما يناديهم الناس هناك، لأنهم يعمدون بنسبهم إلى الرسول.

لقد أقام هؤلاء الرجال النبلاء على شرفنا احتفالاً رائعاً قدموا خلاله رقصات فولكلورية على

ظهور الجبال. عندما وصلنا إلى ديارهم في الصحراء المغربية استقبلونا بحفاوة وتكريم لا نظير لها، ولعلمهم قدموني على للا مينا.

كنت أحياناً أقبل دعوة للا مينا لركوب الخيل. بعد ظهر نهار السبت نمضي معاً إلى الإسطل حيث جوادها، فيها أختار أنا الناقة زازيت، إلّا إذا كانت للا مينا قد أبدت رغبته بإجراء مسابق معي على ظهور الخيل.

كنت أحياناً أجد متعة فائقة في ركوب الخيل، إذ كان يمنحني شعوراً لا يضاهى بالحرر والانتعاق: أنطلق بخفة متناهية مع الريح وأخلق مثل طائر يسبح في الفضاء.

معظم العطل والإجازات كنا نقضيها برفقة مولاي أحمد، وكان يحق لنا الإقامة في القصور الملكية الموجودة في المدن التي يقع عليها اختيارنا، مثل طنجة، أو مراكش في فصل الربيع، أو فاس التي يعتبر القصر الملكي فيها من أجمل قصور المغرب على الإطلاق، خصوصاً بعدما أجرى عليه الحسن الثاني بعض أعمال الترميم.

كنت أحبّ الذهاب إلى مدينة إفران التي تقع في أعالي جبال الأطلس، وتشبه إلى حد بعيد مدينة ساءا والسويسرية. إنها تكاد تكون نسخة طبق الأصل عنها، يبيتها القروية الحمراء التي تكسوها الثلوج. كنا نقيم هناك في الفيلا التي كانت مقرأ لمحمد الخامس عندما كان ولياً للعهد، والتي تتألف من ستة طوابق. كم كان يحلو لنا التزلج أنا وللا مينا هناك على منطوق الجبال.

يقع القصر الملكي في مدينة إفران فوق قمة مرتفعة، تحيط به غابة تزدهر بأشجار الصنوبر الباسقة، إنه تحفة فنية لا مثيل لها، وكأنه انتزع من إحدى الأساطير التي لا نقرأ عنها إلّا في القصص الخيالية. كان الملك يهتم اهتماماً بالغاً بقصوره التي أشبعها صيانة وترميمات وتحديثاً وتجهيزاً، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بالتقصير والإهمال في هذا المجال.

في تموز/يوليو ١٩٦٩، وأثناء الاحتفال بال ميلاد الأربعين للملك، جرى تقديم استعراض راقص لسفوفية بحيرة البجع الشهيرة على صفحات مياه بحيرة إفران الشهيرة. كان عرضاً فنياً رائعاً لا يمكن إلّا أن ينحصر في الذاكرة. كان أروع من قصص ألف ليلة وليلة.

عندما زار جمال عبد الناصر مدينة إفران، أقام له الملك احتفالاً ضخماً قدّم خلاله استعراض فني، رقصت فيه الخيول حول فوهة البركان القديم الذي يريّض في وسط غابة ميشلفن القريبة من إفران.

كيف أنسى تلك الغزوات الليلية في إفران، عندما كنا نذهب بالطائرة المروحية أو بالجيب لاصطياد الفهود، والخنازير البرية. كنت غالباً أجلس في المقعد الأمامي بالقرب من الملك الذي يتولى بنفسه القيادة. وكم كنت أشعر بالرهبة والإثارة والروعة. لقد كانت لحظات تاريخية لا تتكرر.

الحياة في القصر

كان القصر ميداننا، أرض لعبنا المفضل. لم نتوقف أبداً عن الجري في ممراته، واكتشاف دهايزه، وأقبية، والتسلل إلى كل مكان يمكننا الدخول إليه: عند الملك... إلى خدور الحريم، إلى المطبخ. كانت لـلا مينا تتسلل بقامتها الصغيرة وتفتح أحد الأبواب، وأنا التي كنت محالة صغيرة مثلها، أرافقها في مغامراتها. ما إن يلمحوننا حتى ينادوننا... كانوا يعاقبوننا... يلاعبوننا ويلطفوننا... يقدمون لنا الأطعمة والحلوى... كانوا يشبعون لنا كل رغباتنا.

كان الدخول إلى الميدان الملكي يتم عبر مساحة القصر التي هي كناية عن طريق يربط بين جهتين. في داخل هذا الحرم مسجد إلى جانبه مقام صغير، وفيه حيي العبيد المتأهلين، ومبنى التشريفات، وآخر للحرس الملكي، وأبعد منه قليلاً كان يقوم المرآب، وهو أحد الأمكنة التي كانت مفضلة لدي حيث كان يمكننا استعراض مجموعة سيارات الملك الرائعة، ومن هناك يفتح باب ضخم على القصر الذي كان كبيراً بحجم مدينة، بها يشمل من عيادة، وملعب غولف، وحمامات، ومدرسة، وأسواق، وملاعب رياضة، وحديقة حيوانات واسعة، كانت الأميرات يترددن إليها دائماً.

كانت المباني السكنية مقسمة إلى عدة واجهات ضخمة، مزينة ببليخ، تربطها ببعضها ممرات داخلية طويلة لا تنتهي: القصر الخاص بالحي الثاني الذي كان الملك ينتقل فيه من زاوية إلى أخرى تبعاً لرغباته، ووفقاً لمزاجه الخاص بالجواري، حيث كانت كل واحدة منهن تملك شقة خاصة بها، كتينك اللتين تقيم فيهما أم سيدي وللا بيه، وقد بناهما الملك المتوفى.

الدھليز الذي كان يربط ما بين المينيين الأخيرين يتجاوز الكيلومترين طويلاً. كنا نجتازُه ركضاً كل يوم، وكان فيه أشياء كثيرة تستحق المشاهدة وتدعو إلى اللعب. كان قصر اجلالته مجهزين بقاعة سينما، وحديقة صيفية، وأخرى شتوية، وبصالونات إيطالية مغطاة بلوحات جدارية نادرة، وتطل نوافلها على فناء خارجي تبلغ مساحته ألف متر مربع، وعلى مسبح كان يمتد على كل المساحة. لـلا

بيبة التي كانوا يتادونها مامايا، كانت تنام على سرير ضخم مقبب مزدان بستائر حريرية بيضاء. وفي خلواتها، كانت غالباً ترتدي معطفاً حريرياً وتتمتع خفاً مزيناً بالريش والخيوط الذهبية، كان يظهر جمال قدميها الصغيرتين. إنها كواحدة من نجوم هوليوود. كانت تقضي ساعات في حمامها الرخامي الأبيض، غارقة في مستحضرات التجميل.

كنت أعشق مراقبتها وهي تظلي وجهها بالنيثا، ثم تعود وتمسح مطولاً بقطنة ناعمة مصنوعة لهذه الغاية. كانت ترددي دائماً بصوتها المثير: يا ابنتي، حتى الكريم الأغلى ثمناً، ليس بجودة وفعالية هذا الكريم. إذا حكمنا عليه من خلال بشرتها المخملية الرائعة، والتي كانت أشد بياضاً من الحليب، كنت لا أملك إلا أن أصدق كلامها.

كنا أنا وللا مينا نبقى ساعات طويلة في صالونها، ممدتين أرضاً نقلب ألبوم صور عرسها، الذي كان يحكي تاريخ العائلة الملكية: مثل ولادة الأميرات، الذهاب إلى المنفى والرجوع منه، زواج الملك وأخواته، والحفلات وأعياد الميلاد.

لم تكن مامايا أمومية مع للا مينا ولم تكن من النوع الذي يظهر عاطفته. بل كانت تكتم عاطفتها وأمومتها تجاه ابنتها. كانت أم سيدي تبدي للأميرة الصغيرة من الحرارة والعاطفة أكثر منها، مع أنها كانت تعرف كيف تكون صارمة في نفس الوقت. كنت أحب كثيراً الملكة الأم، فقد كنت معجبة بوقارها، وشموخها، وشخصيتها المميزة المتهاسكة.

كنا غالباً ما نذهب في جولة إلى المطابخ لالتهام كل ما كانت تمنعنا عنه ريفل في القفلا، أو كنا نعدو في الممرات الطويلة التي كانت تؤدي إلى حيث يقيم الجوّاري والعبيد. هؤلاء الذين يسمون عبيداً يعيشون في قصر الرباط منذ عدة أجيال، وهم يتحدرون من عبيد زنوج تم شراؤهم من أسواق النخاسة قديماً. وما زال أحفادهم يعملون في خدمة الملك، موزعين في كل القصور الملكية. إنهم تابعون للعائلة المالكة، ولكنهم أحرار في أن يتزوجوا من الخارج وأن يغادروا القصر فحلاً لورغبا ذلك. على أرض الواقع، نادراً ما حصل هذا. كانت العادات تقضي أنه إيان إحياء حفل زواج الأمراء في القصر، يصار أيضاً في اليوم عينه إلى عقد قران أربعين زوجاً من العبيد ينتقلون بعدها للعيش في حرم القصر، في بيوت صغيرة تم بناؤها خصيصاً لهم. كان أبناءهم عبيداً أيضاً. وحدهم العبيد هم المكلفون بمهمة العقاب الجسدي والجلد ولديهم وظيفة محددة. ما تبقى منهم كان يعمل في الخدمة،

وكان يتم تبديلهم باستمرار، إنهم أجراء صغار يصلحون للسخرة والاستغلال. كان بعضهم تابعاً لزوجات الملك، وآخرون للجواري، وبعض آخر للملك شخصياً.

أما النساء فقد كنَّ يقمن بأعمال المطابخ، والتطيف، والحضانة، والحياطة، وكئي الملابس، أو حتى كوصفات من الدرجة الثالثة. كان الرجال يهتمون بالمرايب، ويخدمون على الطاولة، أو يقبعون مثل تماثيل حجرية في كل زاوية من زوايا القصر، أو الكوى التي تزين الممرات التي لا تحصى ولا تنتهي. أما العازبات والأرامل فيقمن داخل القصر، في حي خاص حيث تعيش كل واحدة منهن منفردة، أو مع رفيقة لها، في مقصورات تحجبها الستائر تمتد على جانبي باحة لا سقف لها. أما الأرامل فكنَّ يطبخن على موقد غازي ألد الأطباق وأشهاها في القصر. وبالرغم من فقر إمكاناتهن، كانت محادهن تلتصع نظافة وترتيباً.

طوال النهار كان الإماء يستمعن إلى الموسيقى الشرقية المنبثة على مداها من أجهزة الراديو، كانت دائماً موضوعة على نفس المحطة، وكانت توحى بأنها ستريو. ما إن نصل إليهن حتى تداعب أنوفنا الروائح اللذيذة المنبثة من محادهن. ومن أجل لفت أنظارنا، كنَّ يناديتنا وهن يلعبن على وتر شهيتنا الطيبة الحساس:

— للاً ميناً، رفيقة للاً، تعاليا... لقد حضرت الطاجين... والكريب اللذيذ.

البعض منهن كنَّ يصنعن المربيات التي كان إعدادها يحتاج ساعات على نار الموقد الغازي. ومرة سرقن منهن وعاء فيه مرقى تقاسمت أنا وللاً ميناً سرّاً. بعدلها قهقهتا وضحكنا كثيراً. أمام أبواب الجواري كانت تتكدس جبال من الأحذية النسائية، ففي القصر كنَّ يتجولن حافيات الأقدام، فوق السجاد وداخل المخادع. كنَّ يخلعن أحذيتهن قبل السير ثم يعدلن لاسترجاعها بعد ذلك. هذا المنظر كان دائماً يدوي فكاهياً ويثير لدي رغبة بالضحك. ما إن وصلت إلى القصر حتى تبناني حريم محمد الخامس طيلة حياته.

شاهدت بنفسي وصول حريم الحسن الثاني، لقد كنت أعرف جيداً كل نسائه، فقد كنت مقبولة بينهن في خلواتهن، وأشار كهن أسرارهن.

كان نساء محمد الخامس يعشن في مكان ساحر خلّاب، كان الملك الحسن قد أمر ببنائه خصيصاً لهن، وهو كناية عن قرية صغيرة مؤلفة من بيوت بيضاء محاطة بحدائق قبالة مدرستا. كان لهن

مسابحهن الخاصة وأسواقهن، وحماماتهن، وعيادتهن، وقاعتن السينائية. لقد تابعن عملهن في خدمة الملك الجديد، يوجهن له النصيح، يشرن عليه بأرائهن، ويحطن باهتمامهن. لقد كان هن دورهن مهما قيل بعكس ذلك.

كانت جوارى الحسن الثاني صغيرات السن، تم اختيارهن لجهلن الأخاذ، وقد تم إحضارهن من كل المناطق في البلاد. أكبرهن لم تكن تتعدى السابعة عشرة. كن يصلن في حالة مزرية من الجهل، وعدم الثقة، وضعف الشخصية، وسوء التدبير والتصرف، والجهل بالأصول واللياقات... كانتوا يُسكنونهن في شقق جوارى محمد الخامس القديمة.

مباشرة كانت «القدييات» يتسلمن إدارتهن وتعليمهن وإرشادهن وتوجيههن. كن يعلمنهن طريقة الحياة داخل القصر، البرتوكول، العادات، والتقاليد. كن يحضرن لحياتهن كنساء، لأن الخبرة الجنسية للجارية كانت ضرورية. هنالك أسرار وخبرات محفوظة منذ أجيال يتم تناقلها بين الحرير كابرأ عن كابر.

أما أسماؤهن فكانت تستبدل، فاللواتي أسماؤهن فتحة وخديجة هن غالباً من عامة الشعب، وتصبح أسماؤهن نور الصباح، وشمس الضحى وغير ذلك. بعد إجراء عمليات التحول، يتم تزويجهن ثلاثاً ثلاثاً أو أربعاً أربعاً إلى الملك، في قصره في فاس في حفل مهيب وباذخ، حيث لم أكن الأخيرة التي غنت ورقصت. كان الملك سعيداً: كان وريثاً مليئاً بالأمل، ولم تكن بعد الانكسارات السياسية قد بلغت هذه الحدة.

كان الحسن الثاني يضيف الجوارى الجديدات إلى جواريه القدييات حتى بداية السبعينات، حيث أضيفت أربعون جارية إلى الأربعين اللواتي كن من جوارى محمد الخامس. كن يتبعن إلى كل مكان، إلى القصر، إلى الحمام، إلى المغطس المغربي، عند الحلاق، إلى دروس التمارين الرياضية، كن يتحلقن في دوائر ومجموعات، وهن: القدييات، المتأمرات، المحرضات، المقامرات، القذرات... هدفهن كان لفت انتباهه، أن يستأثرن باهتمامه، ويصبحن المفضلات لديه. وعندما يوفقن إلى هذا، كان ذلك قمة المجد لديهن. ويستمر النصر هن حتى تعود عصبة أخرى وتتمكن من استقطاب اهتمام الملك محقة الغلبة عليهن والفوز بالملك، فيكون هذا مصير المجموعة الأولى الإهمال والنبد وكان موضعها ولت وتشير الملل لديه.

من بين الجوارى، كانت الأكثر تقدراً واحتراماً هي التي نجحت بالحصول على لقب زوجة عقيم، إذ لم يكن لديهن الحق في إنجاب الأولاد، وذلك من حيث المبدأ. وحدها زوجة الملك هي التي تمنحه ولي العهد. تأتي بعدهن بالأهمية نساء الداخل، ووظيفتهن إدارة القصر وتحليل التقاليد التي تكرس صورة الملك المحترم.

كان لمحمد الخامس جارية، وكانت، أيام العيد، تلبسه لباس الأبهة، جلباباً أبيض وسروالاً من نفس اللون. بعد وفاته، تابعت مهامها مع الحسن الثاني. هذا الاحتفال الخاص كان يقام في قاعة من قاعات القصر، مؤلفة من بهو من الرخام الأبيض تتوسطه نافورة مياه. كان يزين المكان ثلاثة مخادع، تفصلها الستائر وتغطي أرضها أحجار الفيسفأ بألوانها الزاهية. وكانت مفروشة بالسجاد الحريري، والأرائك المصنوعة من المخمل المذهب. هذه المخادع كانت معزولة عن الفناء بستائر من التفتة والمخمل. هذا التصميم الهندسي كان متبعاً في قصر الرباط، كما في باقي القصور.

الأيام التي كان يتوجه فيها إلى المسجد، كان الحسن الثاني يدخل إلى إحدى هذه الغرف، تتبعه الجارية التي تحمل لباسه، ومن ترغب من نسائه كانت تستطيع مرافقته بعدما يرتدي لباسه. أما الجارية المولجة بالبخور، فكانت تشعل عيدان البخور التي تملأ المكان بروائحها العطرية. وكانت واحدة أخرى تأتي بصندوق مرصع موضوع فوق أريكة مخملية بلون المرمر، اللون المعتمد في القصر، تصطف في داخله قوارير صغيرة ممتلئة بالزيت العطرية المركزة مثل: المسك، العنبر، الياسمين، والصندل الذي يؤتى به من مكة. كان الملك يضع بعض النقاط من القارورة التي وقع الاختيار عليها، على قطعة صغيرة يمسح بها خلف أذنيه، ثم يرمي بها أرضاً. وهنا كانت لحظة التهافت والتسابق بين الجوارى. كانت كل واحدة تقضّ محاولة بكل جهدها أن تلتقط القطعة، ثم يمررها من يد إلى يد كي يحظين بهذا العطر الثمين الممزوج بعبق سيدهن ومولاهن. كنت أحاول دائماً أن أكون أول من يفوز بها كي أتنعم قبلهنّ بعطره.

عندما كان الملك يعود من المسجد، كانت أصوات العبيد تعلن قدومه بطريقة إيقاعية ومنغمة: بارك الله في عمر سيدي.

ثم يبدأ الاحتفال المسمى «المهارة» الذي تشد فيه الأغاني يرافقتها القرع على الطبول. كان ممنوعاً الاقتراب من الملك قبل أن يفرغ من غسل يديه. إذا صادف رجوعه من المسجد في يوم الوقفة أو العيد،

كان الحسن الثاني يجلس ممدداً فوق كنية طويلة تشبه العرش أمام القبة. في هذا اليوم، كل الجوارى المعاقبات أو المطلقات كان يحق لمن طلب الصفح ومن يرمحن على قدميه. كل الأمسيات، قبل العشاء، كانت جارية الحمام تقوم بغسل الملك وفق طقس خاص ومعد بالطور والصابون، وجارية أخرى كانت مكلفة بإشعال عود الصندل الذي كان يستخدم في كل المناسبات والأعياد، وفي كل الاحتفالات الدينية، وفي كل ماتم وحداد.

كان يؤتى به من مكة ويمرق باستمرار في وعاء من الفضة المنقوشة والمرصعة، ممتلئ بقطع الفحم الخشبي المزهجة.

كانت الجارية تقدم للملك قطعاً صغيرة من عود الصندل ليرميها بنفسه في الوعاء المتأجج ثم كانوا يدورون به في أنحاء المكان لتتبعه. كانت الرائحة تنبعث من كل أرجاء القصر. وكانوا يضعون أيضاً بودرة الصندل في الشفاطات، وأعواد الصندل المشتعل في المبخرة التي يطوف بها العبيد، وحتى في السيارات. وهكذا كانت تلك الرائحة تعم القصر وساكنيه.

نعيم، الجارية، همزة الوصل مع الخارج، كانت شابة تتمتع بالحياة، وهي الوحيدة من بين كل النساء التي لها اتصال مع الناس في الخارج، لا سيما الرجال منهم، الذين يعملون في الحديقة، أو الديكور، والحرس. كانت مسؤولة أيضاً عن الصحف التي تحملها كل يوم إلى الملك.

في نهاية بعد الظهر، كان هنالك طقس قد وضعه الحسن الثاني بنفسه، ويقضي بتمسيد ودحك يديه وفروة رأسه في قبة صغيرة يعود تاريخها إلى عهد محمد الخامس. كنا نحضر جميعاً هذه الجلسة. نغمد ببذلاتنا الضيقة عند قدميه، ونروح نعلق على كل ما يجري أمامنا ويثير ضحكنا، بعدما أذهب لتقبيل يده التي كانت ناعمة جداً. أما مزينة الشعر، ومقلمة الأظافر فكانتا فرنسيتين، وكاتنا، إلى ذلك، تعلقان التمارين الرياضية وتعطيان الدروس للجوارى في بهو القصر.

كان الملك يبحث دائماً عن آخر وسائل التسلية للترفيه عن نسائه جميعهن، حيث كان بعضهن ما يزلن قاصرات. استحضر من الولايات المتحدة دراجات بعدة مقاعد. الممر الشاسع في قصر فاس ارتفعت فيه ضحكاتنا عدة أسابيع لكثرة ما أثار مرحتنا مرأى النساء وهن يحاولن دفع عجلات دراجتهن بأقدامهن، للتحاق بالملك الذي كان في طليعة هذا الصف الطويل.

أنشاء فترة الإعداد والتدريب، كانت الجوارى تلبس مثل العبيد، قفطاناً من الحرير الأخضر، أو

الرمادي، أو البني، مذهب الأطراف. كن يرفعن الأكمام إلى الكوع. حول خصورهن، يلتف قماش آخر على شكل مشزر. عندما يصبحن جاريات رسمياً يصبح بإمكانهن اختيار لون القفطان الذي يردنه.

كان الملك يتدخل في أدق التفاصيل الصغيرة المتعلقة بلباسهن. كان يقرر موديل قفطان الاحتفالات، والألوان، ونوع القماش، والأحزمة. كان عرضهن رائعاً وهن يتهادين في القصر، بملابسهن المختلفة الألوان، بما فيها القاقع والباهت، كن يتحركن، ويتقلن بكل أناقة ورقة وخفة، مع أن ملابسهن كانت ثقيلة. عندما كن يرفعن أكمامهن وأطراف القفاطين كان يجيل للناظر أنهن يرقصن. كانت التقاليد تلزمهن بهذا اللباس، أي القفطان داخل القصر وفي خارجه على البحر، في ملعب الغولف والتنس، في ميدان ركوب الخيل، كن يضعن أحدث تصاميم الأزياء الأوروبية. تستورد الأقمشة من أوروبا وكان الملك هو الذي يختارها بنفسه أيضاً. للصعود في سيارات الليموزين الكبيرة التي كانت نوافذها مغطاة بستائر والتقل بداخلها من قصر إلى قصر أو للقيام برحلة، كان الجوّاري يضعن جلباباً خاصاً أسود اللون أو كحلياً، يشبه زيّ المعاطف التي تتلى منها القلنسوة، وكن يغطين وجوههن بأقمشة المسلمين الداكنة.

بينما كنا نقضي الإجازة في مدينة مراكش، أعلننا الحسن الثاني، أنا وللا مينا، بأننا سنخرج معه، مما أسعدنا وأدخل البهجة إلى قلوبنا، إذ كان من النادر التنزه معاً في المدينة! وزعوا علينا الجلابيب التقليدية، وأحضرنا لنا عربات الخيل. كنا مقيّدين بجلابيب العبيد هذه. قام الملك بنفسه بقيادة عربتنا، وفي المدينة تولّى هو نفسه عملية المساومة وشراء الهدايا التي قدمها لنا، لم يعرفه أحد. ما زلت أتذكر صهيل ضحكاتنا الجنوني، وفرحي وإبتهاجي في ذلك اليوم.

كان من شبه المستحيل للنساء أن يتحركن بدون الملك، إلّا في المناسبات النادرة، كمثّل تلك الرحلة الرسمية إلى يوغسلافيا، في بداية الستينيات، مع الملكة الأم، أم سيدي، وبعض الجوّاري من أصدقائها. ما زلت أصدأها حية في ذاكرتي. الماريشال تيتو وضع في تصرفنا قصرًا يقع في محيط بلغراد، وكان يشبه مسكن الكونت دراكو لا. نور الصباح، إحدى الجوّاري، الأكثر خفة وظرفاً، غطت وجهها، وحملت شمعة في يدها، وراحت تطرق أبواب الغرف. هذه المزحة الصبيانية أثارت صرخات الفزع والرعب في كل أنحاء القصر، أما أنا وللا مينا فقد تردّد صدى ضحكاتنا في أرجاء القصر. كنا نسلل

خلفها وتبعها على رؤوس أصابع أقدامنا. في نهاية إقامتنا، كان لدى الملكة الأم رغبة بأن تذهب سرّاً إلى إيطاليا بدون إعلام الملك. لكن في تريس كان الصحافيون بانتظارنا، مما عطل كل هذه المشاريع. مع الأيام تغير نظام عزلة النساء عن محيطهن، وخفّت قيوده، فصرن يتجولن بدون حجاب وبدون سائق على النوافذ. وصارت الملكة لطيفة تستطيع أن تذهب في رحلة بمفردها، وتمتلك سيارتها الخاصة، وسائقها، وأمنها، هذه الحالة لم تكن سائدة ومعمولاً بها في الفترة التي تزوج خلالها الحسن الثاني.

خلال السنوات التي تلت وفاة محمد الخامس، كان يجب السعي لتزويج الملك الذي كان له من العمر ثلاثة وثلاثون عاماً. أكبر عائلتين بربريتين في البلد أرسلتا إلى القصر فتاتين جميلتين، وهما ابنة عم: لطيفة، خمسة عشر عاماً، وفاطمة، ثلاثة عشر عاماً. وقد تم إخضاعهما لغس دورة الإعداد التي خضعت لها بقية الجوارى اللواتي وصلن من كافة المناطق المغربية.

ولكنهن كنّ يعلمن مسبقاً بأن الاختيار الملكي سيكون ما بين الصبيتين الشابتين، ولا يمكن التساهل فيه. فالزوجة الشرعية ستكون أم أولاد الملك، وبالتحديد أم ولي العهد. ولأسباب سياسية، وللحفاظ على توازن وتماسك الشعب المغربي، كان يجب أن تكون بربرية مثل كل الزوجات الملكيات، كالملكة الأم وللا عيلة، وللا بهية.

كانت فاطمة طويلة القامة، جميلة، ذات بشرة مخملية بيضاء، وعينين مشرقيتين، ووجه ملائكي كالعدراء. وكانت لطيفة ذات تقاطيع غير متناسقة، وأنف ظاهر، ولكن كانت عيناها البينتان كبيرتين، وشعرها كثيفاً، لم تكن تملك جمال ابنة عمها، ولكن شخصيتها كانت أكثر قوة وحضوراً. لم تكن الفتاتان أكبر مني إلا قليلاً، ولكنني كنت أعتبرهن كسواء. كنت أقف إلى جانب الملك عندما استقبل أفراداً من أكبر العائلات المعروفة في المغرب. لقد عاملها باحترام وتواضع كصهر أكثر منه كملك. هؤلاء البرابرة التعليميون الذين لا يقيمون وزناً للمظاهر، كانت نساؤهم تضع الحجاب الأبيض، ورجلهم يرتدون الجلباب. تواضعهم، عزيمتهم، وبساطتهم لم تكن لتتسجم مع هذا المشهد الذي يستعيد حكايات ألف ليلة وليلة.

وقعت فاطمة صريخة في حب الملك. أما لطيفة التي كانت أكثر كبرياء وتكناً ففضلت أن تنتظر اختيار الملك. جمال الصغرى وعلويتها كذلك حبها العنيف والتلقائي، كل ذلك استرعى انتباه الملك.

ولكن شخصية الكبرى أعجبت جداً.

فقط المقربون جداً كانوا يعرفون أن هنالك عداء قائماً بين ابنتي العم هاتين، وحاولت الجوارى القديسات أن يوجهن اختيار الملك نحو فاطمة، التي كانت مطواعة أكثر، وقابلة للقياد، ويستطعن بسهولة إدارة رأسها. حاولن، رغماً عن الطبيعة، أن تحمل فوراً. فولادة ولي العهد تشرع الزواج، ولكنهن لم ينجحن، لأنها كانت بعيدة عن هذا.

في أحد الأيام خاطبت لطيفة الملك قائلة:

- سيدي، لن أقبل أبداً أن أكون مجرد جارية بين نساءك.

ثم طلبت منه إذا لم يعطها فرصة كي تصبح أمّاً لأبنائه، أن تعود إلى أهلها. لقد رفضت وضعية الجارية وفكرة المشاركة، وأن تكون مهمشة.

أعجب عزما وتصميمها الملك الذي كان يفضل النساء القويات الشخصية على النساء الجميلات. ولطيفة، بموقفها هذا، فاقت الجميع ذكاءاً ودعاءاً، تلك المرأة التي لم يتعد طولها مئة وخمسة وخمسين سنتراً، فرضت الاحترام دونها حاجة لأن تتكلم. اختارها زوجة له. أما ابنة عمها فاطمة فبقيت جارية بين نساء الملك. كانت هذه التقاليد تبدو لي طبيعية، ونادراً ما كانت تصدمني، لأنني تربيت وأنشئت عليها. كنت صغيرة جداً، وأجهل من أن أتخمن من الحكم على مظاهر القرون الوسطى هذه، في زواج الملك. كل هسي أنني شاركت بحضور مشهد جميل، على الطريقة التي كنت أحبها كثيراً، ولكنني كنت سعيدة أيضاً. كنت أشعر بأنني معنية فعلاً بكل ما يمت بصلة، من قريب أو بعيد، إلى أبي بالتبني.

في السنة التالية، في ٢٦ آب/ أغسطس سنة ١٩٦٣ وضعت لطيفة مولودة أولى، لئلا مريم، في روما، كان يوماً مشهوداً، أيام وأيام من الموسيقى والرقص، من الابتهاج، من الوجبات الشهية والأطباق النادرة التي يسيل لها اللعاب. انتصرت لطيفة، فولادة ابنتها كرستها ملكة.

فيما بعد رزقت لطيفة بأربعة أطفال^(٣). في كل مرة كان الملك بمتهى الصرامة فيها يخص غذاءها. فرض عليها اتباع الحمية، وتناول الأطباق الخفيفة كالخضار، وتجنب الدسم والسكر، كان هو متطلباً ومتصلاً، وهي كانت تشرع بالوحم والجوع.

كانت حاملاً بمولاي رشيد عندما رجعتني قائلة: أشعر برغبة في «عمامة القاضي» بسرعة.

لم تكن رغبتي سهلة التحقق. كانت الملكة تشتهي أكلة يتطلب عملها ساعات من العجن والخلط والإعداد، والنقع بالعل، وشكلها النهائي يشبه العمامة، من هنا كانت تسميتها. في تلك الفترة. كنت قد رجعت إلى بيتي، ولكنني كنت أتردد على القصر لزيارة الأميرات، والجواري.

هرعت إلى البيت وطلبت من عاشورا، مربيتنا التي كانت أيضاً طبّاخة لا مثيل لها، أن تحضر فوراً تلك الأكلة. بعدما علمت الحكاية، أرادت الاعتناء أكثر بعملها، ووضع الحلوى في طبق فضي. لكنني كنت مستعجلة، فلطيفة قالت لي «حالا»، وخصوصاً أنني لم أرد أن يلمحني أحد لأن هذا كان كفيلاً بإثارة نوبة غضب لدى الملك لا تحمد عواقبها.

وضعت الأكلة في طبق عادي، وغطيتها بغطاء بسيط، وعدت إلى القصر. سلكت طريقاً ملتوياً كي أتخاشى الاصطدام بأحد. ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الجواري القدييات. أردن أن يعرفن وجهتي. كنيت مؤكدة أنني في زيارة إلى الملكة الأم. طبقي الذي كانت تسترب منه رائحة شبيهة آثار شوكهن، فرحن بطرحن علي أسئلة حوله. زعمت أنني أحضرت ذلك إلى اللامينا. ولكن، لم تنظلي عليهن هذه الكنية.

إياك أن تعطي هذا إلى لطيفة، لأنه من الممكن استغلال هذا. أحدهم قد يدمس فيه السم، وستجدين نفسك متورطة في كثير من المتاعب.

كلامهن جعلني أفهم حقيقة عن القصر كنت لأريد معرفتها. هناك كانوا يجشون الشربة السحرية، الكتب الشريرة، السحر الأسود. بعد سنة من هذا اتهموا واحدة من الخاشية أنها أرادت تسميم لطيفة بدافع الغيرة.

الجواري، لا سيما القدييات منهن، كن متدينات جداً. كن يصلين خمس مرات في النهار، يصلين على سجادات الصلاة الخيرية التي يتولى العبيد احضارها لهن. بعد انتهائهن يلبثن طويلاً وهن يقرآن القرآن والأدعية. كنت أكره المكوث طويلاً معهن، ولكنني كنت أمتع ناظري بمرأى وجهه للابية الراقع وهو محاط بالموسلين. كنت مسلمة ولكن لا أطيق تعاليم الإسلام، كنت أحب الاحتفالات الدينية، كما كنت أحب كل العادات والتقاليد. كنت أتمتع بالحفلات التي كانت تقام كثيراً في القصر، والتي أضفى عليها الملك روح الحدادة والعصرية.

الليلة السابعة والعشرون من شهر رمضان، التي نسميها ليلة القدر، كانت مخصصة للصلوات التي

نشرع بأدائها ما إن نفرغ من الإفطار. في هذه الليلة يقولون إن الله يحقق لنا رغباتنا. بمعية الملك كنا نذهب جميعاً للصلاة في مسجد القصر.

كان من العسير عليّ أن ألزم الصمت، فقد كنت ألعب دور المهرج. أم سيدي وللا بهية كانت تنفجر ضحكاتها. عندما كان يسمعها يعرف السبب، لأنه يعرف جيداً حركاتي وتصرفاتي. كان يحاول جاهداً التركيز، وكنت أرى آثار الغضب الذي يغلي في داخله. في كل مرة يغضب فيها، كان يرفع أكتافه، وكان هذا مؤشراً على حقيقته الشديد مما يذكرني بضرورة التزام الهدوء وضبط النفس، ولكن هذا لم يكن يعني من أن أكرر ذلك بعد قليل.

كل عام، يتم الاحتفال بعيد المولد النبوي في حي العبيد. في هذا اليوم كانوا يملأون الأطباق الخشبية بالزيت، وهي خليط مخصص للموالد، مصنوع من طحين القمح المحمص، ويضاف إليه الزبدة وجوز الطيب، والمسكة، والعسل الصافي، والقرقة، والسمسم، واللوز المقشور والمقلي. كانت الزيتة تقدم على شكل جبل من الخليط الأسود المكسو بالسكر الناعم، إنها حلوى لذيذة جداً.

منذ الصباح كنا نسمع قرع الطبول، يرافقها عزف موسيقي على الكمان، والعود، والأناشيد الدينية. كنا نبط إلى أسفل الشارع ثم نصعد السلالم التي تؤدي بنا إلى شرفة تطل على حي العبيد. النساء ارتدين قفطينهن الملونة. كل الألوان كان مسموحاً بها ما عدا الأبيض والأسود. لطيفة زوجة الملك، كانت الأكثر أناقة، وزينة أيضاً، كانت حليتها، بروعتها، تطفئ على ما لدى الأخريات. أخوات الملك، ولمياء زوجة أخيه مولاي عبدالله، كن يرتدين نفس تصميم ونقشة القفطان الذي تضعه هي، ولكن بألوان مختلفة، وأحزمتهن جميعاً كانت من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة. كن يضعن الأقراط، والعقود، ويغطين قسماً من شعورهن بشبكة مزينة بحبات اللؤلؤ. من موقعنا كنا نشترك بحضور استعراض حي رافع. كل العبيد، المرضى، المصابون بداء الصرع، والرهو، والروماتيزم، كانوا يخرجون، من قبة، ويشرعون بالرقص أمام أنظارنا على وقع العزف والأناشيد الدينية. كانوا ينسجمون ويغنيون في هزات للتخلص من الجفن الذي يتلبسهم، والأرواح الشريرة التي تسبب لهم أمراضهم. أحد العبيد يصل وهو يحمل وعاء مملوءاً بقشور ثمار الصبار. كانوا يأخذونها بين أيديهم دون أن يشعروا بأي ألم من جراء وخز الأشواك، والبعض منهم يشربون الماء المخلط مباشرة من الإبريق دون أن يشعروا بأقل ألم، ولا يصابون لاحقاً بأي جرح أو نوبة من جراء ذلك.

هذا الاحتفال بالمولد كان يقام رسمياً في قصر مكناس . وأيام عهد محمد الخامس كانت تحدث أمور أكثر فظاعة، هكذا كانت تروي أم سيدي:

- كنا نشاهد وصول المصابين الذين شدخوا رؤوسهم بفرس يحملونها بأيديهم.

عندما نسمع هذا أنا وللا مينا كنا نرتعد خوفاً. في قصر الرباط، كان الحسن الثاني، يسيطر على الوضع بشكل أفضل. أنا ولطيفة أردنا البدء بمجاراتين برقصهن الإيقاعي، لندخل مثلهن في غيوبة تسليخنا عن الواقع. لكن الملك نهى زوجته بعنف قائلاً:

- مكاتتك لا تسمح لك بالتصرف مثلهن، إتهن تحميك من الجن والتلبس.

هكذا كانوا يفسرون الحياة في القصر. الجن يهاجم فقط الإماء اللواتي ولدن لأعمال السخرة والعبودية، ويعف عن الأميرات. ولكل مكانته وطبقته التي لا يستطيع تجاوزها أو تخفيها. كل شيء يميزي قدماً على هذا النحو إلى الأبد.

أعياد أخرى كانت تمنحنا البهجة والفرح. مثل عيد الكحل الذي كان يتزامن مع فترة نضوج العنب، وكان يسمح فيه للفتيات الصغيرات بوضع مساحيق التجميل. لترطيب القشة التي يوضع فيها الكحل، كنا نبللها بغرزها داخل حبة عنب. وتروح كل واحدة منا تنتظر دورها كي يتم تكحيلها مثل امرأة في جو من الضحك والمرح.

في عيد الماء، كنا نرش بالماء كل من يقع تحت أيدينا. إنه نهار الفرح، كنا نخشى في الظلال ثم نروح نتمتع بمراقبة ضحاياتنا. كان الملك يستمتع كثيراً وكنا غالباً متواطئات معه، وبعد أن يكتفي ويقرر إيقاف اللعب، بإشارة منه، كنا نسارع أنا وللا مينا بقذف سطل ماء خلفه. كان يحتج علينا وهو يهددنا بأن يجعلنا نلقى المصير نفسه، ثم نغرق ثلاثتنا في الضحك من أعماق قلوبنا. ولا يلبث أن يشار كنا للجميع الضحك وتعم البهجة المكان.

كنت أحب أيضاً عيد الحشيشة الخضراء، وهو عيد للأطفال يقام في البهو المزين بغرف ذات قباب، كنا حوالي عشر فتيات، نحاول الطهو أمام المواقد الصغيرة، بإشراف مربياتنا. كنا نتكر بقفطان بيتي صغير، ونرفع أكمامنا مثل الكبار إلى أكواعنا بالمطاط. كل الأدوات كانت في متناول أيدينا وبمستوى قاماتنا. كان الملك يأتي لاحقاً ليتذوق ما قمنا بتحضيره. بعد أن يعلق قليلاً على هذه الإنجازات المطبخية كان يدفع ثمن ما التهمه وهو يعانق الراحات.

لم يكن الملك يحب تناول الطعام كثيراً، لكنه كان يحب اختراع بعض الأطباق ووضع بعض المقادير من مخيلته. غالباً ما كان يقيم مطبخاً في غرفة طعام القصر، يقوم فيه بإعداد أطباق من صنعه، تذوقها وتلتهمها، ولم تكن دائماً للذيذة، ولكن لم يكن بيدنا حيلة، إذ كان يجب أن نقضي عليها ونحن نتصنع التلذذ والابتسام قائلين: سيدي، ما أَلَذَّ طعمه الذي يسيل له اللعاب!

ومع هذا، كان لا يحتمل فكرة أن يزيد وزناً، فهو قد وعد للاً مينا بمفاجأة سارة إن هي نجحت بالتخلص من وزنها الذي زاد بعض الشيء خلال فترة المراهقة. أثناء إجازة في طنجة، اتبعت حية سراً، ثم أعلنت له فجأة أنها خسرت أربعة كيلوغرامات. التزم بوعده وأعلمنا بأنه سيقم «حفنه».

صعد إلى شرفة تطل على البهو الكبير، وإلى جانبه جارتان، تحملان كاسات ممتلئة بقطع النقود النحاسية القديمة. كل واحدة منها تساوي ما بين عشرة وخمسين فرنكاً فرنسياً. أم سيدي، للابية، لطيفة، والجواري، ونحن، كنا نحتشد جميعاً في الأسفل، وأنا وللاً مينا كنا نقف في وسطهن، بانتظار أن يلقي علينا المال بغزارة. كان الدمع يتساقط من عينيه لكثرة ما يضحك وهو يرانا نجو على أربعة إشر المال. معظم الجواري كنَّ يعتمدن القيام بحركات الخفة والظرافة من أجل جذب انتباهه. أما أنا فلم أكن أنبس بينت شفة، كنت أستغرق كلياً في جمع النقود وتكديسها. عندما كان ينزل إلى البهو، كان يستطلع من كل واحدة مئاعن قيمة المبلغ الإجمالي الذي نجحت بتجميعه. كان الجواري يشرن إلى قائلات:

- سيدي، إنها هي من جمعت أكثر.

وسرعان ما يطلب مني أن أريه غيمني، فأكشف طرف تنورتي الذي أمسكه بيدي، حيث كنت أحفظ يا ألقطه من نقود، وكنت كثيراً ما أحظى بعدد هائل من تلك القطع. ويبادرني الملك قائلًا:

- لقد عملت جيداً، ولكن لمن ستعطين هذا؟

- سأقدم هذا إلى أُمِّي.

هذا الجواب كان يزعجه بعض الشيء. لم يكن يحتمل أن أنساه، وألا أحسب له حساباً. لسوء الحظ أن ريفل صادرت لاحقاً كل ما جمعت، وهي تقول لي:

- أنت أصغر من أن تدير كل هذا المال.

في عمر الثانية عشرة، تقبوا لنا أذانتا خلال احتفال خاص، بنفس أهمية احتفال الميلاد والزواج. ويُستقبل هذا الدخول إلى عالم النساء أيضاً بالأهازيج والأناشيد، وحفلات العمارة، وزغاريد الجوّاري والعبيد. للامينا التي كانت خائفة من أن يؤلمها ذلك اختبأت وأجبرتني على مجاراتها. غضب الملك من هذا، وعندما وجدني أجبرني أن أكون الباذخة كي أعطي مثلاً في الشجاعة لأخيه التي لم يتحمل جنبها. بعد ذلك توجهت النسوة نحونا لتهنئتنا وتقبيلنا، ورحن يزغردن بينما كان الموسيقيون يعزفون بقوة على الطبول.

بمقدار ما كان محمد الخامس يوصد أبواب قصره، بمقدار ما كان ولده الحسن الثاني يفتحها ويشرعها.

أما الاحتفالات الدينية فكانت تُقام على نطاق البلاط، لكن الملك كان يقيم حفلات عامة يدعو إليها الطبقة الاجتماعية المخملية، والضباط، والممثلين والشخصيات الأجنبية التي تزور المغرب رسياً.

كنا دائماً نتحمس لمقابلة «ناس الخارج»، ونتهيب ذلك. فالغرساء عن القصر كنا نحترقهم للدرجة أننا لم نكن نرغب بالاحتكاك مع أي شخص كان. كنا نظل مع بعضنا البعض كحلقة في وجه أي غازٍ أو محتاج.

خلال حضور أي استعراض، كان الملك يجلس في المقدمة، والملكة الأم في الخلف، وزوجته على الطرف، ونحن جميعاً نجلس جنباً إلى جنب في الصف الذي يقع خلفه مباشرة. أثناء هذه الاحتفالات والزيارات الرسمية، كنت غالباً ما أقابل رؤساء دول وشخصيات أجنبية. وأذكر أن عبد الناصر قال لأبي بأن لي ابتسامة جميلة.

ملك الأردن أتى لقضاء إجازة في إفران، كذلك جاء الشاه والشاهبانو ومليك بلجيكا بودوان وزوجته. ومع أنّي لست معتدة ولا مغرورة إلا أنني لم أتأثر أو أعجب بأي منهم آنذاك، لأنهم كانوا بالنسبة لي من «أناس الخارج».

في أحيان نادرة كنا نهرب من القصر لزيارة مولاي عبد الله، الأخ الأوسط للملك، الذي كان يسكن مع زوجته لمياء؟ بلّا في حي أكنال. كان طويل القامة، أنيقاً، أسود الشعر، عيناه مخمليتان مثل رودولف فالنتينو. كان يهز كل قلوب النساء بجماله ولطافته. كان يعاشر نجوم السينما، وكل مشاهير

العالم. وفي عيد ميلاده، كانت طائرة خاصة توضع تحت تصرفه.

لكنه كان صديقنا، وغماً سرنا. كان يحسن الاستماع إلينا، وينصحننا ويهديء خواطرننا، بكثير من الرقة والإنسانية. كي يسلِّبنا ويرفه عنا، كان يستحضر فرقة موسيقية صاحبة إلى بيته، بالإضافة إلى بعض الأصدقاء، حيث نقضي طوال بعد الظهر بالضحك والرقص الجنوني. كان يصطحبنا على الدراجة في جولة على شاطئ البحر، في جو من الحرية المحدودة نسبياً، إذ كان يحيط بنا عشرات من المراقبين والحراس بأسلحتهم.

أحياناً كنا نذهب لإيقاظه في الصباح. كان يستقبلنا وهو في فراشه ويروح يمازحنا ويلاعبنا بحرارة. قدم لي مجموعة كبيرة من ملابسه الفاخرة، من بذلات، وربطات عنق، وكترات من الحرير الكثيف، قدمتها بدوري إلى خلّائي وحيد وعز الدين. أعطاني أيضاً نظارة شمسية لم يكن ليغرض بها، كانت عربون محبته لي.

كان شرفاً كبيراً أن أستخدم أغراض الملك وأغراض عائلته. فالملك يمنح ملابسه للرجال المقربين منه، ومستشاريه، وبعض وزرائه. عندما عدت إلى البيت، كنت أستغرب أن أرى أبي وهو يرتدي قمصاناً عليها الختم الملكي.

أنا والملك

قلّما كان يمرّ يوم بدون وقوع مشاكل وخلافات بين الجوّاري، وكان هذا الواقع بمثابة الحيز اليومي في حياة القصر الرتيبة، ويضفي بعض الحيوية والحركة في أجواء القصر الجامدة. ينقسم الجوّاري إلى مجموعات متناحرة، كل مجموعة متكافلة متضامنة ضد الأخرى. لذلك ما إن كان يلوح في الأفق خلاف ما، حتى تعمل كل جهة على تأجيج النزاعات وصب الزيت فوق النار، لخلق حالة من الإرباك والبلبلة في صفوف المجموعة المناوئة لها. كل واحدة منهن تريد أن تكون المحظية الوحيدة عند الملك، ولا تحتل أن تسبقها أخرى إليه. وحين وصل الموسى إلى ذقني، لم أُنَج بجلدي. ففي أحد الأيام تصادمت مع إحداهن لأمر سخيف.

أثار انفعالي لسانها السليط. فصرخت بوجهها وقد أعماها الغضب من صفاقتها: من تغنين نفسك؟

أجابتنى بتحد: أنا جارية سيدي؟

فقلت لها بدون تفكير: أما أنا فإنتي ابته!

لا غرو، إذ إنتي لطلما كنت اعتبره مثل أبٍ ثاني لي.

صحيح أنه كان صارماً، ولكنه كان في الوقت نفسه متفهماً ولين العريكة. لذلك كنت أحبه وأكن له التقدير، والاحترام. عندما كنت ألتزم يده تعبيراً عن ولائي له، كنت لا أكتفي بذلك بل أسارع إلى لثم الأخرى.

كان يضغط بيده على شفتي بحنان ليعلمني أن رسالتي وصلته، وأنه يمكن لي شعوراً مماثلاً. كانت السنوات الأولى من توليه الحكم حافلة بأجواء التسلية والفرح. كان مفرغاً بالكامل تقريباً للاهتمام بنا أنا وللامينا، والسهر على راحتنا. فهو لم يكن بعد قد رزق بأولاد. كان يقضي معظم الأمسيات معنا في فيلا ياسمينية حيث نغني معاً بعض الأغاني القديمة التي أعزف لحنها على البيانو، أو يراقص على أنغامها للامينا التي أقنعتها أن تطلب منه آلة موسيقية كهدية لعيد ميلادها القادم. لقد كنت شديدة الوله بالموسيقى والعزف. كنت أتمنى أيضاً أن أتعلم الرقص ولكن أطباء اللامينا لم يشجعوا على ذلك، لأنهم اعتبروا أنها ما تزال صغيرة، وأن الرقص سيؤثر على نموها الطبيعي. أما هي فلم تبال ألبته، بعكسي أنا، لأنها كانت مشغوفة حياً بالخييل، وذلك لم يترك لها لحظة فراغ واحدة لأي اهتمام آخر طوال حياتها. وإرضاء لشقيقته، أمر الملك بإعطائنا دروساً في الفروسية التي كنت أمقتها شخصياً. كانت واجباً ثقيلاً لا بد منه. كان الملك يريد أن يجعل مني فارساً بالقوة مثله ومثل أبي. أعتيتي الخيل، والحجج، والأكاذيب، فكلما اختلقت واحدة تبعد هذا الاستحقاق عني، انكشف زيف ادعائي أمام الملك الذي بات أشد إصراراً على وضعي على صهوة الجواد بالقوة، حتى ولو أدى هذا الأمر إلى قتل.

لم أرد قط إزعاج الملك، ولم أصطنع مطلقاً التفور من الخيول. كنت كلما اقتربت منها أشعر بالاختناق، ولم أعرف طوال حياتي سبباً منطقياً لذلك. بعد أن انكشفت خدعة الإسهال، والحرارة استعصت عنها بخطط متهورة وجنونية، تعمدت أكثر من مرة السقوط عنها على الأرض وأنا أصرخ بطريقة مسرحية: النجدة... كسرت يدي... أي ي... كسرت ساقني. كانوا يبتون بهلع لنقلي بسرعة البرق إلى عيادة الطبيب الذي يهده من روعهم وهو يقول: اطمئنا كل هذه الضجة المقتعلة من

أجل لا شيء... إنها على أفضل ما يرام. وما إن يغادر الغرفة حتى تدخل الجوّاري محمّلات بشتى أنواع الحلوى للمريضة المزعومة التي هي أنا!

لم يفهم الملك أبداً كيف يمكنني أن أكون على هذه الدرجة من الجبن. كان لا يفتأ يردد، وهو يغلي من الغضب كلما أخبروه عن قصصي:

- لا يهم، كلما سقطت عن الجواد ضموها بسرعة فوقه وبدون أي تلكؤ أو تباطؤ، ولو أدى هذا إلى قتلها.

في أحد الأيام تلقينا رسالة استدعاء لركوب الخيل في النادي الملكي للفروسية في تمارة التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن الرباط. كان المشرف على هذا المكان الكولونيل الفرنسي لافوريه الذي كان يقيم أيضاً دورات تدريبية للضباط، ولكل من يرغب تعلم ركوب الخيل وإتقانه من البلاط، وحتى النساء اللواتي كن يذهبن إلى تمارة بالملاهي المخصصة للملك. عندما وصلنا إلى تمارة قمنا بجولة على الخيل برفقة الجنرال شخصياً، وصل بنا المطاف إلى مكان يسمى الميدان، وهو بمثابة مربط الخيول الملكية التي كانت تحتال برشاقة وخفة كشبه نارية.

أخذتني روعة ذلك المنظر الجميل، ورحنا نستعرض تلك الخيول التي كانت تصطف جنباً إلى جنب في صف طويل لا نهاية له. وكما كانت خيبي كبيرة، عندما أطل جحش صغير برأسه الذي كان ينضح بالضعة والبلاهة. يا للمسكين، كم كان منظره مضحكاً وسط تلك الخيول الملكية المطهّمة. وهل تجوز المقارنة في هذا الموضوع؟ واضح أنه من العبث، حتى للأعمى، إجراء مقارنة كهذه.

انقبض صدري، وانتفضت كمن لدغته أفعى، لقد أدركت فجأة أنه أحضر خصيصاً لي. غلت الدماء في شراييني، ولكتني لم أجرؤ على التنفّس بحرف واحد. ماذا أراد الملك؟ إذلا لي؟ ... إنه يجبرني على امتطاء هذا الجحش، بينما أهل القصر يعتلون تلك الخيول البديعة.

تقدم الملك مني قائلاً:

- هذا لك أيتها الجبانة!

أسودت الدنيا في عيني، وسيطر علي إحساس هائل بالمهانة. لم أعد أذكر بقية الوقائع التي حصلت في ذلك اليوم الجهنمي، ما بقي عالقاً في ذاكرتي فقط هو أنني سجت ساعتين متواصلتين في إحدى غرف الإسطبل المعتمة، ممّا أفزغني وأرعيني كثيراً.

تشتهر مدينة فاس ببيائها المعدنية ذات القدرة السحرية على الشفاء من أمراض كثيرة مستعصية، مثل الروماتيزم والريو. لذا كان الناس يتوافدون إليها من أرجاء المعمورة للشفاء والعلاج، بمن فيهم نحن، أعني الملك، والجواري، وللا مينا وأنا. كنا نواظب على الذهاب إلى فاس للاغتسال بمياه ينابيعها المقدسة صحياً.

ما كان يزعجني ويكدر علي صفوي هو اضطراري إلى نزع ملابسي بالكامل، فذلك كانت أوامر الملك، وكيف أجرؤ بعد على مخالفتها. لقد فعلت هذا مرة واحدة، مما كلفني غالياً جداً. آنذاك كنت في الحادية عشرة من عمري ويسيطر علي شعور طاع بالخجل والحياء، لكن الملك أساء فهم تصرفي عندما وجدني أسبح في الحوض بسرولي. زجر وغضب، إذ كيف أجرؤ على توجيه هذه الإهانة إليه. لقد كان الرجل الوحيد بيننا، ولا مبرر لفعلتي إلا إذا كنت أشك بنزاهته وأخشى على شرفي وعفائي منه. أمرني بحدة أن أنزع سرولي، ولما رفضت، قام بنفسه بخلعه عني. بكيت بحرقة ولوعة وغمرت نفسي داخل ماء الحوض. بقيت هناك حتى ساعة متأخرة جداً من الليل، خائفة أن يراني أحد ما وأنا عارية. بالطبع لم أشك قط بنوايا الملك السليمة والتي كانت فوق أي شبهة. كل ما في الأمر أنني كنت صغيرة، ولا أطيق أن أظهر عارية أمام أعين الآخرين.

كانت مدينة الدار البيضاء مسرحاً دائماً للعديد من التحركات الشعبية والتظاهرات، والاحتجاجات، مما أحدث شرخاً عميقاً بينها وبين الملك الذي دفعه استياؤه إلى أخذ موقف غير معلن منها. فانتكفاً عن زيارتها، وعافت نفسه قصره الملكي فيها. وما زاد الطين بلة، طقسها المشبع بالرطوبة الذي يضر بصحة الملك، لأنه يهيج التهابات جيوبه الأنفية المزمنة التي كان يعاني منها، لذا كان يتحاشى زيارتها إلا لماماً. وإذا حصلت المعجزة مرة ما، كان يمكث في القلعة الخاصة بأبيه محمد الخامس، القائمة على شاطئ لا يرتاده إلا أفراد العائلة المالكة.

كان الجميع يسبح عارياً هناك بمن فيهم أنا، ولم العجب؟!

بت أفعل هذا بتقائية، وبدون إحراج بحكم العادة، وأسوة بالملك، وللا مينا، والجواري.

في الدار البيضاء، في القلعة، غرفة تتكوم فيها الهدايا وتتكدس على شكل جبل مزركش. لم يتسن للملك أبداً الوقت الكافي كي يفتحها ويطلع على محتواها. كنت أتمرق رغبة وفضولاً لنزع الورق عن واحدة منها على الأقل، كي أكتشف ما بداخلها، ليس بهدف الامتلاك بل للاطلاع! عندما حان وقت

القبيلة، قررت تنفيذ ما كنت قد عزمت عليه. كان جميع من في القلعة يرقدون نياماً. وأنا أمد يدي لأتاول واحدة من الهدايا، انهار عدد لا بأس به منها وسقط على الأرض محدثاً جلبة وضوضاء. ومن سوء الحظ أن غرفة الهدايا كانت تقع بالقرب من الغرفة التي كان يرتاح فيها الملك. كان يعمل بإيقاع أعرفه من بين الآلاف. لذلك تجمعت في مكاني. ثم سمعت صوته وهو يسأل:

- أين هو الشيطان؟

كان يعرف مسبقاً الجواب، فالشيطان لا يمكن أن يكون سواي أنا. بحثت بهلع عن مكان أختبئ فيه، فلم أجد أمامي إلا رافعة للأوزان فانزلت بداخلها. لقد علقت حيث أنا، ولم يعد بإمكانني الفرار أو الهرب، لأنه قبع في داخل الغرفة، ثم نادى العبيد والجواري وأمرهم جميعاً بالبحث عني. ساد الهرج والمرج. أضحت المسألة كلعبة الغمضة. كنت أرتجف داخل غبشي كريحشة في مهب الريح، وهو كان يزداد تصميماً وإصراراً على متابعة التفتيش والبحث. عندما أسقط بأيديهم جميعاً وأعلنوا عن يأسهم بالعثور على الجاني، خطر للملك أن ينظر بنفسه حيث كنت أختبئ.

أمرني بالخروج فوراً، وأنا أرتجف، فلم يكن بد من الامتثال لأمره.

انتهت هذه الحادثة على خير. ساعني الملك وغرقنا جميعاً بالضحك. ربما لأنه يعرف جيداً أنني لم أفعل هذا بدافع الطمع أو السرقعة بل بهدف الاستكشاف والاستطلاع!

لكن الملك كان يستطيع إظهار منتهى الصرامة والحزم. عندما كنت في الثامنة من عمري، أنزل بنا أنا وللا مينا عقاباً لا ينسى. لم أعد أذكر نوع العقاب التي ارتكبناها لنستحق عليها هذه العقوبة أمام جميع من كان في قنطرة. حيث أمر الجلادين بالإمساك بأيدينا وأرجلنا وراح بنفسه يلسع بالسوط أقدامنا العارية.

عندما بلغت الخامسة عشرة تلقيت أول عقاب حقيقي. كان ذلك يوم تسليم الشهادات المدرسية للملك. وضعتها كالعادة على طاولته ثم جلست بجانب الجواري اللواتي رحن يهزأن مني ويشرن بطرف خفي إلى خييتي المدرسية. كنّ يعرفن أن علاماتي سيئة وأن عقاباً ما قد يكون من نصيبي ويانتظاري. تظاهرت بالتهاesk واللامبالاة وتابعت المزاح والحديث معهن. كان قلبي يخفق بين ضلوعي بقوة، خوفاً من الملك. لكنتي أجبرت نفسي على النظر بجرأة باتجاه الملك.

أشار بيده، فوضعوا أمامه الشهادات المدرسية.

بدأ بتصفّح شهادة للا مينا. ثم بصمت بالغ تناول شهادتي وأمعن فيها النظر. خلت أن دهرأ مضي عليه وهو يفعل ذلك. أخيراً رفع رأسه وأمر باستدعاء الجلادين.

جحد كلامه من في المجلس، تحولت أنظارهم جميعاً نحوي، كانت نظرات مثقلة بالإشفاق والرائاء، لأنهم كانوا يعرفون طريقة الملك بالتأديب. أشار لي جلالة بالاقتراب. أمسك بأذني وراح يشدني بها بقوة. ثم نادى الجلادين الذين قاموا بتمديدي أمامه فوق السجادة. ثلاثة منهم أمسكوني بممصبي وثلاثة آخرون أمسكوني بقدمي.

كان كبير الجلادين يقف جانباً ويديه السوط، ينتظر أوامر الملك.

عادةً الملك هو من يقرر عدد الجلادات. من المضحك المبكي أن الملك أمر فقط بثلاثين جلدة. لكنه لم يدع أحداً غيره يقوم بهذا الأمر. أحضر والاه طاولة صغيرة مرتفعة قليلاً عن الأرض ليجلس عليها بمحاذاة. حبس الجميع أنفاسهم، ولم تسمع في القاعة أي حركة تذكر. منع الملك أمه والملكة بيه من التدخل لمصلحتي.

وسط جو من الصمت المطبق، بدأ الملك بالجلد... الأولى... ثم الثانية... بعدها الثالثة. الصرخات الصغيرة التي كنت أطلقها أثارت شكاً وريبة لأن الجلدة الثالثة كانت عنيفة، ومع هذا لم أظهر أي وجع، وصرختي الصغيرة لم تتغير. انتفض الملك بعدما اتضح له خطتي. لم يتابع الجلد. بدلاً من ذلك وضع كلتا يديه فوق مؤخرتي وراح يتحسس بأصابعه سياكة ملابسني. فجأة صرخ من شدة الحق والغضب. لقد صحت توقعاته وشكوكه. فأننا كنت قد تحسبت مسبقاً لما يمكن أن يصيبي فقمت بأخذ تدابير احترازية فارتديت عدة طبقات من الملابس ذات القماش الجامد والسميك.

عندها ضجّت القاعة بالضحك من فعلتي، ولم تلبث العدوى أن انتقلت إلى الملك فشاركهم بدوره الضحك. عندها انتهزت الفرصة لأرتمي على قدميه وأهتف:

- سيدي، أقسم ألا أعود إلى هذا.

سرى هذا الخبر في أرجاء القصر سريان النار في الهشيم. لم يبق أحد إلا وعلم بالقلب الساخن الذي تجرأت على تنفيذه دون أية مراعاة لحيية الملك وسطوته.

في الأسبوع التالي، أتت النتيجة مطابقة تماماً للسابقة، هذا إذا لم أقل أسوأ. لم يعلق الملك أول الأمر بشيء. ترك بعض الوقت يمر قبل أن يطلب مني مرافقته في جولة إلى خارج القصر. بدا لي تصرفه

طبيعياً جداً. لم يخطر ببالي قط ما يدور في رأسه. كان من عادته أن يصطحبنا في الكثير من غدواته. ولم يكن هنالك ما يستوجب مني الحذر. أقلتنا السيارة إلى المنزل الذي كان يقيم فيه قبل أن يتولى العرش، والكائن في شارع الأميرات. كنت أحب هذه المنزل كثيراً. في طريقنا إليه مررنا من أمام القلعة التي يسكن فيها أهلي، مما جعلني أشعر بالنشوة والانشراح، للدرجة أنني استغريت عندما طلب مني الملك نزع ملابسني، ولم يخطر ببالي سبب ذلك، وقبل أن أعي الأمر، أدخلني إلى غرفة صغيرة حيث خلع عني الجوازي ملاسني. وألبسني مكانها ملابس رقيقة جداً. كان تأدياً مؤلماً ودموياً. بكيت من شدة الألم أسابيع طويلة. وما زلت أحتفظ في مخزني حتى الآن ببعض الآثار.

كنت متأكدة أن أهلي لن يعاملوني أبداً بهذه الطريقة. لقد نذبت كثيراً حظي العاثر الذي أبعدي عنهم.

مرة أخرى، تابعت سيرتي الأولى. كانت شهادتي المدرسية سيئة للدرجة أن رئيس التشرقيات أخذته الرأفة بي فوعدني أن يتوسط لي بنفسه ليستدر عطف الملك، علني بهذا أنجو من العقاب.

بينما كان الملك متوجهاً إلى ملعب الغولف قطع عليه الطريق وارتمى أمام قدميه طالباً منه أن يساعمني.

نظر إليه الملك نظرة جامدة ثم قال:

- من أنت؟ ومن تكون حتى تتجرأ على التدخل بأمرها؟

يا لذلك المسكين، بما لحق به من الخزي والمهانة. بعد أن مسح به الأرض، أمر به الملك أن يجلد مكانه.

لا أحد في العالم ينجو من العقاب الملكي، خصوصاً إذا كان الملك يرى أن انجائي يستحق ذلك. فيما يخصنا، كان يرى أنه، بهذا التصرف، يتصرف تصرف الأب.

كان الملك أبوياً جداً معي ومع لامي، كان يشرف بنفسه على أدق التفاصيل التي تتعلق بسير أمورنا. عندما لاحظ أننا غلدنا شابتين في الخامسة عشرة من عمرنا قرر أن يختار لنا بنفسه ملابس مناسبة وجديدة. لم يكن ذوقه سيئاً، لكنه كان للأسف كلاسيكياً للغاية. فقد استدعى الخياطة وأمرها بتنفيذ جهاز كامل لنا يشمل الملابس الداخلية والخارجية.

كان يحضر بنفسه جلسات القياس، ولا يترك لأحد حرية تحديد الطول المناسب. كان يرى أن

الطول يجب ألا يقصر عن مستوى الركبة . لذلك لم تفلح كلٌ توسلاتي بدفعه إلى تغيير رأيه والسباح لي بتقصير تنانيري .

وأمام رفضه، لجأت إلى اختيار أثواب صوفية رقيقة كي أتمكن من رفعها بحزام ما إن ألتقطى عتبة القصر . هكذا كنت أمشي وأركض بدون أية إعاقة تضيق خطواتي .

عندما كنت أتمرّ أحياناً على فعل هذا في ممرات القصر، كان الجميع يضحك مستغرباً جسارتي . لأن عرض السبقان كان من المنوعات المسلّم بها في القصر .

كنا آنذاك في الستينيات، وكانت التنانير القصيرة هي الموضة السائدة .

صحيح أننا كنا نعيش في دائرة شبه مغلقة، ولم يكن لنا أي احتكاك مع الخارج، إلا أننا كنا على اطلاع كامل بكل أخبار الموضة، وتتابعها بالتفصيل أولاً بأول، بفضل المجلات والجرائد المحلية والعالمية التي كنا نواظب على تصفّحها في الخفاء، وبعيداً عن عيون ريفل .

كانت لطيفة، الملكة الأم، والجواري أيضاً، يلبسن في المناسبات أحدث الموديلات في عالم الموضة . في أحد الأيام بينما كنت أمرّ في أحد أطول الممرات، وتورتي مرفوعة بالحزام إلى ما فوق الركبة، لم أقاوم الرغبة في النظر إلى المرأة التي كانت تزيّن الحائط . في تلك اللحظة رأيت الملك وجهاً لوجه أمامي .

بهلع شديد، رحت لا شعورياً أشد بأطراف ثوبي نحو الأسفل . اقترب مني ونزع الحزام الذي كان يحمي بخصري فانهل ثوبي نحو الأسفل . عندها قال لي: عندك ما يكفي من قماش بحيث إنه بإمكانك لو شئت أن تحوليه إلى قفطان .

بعد يومين من ذلك وصلت خياطتنا العزيزة . كنا بصدد تناول طعام العشاء . استدعاني وأمرني بنزع ثيابي . نفلت ما طلبه منّي بانقباض تام وانكماش . أعطتني الخياطة البدلات التي كان قد أمرها الملك بخياطتها كي أقبها . الأولى كانت مصنوعة من قماش صوفي . كانت تورتها طويلة وضيقة فوق اللزوم . كان تصميمها يحاكي موضة الخمسينيات .

اقترب الملك وأخذ الدبابيس من يد الخياطة، ثم راح يتحسس سبائك القماش . كان من المستحيل رفعه كما كنت أفعل بالأثواب الصوفية الرقيقة . أمرني أن أروح وأجيء أمامه في الغرفة . وبعد أن استعرضني مطولاً أمر بشراء حذاء ذي كعب عالٍ ليتلاءم مع هذه البذلة التي لا مناص لي من

ارتدائها.

تدخلت إحدى الجوارى لافة الانتباه إلى أنني طويلة جداً، وأن الرجال لن يرغبوا بي لأنني سأفأوزهم بهذا الخذاء طويلاً.

بحركة من يده أبدى امتعاضه من رأيها، ثم توجه إليّ بالحديث وقال:
- الكعب العالي جيد لأنه سيجبرك على تحريك ركبتك. وهذا تمرين جيد وسيمنحك قدراً رقيقاً وناعياً، مما يجعلك تبدين كامراًة.

مراقبة وحيدة

كانت ريفل تكره الرجال وتحترقهم، ولا تملّ أو تستعب من تخويفنا وتحذيرنا منهم:
- حذار من هؤلاء الوحوش، إنهم مصدر عذابات النساء. يجب علينا أن نتجنبهم مثلما نتجنب الطاعون والكوليرا!

هذا العداء المعلن للرجال لم يقتصر على الحيز النظري بل تعداه إلى الحيز العملي، لأن ريفل فرضت علينا تدابير احترازية، تقينا من أي تلوث قد يصيبنا من هذا الوياء الخبيث.
التعليقات والإرشادات الصادرة عنها في هذا الشأن واضحة لا لبس فيها، وهي كناية عن قائمة ممنوعات، علينا التقيد بها حرفياً وتنص على ما يلي:

- ممنوع التواجد مع أي رجل في الممر.
- ممنوع إقامة أي علاقة عائلية مع أي رجل.
- ممنوع النظر من داخل السيارة إلى الخارج. وعندما كنت أفعل هذا أحياناً بدافع الفضول، كنت أتلقي منها صفعة قوية تطير صوابي.

عندما يحالفنا الحظ مرةً بالذهاب إلى المدينة، كانت تمنعنا من الترحل من السيارة أو التجول.
هذه الإجراءات الاحترازية لطرد «الشیطان» ومنعه من الاقتراب منا لم تكن مجدية البتة، لأن الرجال لم يكن لهم الحق بالهجيء لرؤيتنا أو الدخول إلى القصر باستثناء أبي، وهو نادراً ما يفعل ذلك، وابن عم الملك مولاي أحمد، بالإضافة إلى مجموعة «طريقة» لا تتعدى عشرة أشخاص تم اختيارهم لسعة علمهم، وذكايتهم، وأخلاقيهم...

كان هؤلاء يتجادلون فيها بينهم طول الوقت في المواضيع السياسية، لا سيما منها المتعلقة بسياسة «جلالت»، ويتفكرون منها إلى المواضيع الأدبية، يتبارون فيها بينهم بتلاوة الشعر العربي القديم، تماماً كما كان يحصل في بلاط هارون الرشيد في العصور الغابرة.

نعم هذه شاكلة الرجال الذين كان يحق لنا غخالطهم بالإضافة إلى الملك، هذا إذا جاز لنا استبعاد العبيد والخدم، إذ وجودهم وعدمه سيان.

ومن المفارقات المدهشة والغريبة أن من كان يعطينا دروساً في التربية الجنسية من خلال النصوص القرآنية لم يكن إلا قبيهاً كهلاً. كان يقول لنا بأن النساء خلقن فقط للطاعة وللإغراء والإثارة. وظيفتهن الأساسية إمتاع الرجل وإشباع رغباته وشهواته الجسدية، فأجادهن إنما خلقت لهذه الغاية.

بكل وقاحة كان يرسم لنا على اللوح الأسود الكبير الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة. كانت هذه الطريقة الفجة في التعليم تسبب لنا الصدمة. إذ لم تكن مهيآت بعد لاستقبال هذه الشروحات المستفضة، كنا صغيرات جداً وتربيتنا التي كانت مترتبة إلى أبعد الحدود لم تكن تسمح بمثل هذا النوع من الصراحة والواقعية. وما كان يريكننا ويزيد صدمتنا هو كيف يمكن أن تترك الحرية لرجل دين للخوض بحرية مطلقة معنا في هذا الموضوع الدقيق والحساس. إنه رجل يفترق إلى أبسط قواعد التربية العلمية السليمة. للأسف لم يكن يعول على ويفضل أن تصوب أو تصحح بعض المزامم والفرضيات التي يأتي بها ذلك الفقيه. إنها تتعاطى مع كل ما يمت إلى الأنوثة بصلة بنوع من الرفض والعداء. إنها تعتبر الأنوثة لعنة يجب مكافحتها ومحاربتها، لأن الإذعان لها مكروه وحرام.

كيف أنسى كل العار والهوان الذي شعرت به عندما بلغت، مع أنني كنت آنذاك في الثانية عشرة من عمري. إن الألم الذي انتابني كان نفسياً أكثر منه جسدياً. شعرت بالوحدة والضياء، والإذلال. كانت الحاضنات المغربيات مكلفات رسمياً بالإشراف على حسن سير أمورنا خلال فترة الحيض.

المسألة معقدة وبمعيدة عن أي تبسيط. هنالك قواعد وأصول يجب تطبيقها ومراعاتها:

- الحفاظ على النظافة البدنية والصحية.

- وضع فوط صحية قماشية بطريقة خاصة ومعيّنة.

- تعلّم كيفية غسل هذه الفوط بأنفسنا بعد الانتهاء منها.

- تعلّم كيفية الاغتسال من هذا الحدث والتطهر منه.

تلك الحاضنات كن يتعاملن معنا بقسوة شديدة. كان هن الحق الكامل باستدعائنا في أي لحظة، يأمرتنا بخلع سراويلنا الداخلية ليتأكدن بأنفسهن أننا لم نلطخها بدم النجاسة.

والويل لنا إذا ثبت الجرم على إحدانا، لأن الحاضنة كانت تنقم من المذنب أشد الانتقام، بأن تقرصها قرصة موجعة في المواضع الحميمة من جسدها. حتى إن حاضتي لم تتورع مرة من إدخال المفتاح الذي كان بيدها بين فخذي بعنف شديد مما سبب لي الألم مبرحاً.

العادة الشهرية كانت دائماً بالنسبة لنا بمثابة البلاء العظيم، كنا بسببها نعامل من قبل الحاضنات باحتقار، وكأنا اقترنا خطيئة ميمة لا تغتفر، أو كأننا صرنا في مصاف الخاطئات والساقطات.

كم كنت بحاجة ماسة إلى أم أو أخت كبيرة تصني لي وتسمعي! تشرح لي هذه التحولات الطبيعية التي تطرأ على جسدي، تطمئني وتخفف عني، تهلئ روعي في هذه الفترة العصيبة والحاسمة من حياتي الإنسانية، وتقول لي إنه مدعاة للفرح والسعادة أن أصبح امرأة، وإنه لا يحق لأحد أن يعاملني بعنف وإذلال، ولا داعي البتة أن أشعر بأي عقدة نقص أو ذنب!

حاولت أن أستعيض عن غياب أهلي بصحبة الجوارى. في البداية تجاورن بحرارة، احتفلن بانضمامي إلى شلتهم. أصبحن يتحدثن أمامي بصراحة وحرية، ويأتمنين على أخبارهن وأسرارهن. بعد سنتين تغيرن كلياً معي، صدمني هذا التحول المائل ما بين ليلة وضحاها، خلت للوهلة الأولى أنني أنا السبب. ريباً فعلت شيئاً أثار تقمتهن وعدائتهن.

يا لبساطتي وسلاجتي. لم أفهم حينها أنني أصبحت شابة بعمر الزواج وأنتي أصبحت أشكل منافساً خطراً لمن. كن يدققن النظر في جسدي عندما أكون في لباس البحر، أو أرتدي الملابس العصرية، أو عندما أترين وأتجمل. لقد شئت حرب خفية ضدي. كن يعملن بلا هوادة على استغزائي وإخراجي عن طوري. كل هذا الاستفزاز وكل هذه الحروب والمعارك كانت للتقاتل على الملك؟ يا لسخرية القدر! ويا لتلك الحمقوات! لقد أهدرن كل تلك الطاقة على شكوك من صنع رؤوسهن الفارغة الصغيرة، لأنني لا أعتقد البتة أن الملك خطر له يوماً أن يطلبني للزواج لأن هذه الفكرة لم تراوده حتى في المنام!

كنت أعيش بوجهين، وقلبين، ولسانين! أنظاها أمام الجميع بالسرور والمرح والضحك والابتسام، ولكن الغصة والحزن والهم كانت تنغص حياتي وتكاد تقتلني. أين أمي لتذود عني

وتحمني من جور هذه المربية ريفل التي لم تترك يوماً يمر دون أن تذكرني أنني كائن ضعيف، وأن للا مينا أرفع مني قدرًا وشأنًا. كانت تمنني من أن ألبس مثلها، أو أبقى شعري طويلاً، لأن هذا يندش مشاعر للا مينا ويستفزها، لأن شعرها كان مجعداً لا تستطيع تطويله.

كانت أمني تحضر لي من لندن وباريس أجمل الملابس العصرية. كانت المربية تسمح لي بارتدائها مرة واحدة، ثم تستدعي الخياطة وتطلب منها تفصيل بعض الموديلات مثلها للأميرة الصغيرة. ثم تخفيها داخل حقيبة لا تلبث أن تغيب وتتوارى نهائياً عن عيني.

الله وحده يعلم ماذا كانت تفعل ريفل بتلك الملابس!

مع الأيام، تحولت هذه المعاناة المستمرة والصامتة تدريجياً إلى تمرد وثورة.

كنت أحب الأميرة وتحبني. وفي القصر كانوا يظهرون لي الكثير من العاطفة والاهتمام. ولكن هذا ما كان ليعوض النقص الذي كنت أشعر به من جراء ابتعادي عن أهلي. كان من الصعب علي أن أعيش بلا ماضٍ، وأن أقتلع ذاكرتي وأرضي بأن أكون مجرد رقم يضاف إلى كل تلك الأرقام.

أمر ما في التنبئ أنه يمتك من جذورك، ويمرّدك من هويتك الحقيقية، ويمرّمك من حقل في الحرية والاختيار!

كان البلاط الملكي يفضّل بعدد هائل من نساء مجهولات الهوية. أما أنا، فقد كان لي أب، وأم، وعائلة. يمكنني لو سمح لي أن أجمع بهم وأراهم. وهذا ما كان يحرّ في قلبي ويعذبني.

في الليل، وأنا مستلقية في سريري، كنت أحلم بالحرية، أستمع المشاهد السينمائية المؤثرة، كنت أتخيل أن هنالك عالماً آخر، اخترع قصصه وأضمها بنفسه. كنت أقصّ قصوها على صديقاتي في عتمة الغرفة. وإذا كنت قد تأقلمت بسهولة مع واقع السجن فلأنني كنت معتادة عليه منذ طفولتي بالكرة. عرفت دائماً كيف ألزم الحدود التي ترسم لي مهما كانت ضيقة وخائفة. إنها مفردات اليفة لم تكن لتخيفني بل كنت أستاذ بها.

كان شوقي لأمي شليداً وشعوري بالوحدة بضاعف آلامي ما جعلني أفكر في الانتحار مرتين: المرة الأولى كنت في العاشرة من عمري عندما قررت أن أضع حداً لحياتي في حقل عباد الشمس الكبير الذي يقع خلف قبلا ياسمينة. سننت طرف قضيب خيزران ثم غرّزته في إبهامي، ممّا أدى إلى تدفق الدم منه. بعد ذلك فركت الجرح بالتراب على أمل أن يؤدي ذلك إلى إصابتي بالتهاب. أغمضت

عيني، وقلبي يدق بعنف، بانتظار أن يأتي الموت ويخلصني مما أنا فيه. لكن للموت تأخر بالمجيء، وأنا مللت الانتظار.

لكتني كل يوم كنت أفرك الجرح بالتراب، علّ هذا يوقيني مريضة مما يستدعي نقلي إلى عيادة القصر للمعالجة. وهذا يسمح لي برؤية أمي التي ستأتي بلا شك، هارعة لعيادتي والاطمئنان على صحتي.

وهذا بالضبط ما حصل، كما حلمت به وأكثر. لقد عاد عليّ هذا الانتحار الفاشل ببعض المنافع الجانبية.

أما المرة الثانية، فقد كنت في الثانية عشرة من عمري. أردت أن ألقى بنفسي أرضاً من الطابق السادس في الفيلا في إفران. لكن الارتفاع الشاقق أخافني وأرهني. فعللت عن رأسي. هاتان المحاولتان الفاشلتان سكّنتا بعض الشيء من روحي، لأنني لولا غريزة البقاء من جهة وفقدان الشجاعة من جهة أخرى لما بقيت حتى الآن على قيد الحياة.

كنت ضائعة ما بين الشرق والغرب. في بيت أهلي وفي فيلا ياسمينة كنا نتكلم بالفرنسية. أما في القصر الملكي فكانت لغة التخاطب السائدة هي العربية. لغة البلاط كانت مميزة وخاصة، مليئة بمفردات متقنة ومدروسة، ترافقها حركات وإيحاءات كنا نتعلم كيف نقوم بها. كما كنا نتعلم كيف نلفظ الكلمات والجمل. والويل لنا إن لم نتقن فن المحادثة والكلام!

فيها بعد تعرضت لسخرية عاتلة على طريقة الكلام التي لم أتمكن من التخلص منها أو تغييرها، لكن ما هوّن عليّ الأمر أنني بسببها كنت أحظى باحترام المغاربة أينما ذهبت، كانوا يسألونني دائماً إذا كنت أُنتمي لدار المخزن أم العائلة المالكة.

في فيلا ياسمينة كانت المربية تعطينا دروساً في آداب السلوك. تعلّمنا كيف نجلس على الطاولة، وفي الصالون، وأصول الضيافة، وكيف نستقبل ونودّع، ونطهو، كيف نفرض احترامنا، وكيف نصبح فتيات عصريات قادرات على التصرف في كل المجالس والمناسبات. أما في القصر الملكي، فقد تولوا تعليمنا كيف نصبح نساء منذ اللحظة الأولى لبلوغنا. علينا التقيد بالبروتوكول:

- ممنوع علينا بعد اليوم الخطأ.

- علينا عدم تجاوز عتبة البلاط، وملازمة جناح الحريم.

- علينا ارتداء الزي المغربي الطويل.

- علينا الخضوع، والانحناء، والسجود والطاعة.

للأسف كانوا يولون جلّ اهتمامهم إلى النواحي السطحية وإلى القشور التي تهمش المرأة وتحوّلها إلى مجرد أداة للمتعة ووسيلة للولادة ليس إلّا، وتقتل في داخلها أي ملامح فكر أو إبداع. كانوا يجبرونها على التخلّي عن شخصيتها، ويعلمونها كيف تتعبد في محراب الرجل أثناء الليل وأطراف النهار.

لكن عزاؤنا أن هناك نساء مستئات كانت حلّمن أكثر سوءاً بكثير من حالنا. وأي طالع أشد سوءاً من أن تكون امرأة في مجتمع لا يقدر إلا الفحولة ويقود بالعصا قطع النساء. تعلمت متى أتكلّم ومتى أصمت، وكيف أقرأ ما بين السطور، لقد تعلّمت أن أستعين على قضاء حوائجي بالكتبان الشديد، وأن التحفظ والخلر قاعدة ذهبية لا بدّيل لها.

لا تتحدّد في عمر المراهقة المعالم النهائية للشخصية. فأنا، ككل المراهقات، كانت تثير اهتمامي الملابس الجميلة، والمجوهرات، وحياة خيليات الملك اللواتي لم يكن عندهن أي وظيفة إلا الاعتناء بأجسادهن وأشكالهن ليفزن برضا سيدهن ومولاهن. هذا الانجذاب إلى عالم البلاط لم يدم طويلاً، لأنني كنت أدرك أنني لم أخلق لهذا أبداً. كنت أشعر بالقمع والاضطهاد. كلما تقدمت في السن كانت الحقيقة تصبح أكثر وضوحاً وبشاعة. لقد أدركت مع الوقت أنني كنت طوال تلك السنوات والأيام سجيناً بين جدران القصر، وأنتي كنت أذبل وأختق تدريجياً.

عندما كنا نساfer برأ، كنت أستغلّ مسافة الطريق للتأمل ملياً في المحيط الخارجي من خلال نافذة السيارة. كنت أرى أحياناً في إحدى السيارات التي كانت تمر بمحاذاتنا، عائلة مكونة من أب وأم مع أبنائهما، أو شاباً يركب فوق دراجته النارية، كم كنت أغار منهم، وأحسدّهم على حريتهم وهناكهم. لأنني كنت أقتل فقط من باب السيارة إلى باب القصر أو العكس. إن مجرد باب كان يفصلني عن الدنيا. ما بين إغلاق باب وفتح آخر كنت أعود مجدداً إلى حيث كنت، مجرد امرأة بين النساء المكّدسات في القصر هناك.

كان من الصعب عليّ تحديد المعالم التي تفصل ما بين هذين العالمين، وهاتين الثقافتين. كنت أشعر أنني قريباً جداً سيكون لزاماً عليّ أن أختار ما بين الاثنين. فأنا أنتمي إلى عائلة عادية تحكمها مبادئ

وقيم وأنباط مختلف عن تلك التي يعمل بها في القصر، حيث كانت حياتي خاضعة لسلطة ملكية مطلقة ومقدمة.

ترعرعت في البلاط بين العبيد، والجواري، والأميرات والملكات. كنا جميعاً ندور في فلك رجل واحد. لا بد أن يتغير هذا الواقع يوماً، ويصبح نمط الحياة عادياً داخل القصر ويتماشى مع روح العصر!

ذلك المجتمع الصغير الذي يقبع في أقبية التاريخ حامي من مخاطر الحياة، وأراخني من مشقاتها. لكنني لم أشعر يوماً بالانتماء إليه بل إلى مكان آخر لا أهرقه، ربّما كان أوروبا. لا غرو إن كنت أجد نفسي التي أبحث عنها ممثلة بشّنة في المرأة هناك.

أكثر ما كان يرهيني ويصدمني أحكام العقوبة التي كانت تنفذ في باحة حرم القصر بكل وحشية وبشكل دائم. هنالك كانت تضرب الجواري، وتجلد ويتم نفيهن وإبعادهن إلى الأبد في سجن أحد القصور، كما في سجن قصر مكناس حيث كنّ يعشن كالأموات.

كان للسلطان يوسف، جد الملك، جاريتان تركيتان هما هاجر وقمر، أهمّتنا وبذتنا بعد موت بيدهما. لكن الأمير مولاي عبدالله أشفق عليهما، واستقبلهما في داره الكائنة في الرباط لتقضي ما تبقى لهما من العمر بسلام. عندما قابلت هاتين الجاريتين الجميلتين بيشرتهما البيضاء الناصعة، وعيونهما الزرقاء، وشعرهما الأحمر ولكتهما الغرية وهما تتحدثان العربية، أدركت إلى أي مدى كانت هذه الحياة القاسية همجية ومن غلقات العصور الوسطى. حاولت أن أفهم لماذا كل هذا الإجحاف والانتهاك والعبث بالحريات والكرامات. ومن الذي يؤكد الاتهامات وينفيها، ويصدر أحكام العقوبات وينفذها أو يلغىها؟ لقد اختلطت على الأمور، وتشابكت في رأسي الحقائق والوقائع.

الرحيل من القصر الملكي

عانت أمي بصمت من خيانات أبي المتكررة لها. هددهت مئات المرات بأنها ستتركه وتهجره إلى غير عودة إذا عاود الكرة، لكنها كانت تسامحه مرة بعد أخرى، على أمل أن تكون الأخيرة، وأن يعود الزوج الفضال إلى رشده لأنها لا تريد أن تخرب بيتها بيدها.

يشت أمي من أي إمكانية لإصلاح أبي الذي لم يعد يأخذ بعين الاعتبار تهديداتها، لكثرة ما

رددتها ولوحت بها. لعلّه اعتبر أنها، ككل النساء، تقول ولا تفعل. لكنه أخطأ، لأن فاطمة الشّاء لم تكن امرأة عادية، وإن نامت على الضيم، فإنها لا تنساء، لأنها تحب أن تتناول وجبة الشّاء باردة. وها هي أخيراً تنفذ ما وعدت به. لقد تركت المنزل الزوجي إلى غير رجعة، متأبطة ذراع الضابط الشاب الذي وقعت في حبه بدون أدنى مقاومة. بعد أن وضعت رؤوف ومريم في نزل داخلي فخم في غشتاد في سويسرا، وأجبرت أبي على منحها حق حضانة ماريلا وسكينة، الأولى عمرها ستان، والثانية سنة واحدة.

استأجرت أمي فيلا صغيرة في حي الطلبة في الأكدال، وافتتحت متجرّاً للملابس النسائية الجاهزة سرعان ما ارتادته محبات الأناقة، وتوافدن إليه من كل أنحاء المدينة. لقد انقلبت حياتها رأساً على عقب. وأصبحت منذ ذلك اليوم سيدة نفسها، تفعل ما تريد، كيفما تريد، ومع من تريد. صارت تتعاطى بالشأن الفني والثقافي، وتربطها صداقة بالعديد من الفنانين والمثقفين. كانت هذه الخطوة ضرورية لأمي كي تستعيد ثقّتها بنفسها التي سلبتها إياها تصرفات أبي وخياناته. كما أنها كانت فرصة لتختبر من خلالها كفاءتها وقدرتها على الخوض في مجاهل الحياة بمفردها.

كانت صغيرة عندما تزوجت، ولم تعيش أبداً عمر المراهقة، آن الأوان أن تعيشها اليوم وتنعم بها في أحضان هذا الفتى الضابط الذي فتنها دونها صعوبة تذكر. كانت تتخبط في لجة اليأس، والزوج المحب الغيور مشغول عنها بتهتكه ومجونته، فأبي فريسة يمكن أن تكون أسهل منلاً منها؟ كنت في الحادية عشرة من عمري. لماذا لم يكلف أحد نفسه عناء شرح ملايسات الطلاق الذي وقع بين أمي وأبي؟ كان من حقي أن أعرف هذا بدلاً من أن أبقى في شك وخيرة وفريسة للهواجس! كانت نظرات الرثاء والإشفاق التي يحدجني بها أهل القصر تنهال علي كالسكاكين. لو أنهم فقط وفروا شفقتهم، وتركوني في سلام. ومن أين يجيء السلام؟ من الملك الذي أخبرني بنفسه أن أبي سيتزوج من امرأة أخرى، وأنه سيقوم له حفل زفاف ضخماً في قصر مراکش؟ أم من تهافت الناس وتسابقهم على إقامة حفلات التكريم على شرف مدام أوفقيير الجديدة، والتي كان اسمها فاطمة أيضاً مثل أمي، والتي كنت ألقبها شخصياً بالحمقاء لكثرة ما كنت أجدها غبية وبلهاء.

هكذا بجرّة قلم تصبح فاطمة الشّاء في طي النسيان. ألم تعد تليق بالمقام؟ أفجّعني تقلّب الناس

وتغير أحوالهم. كيف يتجرون على معاملة أبي هذه الطريقة، وهي التي كانوا يدهنون ويتزلفون من أجل كسب ودها ورضاهما.

كان بوتي ألا يكون الملك هو من أقام حفل زواج أبي! لقد جرحني وألني بهذا! ثم لماذا أمر بمنع أبي من الاقتراب من بلاطه، وأوصد بوجهها كل الأبواب والمنافذ؟ ترى هل ما أصاب أبي سيصني أنا أيضاً في يوم ما؟

عندما أرسل أبي بطلبي بعد زواجه، ذهبت لرؤيته في البيت الذي تغيرت معالمه وتبدلت وكأني أزوره لأول مرة. ورفضت بصلافة أن أصافح أبي، وقلت له إنني أكرهه... أكرهه لما فعله بالعائلة؟ كنت في متهى العدائية معه. أعرف أنني جرحته في العمق، وأريكة حين راح يخبرني بصوت حزين ينم عن اليأس: لم أتوقف يوماً عن حب أمك.

كيف يمكن أن تحب امرأة وتتزوج أخرى؟ ما هذا اللغز المعقد! كيف يمكن لصغيرة مثلي أن تمي منطق الكبار؟ أشعر بحيرة قاتلة، ومن الذي سيرد على أسئلتى العالقة؟ ميمي ورؤوف المتواجدان في سويسرا، أم الصغيرتان سكينه وماريا؟ أما للا مينا فلا تفهم شيئاً مما يجري أو يحصل. إنني وحيدة أكثر من أي وقت مضى.

لم يكذب أبي علي عندما قال لي إن مشاعره حيال أبي لم تتغير أبنة، وإنه ما زال متبياً بحبها، لم يفقد الأمل بإمكانية استعادتها، لذا كان يطاردها مثل ظلها. وضعها تحت المراقبة، هدهدا، قضى ليالي بطولها داخل السيارة مقابل منزلها. أما الضابط المسكين فلقد أرسل في مهمات عسكرية خطيرة إلى أقصى البلاد بهدف إنهاكه وإبعاده. طلب منه أن يقدم استقالته لكنه رفض. نعت قائد القوات العام بـالمجنون لأنه تمحراً على النظر إلى زوجة أقوى رجل في المملكة بأكملها.

-إنها الآن ملكي أنا! قالها بفخر وكأنه لا يصدق نفسه.

شاء القدر أن يقرر الملك القيام بزيارة إلى الجنوب، فأراد أبي أن يقيم حفل تكريم على شرف الملك في قريته، لذلك طلب مساعدة أبي على تنظيم استقبال يليق بمقام الملك. كانت هذه المناسبة هي التي أعادت المياه إلى مجاريها بينهما. طلق أبي زوجته ليعود ويتزوج بأبي. كانت أبي متعلقة بأبي لأنه كان متجسراً بقوة في داخلها. كانت دائماً تردد أمامي بأنه هو من علمها الحياة، ومن صنعها، وبأنها مدينة له بها هي عليه. كانت تحبه، وظلت تحبه. لم أسمعها أبداً تقول إن ما تكبلناه من أسى وما تمحرنه

من مرارة كان بسبب أبي. حتى عندما كنا نتلظى في أتون العذاب، لم نتلق أبداً بمثل هذا.
حملت أمي مجدداً. كان أبي يردد لها طوال أشهر الحمل نفس المعزوفة: أجهل هدية يمكن أن
تمنحني إياها هي صبي يشبهني.

ولد الطفل ثمرة الوفاق سنة ١٩٦٩، في اليوم الذي وقعت فيه الهزة الأرضية العنيفة التي من حسن
الحظ لم يكن عدد ضحاياها مرتفعاً.

أسماء الملك عبد اللطيف. لم يعيش أبي كثيراً ليرى كيف سيصير الصغير، كان عمره ثلاث
سنوات عندما توفي أبي. لقد أصبح صورة طبق الأصل عنه. وهكذا تحققت أمنيته.

مضى وقت على عودة أبي وأمي إلى حياتهما المشتركة، ومع هذا، لم تبدأ السنة المفرضين الذين
يعشقون لوك سيرة الناس بالسهم السامة والسليطة. الجوّاري كن لا يتعبن من تقصي الأخبار عن
اليمن وعن الشمال، وهوايتهن المفضلة اللهاث في أحقاب الفضائح التي يهللن لها طرباً. أعرف أنهن
وضعن اسم أمي قيد التداول في القصر، وأنها بالنسبة لريفل المربية لم تكن أكثر من ضائعة وساقطة
ليس إلا.

سمعتها بأذني وهي تمس هذا لإحدى الثأمات عندما كنا نتنظر يوماً في العيادة نتيجة العملية
الجراحية لاستئصال المرارة التي كان يتم إجراؤها لأم سيدي. لم أتحالك نفسي حينها، أعاني الشهور
بالغضب والمهانة. فرحت أصرخ بحدة وأكيل لها الشنائم. أقبل الملك نحوي عندما سمع صراخي،
نظر إلي نظرة تأنيب، إذ لا يجدر بي أن أفعل هذا، فلا المكان ملائم ولا الزمان.

تفاجأ الملك بنوتي العصبية، رثت على كفي محاولاً تهدتي، وطلب مني توضيحاً لما يجري. وأنا
أجهش بالبكاء أجبت بأنني أريد العودة إلى بيتنا وقلت:

- لدي عائلة وأنا أتمزق للمألعدم رؤيتها. ثم أضفت أن للا مينا عديمة الوفاء، ومع هذا حاولت أن
أفهمها وأن أسعى لإرضائها.

صدمت عندما أجابني موافقاً:

- لا أخطئك، فقلة الوفاء هي من شيم العلويين.

لقد أصاب عزمي وتصميمي الملك في صميم كبرياته لذلك لم يصر على بقائي...

قبل هذا المشهد الدرامي، حاولت مرة أن أهرب خلال النهار دون أن يراني أحد. نجحت في حفر

فجوة تحت السياج. وفي إحدى الأمسيات تمكنت عبرها من المرور إلى الجهة الأخرى. لكن بريق الحرية بهرني وأخافني. لم أكن بعد مستعدة لذلك ولا أعرف إلى أين أذهب. دفعني الخوف من هذا العالم المجهول والغامض للعودة حيث كنت.

في اليوم التالي، كتبت رسالة يائسة إلى أبي أخبره فيها بأنني سأهرب. حاول عبر التلفون تهدتي وتعقبلي، وأفصح لي أنه سيفعل المستحيل كي يستعيدني إلى أحضانه.

في الحقيقة كانت هنالك أسباب أخرى تدفعني بقوة وإلحاح في هذا الاتجاه. كان الملك يريد تزويجي من ابن أحد الجنرالات، وأنا لا أطيقه ولا أحبه. ولو أطلت المكوث في القصر لتحقق ذلك رتيماً، ولما عاد بإمكانني اختيار حياتي كما يحلو لي: كيف سأكمل دراستي؟ وأسافر؟ وأصبح ممثلة أو مخرجة سينمائية كما كنت أحلم دائماً؟!

قبل أن أترك القصر، حاولت عدة مرات أن أتحدث مع الجواردي لأفتح أعينهن على واقعهن الأليم، وقدرهن الغاشم. بدلاً من أن يفكرن ملياً بما ألفتتهن إليه، كنّ يضحكن ويهزأن بي. تلك النسوة لم يكنن غيبات لكن لا حاجة لهن بهذا. إنهن يعرفن جيداً ما هي الحياة التي أضعنها، وما هي تلك التي يكسبها في المقابل الآن.

بقيت مدة ستة أشهر أنام ليلاً في بيتي، وأمضي النهار في القصر حيث كنت أواصل التعلم في المدرسة هناك. كنت في وضع حساس ودقيق.

لم يكن سهلاً التخلي عن حياة القصر والجواردي، لا سيما أولئك القديسات اللواتي ما فتئن يرددن على مسمعي مئات المرات بأنه لا يجدر بي ترك القصر أو التخلي عن للامي. من المؤكد أنهن يحقدن الآن عليّ لأنني خالفت وصاياهن وتعليقاتهن. أشعر أحياناً بعقدة الذنب، ولكن لا يهّم فأننا سعيدة بها فعلته، ومطمئنة، ولن أندم على أي شيء.

ما إن انتهت السنة الدراسية حتى ابتعدت نهائياً عن القصر. تلقيت العديد من الدعوات والاتصالات عبر جهاز التشفيفات، غير أنني امتنعت عن تلبية أي منها، مما دفع أبي إلى التدخل من أجل إجباري على الذهاب إلى هناك، لأنه كان من المريب وغير اللائق ألا أفعل هذا، لأن ذلك لا ينم عن التهليب والاحترام. في كل مرة كنت أنفجر في نوبة عاصفة من الدموع، لقد كنت دائمة الخوف والملع من أن يعيدوني إلى هناك.

منزل عائلة أوفقيير (١٩٦٩-١٩٧٢)

العودة إلى المنزل

عدت إلى البيت مع هبوط الليل. ما زلت أذكر تلك العتمة، وذلك الشعور الغامر، في هدأة الليل، بالفرح والسعادة. كنت أنتعجل الوصول إلى مهد الطفولة، لأعوض ما فاتني من حنان ودفء في الأيام الخوالي. هنا مكاني الطبيعي، في بيتي، وبين أهلي وعائلي. لقد عدت إلى حيث يجب أن أكون.

كانت أمي في لندن، وأبي في الوزارة، والأطفال الصغار في غرفهم مع مربياتهم. استقبلني شخص مجهول لم أكن أعرفه، أزعجني جداً اعتداده الشديد بنفسه.

مجلت داخل البيت، داعبت الجدران والأثاث. نظرت مطولاً إلى الصور المعلقة، كل أفراد العائلة كانوا هناك باستثنائي أنا.

في كل تلك السنوات التي فاتتني بعيداً عنهم، كم غاب عني من قصص وحكايات وذكريات؟ هل هؤلاء حقاً إخوتي وأخواتي؟ هذا أبي في بذته العسكرية؟ وهذه أمي في ملابسها الأنيقة؟ لم أرها في هذه الثياب قبل اليوم. ومن أين لي هذا، وأنا كنت سجيناً ومنفية هناك...؟

دخلت إلى غرفة أمي، ورحت أتلصص أشياءها بخشوع. ما زالت رائحتها تهددني، وتدعوني للاسترخاء والنوم. كم كنت أحب أن أدفن وجهي في سترتها عندما كنت صغيرة، لأستنشق رائحتها وأشعر بالأمان والاطمئنان. في الصالون، تجرأت على الجلوس في المكان الذي كان خاصاً بأبي، فوق كنبته المفضلة، فركت وجهي بالمسند الذي كان يسند إليه ظهره. وأنا أداعب ولاعته ببيلي، ذرفت دموع الحزن والفرح.

تأسفت على تلك السنوات التي ضاعت من عمري، والتي لم أدرك مدى مرارتها وقسوتها إلا عندما رجعت. آه كم فاتني من أشياء وأشياء...

كان بيتنا يقع في شارع الأميرات على غرار البيت السابق، اشترى أبي الأرض بليلال الذي تقاضاه عندما تقاعد من الجيش الفرنسي. وبنى عليها فيلا بالقرض الذي استدانته من البنك.

كانت مساحتها واسعة، ومريحة، وتوسع للضيوف الذين كانوا يستقبلون فيها بمتهى الحفاوة والتكريم. ما إن نجازز بوابة الحديد حتى نسلك طريقاً يقودنا إلى بيتنا ذي الجدران المطلية بطلاء أحمر، كذلك الذي كانت تطل به جدران الفيلا في مراكش. كان العشب الأخضر يغطي جانبي

الطريق ويرتفع مياج من أشجار السرو ليرد أعين المارة عنا.
على الجانب المقابل كانت هناك حديقة يابانية قامت أمي بتصميمها وإعدادها، منطاة بالحجارة،
ومزروعة بالأشجار القزمة القصيرة. كان هنالك أيضاً مسبح، وملعب تنس، وصالة سنيها وحمام
سوناء، ومرآب يتسع لعشرات السيارات.

كان المنزل بعيداً كل البعد عن مظاهر التكلّف والبذخ. كان والدائي يعطيان الأولوية للراحة،
وليس للتعصبيات الفاخرة الخالية من أي فن أو قيمة جمالية.

وفي قناعتها أن المال وجد لتوفير الحاجات والرغبات، ولكن لا داعي للفحش والمبالغة. جهزت
أمي الغرفة وأمتتها بمتهى البساطة والأناقة، فقد كانت معروفة بذوقها الأصيل والتميز.

معظم الناس الذين كانوا يأتون لزيارتنا كانوا يقولون إن بيتنا كان من أجل بيوت الرباط
وأفخمها، لكنني لا أعتقد هذا. لقد كان بيتاً عادياً ليس إلا! كانت غرفة الجلوس التي نجتمع دائماً
فيها ذات مساحة ضيقة نسبياً، تتوسطها طاولة مستديرة ومنخفضة على الطريقة المغربية. في تلك
الغرفة، كنا نتناول طعام الفطور والغداء والعشاء، ونشاهد التلفاز. كانت غرفتي تقع في الطابق
الأول، لقد كانت معدة بأناقة إنكليزية رفيعة، حتى تكون جاهزة لاستقبال رجوعي إلى كنف
العائلة.

بعد مدة من رجوعي إلى المنزل، انتزعت الموافقة بالسكن في استديو صغير يقع ما بين حوض
السباحة وقاعة السونا. كان أبي يعارض هذا القرار بشدة. كنت بحاجة إلى بعض الخصوصية وبعض
الوقت كي أتأقلم من جديد في جو العائلة، وأنصهر في بوتقتها. على أي حال، تلك الغرفة الصغيرة
التي كانت تحتوي على سرير، ومكتبة، وحمام، حققت لي بعض الاستقلالية الذاتية التي كنت أتعطش
إليها.

احتجت إلى وقت طويل كي أتعرف على عائلتي، وأحيط بأمورها ومشاغليها وهمومها عن كتب.
في الأشهر الأولى، عكفت على المراقبة، كنت أتمن وأدقق النظر في تصرفات وحركات كل واحد
منهم على حدة. كان أخي عبد اللطيف، المولود الجديد، يستأثر بكل وقتي واهتمامي كلما رجعت من
المدرسة. لم يكن من السهل بتاتاً إعادة وصل ما انقطع بيني وبين أخي رؤوف من جهة، وأخواتي
الثلاث من جهة أخرى. لم يعد هنالك من قواسم، ولا نشاطات واهتمامات مشتركة، ولا مخططات

ومؤامرات مشتركة، ولا أسرار مشتركة. فما الذي يجمع بيتا بعد؟ الدم، أم الحب والنسب؟
مع أمي كان الأمر عوداً على يده، وهذا ما عوضني بعض الشيء. إذ سرعان ما استعدنا الود القديم
الذي كان دائماً قوياً ومتيناً بيتنا.

كان يقيم على منزلنا جو من الألفة والمحبة، ويعبق من جنباته أريج الفرح والسعادة. لكن كلما كان
أبي يتبوأ مركزاً حساساً أكثر كلما كان يخفّ الدفء العائلي الذي كنا ننعم فيه، ويتسرب بعيداً إلى غير
عودة.

أضحى المنزل محطة للذهاب والإياب. الرجال ينتظرون مجيء أبي في غرفة الاستقبال، والنساء
يتأملن ثوب أمي الجديد وقلوبهن تغلي حسداً. لقد كانت رمزاً يحتذى، ومحط أنظار كافة النساء
اللوات كن يتسابقن لتقليدها والتشبه بها.

لقد عشنا دائماً محاطين بهذه العينة من البطانة التي كانت تقحم نفسها في حياتنا. كان ديدنها التفاق،
والتزلف، والمداهنة. وكان البيت يفيض بهم ليلاً نهاراً. كانوا أكثر خنوعاً من هؤلاء الموجودين في
القصر الملكي. إذا حالقنا الحظ يوماً بتناول الفطور العائلي بسلام تكون قد مرت علينا ليلة القدر. تلك
الحاشية كانت تسد منافذ البيت، وكانت تكتظ في أزوقته وغرفه في كل الأوقات، حتى إنهم لم يوفروا
الصالون الصغير الذي كان أبي يستقبل فيه الوزراء والضباط في اجتماعات عمل. عندما كانت
نساؤهم تصل للانضمام إليهم، كانوا يجلسون جميعاً في الصالون الكبير الموجود في الطابق الأرضي،
حيث كانوا يشربون كأساً ويثرثرون. كان الكبار يتناولون العشاء في ساعة متأخرة من الليل، ونادراً ما
كان عدد المشاركين يقل عن ثلاثين شخصاً.

لم نشعر مطلقاً بالزهو والفخر بالسلطة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما أبي. لم تكن نقيم وزناً لهذا
الجانب من شخصيته. بالكاد اكرثت عندما أعلموني في القصر يوماً أنه رجل مهم. لقد كانت الملكة
الأم تكتنّ له عجة خاصة، والملك يكرس له قسماً كبيراً من وقته واهتمامه. لقد كان موضع احترام
وتبجيل في البلاط الملكي برمته.

عندما عدت إلى المنزل اكتشفت أن الناس كانت تخافه وترهبه، وكانوا يصغفونه بالمتوحش.
أصدقائي كانوا يعتبرونه علو الشعب رقم واحد. مجرد ذكر اسمه كان كفيلاً بأن يشتجهم.
في مدرسة للا عائشة التي سجلني فيها أهلي لإكمال دراستي الثانوية، كانوا يظهرون لي الاحترام

والتقدير، ويتهمسون علي، ويشيرون نحوي بالأصابع. وقد نعمتني إحدى الطالبات بـ «ابنة القاتل» بسبب قضية بن بركة، التي كنت أجهل جهلاً تاماً أبعادها وفحواها.

لم أكن أملك أية معلومات تحولني النفي أو الرد على أي هجوم، كنت أنحوب باللائمة دوماً على أجهزة القمع والإرهاب، وعلى السلطة في المناقشات السياسية التي كنا نخوضها أحياناً في المدرسة. يا لسذاجة الطفولة وبراءتها! ففي رأسي الصغير، كان أبي منزهاً وغير معني بكل هذا.

كنت أحب أبي بشدة، وأتصور أنهم لا يعرفونه مثلي على حقيقته، ولا يعرفون أنه طيب وحساس، وكريم، وأنه مخلوق هادئ، وجدي. كان يبدو أكثر اعتدالاً من أُمِّي التي كانت تبدو متشددة لأنها كانت تعبر عن رأيها بصراحة قاسية. ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك. كان هو أكثر فظاظاً وقسوة منها، ولكنه كان يعرف كيف يخفي هذا، وكان يجيد فن الإرضاء والمسايرة، ولا يخاطر بإغضاب أحد. لذلك لم يكن يعرف كيف يضع حدوداً مع الآخرين.

بالرغم من طبيعته الحذرة، وتماسكه للمهود والمشهود له، كان عرضة أحياناً لبعض نوبات الغضب. الأرجح أنه كان متقلب المزاج، فهو تارة يبدو مرحاً، مسترخياً، سريع البديهة وحاضر النكتة، وطوراً ساهياً واجماً، متفلقاً على نفسه، وغامضاً كأنه أبو الهول.

صحيح أن مظهره كان عادياً ومتواضعاً، لكنه كان كريم النفس. لم يكن ليتورع، حتى عندما كان ضابطاً بمعاش زهيد، عن صرف كل مدخراته لقاء وجبة عشاء في مطعم يدعو إليه أُمِّي. لقد كان جميل الهيئة، شاعراً، أديباً، يتمتع بكاريزما عالية، تحطف أبصار الموجودين في أي مكان يتواجد فيه أو يدخل إليه.

كان أبي مضطرب الحياء، لم يقتل أُمِّي أماناً يوماً. كان يكفي بإمساك يدها، أو ضمها إلى صدره بحنان. كانت تربطها علاقة حب واحترام. لم نسمعها يوماً يتصارخان أو يتشاذبان مهما بلغت الأزمات والمشاكل أوجها بينهما. كان كل منهما يحترم الآخر، مع أنهما كانا ذوي طبيعتين مختلفتين. فأُمِّي كانت فتاة، بوهيمية، فوضوية، مبلقة، كريمة، وتقديس الحياة البيئية والأسرية. كانت امرأة تضح بحب الحياة، وتعشق الحفلات والمرح، والطرب الشرقي الأصيل. كان صوتها جميلاً ورائعاً، وكانت تحب الغناء، والسينما، والسيارات السريعة التي كانت تقودها بنفسها في شوارع الرباط. لقد علمت نفسها بنفسها، كانت تقرأ كثيراً، وكان لديها فضول كبير للمعرفة والاستكشاف.

كانت طباعها تستجلب الكثير من الأعداء، لأنها كانت صريحة، واضحة، عجولة وذات طبيعة نارية، بخلاف تلك البطانة التي كانت تحيط بها في البيت أو في القصر الملكي، والتي كانت على دراية وخبرة في فن المجاملة، والتصنع، والزيف، والخداع، والانتهازية، والوصولية. لم تكن أمي لتحفل بأبسط قواعد الدبلوماسية. ترى هل كانت بهذه الطريقة تعبر عن احتقارها وازدراءها لكل هؤلاء المراوغين والمخادعين، وما كان أكثرهم في كل محطات حياتها!

كانت أمي حاضرة في حياتنا أكثر من أبي الذي كان يتغيب عنا كثيراً، مليئة بالحب والحنان، ولا تفرق بمقدار ولو صغير بين واحد منا وآخر، مع أنه يمكنني القول بأنني كنت أتمتع وأنفرد ببعض العلاقات المميزة معها.

كانت أختي مريم البالغة من العمر آنذاك أربعة عشر ربيعاً عرضة دائمة للمرض. كانت تعاني من داء النقطة، ولم يترك والداي طبيباً في كل أنحاء العالم يعتب عليها، لكن بدون جدوى. كانت النوبات التي تتأبها حادة وعنيفة. ربما لهذا السبب كان أبي يعاملها معاملة خاصة لم تكن نحظى بها. أذكر أن أمي طلبت من أبي تأديبها لأنها رأته وهي تزور شهادتها المدرسية. كان أبي لا يقوى على معاقبتها، أو مذبذبه بسوء إلينا. لذلك طلب من ميمي أن تتبعه إلى الصالون. واتفق معها على التظاهر بالصراخ والبكاء كي تسمعها أمي التي كانت تأخذ عليه سهولته معنا.

أما أخي رؤوف (ولي العهد)، لأنه أول صبي رزقت به العائلة، فقد أفسدته نسوة العائلة بكثرة الدلع والدلال والتبجيل.

كان محبوباً من الجميع بمن فيهم الحرس. أما هو فقد كان إعجابه واعتداده مكرساً بالكامل لأبي الذي كان يحبه كثيراً، مع أن علاقتها تملأها العديد من التوترات والأزمات. كان رؤوف شاباً وافر الجسم وفي عمر المراهقة. لعل مظهره الأنثوي الذي كان متملاً بشعره الطويل، وبشرته السمراء، وخدوده العالية دفعت أبي للتعامل معه بصرامة إذا لم أقل بعدائية. كان يخشى على خليفته من الشنود الجنسي.

كان أبي يبالغ بمخاوفه التي لم تكن في محلها، لأن أخي كان قد حقق آنذاك نجاحات نسائية يحسد عليها. وكان قلبه لا يخفق إلا للجنس الناعم.

بعد محاولة انقلاب الصخيرات الفاشلة، لم يعد رؤوف يفارق أبي طرفة عين، وأصبح جزءاً من

فريق المواكبة. عمل سائقاً خاصاً له، إذ كثيراً ما كان يحمل مكان سائقه. كان يجيد قيادة السيارة وهو في الثالثة عشرة. وكان يصبر على مرافقة أبي ليلاً ويتنظره بكل صبر وأناة ريثما تنتهي اجتماعات العمل في ساعة متأخرة من الليل. كم كان أبي فخوراً بولده وهو يظهر هذا القدر الهائل من الشجاعة والنضج والمسؤولية!

كانت طابع كل من ماريا وسكينة مختلفة كلياً. الأولى البالغة من العمر سبع سنوات ذات طبيعة ديناميكية، مستقلة، محتالة، تعرف كيف تستقطب عطف أبي واهتمامه. أما الثانية التي كانت في ربيعها السادس، فكانت رقيقة وعاطفية، تمص إبهامها وهي تلوذ في صدر أبي، أو تغني له الأغاني بطريقتها الطفولية المضحكة التي كانت تزيل الهم والغم عن قلبه، فتلعن ضحكته وتفرق في كل أرجاء المنزل.

كانت سكينة تمضي كل وقتها وهي تحرش على الورق. حتى بات لدى أبي قنطرة راسخة أنها ستصبح يوماً ما رسامة أو كاتبة!

أما عبد اللطيف الرضيع فكان مضطرب فرح لنا جميعاً. لقد تحققت فيه أمنية أبي. إنه يشبهه كثيراً. كاد أبي أن يفقده لولا قدرة قادر. لقد حاول اقتراسه الشبل الذي أحضره إلى المنزل بعد أن قدم هدية له. والقصة جرت على النحو التالي:

كان ذلك الحيوان يرتع حراً فوق عشب الحديقة. فجأة هجم على كلبين من نوع يورك شاير قبل أن يتنقل الدور إلى الطفل الذي كان يلعب قريباً منه. تقاذفه كالطابة أمام أعين الحاضنات المستمرات أرضاً من شدة الصدمة. لحسن الحظ أنه في اللحظة التي فتح فيها فكيه ليلتهمه سمع صوتاً أزعجه فتركه وولى هارباً. تم استدعاء أبي على وجه السرعة كي يعاين بنفسه الأخطار الناجمة عن وجود هذا الحيوان المفترس. الحمد لله أن الفريسة نجت، وأرسل ذلك الشبل الصغير ليلعب مع أشباهه في حديقة الحيوانات.

أبي وأنا

كنا صديقين حميمين، نخطط معاً، وتآمر معاً. كنت أعرف كيف أستر عطفه، وأعرف أيضاً كيف أغضبه وأستغره، بالطبع دون أن أتجاوز حدودي معه. كنت أظن أن أمامه بالخنوع والخضوع، لكنه ما

كان يخفى عليه أنني فتاة متمردة مشاكسة، لا أرضى بالتسليم والامتثال.

في الصباح كان يناديني لأستوي له ربطة عنقه أو لأزّر له ياقة قميصه. كنت فخورة بهذا الطقس الذي كنت أمارسه يومياً. في إحدى المرات وجدت صعوبة في ترزير قميصه، فبدأت أغمز من طرفه، ممازحة إياه بأنه بات له الآن ذقتان. لقد أخذ المسكين كلامي على محمل الجد وبدأ فوراً بالاحتياطات اللازمة: جولة كرة المضرب مع صديقه الجنرال إدريس بن عمر، جلسات سونا، التقليل من كميات الطعام. للأسف لم يداوم على هذا البرنامج لمدة طويلة لأنه سرعان ما ملّ وعاد إلى سيرته الأولى.

كلما أزمع على السفر، كان يطلب مني أن أوضب له حقيبته.

كان يروي للوزراء بكل فخر واعتزاز أنه مازحني وقال لي:

.. ألبيني مثل نجوم الروك. أريد أن أتماشى مع الموضة.

كان يصل في الواحدة ظهراً عائداً من الوزارة أو القيادة العامة، فيدخل مباشرة إلى الصالون الكبير حيث يجلس على كنبه المعبودة ليحتسي شراب البيرة الذي يحضره الخدم على جناح السرعة. ما إن أنهى غداثي حتى أنضم إليه أنا وسكينة التي كانت متعلقة به وتكنّ له حباً كبيراً. كنت أضغ نفسي في خدمته وورهن إشارته حتى يحين وقت رجوعي إلى المدرسة، فأودعه بمداغة آثار جرح في يده اليمنى، خلفه حادث سيارة قديم.

كان أبي معتداً وفخوراً بمواهبه الموسيقية. لذا كان يطلب مني العزف على البيانو كلما كان لدينا زوار أو مدعوون. كنت أقوم بهذا على مضض، إذ لم أكن أحب دور صبية المنزل.

بعد عدة أسابيع من عودتي إلى المنزل رافقت والدتي في رحلة رسمية إلى إسبانيا. كانت مناسبة للتقارب معها، لأشعر من جديد أنني ابنتها، وربما الوحيدة. أدين لهذه الرحلة أنها منحني أجمل وأسعد اللحظات التي عشتها مع أهلي، حيث قضينا معاً أجمل الحفلات والسهرات التي أقيمت برعاية وإشراف الأرستقراطية الإسبانية، والتي رقصنا خلالها حتى طلوع الفجر رقصة الفلامنغو.

في هذه الرحلة تبين لي أن أبي كان مرحاً، يحب البسط والانشراح، والسهرات الليلية، ويهوى الأغاني العاطفية، والعجريات الجميلات، وأنه أب متشدد أيضاً، لقد منعني من الخروج في إحدى الأمسيات، لأنني كنت أرندي قميصاً شفافاً يظهر صدري بوضوح. إنها ليست غلطتي وإنما هي غلطة الموضة التي كانت سائدة آنذاك.

لكن انسجامنا لم يكن يحول دون حدوث بعض المشاهدات والمناكفات بيننا. كانت روحي متمردة، وتنفّر من كل أشكال التسلط والهيمنة. لقد عانيت من جراء اللجم سنوات طويلة. رفضت أن يصطحبني سائق إلى مدرستي في الصباح، وأن يعود ليقلني إلى المنزل بعد الانتهاء. أردت أن أحيّا حياة طبيعية، شأن كل الفتيات، ولكن ذلك لم يكن مطلباً سهلاً، خصوصاً عندما يشاء القدر أن أكون ابنة الجبّال أو فقير.

انتظرت بفارغ الصبر أن أبلغ الثامنة عشرة من عمري كي أفوز برخصة سوق. علمني المرافق الذي كان يتولى حراستي كيف أقود سيارة. لكنه لم يعلمني أي شيء عن إشارات المرور. حصلت على إجازة سوق بفضل بعض رجال الشرطة في فريق المواكبة الذين طلبوا من المفتش أن يمنحني إياها.

كل مساء، كنت أتقي بالشلة التي كان أبي لا ينظر إليها بعين الرضا. كان يعتبر صباح، صديقتي المفضلة، وقحة للغاية. أما كلودين وفيرنيك اللتان كانتا معي في نفس الصف والمدرسة، فكان أبوهما شيوعيين متشددين، وكانا منضويين في حزب إبراهيم السرفاتي^(٨). كان منزلهما قريباً من منزلنا، أما حديثه فكانت مهمة تسرح فيها الكلاب وتمرح. وكان أبناؤهما يعيشون منفصلين ومتحررين، أي عكسي أنا، لكن هذا الواقع لم يؤثر على صداقتنا الحديثة العهد.

غالباً ما كانت تدعوني فيرونك إلى بيتها لتناول الغداء بالرغم من تحفظ والديها الواضح حيالي. كانا لا يتورعان عن استفزازي ملمحين إلى أبي. وقد أوقفتها مرة عند حدّها قائلة: - لا أملك أي معطيات سياسية تمكّنتني من الدفاع عنه، ولكنه أبي قبل أي اعتبار آخر، ولن أسمح لأحد بالتعرض له أو إهانته.

كان من بين أصدقائي من الجنس الآخر: أوزين آحرضان، ابن رئيس حزب اليسر، والذي كان قد عين وزيراً عدّة مرات في عهد محمد الخامس والحسن الثاني، مورييس السرفاتي ابن إبراهيم السرفاتي، إدريس باحنيي ابن رئيس الوزراء السابق، كذلك ابن أحد رجال الأعمال... وآخرون غيرهم. كان أوزين يقدّم النجم بوب دي لون، يطيل شعره، ويرتدي قمصاناً معرقة وكان يملك سيارة فولكس فاكن صفّعة يغير لونها كل يوم بحسب مزاجه: الاثنين باللون الأصفر، الثلاثاء يصبح لونها زهرياً. فيها بعد استبدالها بواحدة أخرى مكشوفة. ما كنت لأتردد قيد أنملة لو كان بإمكانني التخلي عن السيارات الفارهة التي كانت موضوعة بتصرفي مع سائقها مقابل سيارته المنهكة.

في إحدى المرات قررنا التسكع في الطرقات بدلاً من الذهاب إلى المدرسة. كنا داخل سيارة أوزين نضحك ونمرح كالمجانين. فجأة عند الإشارة الحمراء توقفت بمحاذاة سيارة تقل أبي الذي راح يمدحنا بنظرات قدح شرراً، مما أربع الشلة السعيدة التي انزلت للاختباء تحت المقاعد. انطلق أوزين المسكين وهو لا يلوي على شيء.

أحياناً كنت أذهب لزيارة مورييس السرفاتي. هناك كنت أقابل بالصدفة بعض الحزبيين الذين يأتون لرؤية والده الذي لم يأخذني بجريدة أبي، وكان يثق بي لأنني صديقة ابنه. كان رجلاً ذكياً لم يورط أولاده بشؤونه السياسية، ولم يمنعني قط من التردد بشكل دائم على منزله.

أبدى أبي اهتماماً شديداً من وجود هؤلاء الشبان حولي. كان يخاف على سمعتي وأخلاقي، لا سيما وأن البطانة المتنافقة التي تحيط به كانت أقنعت بأن هذا لا يليق بعفاني وشرفي، ولكنني تابرت على ذلك غير آبهة بهم. كم كان يسرني إغاضتهم وفعل كل ما يستفزهم ويثير حفيظتهم. كان ذلك يسليني ويشفي غليلي. بالطبع ما كنت أريد أن أخيب أمل أبي بي، لأنني لم أفعل ما يستوجب ذلك. كنت مغرمة بالرقص والموسيقى ولم أكن لأترك مناسبة أو سهرة تفوتني.

كنت ألبس دور الفتاة العاقلة بإتقان: بعدما أظاھر بإنهاء واجباتي المدرسية، أنهض لأعانق والدي، وأمنى للمدعوين ليلة سعيدة مدعية بأنني مضطرة للانسحاب لأن غداً يوم امتحان، ويجب أن أنام باكراً. ما إن أصل إلى غرفتي حتى أسرع إلى ارتداء تنورة قصيرة أو شورت، وأضع المكياج، ثم أبعثر سريري وأضع على المائدة شعراً مستعاراً لأوهم الرائي أنني أنام ملء جفوني. عندها فقط أصبح جاهزة ومستعدة لقضاء السهرة.

لم أكن أطيع الحياة الخائفة والمقيدة التي كانت مفروضة علينا. كنا تحت المراقبة على مدار الساعة. لا نخرج بدون حراسة ومواكبة. كان منزلنا يعمج بالمراقبين ورجال الأمن والشرطة، حتى الأشخاص الذين كانت مهمتهم تلقي المكالمات الهاتفية كانوا أيضاً من المخبّرين. لقد تصادقت مع واحد منهم، كان يساعدي في تنفيذ مخططات «التسلل الليلي» الذي كنت أواظب عليه، وكان ذلك يريحني بعض الشيء من جو البيت الضاغط.

كنت أنجح في ذلك بفضل خالي عز الدين ووحيد. الأول عمره عشرون عاماً، والثاني سبعة عشر عاماً. كانا يقلانني بسيارتهما كل ليلة لموافاة الأصدقاء الذين يكونون بانتظارنا في أحد النوادي الليلية

العصرية. كان عز الدين شديد الغيرة والحمية... لم يكن يدع أحداً يقترب خطوة واحدة مني. كنا نستمر بالرقص حتى طلوع الفجر. بالكاد كنت أنام لأستيقظ عند الساعة السابعة صباحاً وهو موعد الذهاب إلى المدرسة.

أعطيت مرة كلمة شرف بأن أنجح في المدرسة. في إحدى الأمسيات لزمتم غرفتي بهدف الدرس والاستعداد للاختبارات. بينما أنا كذلك لمحت وجه أبي يتلصص عليّ من فتحة النافذة. يبدو أن أحداً ما كان قد وشى بي. كم كنت سعيدة لأنه لم يضبطني بأي جرم مشهود. تلك الليلة نمت نوماً عميقاً بدون حراك.

في فصل الصيف كانت العائلة تتوجه إلى المسيح القريب من مدينة الرباط، حيث كنا نملك منزلاً صغيرين بمتهى البساطة التي كانت تفتقر إليها منازل البورجوازيين الشبيهة بالقصور. كان أهلي يستخدمون فقط منزلاً واحداً. قاموا بتجهيزه لهذه الغاية بكل ما هو ضروري وأساسي، في حين بقي الآخر فارغاً ومهملاً.

كانوا يلحون عليّ بالبقاء لقضاء فصل الصيف برقتهم هناك. لكنني كنت أرفض متزعة بالامتحانات التي تنتظري، والتي يجب أن أستمّد لها. في الحقيقة، كنت لا أريد الابتعاد عن الشلة وعن المغامرات الليلية التي كانت محفوفة بالأخطار، وعمليات التسلل والتنويه. كان منزلنا أشبه بالثكنة! وكان عليّ تضليل كل هؤلاء العسكر المدججين بأسلحتهم وعنادهم، والمتأهبين دائماً للسهر على أمني وسلامتي!

لم تتطأ أحابيلي وألعيبي على أبي الذي كان عليّ ما يبدو ملماً بكل شاردة وواردة عن نحر كاتي، وإن كان غالباً ما يعتمد غض الطرف عني. ما إن صحت كالعادة في إحدى المرات حتى دعاني للقيام بنزهة في السيارة برقتهم. رنجت بحرارة وحماس، إذ نادراً ما كانت تسنح لي الفرصة بالتواجد معه على انفراد. طوال الطريق كان يلزم الصمت. ثم فجأة سألتني، دون أن ينظر إليّ وجهي: هل تعرفين نادياً ليلياً اسمه لاكاج. أجبته بالنفي، لم أجد على قول الحقيقة، ولم أكن فخورة بمعرفته. أعاد السؤال ثانية، تظاهرت أنني لم أفهم المعنى الذي كان يرمي إليه. وكررت النفي ثانية. اكتفى بذلك وأغلق الموضوع. في هذا النادي الليلي، لاكاج، كنت أرقص وأسهر كل ليلة، لأعود إلى البيت فجراً، وأنام حتى الثانية عشرة ظهراً.

في المرة الثانية لم يتورع أبي عن مواجهتي ببعض الاتهامات أمام بعض الحضور: قال لي إن بعض الأشخاص شاهدوني في إحدى علب الليل في الدار البيضاء. لحسن الحظ كان هذا ادعاءً كاذباً. وتمكنت بسهولة من تبرئة نفسي مما نسب إلي. قلت لأبي باستهجان:

- من يقول إنه شاهدني أمس في الدار البيضاء، ليس مستبعداً أن يقول إنه رأي اليوم في لاكاج!
علق أبي بمكر:

- فيما يتعلق بالدار البيضاء يمكنني أن أصدقك، أما فيما يخص لاكاج فلا أعرف، الله وحده أعلم!

الطامة الكبرى كانت عندما زرت لندن للمرة الأولى برفقته. يومها ضيطني وأنا أدخل في حمام مطعم بلالي بوي. انتظر خروجي ليعلم لي بأنه يمكنني أن أدخل أمامه بدلاً من فعل ذلك سراً. وأعاد هذه النعمة بدون إحراج أمام الجنرال بن عمر حيث قال: لا أحب أن تكلبي علي، وأن تفعل الأمور من وراء ظهري. فالتدخين أهون علي ألف مرة من ذلك. دخني إن شئت ولكن لا تكلبي! بدت الصدمة واضحة على الجنرال الذي لا يجذ مطلقاً منطق أبي. فهو كان معروفًا بتشدده في تربية أولاده.

لم يكن أبي كثير التدقيق في أنواع الأطعمة التي يتناولها. كان يصدر أصواتاً وهو يمضغ. لكن أحداً لم يبرؤ على توجيه أي ملاحظة له بهذا الخصوص بمن فيهم أمي التي كانت لا تكثر الثبته. كان لا يحب الأطعمة الخفيفة. كان، مثلي، يحب البيض المقلي. في إحدى الزيارات الرسمية لاكادير، خرج لرؤية صديق له يدعى هنري فريدمان يمتلك أحد أقدم النوادي هناك. كان هنري الوحيد الذي يتجراً على التكلم بصراحة في وجه أبي. كان يهودياً، أصله من أوروبا الشرقية، أحر الشعر، أزرق العينين، طوله متران، ووزنه مئة وخمسون كيلوغراماً. كان كالعملاق، يضع دائماً سيجاراً في زاوية فمه، صوته عميق ولهجة المغربية مكثرة. كان يملك شهية طيبة ويحب الطعام ويمجد فن الطهو. المسكين كم كانت خيته كبيرة وغضبه شديداً عندما تعمد أبي مناكفته بأن ألقى نظرة عابرة على الطاولة الممتلئة بشتى الأطباق التي كان قد حضرها بيديه من أجله وقال: اسمع هنري لا أريد شيئاً من كل هذا، أريد فقط طبقاً من البيض المقلي.

طبعاً لم يكن أبي يعني ما يقول. كان فقط يريد استغزاز هنري، وكان يجيد متعة اللغة في إخراجه

عن طوره. كان دائماً ينجح بذلك.

في البيت كنت أتعاشي التواجد معه على طاولة الطعام. تربيته الألمانية الصارمة لم تكن تسمح لي بالقبول بأي مس أو تجاوز لما يسمى آداب الطعام. كنت شديدة الحرص على تعليم أخوتي الصغار ما تعلمته بحذافيره. كنت أريهم كيف نقطع اللحم والسمك، وكيف نمضغ بهدوء وبدون صوت. كانوا يسخرون مني ومن تعاليم ريفل والقصر، ويهتموني وإياهم بالمبالغة. لقد تملكنتني تلك العادات بحيث أصبحت جزءاً من طبيعتي.

شاركت مرة في طعام غداء كان يضم ثلة من الضباط المقرين من أبي. استرعت انتباهي أصوات المضغ التي كان يصدرها كالعادة. نظرت إليه نظرة تحذيرية. استفزه هذا وحرصه على التهادي أكثر فيما يفعله.

أغضبتني ردة فعله فرحت أقلد طريقته بالمضغ. ثم قلت بصوت مرتفع:

- لا يمكننا هنا الخوض بأي حديث بسبب التشويش الذي تعرض إليه من «موسيقى مضغك».

توقفوا جميعاً عن تناول الطعام ليعبروا لي عن سخطهم واستيائهم من سوء تصرفي، لقد استهجنوا وقاحتني وقلة تهذيبي. وددت لو أن أبي نطق بكلمة واحدة. فلتكن بنيتة أو جارحة لا يهم! ظل صامتاً وهذا ما آذاني وعذبني.

كانت تحلو لنا لعبة شد الحبال بين الفينة والأخرى.

أذكر مرة أن أبي عاد من مقر القيادة العامة وهو يملأ جيوبه بالعلكة. وأبلغنا أنه قرر الامتناع عن التدخين. إنه يعرف حساسيتي ونفوري من أصوات الطقطقة والمضغ، أراد إغاضتي، فوضع علبة العلكة دفعة واحدة في فمه. وبدأ ي مضغ بشيء من المبالغة المقصودة بالطبع، ومن ثم أخذ يفرقع. لم أقم بأي ردة فعل، اكتفيت فقط بالنظر إليه شزراً.

هذه المرة بدأت أنا الجولة. عمدت إلى رفع صوت الموسيقى الصادرة. كنت أعرف أن أبي يجتمع في الصالون مع عدد من الوزراء. ناداني وطلب مني خفض الصوت قدر الإمكان. فعلت هذا. انتظرت عشر دقائق. ثم عدت إلى سيرتي الأولى... وهكذا دواليك. هذا الكر والغربيين وبين أبي كان أشبه بالملسل اليومي.

في نهاية السنة الدراسية، كانت نتيجتي المدرسية مخيبة للآمال. كانت نتيجة حتمية بعد كل تلك

التسكعات والسهرات الليلية. فلم أترفع من صفّي. انتقلت إلى الفرع الأدبي. وطلبت من أهل تسجيلي في مدرسة داخلية. اعتقاداً منّي بأن ذلك سيجعلني أكثر حرية. في بداية السنة الدراسية الجديدة سجلونا نحن الثلاثة، أنا وروؤوف ومريم، في ثانوية پول؟ اليرري في مدينة مكناس. للأسف عادت السيئة لم أغيرها. تابعت التسلسل الليلي المعتاد. مما عرضني للتأنيب، ولتلقّي الملاحظات والتهديدات، وفي آخر المطاف صفحتين مدويتين لأنني بدل أن أعود إلى مدرستي فجراً كالعادة، بقيت طوال النهار برقعة صباح في الرباط ما أدى إلى انكشاف أمري.

شابة مدللة

ما هي حياة الثامن العاديين التي كنت أحلم بها على مدار الأيام؟ هل هي السفر في الطائرة أو الحافلة أو القطار؟ أم هي قطع تذكرة سفر درجة أولى؟ هل هي التجول في عواصم الموضة والأزياء الأوروبية للتسوق والشراء؟ أم هي الملابس الممهورة بتوقيع إيف سان لوران التي كان يمكنني أن أستعيرها من أمي عند اللزوم؟ هل هي الحفلات والسهرات جنباً إلى جنب مع المشاهير والشخصيات التي كانت تملأ صفحات الصحف والجرائد؟ أم هي قضاء الإجازات في أي مكان من العالم؟ «العادي» بالنسبة لي كان: المال... الجاه... الملك... إذعان الآخرين لمشيتي والتسليم لرغباتي... لا أحد كان يبرؤ أن ينظر إلى وجهي شزراً، أو كان يستطيع أن يرمقني بعين حمراء. كنت محط أنظار الناس ورعايتهم أينما ذهبت وتوجهت. كنت أعيش في عالم كل شيء فيه ممكن، ومتاح، ومتوفر... فوق العادة.

عندما بلغت الثامنة عشرة، أقام والدي حفلاً دعي إليه أبرز وجوه المجتمع المخملي المغربي، مثل الأمير مولاي عبدالله، الأميرة لبياء، كل أركان الحكومة وزرائها، وعدد كبير من قادة وضباط المؤسسة العسكرية، بالإضافة إلى بعض النجوم والمشاهير. ولكن أين كنت أنا؟ وماذا تراها تفعل طفلة مدللة مثلي؟!

كنت أتأفف وأتذمر وأحرد. لقد أزعجتني وأرهقتني كل هذه البروفات والقياسات. فستان ديور غير مناسب لي، وهذه التريجة المتكلفة تحولني إلى فتاة أخرى لا تعجبني ولا أحبها. مسكين ذلك المزين الذي أهدر ساعتين كاملتين على تلك التريجة التي عقدتني يشاعتها حسب رأيي!

كم كانت صدمته كبيرة، لقد أقسم أنه لن يأتي مرة أخرى ليستريح في شعري، حتى لو كلفه الأمر حياته. ما فعلته لا يفخر، لأنني قبل أن ينتهي من توضيب عدته كنت قد أسرعت إلى الحمام لأضع تحفته الفنية تحت الماء. تركت شعري مسدلاً على طبيعته.

كان عليّ أن أقف في الصف إلى جانب أهلي لاستقبال المدعوين. كنت أبدو مقنعة بدور العروس التي لا ينقصها إلا عريس مناسب.

اختشعت الرقص برفقة الأمير عبدالله، توددت وسائرت السيدات المسنّات، تبسّمت في وجه أبي، والجنرالاته والوزراء.

أدبت هذا الدور بنجاح في الجزء الأول من السهرة.

وفي الجزء الثاني خلعت ملابس التمثيل جانباً. عندما بدأت فرقة جامايكا بالعزف، ظهرت هذه العروس العاقلة على حقيقتها. بلّلت ثوب الموسلين الأبيض بينطلون جينز وقي شرت. رقصت طوال الليل وأنا حافية القدمين حتى انقطع أنفاسي. معظم الرقصات كانت برفقة أبي.

انتهت السهرة على خير... حيث قدّمت لي الهدايا النفيسة... ضمنها بعض الذهب والمجوهرات. تلقيت الكثير من عبارات الإطراء والمديح، أخبروني بأنني جميلة...

خلال سنواتي الأولى في السجن، احتفظت باليوم صور هذه السهرة، ثم عادوا وانتزعوه مني ليضموه إلى سائر ما سبق لهم مصادرتة مني. لكنني تمكنت فيما بعد من استعادته عندما أطلقوا سراحني. كانت رؤوس الجنرالات الذين أعدموا بعد انقلاب الصخيرات محاطة بدائرة مرسومة بالقلم الأخضر.

بماذا تحلم الصبايا عادة؟ بالحب؟ لعلّ معظمهن يفعلن هذا! لكنني كنت أحلم بالأضواء. كانت السينما جسي الكبير، ومحط آمالي. بدأ حبها يتجذر في قلبي منذ الطفولة، عندما كنت أعيد تمثيل المشاهد التي تأثرت بها في الأفلام التي تكون قد شاهدناها أنا وللا مينا وزميلاتنا في الثانوية الملكية. كان كل ما أصبو إليه هو أن أصبح نجمة.

كنت أسعى جاهدة للتقرب من نجوم التمثيل، علّني بهذا أجد معهم فرصة العمر التي أبحث عنها. كانت أمي تملك شقة في لندن في الهايدبارك. هناك التقيت الممثلة اليونانية إيرين پاپاس، كانت تصور فيلماً تدور أحداثه في استديوهات لندن. هذا الأمر أدار رأسي. لحسن الحظ أنني كنت محاطة

بخالي عز الدين ووحيد ملاكي الحارس. كم كنت أستمع بصحبتها... وكم كنا نمرح سوية. كنا نجتمع في شقة إيرين الواسعة التي كانت قد استأجرتها إلى حين انتهائها من تصوير الفيلم. كنا نرقص رقصة السيرتاكسي اليونانية، ونحسي شراب القودكا والشبانيا ونضحك ونمرح ونشد الأغاني، ولا نغادر المكان إلا عند طلوع الفجر، حيث كان يقلنا بسيارة المازيراتي أو اللومبرغيني ابن للملك السعودي فهد، أو ممثل صاعد اسمه يورغو. كانت تلك هي الفرصة المؤاتية والذهبية كي أتقن اللغة الإنكليزية وأتمرس بها.

كانت باريس دائماً تبهرني وتسحرنني. في كل المناسبات كنت أتوصل إلى والدي كي يرسلني إليها. كالعادة كان يلزمي هناك، كما في كل مكان أذهب إليه، ملاك حارس. هذه المرة كانت قريتي وصديقة طفولتي. ليلي الشثا هي من أوكل إليها القيام بهذه المهمة. أقمت معها في شقتها. كانت تكبرني ببضع سنوات. لكنها كانت فاهقة الجمال. لا أحد يتفوق عليها في هذا المجال من كل بنات جيلها، مما استقطب إليها أنظار المخرج السينائي الأخضر حامينا الذي وقع صريعاً في حبها، وأسند إليها أدواراً في معظم أفلامه، ومنها فيلمه الشهير الذي فاز بجائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان، كذلك ظهرت في أحد أفلام جيمس بوند.

كانت ليلي نجمة حلمي. لقد حققت نجاحاً سينمائياً. إنها امرأة متحررة مستقلة، تربطها صداقات مع أبرز نجوم الفن في العالم الذين كنت شديدة الإعجاب بهم. لم تكن أبداً أنانية. لقد قدمتي لي نجم النجوم، محبوب النساء، آلان ديولون.

شخصياً لم أشعر بأي انجذاب عاطفي نحوه. كنت أجده مسناً وتاضجاً فوق اللزوم ولا يناسب فتاة مثلي، عمرها سبعة عشر ربيعاً، مندفعة ومتهورة، وعنيدة. ما كان يربط بيننا هو صداقة خالصة. صحيح أن علاقتنا كانت مبهمة وأثارت الكثير من اللغط إلا أنها كانت محض أفلاطونية.

قابلته عدة مرات في باريس، بعد ذلك في نيويورك، ثم المكسيك، حيث كان يصور فيلم اغتيال تروتسكي من إخراج جوزيف لوزي، وكانت تشاركه في بطولته رومي شنيدر. لقد علمني العزف على آلة اليازم.

كان آلان يكن لي الكثير من العاطفة، لكنه كان يحترم عاداتي وتقاليدي المحافظة، مع أنه كان يبدي دائماً امتعاضه وتذمره منها. الفضيلة والشرف كانا من الثوابت الأساسية التي لا أحيد عنها، وكنت

أرفض كل ما يمس بها. كان كثير الاتصال بي هاتفياً عندما رجعت إلى الرباط. مما أثار حفيظة أبي وأقلق، سيما وأن بطاته لم تكن تقوّت مناسبة دون أن تغمز من قناة كل ما يחדش سمعتي وشرفي. كان آلان صديقاً مخلصاً ووثيقاً، ولم ينجب ظني أبداً به. لقد برهن لاحقاً أنه من الأصدقاء الذين يعملون عليهم في وقت الضيق.

كان جاك بيران يتردد على شقة ليل. وكان قد أنتج لنوه فيلم زد (Z). كان معجباً بي ولم يخف هذا. كان لي معه مغامرة صغيرة لم يكتب لها النجاح. انجذبت نحوه بعض الشيء. لكنني لم أكن بعد جاهزة للارتباط بأحد. حررتي الجديدة كانت غالية جداً ولم أكن مستعدة لأفطر بها قيد أنملة. كانت الولايات المتحدة مهد الأحلام والمغامرات. كنت أنفي إجازات عيد الميلاد في نيويورك وهوليوود، وهي إجازات لا تنسى. وفي رأس السنة التقيت ابن شقيق موشي دايلان، مرّين دايلان الذي ربطتني به علاقة صداقة. لدي عودتي علمت أن هذا أسعد أبي، ولكنه أثار استنكار العديد من الوزراء.

كان لي في لوس أنجلوس أجمل الذكريات وأحلاها. مرة، رافقت الأميرة نزهة، الأخت الصغيرة للملك، وتلقينا دعوات من كل أنحاء هوليوود.

خلال بعض السهرات التي حضرناها، كانت كل واجلة مناجن الاثنتين أكثر مفاجأة وانبهاراً من الأخرى. قابلنا هناك كل نجوم ومشاهير السينما العالمية، أمثال زازا غابور، إدوار روبنسون وكثيرين غيرهما. كنت مأخوذة كلياً ومسحورة بكل ما تقع عليه عيني. بالطبع كان يجدر بي أن أعرف بأنني كنت مدينة بكل هذا للاسم الذي كنت أحمله، والذي كان يفتح لي الأبواب ويشرعها على مصراعها، وأنا لم يكن ليضيرني هذا.

في إحدى تلك السهرات وقعت بغرام كاوبوي السينما ستيوارت ويتمان. كدت أصاب بالإخلاء لمّا رأيت عينيه الزرقاوين الساحرتين. لم أتمالك نفسي، ففانحت جازقي بأمرى. كانت تهلس بقرسي مصادفة. علمت أنها فرنسية تعمل عارضة أزياء. أصغت لي بجديّة بدون أن يظهر عليها أي شيء. ثم بعد أن أنهيت كلامي قالت لي بابتسامة:

- نعم، أفهم هذا جيداً. لاشك أنه ساحر.

دفعني تسليمها بهذا الأمر إلى الفضفضة أكثر، والتهاذي، فشرعت أصف لها ما أعجبني فيه، بدون

أن أهمل أي تفصيل يذكر. بينما أنا كذلك لمحت فجأة نزهة تشير إلي كي أوافيها جانباً. ما إن أصبحنا بمفردنا حتى انفجرت بوجهي:

- مليكة! هل أصابك خطب في عقلك؟ فأنت لا تأكلين هذا الرجل بعينيك فحسب بل وتبين عواطفك المحمومة وتفتشها في وجه زوجته.

تلك المرأة الجميلة كانت زوجته؟ يا لغبائي وحماسي!

لقد أصبحنا صديقتين، ودعنتي إلى منزلها عدة مرات. لحسن الحظ أنها كانت مضممة ولم تأخذ تصر يحاتي العاطفية الصارخة على عمل الجد. لقد أغرتها سدا جتي وبساطتي هي وزوجها الذي من المؤكد أنه لا ترضه زيادة عدد المعجبات!

في منزلهم في ماليزيا، التقيت المثلة الجذابة بريجيت فوسي، صادقتها، كان هنالك الكثير من القواسم المشتركة بيتنا، إنها ابنة قائد عسكري، تماماً مثلي، كانت كذلك أمّاً لطفلة صغيرة عمرها أربعة أشهر تدعى ماري. لاحقاً، بينما كنت أرقص برفقة ابن دين مارتن في أحد النوادي الليلية في لوس أنجلوس قابلت ستيف ماكويين الذي دعاني للقيام برحلة استكشاف في صحراء كاليفورنيا. كان على معرفة مسبقة بأهلي. قضينا سوياً يوماً كاملاً نجوب بالسيارة ونخوض غمار الهضاب. لم أضحك طوال حياتي كما فعلت في ذلك اليوم الذي لا ينسى.

هذا الهوس بالتمثيل دفعني مرةً إلى انتزاع عقد لتمثيل فيلم من وكيل أميركي كان صديقاً لأبي. اتصل بي أبي هاتفاً لإقناعي بالعدول عن الفكرة. استخدم المسكين كل مهارته حتى تمكن من هذا. قال لي:

- مليكة، أعدك أن أرسلك للإقامة في الولايات المتحدة، وأن أدعك تفعلين ما تشائين. ولكن بعد أن تحصلي على البكالوريا. استجبت إلى منطق أبي، وقعت في الفخ الذي نصبه لي.

عندما أستعيد الآن ذلك الماضي البعيد، أشعر بالتسلية والمرح وأضحك من نفسي كثيراً. كنت فتاة مدللة تغرف بدون حساب كل ما كانت تمطرها به الحياة من رغد وخيرات. ترى إلى أين كانت ستقودني تلك الدروب المعبدة بالورود والرياحين؟

إلى الزواج المبور؟ إلى العزّ والجاه؟ إلى الضجر والملل؟ أم إلى الخيانات، والخواء العاطفي؟ إلى الاكتئاب والخيالات؟ إلى عدم الرضا والأمان والاطمئنان؟ إلى الهرب من كل هذا بالانغماس في حياة

المجون وفي إدمان شرب الخمر وتعاطي المخدرات ١٩ أعرف أن حياتي كانت ستكون مليئة بالمطبات الكثيرة، وستكون حافلة بالمعصيان والمرد والتماسة، مما كان سيجمعها تغدو جحياً لا يطاق. هذا الوصف ينطبق أيضاً على حالات معظم فتيات الأسر الغنية في المغرب.

لقد نجرت شخصياً من هذا القدر الأسود. لا أنكر أن الثمن الذي دفعته لا يقل سواداً وقناعة. لكنه على الأقل كان مشرفاً لأنه صقلني، وأظهر خامتي التي كان يحجبها الصدا والصديد. تلك السنوات من عمري التي أضعتها تعلمت منها الكثير الكثير. لقد عدت إلى الحياة في اللحظة التي وُلدت فيها قدمائي عبثة الشيخوخة، إن هذا يقتل الروح ويدمها. علمتني الحياة أننا لا نبني الكون ونعمره بالصنع، والتملق، والزيف، والفاق، ولا بالمواقع، والمراكز، والمال والغنى، فكل هذا زائل وفانٍ لا محال.

رحلت عن هذه الغاية المأسوف على شبابها، سلية الحسب والنسب، وريية الجواري والقصور، بعد أن احتضرت طويلاً بين جدران زنازتها المظلمة. لم يشارك في جنازتها أحد سواي. كنت الشاهدة الوحيدة على نهاية تلك الصبية المدللة التي تقاذفتها رياح الأقدار العاتية. كان لا بد أن تموت هي كي أحيأ أنا. أنا الآن امرأة جليدة أخرى، ولدت للثمن من رحم المأساة والأحزان.

انقلاب الصغيرات

بدالي هذا الصيف من سنة ١٩٧١ مقبلاً بشكل خاص. بالرغم من أن مستي الدراسية كانت مليئة باللهم، إلا أنني تمكنت من الحصول على معدل جيد في امتحانات البكالوريا الفرنسية، مما أدى إلى قبولي في صف الفلسفة. وهذا معناه أنه سيتسنى لي قضاء إجازة لمدة شهرين كاملين، يمكنني خلالها أن أخرج كما يحلو لي، أن أسبح، أن أرى الأصدقاء ساعة أشاء، أن أقوم ببعض الرحلات. كنت ما زلت نائمة في الساعة الواحدة من ظهر يوم ١٠ تموز/ يوليو، إذ كان أبي في الليلة السابقة قد دعا العائلة بأكملها للذهاب إلى المطعم. كانت هذه الدعوة بادرة استثنائية قليلة الحدوث في حياتنا اليومية. كانت السهرة ناجحة جداً، وضحكتنا كثيراً. بعدما عدنا أدرجنا تابعت إحياء الحفلة في البيت طوال الليل. لذلك كان من الطبيعي أن أبقى نائمة حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر. كانت

الحياة من حولنا هادئة ومریحة، ولا شيء يدعو للخوف والقلق؟ فما الذي يمكن أن يصيبنا؟^{١٩}
أيقظوني من نومي بعنف. كان حرس المرافقة يترأضون في أرجاء البيت بتوتر وعصبية. كنا
نسمع أصوات الطائرات العسكرية تحلق في السماء. كان جو من الرعب يخيم. ما الخبر؟ إنه الانقلاب
العسكري الذي جرى في قصر الصخيرات حيث كان الملك يشارك في الاحتفالات التي كان قد أعلن
استمرارها لمدة ثلاثة أيام بمناسبة بلوغه سن الثانية والأربعين^(٢٠).

لم تتمكن من الاتصال بأبي. أمي كانت تتناول الغداء عند صديقها سيلفيا الدكالي التي كانت
تملك فيلا على شاطئ البحر. كان أخي قد خرج على دراجته النارية إلى المدينة مع مجموعة من
أصدقائه. انشغل بالي على أخي، ولم أعرف ماذا أفعل. لذا قررت الذهاب بأبي. تفاجأ المدعوون بالنبأ،
وكان البعض منهم ما يزال في ثوب السباحة. وكان منزل سيلفيا يقع على بعد كيلومترين فقط من
قصر الصخيرات. عندما كنا أنا وأمي في طريق عودتنا إلى الرباط، شاهدت في الخط المعاكس قافلة من
السيارات العسكرية.

لم نستطع العودة إلى المنزل. كان هذا شبه مستحيل. وبدلاً من ذلك التجأنا إلى منزل صغير كانت
تملكه أمي في المدينة، حيث يمكننا قضاء الليل على الأقل. كانت برققتنا سيلفيا الدكالي التي كانت في
حالة من القلق الشديد لأن زوجها، وهو سكرتير الملك، لم يعد إلى البيت، ولا تعرف أي شيء عنه.
في الصباح الباكر اتصل أحدهم بأبي ليعلمها أن العربي الدكالي كان بين المجموعة الأولى التي تم
تصفيتها وإعدامها، في قصر الصخيرات الذي سقط فيه حوالي مئتي قتيل، كان ثلثهم من بين مدعوي
الملك الذي نجح بقمع حركة التمرد بالكامل بعد أن أوقع بين أفرادها خسائر بشرية فادحة. لقد تمت
تصفية مئة وثمانية وثلاثين عسكرياً. كما تم اعتقال عشرة ضباط من بينهم أربعة جنرالات. ولم يمض
وقت طويل حتى تم إعدامهم جميعاً.

كان هذا الانقلاب أول زوينة تحصل في حياتي التي كانت تسير دوماً على أفضل ما يرام. لم يخطر
على بالي قط أنه يمكن إلحاق أي من أو ضرر بسلطة الملك. هل حقاً كان بإمكان هؤلاء الضباط
الصغار تنحية الملك وإزالته لو لم يتم تغيير مجرى الأمور لمصلحته؟^{٢١}

لم أكن بعد ناضجة بما فيه الكفاية ولم تكن لدي دراية بالشؤون السياسية كي أفهم حقيقة ما حدث.
ما زلت أذكر بشكل خاص حالة الرعب والهلع التي كانت مسيطرة على الأجواء، بالإضافة إلى اللوعة

التي شعرت بها عندما علمت بموت العديد ممن كانت تربطني بهم معرفة وثيقة وقرابة في قصر الصخيرات.

عندما بلغنا المنزل في الصباح، قررنا أنا وأمي التوجه إلى فيلا الملك الكائنة في شارع الأميرات التي تبعد مسافة كيلومترين عن منزلنا. وكان الملك قد لجأ إليها مصطحباً معه زوجته.

كان الاستقبال حاراً جداً، ومؤثراً للغاية. حيث تعانق الجميع وبكوا.

كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي تتازعني فيها الهواجس والأفكار المتناقضة. فأننا من جهة كنت خائفة هل أبي وهل الملك. ومن جهة ثانية كنت قد بدأت أضيع ذرعاً بالسلطة وبالملكية التي فقدت أي حماس لها.

كم شعرت بالعار عندما أعربوا لي عن تقديرهم وامتنانهم من العمل الذي قام به أبي. لقد ساعد في إخماد حركة التمرد. ولكن ألم يكن هؤلاء يناضلون من أجل القضاء على الفساد المستشري في البلاد؟!

لاحقاً توضح لي تدريجياً بعض المواقف والأمور من خلال المناقشات السياسية التي كنت أخوضها مع أصدقائي. ولكنني خلصت إلى قناعة بأنه ليس من السهل معرفة ما يدور في الواقع من أحداث.

كانت أُمي تريد مقابلة الملك بأي ثمن. كنت أعرف جيداً الطريق الذي يوصل إلى حيث توجد الأجنحة التي يقيم فيها. ما إن وصلنا إلى عتبة بابه حتى فتح الباب فجأة، قبل أن يتسنى لنا الوقت الكافي لإعطاء إشارة تعلن عن وجودنا.

كان الملك في حالة من العصبية والخوف، لدرجة أنه تراجع خطوة إلى الوراء عندما فتح الباب وتفاعلاً بوجودنا. ألقي باللائمة على أُمي واتهمها بأنها أرعبته. كان على شيء من الكبرياء الذي يمنعه من إظهار أي لحظة ضعف أمام أعين الغرباء. والغريبة هنا كانت أُمي ولم أكن أنا. لأنني كنتُ أعتبر من أهل البيت.

كانت أُمي تريد استعادة جثة العرسي الدكالي، وحاولت إقناع الملك بذلك. استفزه الأمر فبدأ بالصراخ قائلاً:

- أنت تجهدين من أجل إسداء الخدمة، تهمين بجنازة هنا، ودفن هناك. ولمن تقومين بكل هذا؟

هؤلاء؟ تذكرني جيداً قولي: كل هؤلاء الناس الذين تهتمين لأمرهم، لن يرفعوا إصبعاً صغيراً عندما سيصيك ما أصابهم.

ولكنه، بالرغم من ذلك، عاد وسمح بتسليمها الجثة، كي يصار إلى دفنها كما يجب.
كانت الأيام التي تلت فظيعة. الضباط العشرة الذي كانوا قيد الاعتقال تم إعدامهم بدون أي محاكمة. كانوا جميعهم من الأصدقاء الحميمين لأبي. بعد إعدامهم عاد أبي إلى البيت بوجه شاحب وعينين حمراوين وتقاطيع متشجعة. مباشرة صعد إلى غرفته حيث استلقى، يذكت العسكرية، متعباً على فراشه. جلست القرفصاء بالقرب من سريره وأخذت يده ولشمتها. كانت أمي أيضاً هناك بجانبه لتواسيه وتشد أزره.

بكى أبي طويلاً وحزن لفقدان أصدقائه. أكثر ما أحزنه أنه لم ينجح بإقناع الملك بمحاكمتهم كما تقتضي القوانين.

كان في قرارة نفسه يعلم باستحالة نجاة أي منهم، أو إمكانية إصدار أي عفو لصالح أحد، بسبب فداحة التهمة التي كانت موجهة إليهم، وهي العبث بأمن الدولة وتهديد سلامتها. مع هذا سعى للدفاع عنهم ولإيجاد الذرائع المناسبة لتبرير موقفهم. كانت المرة الأولى في حياته التي يتصرف فيها بما تحليه عليه عاطفته وضميره، لا بما تحليه عليه مصالحه السياسية. لقد تجرأ أبي على مجابهة الملك الحسن الثاني والصراخ بوجهه. وإبان تشييع القتل الذين سقطوا من بين المدعويين، وأولئك الذين قضوا وهم يدافعون عن العرش، كان الملك يشارك في الموكب وهو يرتدي سترة مخططة بالربعات، كانت تحلوه بشكل خاص، عندها لم يتمالك أبي نفسه، فنظر إلى الملك نظرة عتب واتهام وقال له:
- أنت لا تحترم الموتى.

تركت جذتي لأبي مكان إقامتها في واحة عين شعير، وأتت لزيارتنا وتفقد أحوالنا. صحيح أنني كنت قليلاً ما أراها لكنني كنت أحبها كثيراً.

إنها تجسد بشخصيتها المميزة والفريدة مجموعة من القيم العظيمة: الزهد والتقوى، والألفة، وعلو الهمة والإباء.

هذه المرأة الصحراوية كانت بعيدة عن كل مظاهر التصنع والتعقيد، كانت تلبس قفطاناً أبيض بسيطاً، وكانت تشبه الهنود الحمر بخدودها البارزة، وعينيها الصغيرتين السوداوين الناعستين،

وشعرها الأسود المشرح على شكل ضفائر.

وفوق كل هذا كانت تتحلل بشجاعة نادرة، إذ كانت تصطاد الأفاعي بكفها العارية. وكانت كأيي فارساً ذائع الصيت. عندما التقت بأبي سَلَمًا على بعضهما البعض على طريقة أهل الجنوب المغربي حيث قَبِل كل واحد منها يد الآخر.

ثم قالت له بانفعال واضح:

- هالك الله يا ولدي. لقد خلطت ميتاً.

توقف أبي عن البكاء وقال ببرود:

- أسي، لا تلذري علي دمة واحدة فيها لو رأيتي أموت شجاعاً. ولكتي أرجوك أن تفعلي إذا ما رأيتي أموت مجرماً جهائلاً.

فيما بعد، أخلقت باب الصالون علي وعلى أبي حيث أطلقت العنان للآلام والغضب اللذين كانا ينهشان صدري. لقد ضقت ذرعاً بما كان يتعرض له أبناء الجنرالات الذين أعدموا من تنكيل على يد الجيش. لقد ضربوا، وطردوا من بيوتهم بغير حق. وما آذاني وأثار المسي وجرحني هو ما كان قد تنامي إلى سمعي من أن أبي هو الذي أعطى الأوامر بذلك^(١٠). طلبت منه بإلحاح توضيحاً بشأن هذه الأقاويل.

رفض جملة وتفصيلاً ما كان قد نسب إليه. ثم أعلمني أنه يرغب برؤية أولاد الجنرال جيسي الذي كان واحداً من أصدقائه المقربين جداً منه. وعدهته بأن أفعل ما أستطيع، وقبلت أن ألعب دور الوسيط. بعد طول تردد وافق الابن البكر للجنرال أن يأتي إلى منزلنا تحت جناح الليل والظلام حيث دس أبي في يده محفظة ممتلئة بالنقود التي لم يفصح لي مطلقاً عن مقدارها، ثم خاطبه والدموع تتلألأ في عينيه قائلاً:

- أتمنى أن تصرف دائماً أنت وأخوتك تصرفات خليفة بوالدكم.

أما ميلا ابنة الجنرال مدبوح الذي قتل على يد الرجل الذي كان متواطئاً معه للقيام بالانقلاب، الكولونيل اجابو حيث أوداه قتيلاً في قصر الصخيرات، فكانت آنذاك في الثانية والعشرين، وكانت على علاقة استلطاف مع الكولونيل المذكور وتخرج وإياه من حين لآخر وهي من مجايلي خالي عز الدين، ميلا هذه كان من المستحيل أن تتمكن من استعادة جثمان أبيها الذي كان في مستشفى ابن سينا.

تدخلت من جديد، وتوسّطت مع أبي كي يعطيها بعض المال، ويستحصل لها عل جواز سفر
تستطيع من خلاله أن تغادر البلاد باتجاه فرنسا.

وهكذا اضطرت إلى تغيير كنيّتها بكنية عاتلة أمها التي كانت ابنة الماريشال أمزيان كي لا تتعرض
لأي إزعاجات أو مضايقات.

صدمني هذا الإجراء وأذهلني فقلت في نفسي: مهما حصل في حياتي فإنني لن أنخل أبداً عن اسمي
وكنيّتي.

مع مرور الأيام كان يعتريني هاجس أن أفقد أبي أيضاً في ظروف مأساوية مشابهة.
لم أجد أبداً تفسيراً منطقياً لهذا الهاجس الذي لم أستطع أن أتخلص منه لأنه كان أقوى مني.
في اليوم التالي للانقلاب أفصحت عما يؤول في رأسي أمام أحد أصدقائي ويدعى كامل. قلت له:
- ما حصل هذه السنة شيء لا يذكر بالقياس مع ما سيحدث في السنة المقبلة. سترى أن الكارثة
ستكون جسيمة لا تعوض.

ثم أسررت القول مجدداً لأبي. قلت له:

- أخشى أن تلقى ما لقيه مدبوح، فحذار.

أطرق بصمت مفكراً ولم يجب بشيء.

ما بعد الصغيرات

في أعقاب محاولة الانقلاب الفاشلة سافرت أمي إلى لندن بعيداً عن أجواء البلبلّة والحذر التي
كانت تخيم على البلاد.

اصطحبت الصغار إلى قبيلة، وهي مصيف بحري تم تشييده حديثاً في شمال البلاد. لأول مرة،
كنت مسؤولة بالكامل عن إخوتي، وقمت بدور الأخت الكبرى بمتى الجديدة. في نهاية فصل
الصيف، عدنا جميعاً إلى الرياط. كان أبي يتخذ من البيت تقريباً مكاناً للعمل. إذ ما يكاد يغادر
البيت في الصباح الباكر حتى يعود بعد الظهر ويبدأ باستقبال الوزراء والضباط. لقد اتسع نفوذ أبي
وازداد قوة، ولكنه تحول إلى شخص آخر. كان يبدو منكسراً، متجهماً، ولم تعد البسمة تعرف طريقها
إلى وجهه، وكان كل هموم الدنيا منصبة فوق رأسه. اعتقد أنه كان في حالة حداد دائم لا تفارقة، لأنه

كان ما يزال حزينا على فراق أصدقائه الذين قضوا بشكل مأساوي ومفجع.
بعد أن أعاد تجديد اهتمامه بعائلته الأولى، أي الجيش، أعرب عن شجبه واستنكاره لما تقوم به من أعمال بذخ وتبذير. ثم عاد وأبدى امتعاضه وتذمره من طريقة حياتنا التي كانت تفتقر إلى التقشف والبساطة حسب رأيه، وقد قاده ذلك إلى اتخاذ جملة قرارات تهدف إلى إحداث تغيير جذري في مجرى حياتنا. وفرض على البيت نظاماً عسكرياً صارماً. فأوعز إلى رجال الأمن بأخذ المزيد من الإجراءات الأمنية المشددة، وعمل على تنمية وإبعاد العديد من أفراد الحاشية من المتطفلين، والمتملقين.
أما فيما يخصنا نحن، فلم يعد بإمكاننا حضور الأفلام كما كنا نفعل سابقاً، ولم نعد أحراراً كالعادة باستقبال من نشاء من أصدقائنا.

أجبر رؤوف على أخذ دروس باللغة العربية على يد ضابط كان ذا ميول وقناعات إسلامية.
أما فيما يتعلق بي، فقد أصبحت طريقة ملبسي موضع انتقاد، وأخذ ورد.
أثارت سياسة التغيير والتحول الجديدة هذه موجة من الاستنكار في صفوف عائلة أوفقيز، وأدت إلى حصول مصادمات ومواجهات كلامية بين أفرادها كانت تقريباً شبه يومية.
ضاعف الملك من زيارته التي كان يقوم بها على حين غفلة إلى منزلنا. أضحت زيارته الفجائية والمتكررة بمثابة انتهاك لخصوصيتنا العائلية. كان يترامى لي بوضوح أن الشرخ في العلاقة التي كانت تربط ما بين الملك وأبي يزداد عمقاً واتساعاً.

لم أعد أجد أي أثر للانسجام الذي ساد بينهما زمناً طويلاً. لقد أدمى قلبي وأحزنني هذا الواقع المرير الذي شاء أن يوقع بين هذين الرجلين الأحب إلى قلبي في هذه الدنيا بأكملها.
بدأت أضيق ذراعاً بما يجري في داخل البيت وخارجه، فهناك وضع غير طبيعي وغريب بدأ يلقي بظله على البلاد، فالنظام الملكي أصبح على كف عفريت، وبدأ يفقد تأييد الشعب له، إذ إن الشعب بدأ يشكك بمشروعيته، وينال من موقع الملك الذي طالما اعتبره شخصاً مقدساً، وأميراً للمؤمنين لأنه حفيد الرسول.

في شهر كانون الثاني/يناير أعلن طلاب الجامعات والثانويات الإضراب، ووقع العديد من أعمال الشغب والاحتجاج، عمد أبي إلى إخمادها بالقوة على الفور. كان النبذ الذي تعرضت له في ثانوية للا عائشة يزداد سوءاً مع الأيام. فلم يعد الطلاب يتمون بإخفاء مشاعرهم العدائية نحوي، باستثناء

أصدقائي. ومع هذا واطبت على الذهاب إلى الثانوية. لقد كنت تلميذة مجتهدة، وأردت الحصول على شهادة البكالوريا بأي ثمن. ولكن المديرة أبدت خوفها وحرصها على أمني وسلامتي ونصحت والدي بسحبي من مؤسستها.

بعد عدة ساعات من المناقشات المحتملة تمكنت من إقناع والدي بإرسالني إلى باريس، وإلحاقني بثانوية موليير، وتسجيلي تحت اسم مستعار. وهذا ما تمّ بالاتفاق مع ألكسندر دومارانث رئيس جهاز أمن الدولة الفرنسية.

أصبح اسمي الجديد مليكة الشنّاء، لقد استعرت كنية أمي. وافق أهلي على استئجار شقة لي، تبعد عدة أمتار فقط عن موقع الثانوية بدلاً من تسجيلي في سكن الطلبة الداخلي. تولت صديقة فرنسية مسنة تدعى برناديت مسؤولية السهر على راحتي، وسلامة تحركاتي، ورعاية شؤوني ومنهي من الخروج ليلاً. بيد أن المهارة في الإقناع التي كنت أتعلّم بها أثمرت لاحقاً نتائج مرضية وأدت إلى نصف كل وعودها وتعهداتها.

لم أَدعِ أمي تشتري لي أثاثاً وفق ذوقها الذي كنت أجده بورجوازيّاً جداً. تحاشيت كلّ المقتنيات الفخمة والفاخرة، وخافّة أن يفضح أمري، وتكتشف هويتي الحقيقية أمام من سألتخدم أصدقاء في المستقبل القريب.

وافقت أمي على تسليمي المال الذي بددته في شراء السلع الرخيصة من الأسواق الشعبية. صرت أبدو كالمشردة في حياتي الجديدة، وعملت جاهدة كي أحافظ على الظهور بهذه الصورة. وكان من سمات ذلك دأبي على تناول الأطباق المجلدة في شقتي المؤلفة من ثلاث غرف، بما فيها المطبخ، والتي كانت تقع في الدائرة ١٦.

كم كان يدولي ممتعاً ومشوقاً دور شخصية الفتاة اليسارية الكادحة الذي كنت أبتخله وأمثله! وأين الغرابة أن تشعر بهذا من كانت طفلة مدللة وميسورة مثلي؟

باريس كلها كانت بمتناول يدي، فلم لا أنعم بها، ولم أحرم نفسي من كل ما يمكنها أن تقدمه لي؟ ولم لا أخرج كل ليلة للسهر؟

أما عن برناديت، فقد تدبرت أمرها. توصلت إليها ورجوتها ألا تأتي على ذكر أي شيء من كل هذا لأبي أو أمي.

أصبحت زبونة مألوفة ودائمة عند كاستيل وريجين، هذه النوادي الليلية لم أكن أخادعها قبل طلوع الفجر. ومع هذا كنت حريصة على عدم إهمال دراستي، والعمل من أجل الحصول على علامات جيدة. كانت بالنسبة لي مسألة كبرياء وتحذّر لا تقبل أي تهاون أو مساومة. في إحدى الأمسيات كنت مدعوة لحضور حفلة في بيت صديق مغربي عندما اتصلت بي برناديت هاتفياً لتقول لي بهلع شديد:

ـ مليكة، عودي حالاً إلى البيت. الأمر طارئ جداً، وأبوك لا يكفّ عن الاتصال بك. كانت الساعة هي الأولى بعد منتصف الليل. أوصلني بعض الأصحاب إلى أمام مدخل المبنى الذي فيه شقتي حيث شاهدت حشداً من الناس يملؤون المكان. اقترت بخشية وحذر، فإذا بي أمام رجال يرتدون ملابس الشرطة، وآخرين باللباس العادي. كانوا يتشرون في كل زاوية هناك، في الساحة، في البهو، على الأدراج، حتى فوق غصون الأشجار. أكثر من بدا عليه الاضطراب والخوف كان سفير المغرب في فرنسا الذي كان قد وصل لتوه إلى هناك. لم يعطني أي تفسيرات لما يجري. طلب مني فقط إحضار حقيبتتي التي كانت برناديت قد جهزتها قبل مجيئي. لم يدعني لأستقل سيارته مما ضايقتني وأزعجني. قضيت ليلتي في بيته حيث أفضى لي بأن الشك يساورهم بنوايا العقيد القذافي، فهناك معلومات تشير إلى أنه كان يحاول اختطافي.

سألني إذا ما كنت قد لاحظت من حولي أي شيء غريب في الأيام الأخيرة الماضية. فجأة تذكرت بأن رجلين، قومي البنية، كانا يرتديان ملابس سوداء، قرعا باب شقتنا ثلاث أمسيات متتالية، وكانا يدعيان في كل مرة أنها على علم بأن شقتنا معروضة للإيجار، وأنهما يرغبان بالقاء نظرة عليها من الداخل كي يتسنى لهما أخذ القرار المناسب بشأنها. لكن مظهرهما المريب أثار مخاوفنا وشكوكنا، فرفضت أنا وبرناديت التجاوب مع رغبتهما مهما كلف الأمر.

لاحقاً، تنهت برناديت إلى أن أحداً ما كان يلاحقني ويتبع خطاي أنها تحركت عندهما كنا نسوق في شارع بومب.

عرض عليّ رئيس جهاز أمن الدولة في فرنسا مجموعة من الصور علّني أتعرف من بينها على بعض الوجوه التي سبق لي أن شاهدتها من قبل. لكنني رفضت التجاوب مع هذا المطلب. فليس من عادتي الوشاية بأحد. هذه مبادئ ثابتة لا أتخل عنها... ركب الطائرة المتوجهة إلى المغرب حيث بقيت عدة

أيام، في أثنائها رجوت أهلي أن يسمحوا لي بالعودة إلى فرنسا. في المقابل كان عليّ أن أذعن إلى التدابير الأمنية المشددة التي كانت مضرّة من حولي. على مدى أسابيع طويلة كنت أرى خلالها رجال البوليس في كل مكان تقع عليه عيناى. ربما كنت أبالغ قليلاً، ولكن آنذاك كان هذا انطباعي.

خلال الشهر الذي سبق امتحان شهادة البكالوريا، كدت أفقد إحدى عيني في حادث سيارة خطير كان يقودها أحد أصدقائي، يدعى لوك وهو ابن أندريه كولفي وهو رجل أعمال مقرّب من الجنرال أوفقيز، بعد أن فقد سيطرته الكاملة على السيارة اصطدمت بعمود كهرباء كان قريباً من المكان. أما أنا فقد اخترقت بجسدي الزجاج الأمامي لأنني كنت أجلس بجانبه، ولم أكن أضع حزام الأمان.

نقلت إلى المستشفى في سيارة إسعاف. كنت في حالة يرثى لها. كان الوضع مزرئاً: الخد مشوه، الأنف مجزأ إلى ثلاثة أجزاء، قوس الحاجب ممزق، العين تالفة، الرقبة شبه منبوحة، الفم مشروم كلياً، المعصم مكسور، الإبهام مطحون، وفوق كل هذا كان هنالك ارتجاج في الدماغ.

وأنا ملقاة على الطاولة في غرفة الطوارئ سمعت الممرضات اللواتي لا شك أنهن حسبي في غيبوبة، يملقن بأسى واستهجان:

- يا للخسارة... إنها مشوّهة كلياً... يا للفظاعة... لا شك أنها كانت جميلة... أما الآن... يا للمسكينة... ويا لحظها العائر...

أجروا عمليتين جراحتين لعيني، لحسن الحظ أن العملية الثانية نجحت. أرسل الملك مولاي عبدالله وبعض الوزراء لعيادتي وملازمتي. لم تفارقني أُمي طرفة عين. كان أبى لا يكف عن الاتصال الهاتفي، فهو لا يستطيع المجيء إلى فرنسا، لأن هناك حكماً بالسجن المؤبد كان قد صدر بحقه في فرنسا بسبب قضية بن بركة. آنذاك تاهت إلينا بعض الأخبار تفيد أن الرئيس بومبيدو كان مستعداً لأن يدعه يمتاز الحدود فيما لو أتى لرؤيتي.

عندما تماغت قليلاً، وصار بإمكانني الرد على مخابراته بنفسى، استحلفت وناشيتته بأن لا ينادر المغرب.

بقيت في المستشفى أسبوعين كاملين. وفور خروجي أردت أن أستأنف حياتى الطبيعية. لقد عانيت طويلاً وكان عليّ أن أضع دائماً نظارات شمسية سوداء كبرى كي أحمى عيني من الضوء. بعد مضي وقت قصير عدت من جنيد لرؤية الطبيب الذي أجرى لي العملية الجراحية. هناى

وقال لي:

- مدموزيل أوفير، أنت حالة فريدة ونادرة، إذ تمكنت بشجاعتك وعزيمتك من إنقاذ عينك.
بعد عدة أيام استعدت نصف نظري. في الوقت الحاضر عاد وجهي إلى سابق عهده قبل الحادث.
أما آنذاك فقد كانت الندوب ما تزال ظاهرة. ولم أتمكن بعدها من العودة إلى فرنسا كما كان مفترضاً،
كي يصار إلى سحب الخيطان عن بعض القطب ومن أجل إجراء علاج بالتهارين.
في السجن عانيت من التشنّج الذي كان واضحاً في عضلات الوجه. وما زلت حتى الآن، عندما
أتمب أو تنوثر أعصابي، يبدأ عصب الوجه بالانفاس بطريقة لاإرادية.
أعادني أبواي إلى المغرب لأقضي فترة النقاهة هناك. كنت قد عزمت على تقديم امتحانات
البكالوريا التي ستجري في شهر تشرين الأول/ أكتوبر في ثانوية ديكارت. كانت هذه الدورة الثانية
مخصصة للطلاب الذين لم يجتازوا امتحانات الدورة الأولى مثلي أنا. لقد شئت هذا، ولكن القدر شاء
شيئاً آخر.

الانقلاب العسكري الثاني سنة ١٩٧٢

الملك الذي كان يستقبل الرئيس بومدين طلب مني أن أمرّ لرؤيته حلماً أعود إلى الرباط. كنت ما
زلت مشوّمة المنظر، كان وجهي متورماً، وعيناي محاطتين بهالات زرقاء، والندوب تغطي كل أجزاء
الوجه تقريباً.

ما إن رأني حتى خف إليّ ليشدّ أزري ويرفع معنوياتي. قال لي:

- ألف لا بأس عليك يا مليكة. اسمعي. ما جرى معك أمر طبيعى يحصل لكل الناس. ما من
أحدٍ إلّا وتعرض لحادث سيارة على الأقل مرة واحدة في حياته. انظري للالياه وأنا... سأرسلك
الشهر القادم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستشارة عمالقة الطب. بعد ذلك أعدك أن كل الآثار
ستختفي، ولن نعود نرى شيئاً من كل هذا.

آنذاك كنا في بداية شهر تموز/ يوليو. أرادت أمي أن أذهب برفقتهم لقضاء الإجازة في قبيلة.
ولكنني أصرت على البقاء لأنني أردت أن أبدأ بالاستعداد للامتحانات القادمة، كي أراجع دروسي
بهدوء تام. لزمنا المنزل مع أبي الذي كان منهمكاً وغارقاً بالعمل، وقد أصبح البيت وكأنه مقر

للقيادة العامة. لم يعد يفارقه أبداً، يقضي نهاراته باستقبال الضباط والوزراء. كان هذا الجو غريباً لا يبعث على الارتياح. في هذه الأثناء كنت أذهب لرؤيته كل يوم في الأوقات التي يستطيع فيها أن يستقبلني ويراني، أثناء تناول الغداء، أو آخر النهار مثلاً.

كانت أمي تمتلك مقابل؟ بلاتاً بيتاً صغيراً، من صالون، وغرفة نوم ضيقة، وحديقة جميلة. أقمت فيه كي أحظى بالهدوء اللازم. كنت أدرس بجدية تامة وبدون انقطاع، وأنا وصديقة كانت تعد لامتحانات مستها الجامعة الأخيرة في كلية الحقوق. قرر أبي أن نذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في قبيلة. كنت قلقة وغير مطمئنة فلك كانت السيارة الرقم عشرين التي تستأجر له من أجل تنقلاته ونعمركاته. ما هذا السر الخفي والغامض؟ بعد شهر بالكاد من حادث السيارة الذي تعرضت له كاد أبي يفقد حياته في حادث طائرة مروحية. وفي مرة أخرى نجا من انفجار وقع خلال احتفال رسمي لم يتمكن من حضوره لسبب أجهله. كنت أستشعر دائماً أن الملك كان يريد إزالته من الوجود، ولكنني لم أكن أملك أي دليل ملموس على هذا.

كان الجفاف يزداد اتساعاً ووضوحاً باضطراب ما بين هذين الرجلين. في أحد الاجتماعات الوزارية التي أقر فيها زيادة واضحة في أسعار المواد المعيشية من سكر، وزيت، وطحين، أخرج أبي مسدسه وهدد بقتل نفسه إذا ما تم ذلك.

اعتقد أنه كان يحلم بمملكة تقوم على الدستور، بعهدة ولي العهد سيدي محمد، لقد كان التنافس على السلطة على قدم وساق.

كان قضاء نهاية الأسبوع في قبيلة حدثاً غير عادي. وكما أكون دقيقة أكثر أقول كان خارجاً عن المألوف. كان تصرف أبي غريباً ومستهجناً. فالذي أحاطنا خلال سنة كاملة بجو من التشدد والصرامة، ها هو ذا يقضي النهار بكامله وهو يرقص ويفني ويمرح. كنت أحضرت معي من فرنسا آخر التسجيلات الغنائية والموسيقية. وها هو يطلب مني في العاشرة صباحاً من وضوح النهار أن اسمعها، وكان يلح في هذا مخاطباً إياي باسم اللع: كيكاً...

هيا كيكاً، ارفعي صوت الموسيقى على مداء، أريد أن أرقص.

هل هذا هو الذي لم يكف يوماً عن الطلب مني أن أخفض صوت الموسيقى؟!

لقد اكتشفت فجأة أباً آخر مختلفاً. كان أباً حقيقياً! كنت قد نسيت كم يمكنه أن يكون لطيفاً، مرحاً،

ممتعاً، فكاهياً. وكأنه في حفل مستمر من الصباح وحتى المساء. كان تمهيداً حياً لحب الحياة. ما إن يصحو في السادسة صباحاً حتى يهرع إلى البحر حيث يتمدد على الشاطئ بمفرده، وهو الذي لا يطيق البحر ولا يجبه عادة. كان يتأمل طلوع الصباح، أو يسرح نظراته في الأفق البعيد. كانت جروح وجهي في طور الالتئام، وكان عليّ ألا أعرّض نفسي لأشعة الشمس لكنتي لم أكرث، ولم أتحذ أي تدابير وقائية، ولم أبال. كانت هذه طريقي كي أقول له: لا تقلق، إنني طبيعية وبخير، ولا شيء يمنعني من البقاء معك حيث أنت. أخذ درساً في كيفية التزلج على الماء، وهو الذي لم يكن يجيد السباحة. لقد أخذ احتياطاته، وارتدى سترة للنجاة. كان منظره يثير الضحك مما دفعنا إلى تلقيه: به موبى ديك، ملك البحر.

في قبيلة، كانت الحياة بسيطة جداً. كنا نستقبل الكثير من الناس. وكانت أمي تصر على التسوق وشراء الحاجيات بنفسها، يرافقها بعض أفراد الحرس. وكانت أيضاً تشرف على وضع وتحديد لائحة الأطعمة التي يجب أن تقدم وذلك بالتنسيق مع الطباخ. كانت امرأة تحرص على القيام بكل شيء بنفسها. فلم يخطر على بالها قط أنه كان بإمكانها أن تشير بإصبعها فقط من بعيد كي تتحقق رغباتها وتتخذ. كان أبسي لا يخلع المايوه إلا آخر النهار، عندها فقط كان يضع عباءة رجالية هي زي الرجال في منطقته في جنوب المغرب.

بالرغم من ذلك، كانت مظاهر السلطة متجلية بأبهى حللها. كان رجال الأمن والشرطة يحيطون بنا كظلنا، وكانت مجالسنا أكثر ما تستقطب بطانة المتطفلين الذين كانوا يلحقون بنا إلى كل مكان نقصده. أما عن زوارنا فقد كانت ذروة القمة في التباهي لديهم أن يلمحوا في أحاديثهم أيها حلوا أنهم كانوا بضياقتنا، كأن يقولوا مثلاً بكبرياء مبطنة: -لقد تناولنا طعام الغداء عند آل أوفير...-

بعد ثلاثة أيام من الروعة، قضيناها بمتهى الحيوية والنشاط، ركبتا الطائرة للعودة باتجاه الرباط. عدت لمراجعة دروسي حيث كنت، في البيت الصغير. بعد ظهر أحد الأيام حوالى الساعة العاشرة، ذهبت لرؤية أبسي. كان لوحده، جلست وإياه في الصالون الذي كان يطل على الحديقة. قدمت له كأساً

من الويسكي، ثم جلست إلى جانبه وأخذت يده بين يدي كعادتي. فجأة قال لي:

- ألا تودين الغناء معي؟

- أجل، فيما لو أحيت... ولكن ماذا سنغني؟

أخذ فوراً يندندن أغنية من أغاني الأطفال تقول كلماتها:

«الإثنين صباحاً، الملك، زوجته، والأمير الصغير، أنوار الرؤية وإحكام قبضتهم علي».

كان ينشد هذا وهو يرمقني من وقت لآخر من طرف عينه نظرة كانت ذات مغزى. ثم كان يتوقف

قليلاً ليحتني على مشاركته بالغناء ويقول:

- هيا... غني معي... هيا.

لم يوضح لي أبداً سر اختياره لهذه الأغنية بالذات. وما زلت، حتى الآن، أتساءل عن السبب الذي

دفعه إلى ذلك التصرف الذي بدا لي مبهماً وأثار فضولي وريتي.

في أحد الصباحات، حوالي الساعة التاسعة، كنت في الغرفة أدرس حين سمعته يناديني من

الحديقة. أثار هذا الأمر استغرابي، فليس من عادته مطلقاً ألا يخبرني هاتفاً بمجيئه. بعد أن فتحت

الباب، تراجعت خطوة إلى الوراء، مصعوقة بتلك النظرة التي كانت تطلّ من عينيه. وأنا أقف أمامه

كان يرمقني بعطف وحب، ولم أعرف ماذا أقول. كنت مصدومة وقلقة ولا أجد تفسيراً لكل هذا.

رحت أسأل نفسي: ترى هل هي الجروح في وجهي هي التي تدفعه لهذا؟ وهل تراه في قرارة نفسه

يحمل عليّ بسبب هذا التشوه الذي أصابني؟

أخذني بين ذراعيه، وأحاطني بهما بقوة، وراح بعدها يسألني عن براجمي. كانت أمي تمتلك منزلاً في

الدار البيضاء وكنت قد نويت أن أقصده لأكون قرية من أصدقائي آل العياشي. لذلك قلت له:

- سأكون هناك على أفضل حال، ستساعدني الفتيات في دروسي، ثم اطمئن لأنني لن أخرج

للسهرات. إن امتحان البكالوريا يشغلني عما عدا، وأعدك أنني سأفوز بهذه الشهادة.

- حسناً، إنك تعرفين بأنني أثق بك.

- بالطبع يا أبي، أعلم أنك تثق بي. اذهب وأنت مطمئن وقرير العين.

إن أبي الذي لم يكن أبداً متمهلاً بل كان دائماً مستمعاً، يمانقني الآن ببطء ومهل، كان يبدو

تائهاً ومتردداً.

نزلت معه الأدراج. رفع عينيه وراح يحول نظراته نحو الصالون... ومن ثم نحوي، حيث أطل
تحديقته بي.

- يا عزيزي، إنك لا شك تعلمين أنني أحبك!
آخرستي عاطفته، فبعد أن غادر، بقيت مسخرة في مكاني لا أقوى على الحراك. فجأة عاد الباب
وفتح مجدداً. كان هو. اندفع باتجاهي، ضمني إلى صدره بقوة.
على مضض قفل عائداً من حيث أتى.

بعد ذلك انجذبت إلى الدار البيضاء. كان اليوم هو السادس عشر من شهر آب/ أغسطس ١٩٧٢.
كانت الساعة الثانية من بعد الظهر. كنت قد وصلت إلى منزلنا في الدار البيضاء حيث كنت أجلس
في الصالون يحيط بي أصدقاؤني. كنا نثرثر ونتحدث بسرور، فجأة دفعني شعور خفي ومبهم، أن أدير
التلفزيون. وإذا بمنيع الأخبار يعلن في نشرته أنه جرت محاولة انقلاب ضد النظام^(١) وبأن الطائرة
الملكية تعرضت إلى إطلاق صاروخين عندما كانت تحلق فوق أجواء مدينة تطوان، وأنهم مازالوا
حتى الساعة يجهلون هوية الفاعل.

هرعت إلى الراديو لأتسقط الأخبار من إذاعة فرنسا الدولية؛ كنت أجدس في قرارة نفسي أن أبي
هو الفاعل. حتى أصدقاؤني، وهم يلتفون من حولي، كانوا يرددون بأنه هو، وبأنهم متأكدون من هذا.
ولكن نشرة الأخبار كانت ضبابية، وغير محددة. أشارت فقط إلى احتمال أن يكون أوقير هو المدبر،
كما أشارت إلى أن محاولة الانقلاب تمت بنجاح، وبأن الهدوء لم يستتب بعد.

ما إن سمعت الأخبار حتى طفقت شقيقة صديقتي هدى العياشي تترجو أختها وتتوسل إليها أن
تذهب معها. كانت تخشى أن يحاصر الجيش منزلنا، وأن يقوم بقتلها معي. كانت تبدو بحالة هستيرية
وهي تشير بإصبعها نحوي. غادروا جميعهم باستثناء هدى، لم أتمكن من الاتصال بأحد من أفراد
عائلي. كانت الخطوط إما مشغولة أو لم يكن هنالك من أحد يرد. كنت مرتعبة، خائفة القوى، ولا
أدري ما أفعل.

حوالي الساعة السابعة ليلاً، رن جرس الهاتف. كان أبي، كان صوته بلا حياة، صوت رجل قرر
أن يموت، ويريد أن يقول كلمته الأخيرة، وقد أصبت بالرعب إذ خيل لي أن شبحاً كان يكلمني على
الطرف الآخر. كان صوته متقطعاً وهو يقول لي إنه يجيني وإنه فخور بي. ثم أضاف:

- أطلب منك أن تحافظي على هدوئك مهما حصل. ولا تغادري المنزل ما لم يأت فريق المراقبة لاصطحابك.

رحت أصرخ وأقول له:

- أبي، قل لي إن هذا ليس صحيحاً، وإنهم لن يعيدوا فعل ما حصل السنة الفاتية.

- يا ابنتي، اسمعيني، أطلب منك أن تحافظي على رباطة جأشك، أنت تعلمين أنني أثق بك.

كان حديثه خالياً من كل ما كنت أتلطف لسماعه ولمعرفته. كان بودي أن يطمئنتي، ويخبرني أنه لم يكن هو من خطط لمحاولة الاغتيال. لكنني منذ بداية محادثتنا فهمت أنه هو وأنه هالك لا محالة.

لم أستطع أن أتقبل انكساره. رحمت أجهش بالبكاء دون أن أتمكن من إضافة كلمة واحدة. وهو بدوره لم يزد شيئاً وأقفل الخط. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوته.

لم أنجح بالنوم، رحمت أسترجع وأستعيد حديث أبي وموقفه الغريب. لا شك أن أمراً خطيراً قد حصل. لم أتحجر على الاتصال مخافة أن يؤكدوا لي ما أخشى حدوثه. حوالى الثالثة فجرأ اتصل بي جدي قائلاً:

- مليكة استقلي السيارة، وعودي حالاً إلى الرباط.

- لا تتعب نفسك، فإني لا آخذ أوامري إلا من أبي، بالمناسبة أين هو؟

أصرّ المعجوز للسكين بلا جدوى.

حوالى الخامسة، رن التلفون مجدداً، كنت ما أزال صاحبة يفرسني القلق. كانت الأفكار السيئة تسيطر عليّ.

ويدون مقدمات، أخبرتني أمي يا كنت أخشى سماعه:

- مات أبوك، احلمي متاعك وعودي إلى الرباط.

ثم أغلقت الساعة دون أن تفصح لي المجال للإجابة.

كانت هدى قد سمعت رنين الهاتف، فدخلت غرفتي، وقد لاحت على وجهها علامات الاضطراب.

- إذن؟

- لقد مات أبي.

صرخت، بكت، ارتجت بين ذراعي، أظهرت لوحها بشكل صاخب. كنت كقطعة رخام. فهذه الجملة «مات أبي» لا تعني لي شيئاً.

إنها مبهمة. وأنا كنت أحتاج إلى دليل ملموس.

وصلت سيارة المواكبة. قدم لي رجال الشرطة التعازي وهم يكون. تقبلتها بشكل آلي. شعرت أنني مجرد خيال، لا أستطيع أن أنطق بكلمة. كنت أردد في داخلي: «لا يمكن هذا، لا يموت الناس هكذا، لا يمكنه أن يموت».

ذهبت إلى النافذة. للحظات قصيرة، تعلقت عيناى بمنظر الطبيعة. كانت الشمس تسطع فوق أشجار الحديقة. وكان هذا الصباح رائعاً مثل سائر الأيام. حاولت جاهدة أن أقنع نفسي بهذا لكن قلبي لم يطاوعني.

لأنه مات حقاً، لكان شيء ما سيتغير خارجاً، وكنت سأراه. فاستمرار الحياة بدونك كما كانت من قبل، كان يبدو مستحيلاً.

وفاة أبي

أوقفنا حائز على الطريق المؤدي إلى الرباط، وأشار لنا بالتوقف جانباً. نزل من سيارة المواكبة أحد المرافقين وكشف عن هويتي. اندفع رجال الشرطة نحوي وهم يكون.

لقد تكرر هذا المشهد على طول الطريق. كنت ما أزال أحفظ ببعض الأمل بالرغم من مظاهر الحداد التي كانت بادية عليهم. ورحت أوهم نفسي بأن هذا الحزن المخيم كان فقط من اختراعي، وأنه من المؤكد أن أبي مصاب بجروح ليس إلّا. لا شك أنها خطيرة، إلّا أنه ما زال يتنفس، وما زال على قيد الحياة وأنني سأحدث معه ما إن أصل...

الحشود الغفيرة التي كانت تسد منافذ المنزل، والسيارات التي كانت متوقفة في كل مكان. كل ذلك قضى على آخر يارقة أمل كانت لدي.

استقبلني عمي الذي كان وجهه متجهماً، بمعية جدي لأبي الذي كانت آثار الفجعة مرتسمة عليه. حاول جاهداً أن يسد علي الطريق ويمنعني من الدخول. قاومته بعنف وأنا أصرخ: - دعني أدخل يا جدي، أريد أن أراه. أريد أن أعرف أين هو.

- اهدني يا ابنتي، لا يحق لامرأة أن ترى جثمان رجل ميت. إنهم يقومون بغسله.
- أريد أن أرى جثمان أبي.

قلت هذا، ودفعت باب الصالون غير عابئة بأحد. الرجال الذين كانوا ينهمكون بغسله، قاموا فور رؤيتي بتغطيته بشرشف أبيض. وقف الجميع. طلبت منهم أن يدعوني بمفردي معه. جلست بجانبه لأتأمله ملياً.

كان وجهه جامداً، بحثت بلهفة كالمحمومة في تقاطيعه عما يسكن ألمي ويهدىء من روحي، عما يقول لي إنه مات بكرامة. كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة ازدراء صغيرة مثل كل هؤلاء الذين قضوا نحبتهم إعداماً. هل غادر الحياة بلا ميالة؟ ولماذا تراه رسم على شفتيه ابتسامة؟ هل كان في تلك اللحظة يرمق بازدراء آخر شخص وقعت عيناه عليه؟

لقد أحصيت عدد الرصاصات التي خلفت آثاراً على جسده، كان هنالك خمس منها. تلك الأخيرة التي أصابت العنق آتني بجنون. لقد كانت الضربة القاضية. لا شك أنه عانى من الرصاصات الأربع أكثر بكثير من الخامسة. لقد أطلقوا عليه الأولى في الكبد، والثانية في الرئتين، والثالثة في البطن والرابعة في الظهر.
قلت لنفسي:

- وحده الجبان يستطيع أن يخذل مثل هذه المجزرة.
غادرت الغرفة، بعد أن نزعرت ملابسي، ارتديت جلباباً أبيض، نزعرت أيضاً مصاغي. كان واجباً عليّ أن أحذ عليه، أردت بهذا أن أقول له إن حياتي بعده لا معنى لها.
طلبت الحصول على نظارتي وبذلة العسكرية فلم يجدها. انطلقت أبحث عنها في كل مكان. وأنا أفتح أحد الأدراج. وقعت على حقيبة بلاستيكية في داخلها بذلة الملطخة بالدم. تنفست الصعداء للحظة قصيرة. كان هذا هو الجزء الذي تبقى لنا منه. وجدت أيضاً نظارتي.
أمي التي كانت قد وصلت للتو من قبيلة طلبت هي الأخرى رؤية جثمانه. كان أبي مغسلاً، شعره مسطح، وكانوا قد أدرجوه في كفن أبيض. كان يرقد في نعش وضع في قاعة السينما. لم يكن يظهر منه إلّا وجهه، كان يبدو ساكناً. وكان الناس يتقدمون في صف طويل ليقدموا تعازيمهم.
بانهيار، كانت أمي تنتحب ولا تكف تردد:

لقد قتلوه، لماذا؟ لماذا؟

المسكريون الموجودون رفعوا تقريراً إلى جلالته يتضمن أقوال أمي.
أرسل لنا الملك الطعام من القصر. كانت التقاليد تمنع أهل الفقيد من الطبخ في بيوتهم. رفضت
هذه اليد الممدودة.

وهل هي حقاً هكذا؟ لم أشأ أن أخون أبي، وأمتي على جثته.
إن التخافذ يستغرق لحظة فقط، لكن الثمن النهائي يكون مرتفعاً جداً. ولا مجال للعد. ما من ثمن
يمحو آثار الأفعال الدنيئة ويزيلها. فكيف إذا كان الثمن زهيداً.
كرهت ذلك النفاق الذي أرادوا فرضه علي. انتهى كل شيء بيني وبين الملك، مع أنه أبي
بالتبني، وقد كان هذا سر مأساتي ومعاناتي.

لقد لاموني على هذا الموقف، ولكي يبرروا احتجاجنا، زعم بعض البسطاء بأن الملك عاقبنا لأنني
نحرأت على إهائته برفض عطية.

كيف كان يمكنني أن أرد بغير هذا؟ لو لم أكن ابته بالتبني، لو كان بنظري مجرد حاكم وليس أباً،
ربما لم يكن رفضي بهذه الشدة، ولم تكن ثورة غضبي بهذا المقدار. كنت سأصرف معه وفق مقامه.
لكن علاقتنا كانت قوية العاطفة. عندما تحدّثته، أردت أن أرد له الضربة، بضربة أخرى. بالنسبة
للجميع، كان هنالك مغزى سياسي لكل ما أقوم به.

خلال الأيام الثلاثة التي أعقبت الدفن اهتممت بالصغار. كانت أمي ما زالت في حالة هستيريا.
كان عليّ إخراجهم مما يتخبطون فيه. كان رؤوف ما يزال تحت وطأة الصدمة. لقد خسر قدوته، أغل
رجل على قلبه.

لم تتوقف الفتيات عن البكاء. قالوا هن بأن أباهن موجود في السماء. ولكنهن لم يقبلن فكرة أنهن
لن يرينه بعد اليوم. حتى عبد اللطيف الصغير شعر أن هنالك أمراً خطيراً قد وقع. كان أصدقاؤنا
يأتون ويفجرون لهثة خاطرة وتمزيتنا. كان وجودهم لا يقدر بثمن. لكتني نادراً ما تنهت لهذا.

في النهار كنت أتصرف بما يسعني من رباطة جأش؛ كان هنالك الكثير الذي يجب أن ينجز ويتم. لم
يكن عندي وقت للتباكى على نفسي. أما في الليل، فكان الكابوس نفسه يتكرر بلا انقطاع: كنت أرى
جثة أبي، الرصاصات الأربع في صدره، والحامسة في عنقه، وكنت أسمع كلماته الأخيرة. كان صوته

يخرج من طرف القبر، يقول لي بأنه يجبنى.

كنت أغرق في البكاء، ولا أستطيع النوم.

رفضنا التحدث إلى الصحافة التي راحت تطاردنا وتلاحقنا.

أحد الصحفيين، بالصدفة، سأل خالي عز الدين:

هل تعتقد أن صهرك كان الرجل الذي يتحرر بإطلاق خمس رصاصات على نفسه؟

رد خالي بأنه تم إعدام الجنرال أوقير. تصريحه أذيع في اليوم نفسه، على محطة فرنسا الدولية.

استودعت أُمِّي لدى أصدقائها في طنجة، السيدة كسوس وزوجها، بذلة أُمِّي المملوكة بالدم.

وأحرقت واحدة أخرى مكانها في موقد الحمام، بالاتفاق مع خالي عز الدين. في اليوم التالي، أرسل

الملك رئيس الشرطة ليطالبها، أعلمته أُمِّي بأنها أحرقتها. قال وهو يتجف: قال لي جلالته: انتظر،

ومستري أنها مترد عليك بأنها أحرقتها. فتشوا الموقد رأساً على عقب. وقاموا بتحليل ما وجدوه من

بقايا القماش. ظن الملك أن دليل الجريمة تبدي في الهواء ولا يمكن العثور عليه. ترى هل عادت السيدة

كسوس وسلمت بدافع من خوفها؟ لم نتحدث أبداً في هذا الموضوع.

في اليوم الثالث، حملوا الجثمان في الصباح الباكر، حيث أعطى الحسن الثاني تعليماته لدفنه في صحراء

تافيلالت. كانت أُمِّي تفضل الرباط، حتى تستطيع التردد على قبره. لكن آخر وصية لأُمِّي كانت أن

يرتاح تحت نخلة من نخلات قريته. احترمت أُمِّي هذه الرغبة. أخي رؤوف، بمعية رجال العائلة،

رافقوا أُمِّي إلى مثواه الأخير.

في نلال عين شعير والقرى المحيطة اتشحت النساء بثياب الحداد وتهمعن حول نعشه حيث

أجهشن بالبكاء.

جرت مراسم دفنه بمتهى البساطة والتواضع، في مدفن صغير، لم تطأه قدمي أُمِّي أبداً. يراودني

إحساس دائم، بأن اليوم الذي سأفعل فيه هذا سيكون آخر أيامي.

في اليوم التالي، في ٢٠ آب/ أغسطس فرضت علينا الإقامة الجبرية في المنزل، كذلك الأمر بالنسبة

لجدي وعائلة أُمِّي، وبعض المخلصين مثل آن براون مريتا الإنكليزية، وحورية، وفاطمة، وسالم.

لقد ضيقوا الخناق علينا.

خضعت أُمِّي لتحقيقات مرهقة من قبل المفوض اليوسفي الذي قابلناه لاحقاً في السجن. كانت

أمي قد شاهدت رؤيا في منامها. في البداية لم أعرها أي اهتمام. لكن بين قضبان السجن أضحيت شغلنا الشاغل لكثرة ما نحدثنا عنها. رأيت أننا نعدو معاً فوق جدراننا على طريق أخذ بضيق تدريجياً ليتحول إلى نفق، كان سقفه يطبق أكثر فأكثر علينا. وفي اللحظة التي كان يسحقنا فيها، نجحنا بأعجوبة بالغة بالخروج. توقف الجوادان عن العدو في وسط تلة، كانت تشرف على مدينة الرباط. لقد تبيّنت تفسير هذه الرؤية لاحقاً؟ كانت الخيول ترمز إلى الحياة، والنفق الذي كاد يطبق علينا، كان يرمز إلى السجن.

مرة أخرى كُتِلنا مصاب جديد وزاد من حرقنا ولوعتنا. خالي عز الدين، هذا الشاب الشجاع جداً، مات في حادث سير بعدما صدمت إحدى سيارات قوى الأمن سيارته عمداً. لم يمت على الفور، ظل في مكانه عدة ساعات وهو في حالة غيبوبة، بانتظار قدوم النجدة التي تأخرت كثيراً بالمجيء.

أحببت عز الدين كثيراً. تشاركنا معاً كل اللحظات، كان أخي وصديقي ومستودع أسراري. لطلما دافع عني وحامي، ودلّني، وتسلّى على حماقتي.

لقد كان جميلاً جذاباً، ومليئاً بالحياة. بدلي حادث مقتله مثيراً للشبهة. شعرت أنهم لم يقولوا لنا الحقيقة، لم يؤكّد لي أحد قط شكوكي حول ملابسات الحادث الذي أدى إلى موته.

ظل الشك دائماً يملأ قلبي. كان هنالك الكثير من الدموع ومن الحزن.

أمي التي كانت تعرف أن الأيام العجاف في بدايتها، كانت تسأل نفسها كيف سيمكثنا أن نتجو من ويلاتها. كان الملك يكرهها. كان قد أعلن عل الراديو أنها هي المحرض الخفي للانقلاب العسكري، وأنها دفعت أبي للإقدام عليه. ما بين قضية البلة العسكرية، وموقفنا الذي اعتبر مهيناً، والكره الذي عاهد الملك نفسه عليه، كان لا بد من العقاب.

لقد أثار موضوع فرض العزلة الفردية عليها. لكتنا، نحن الأبناء، لم نشأ تركها معها كلف الثمن. حيث تذهب سنذهب معاً، متحدين في الضراء.

على مدى أربعة أشهر وعشرة أيام تلت الوفاة، كنا مسجونين في منزلنا.

من جهتي سميت جامدة أن أحافظ على المظاهر الاعتيادية، كنت أعطي الدروس لإخوتي الصغار، حاولت أن أجعلهم يعيشون حياة طبيعية. بين الفينة والأخرى كان يتخلل حزننا العميق

بعض الومضات الضاحكة التي كانت ترسم البسمة على وجوهنا، وتعيد لنا بعضاً من أنفاسنا الحبيسة. كانت مصائبنا ماحقة. كان المنزل ممثلاً برجال الشرطة الذين كانوا يتنافسون كي يتأهبوا في شهر رمضان لأن اللحم كان لذيذاً ونحن كنا كرماء. من أجل إعادة إدخال أصدقائنا الذين سبق لهم أن غادروا المنزل، ويرغبون برؤيتنا مجدداً وضعنا خطة محكمة.

كنا ندرس المنزوم الذي طلبنا الحصول عليه في أباريق الشاي. ثم تقدمه إلى الحراس الذين لا يلبثون جميعاً أن يتأهبوا. هكذا يقفز أصدقاؤنا فوق سور الحديقة حيث يقفون عتة أيام معنا. ثم في المساء المقرر لرحيلهم نعيد ما فعلناه في المرة الأولى. وهكذا يعودون من حيث أتوا.

في تلك الأيام، فكرت ملياً بأن أهرب. لكننا كنا مراقبين جيداً. ثم إلى أين أذهب؟ كنت ما أزال صغيرة السن على الهرب. جدي كان عجوزاً هرمًا، وأمي كانت تتلوى من الحزن. كنا عزلاً ولا سلاح لدينا. كنت أشعر بأننا ننظر حكم القدر الذي سيكون مأساوياً.

في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر، انتهت فترة الحداد. خلعت أُمِّي ثوبها الأبيض. كنا نستعد لاستقبال عيد الميلاد فالأطفال يحتاجون إلى بعض البهجة. الأشرطة الملونة زينت الجدران والثريات، شجرة الميلاد ارتفعت في الصالون، وضعنا حولها الهدايا. حاولنا قدر الإمكان تلطيف الجو.

وصل قائد الشرطة بعض الظهر، وأعطانا أمراً بتحضير أمتعة تكفي لمدة خمسة عشر يوماً. اصطحبونا إلى جنوب المغرب. لاحقاً ختم باب بيتنا الخارجي بالشمع الأحمر. لم يعد لأحد الحق في الدخول إليه، في حين أن قائد الشرطة كان قد أكد لنا قاتلاً:

- إن الملك أعطاكم كلمته.

قبل أن نرحل، اشتركت في إعداد الترتيبات اللازمة. طلبت من الصغار أن يوضبوا حقائبهم. من جهتي، أفرغت محتويات كل الرفوف والأدراج. نعتني أُمِّي بالمجنونة. لأننا مستغيث فقط خمسة عشر يوماً ليس إلا.

أعطيت حورية كل الملابس الجديدة التي كنت قد اشتريتها من باريس، والتي لم أضعها على جسمي بعد، كذلك الحلوى، والعطور، والجزادين، والأحذية.

قالت لي:

- لكنك لن تهدي شيئاً لتضعيه عندما ستعودين...

همست في سري:

- هذا إذا عدت... إن هذا سيكون أعجوبة فيها لو حصل.

أودعتها أيضاً علة تحتوي على ألبوم الصور، ورسائل، من بينها واحدة عزيزة عليّ جداً، كانت رسالة حب أرسلها أبي إلى أمي مع باقة من الورود.

أما القسم الأكبر الذي حملته معي فكان بعض الملابس العملية، ورواياتي، والكتب المدرسية لي ولأخوتي الصغار، وألبوم صور حفلة عيد ميلادي الثامن عشر.

سمحوا لنا باصطحاب شخصين فقط معنا. كان الاختيار صعباً.

كانت عاشورا السابقة في إيداء رغبتها بالذهب معنا، وهي ابنة عم أمي وتكبرها بسنة واحدة. كانت قد أتت للعيش معها عندما كان لها من العمر عشر سنوات، بعد أن مات أبوها الذي كان أخا جدي. تعلمت الصغيرة فن الحياطة والطبخ. تزوجت بعد عدة أشهر من مدرس ذي ارتباطات سياسية. رزق الزوجان بابنة ماتت وهي صغيرة جداً.

لم يعد بإمكان عاشورا الإنجاب من جديد. فضّلت أن تطلب الطلاق على أن تشاركها في زوجها امرأة أخرى... بعدما أصبحت وحيدة، طرقت باب ابنة عمها التي استقبلتها بالترحيب. أصبحت مريتا وشاركتنا حياتنا وحدادنا، وأبدت استعدادها لمرافقتنا حتى إلى الجحيم.

الثانية حليلة عبودي كانت أخت فاطمة الصغرى، مربية عبد اللطيف التي تركت المنزل بعدما أفرغتها الأحداث، حيث أعاد الجنرال الدليمي^(١٢) تشغيلها لديه.

أما حليلة التي كان لها مثل عمري، ثمانية عشر عاماً ونصف، فقد أتت لتقديم التعازي لنا، وبقيت عندنا طوال فترة الحداد التي استمرت أربعة أشهر وعشرة أيام. عندما علمت برحيلنا، اقترحت علينا بعفوية أن تأتي معنا، إذ لم نشأ أن تفصل عن عبد اللطيف الذي كان في الثانية والنصف من عمره، كانت شديدة التعلق به.

قالت لأمي بتوسل:

- خذوني معكم.

آن براون، المربية الإنكليزية، وحمورية صديقتي أوداتا أيضاً المحيئة معنا، لم يكن هنالك من مجال أبداً. بعدما عشت مدة طويلة في القصر، بت أعرف كيف تجري الأمور عندما يصار إلى إبعادنا. على ما

يبدو كنت ما أزال بعيدة عن الحقيقة.

تم ترحيلنا عشية عيد الميلاد. كنا ثلاث نساء وستة أطفال محاطين برجال شرطة مدججين بأسلحتهم. اختبأت ماريا وسكينة في صدري بخوف. كان رؤوف يصصر قبضته، وعبد اللطيف كان يعض إبهامه.

أدبرت رأسي لألقي نظرة أخيرة على المنزل، وأودعه إلى الأبد. كان انتحاسي صامتاً كي لا أزعج الصغار. لم أبتك أبداً، بكيت أيضاً حياتي، هذه الحياة التي سرقوها مني.
إذا كان المنفى مؤلماً للجميع، فقد كان لي أنا أكثر ألماً. كنت الوحيدة التي تنبأت بأنه لن يكون هنالك من شيء عابر ومؤقت.

الهوامش

(١) محمد الخامس (١٩١١ - ١٩٦١) من سلالة النبي (صلعم) ومن العائلة العلوية. خلف والده السلطان يوسف بن يوسف وتبوأ المنصب في العام ١٩٢٧ وقد كانت البلاد تحت الانتداب الفرنسي. عام ١٩٥٧ أصبح ملكاً للمغرب فور نيل المغرب استقلالها وقد حكم حتى وفاته في العام ١٩٦١.

(٢) أم سيدي: عدا الحسن الثاني أنجبت للاملك محمد الخامس أربعة أطفال: للا عائشة، للا مليكة، مولاي عبد الله، وللا نزهة. كما أنجب محمد الخامس من إحدى محظياته للا فاطمة الزهراء ولم يعترف بها إلا بعد حين؛ فعين أختي جميع سراريه عشية نفيه قمررت للا فاطمة الرحيل معه فتملق بابته منها وحظيت الصغيرة بترية أميرية. للا ومولاي القاب تطلق في المغرب على أعضاء العائلة المالكة للدلالة على كونهم من الشرفاء (أي سادة العلويين)، وكذلك للتعبير عن بالغ الاحترام.

(٣) سمية سيدي: اسم السيد، أي من اسمه سيدي.

(٤) سيدي: أي مولاي الملك.

(٥) ولد الحسن الثاني في التاسع من غوز/ يوليو من العام ١٩٢٩، وتبوأ العرش في الثالث من شهر آذار/ مارس من العام ١٩٦١.

(٦) مهدي بن بركة مفكر ومناضل سابق للملك الحسن الثاني، ورئيس جناح المعارضة المغربية ومؤسس الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. تم اعتقاله في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥ من أمام مقهى في باريس على يد وجلي من الشرطة الفرنسية اقتاده إلى فيلا تقع في ضواحي باريس، ومن لحقتها اختفى نهائياً عن الأنظار، ولم يثر حل أي أثر له.
وجهت الحكومة الفرنسية التهمة إلى كل من وزير الداخلية المغربي الجنرال أوقير، ومدير الأمن العام الكولونيل

الديلمي، بأنها كانوا وراء التخطيط لهذه العملية التي راح ضحيتها بن بركة. على أثر ذلك أصدرت مذكرة دولية لاحتفالها. مثل الديلمي أمام القضاء الفرنسي حيث جرت تبرئته مما كان قد نسب إليه، وذلك في سنة ١٩٦٧، أما بالنسبة لأوقير فقد أصدرت المحكمة الفرنسية بحقه حكماً بالسجن المؤبد. وقد جاءت ردة فعل المغرب على لسان ملكها الذي أبدى أسفه لهذا القرار «المجحف»، وأعرب عن تمسكه التام وثقته المطلقة بشخص أوقير.

(٧) سيدي محمد ولي العهد، فالملك عند وفاة والده تحت اسم محمد السادس، من مواليد العام ١٩٦٤، وللاحتفاء من مواليد ١٩٦٥، وللاأساء من مواليد العام ١٩٦٧، أما مولاي رشيد فهو من مواليد ١٩٧٠.

(٨) إبراهيم السرفاني: خريج أحد أشهر معاهد المتقدمة الفرنسية. كان معارضاً للنظام، أسس منظمة عقائدية متطرفة اسمها «إلى الأمام». سجن في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٧٢، ثم أطلق سراحه، ثم سجن من جديد في العام ١٩٧٤ في سجن غيلا والسجن العسكري (القنيطرة). أطلق سراحه في أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩١ وأبعد إلى فرنسا. بعد وفاة الحسن الثاني وتوفي محمد السادس سلة لللك سمح له بالعودة إلى المغرب، مطلع أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ عين مستشاراً للمدير العام للمكتب المغربي للأبحاث والمساهمات المدنية.

(٩) في ١٠ تموز/يولي ١٩٧١، قامت مجموعتان عسكريتان تابعتان للمدرسة الحربية الملكية بمهاجمة قصر الصخيرات الملكي أثناء الاحتفال الذي كان يجري بمناسبة عيد ميلاد الملك، مما أدى إلى مقتل عشرات من المدحزين، والضباط، وأركان البلاط، وللشاهير والشخصيات المحلية والعالمية كلهم كانوا من الرجال لأن هذه الحفلة كانت خصصة فقط لهم. في هذه الأثناء لجأ الملك إلى الاختباء في الحمام.

كان المتمردون قد أحكموا السيطرة على محطة الإذاعة، بعدها هبوا إلى القيام بهجوم مسلح على قصري الصخيرات والرباط.

وفي وقت لاحق نجح الملك بإحكام سيطرته على الوضع. وعاد إلى الإمساك بزمام الأمور. كان الجنرال المدبوح هو من قاد هذا الانقلاب احتجاجاً على الفساد المستشري في البلاد، ولكنه قتل أثناء الهجوم الذي حصل على قصر الصخيرات، على يد الكولونيل اعصابو الذي كان من المقترض أن يكون شريكه، إلا أنه عاد وانقلب عليه. وبأمر من المحكمة العسكرية العليا تم تنفيذ حكم الإعدام بحق عشرة ضباط من بينهم أربعة جنرالات. سعى الجنرال أوقير لدى الملك من أجل إصدار عفو عام بحق ١٠٨١ من تلامذة المدرسة الحربية، ونجح بالحصول عليه.

لم يفسر أي دليل على مشاركة الجنرال أوقير بالتخطيط لهذا الانقلاب غير أن طريقة تحركه التي لم يأل فيها جهداً من أجل تخفيف الإجراءات التي اتخذت بحق المتمردين، وسمعه الدؤوب لإصدار أحكام بالعفو عنهم، ما أثبتت تأثير حيرة المظالمين والمراقبين. الجدير بالذكر أن ما حصل في هذا التاريخ يعتبر أول تصدع في العلاقة المثينة التي كانت تربط ما بين أوقير والملك.

(١٠) بعد واقعة الصخيرات عين لللك الجنرال أوقير وزيراً للدفاع قائداً للقوات الجوية الملكية فكان يرأس الجيش والشرطة وتولى الأمن الداخلي.

- (١١) في ١٦ آب/ أغسطس ١٩٧٢ تم زنت الطائرة الملكية العائلة من باريس إلى مطاردة في الجو فوق مدينة تطوان، حيث قامت طائرة من سلاح الجو المغربي بصقب الطائرة الملكية وأطلقت بانجهاها عدة صواريخ إل ٥. وقد انطلقت الطائرة من مطار القنيطرة، مقر للوامة، ويقودها كل من الكولونيل أمقران، والقدم كويرا. وكان هذا الأخير قد تم إلقاء القبض عليه بعد أن ألقى بنفسه من الطائرة. وقد تمكنت الطائرة الملكية من الهبوط بسلام في مطار الرباط. أما الكولونيل أمقران فقد فر هارباً على متن طائرة هليكوبتر يرافقه أربعة آخرون، حيث طلب اللجوء السياسي، بعد أن أشار، بطرف خفي، بأصبح الاهتمام إلى أوفير الذي لطللاً اعتبر من أولى الأوفياء.
- بامتياز من الملك، توجه أوفير إلى قصر الصخيرات، وهناك تقابل مع الرجل الذي كان يعد فراحه الأيمن أحمد الفليمي، ورئيس التشريرات حفيظ العلوي. الرواية الرسمية خلصت إلى القول بأنه قضى متحرراً بإطلاق خسر رصاصات على نفسه، وبأن تلك التي اخترقت العنق أصابت منه مقتلاً.
- (١٢) الجنرال أحمد الفليمي كان مساعد أوفير الرئيسي ورئيس جهاز الأمن. كان موجوداً بباريس أيام اختطاف بن بركة. أصبح قائداً للقوات المسلحة، ظل في منصبه معاصر الحرب المغرب ضد جبهة البوليساريو حتى وفاته في حادث سير مشبوه في شهر كانون الثاني/يناير من العام ١٩٨٣. والغريب أن ساعده الأيمن غالي المحلي لاهى المصير نفسه بعد أسابيع.

عشرون عاماً في السجن

سنة في الصحراء (٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٢ - ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣)
واحدة أننا

إلى أين نحن ذاهبون؟ لا أعرف. تسير بنا السيارة في عتمة الليل، إنها سيارة أميركية بلا ستائر، تبدو الطريق من نوافذها غير معبلة. رجال المواكبة الذين أوكلت إليهم مهمة مرافقتنا، يحاولون جهدهم تلطيف الأجواء، والتخفيف عتاً. أرهف السمع عني ألتقط بعض الأخبار التي يشها راديو البوليس. ما زلت أجهل إلى أين يقودوننا، لكنني ألاحظ أن الطريق مزروع برجال قوى الأمن وأننا موضوعون تحت المراقبة الشديدة.

في الصباح الباكر، توقفت السيارات في قرية كليم، على مسافة من مدينة أكادير. اقتادونا إلى بيت مسؤول المحلة، كشفوا له عن هويتنا، إننا عائلة الجنرال أوفير. استقبلنا بحفاوة بالغة، وأحسن وفادتنا، وقدم لنا فطوراً صباحياً فخماً.

يكاد رأسي يتفجر، اختلطت علي الأمور، ولم أعد أقوى على التفكير. لماذا أشعر بكل هذه المواجهات والظنون؟ لماذا أنا متأكدة بأننا نسير نحو الهاوية؟ هل حقاً مات أبي؟ إنها حقيقة يصعب تصديقها. أجد الأمر غريباً عندما يتحدث المسؤول عنه بصيغة الماضي. يقول إنه كان رجلاً قديراً وعزتماً. يترحم عليه بحرارة ظاهرة، في حين أن رجال الشرطة لا تسهو أعينهم طرفه عتاً.

كل شيء يبدو غامضاً ومبهماً، إنه عسير على فهمي وإدراكي. أين المنطق في كل هذا؟ أين العدالة والإنسانية؟ إنه الضياع بعينه. إننا نتخط في مملكة العبث والجنون. ما ذنب الصغار حتى يؤاخذوا بجريرة الكبار وما علاقتهم بما ارتكبه؟

بعد أن قضينا يوماً كاملاً في دار مسؤول كليم، ها نحن نساق مجدداً، إنه طريق الصحراء. بعد هبوط الليل، توقفت عجلات السيارات عن الدوران... المشهد جميل وموحش، القمر يضيء تلك البطاح القاحلة، وتلك الجبال الرمادية في أعالي الأطلس، بقممها التي تشمخ عالياً، والتي تلوح

لنناظر بالرغم من العتمة .

أعشق الصحراء، كم كنت أقفز فرحاً عندما أجيء لزيارة مناطقها بصحبة للامينا ومولاي أحمد، ابن عم الملك. أشعر أن ذلك الماضي بات سحيقاً وبعيداً، كأني لم أعشه أبداً، وكأنه مجرد وهم من صنع خيالي وأوهامي. بعدما أنزلونا من السيارة، أجبرونا على الوقوف صفّاً على أرض هذه الفلاة النائية. ورجال الشرطة بمواجهتنا يهددوننا برشاشات الكلاشينكوف. مالت أمي عليّ هامة في أذني: - كيكاء، إنها النهاية.

للأسف، ياليتها كانت النهاية، إن هذا أرحم بكثير مما ينتظرنا من جحيم. وللأسف إنها ليست إلا البداية.

صدق حلمي، وأصابت توقعاتي. هذا التوقيف الفجائي، وهذا المرض للقوى، لأجل إرهابنا، وإذلالنا.

الرحلة شاقة وأليمة، خصوصاً للأطفال، عودهم طري، ولم يلغوا الحلم بعد. الطقس حار، وكلنا نشعر بالخوف والعطش، والجوع. من ذا الذي يطمئتنا، ويطيب خاطرنا، ويزيل هذه المخاوف التي ما انفكت تنهش قلوبنا وتقرسنا؟!

ها هي الرحلة تشرف على نهايتها، لقد اصطحبونا إلى قرية صغيرة، معالمها غير واضحة، لأن السيارة تسرع السير، ومن الصعب ضبط المشاهد. راديو البوليس يعلن بأننا ندخل الثكنة العسكرية في آتاء، هذا المكان معزول، في عمق الصحراء، وقريب من الحدود الجزائرية. في زمن الانتداب، كانت هذه الثكنة مغلقة، يضع فيها الفرنسيون المناضلين السياسيين والمعارضين.

في صبيحة اليوم التالي لوصولنا، استيقظنا على أصوات غريبة. حصل انهيار في الليل راح ضحيته سبعة جنود من القوات المساعدة، تم انتشالهم من تحت الأتقاض. التصقتا بقضبان النافذة بذعر، نشاهد الجثث المحملة وهم يتقلونها إلى الداخل. إنه فال سيئ، لا يبشر بالخير!

رجال الشرطة الذين أحضرونا إلى هنا جميعهم من مدينة الرباط. إنهم يحبون أبي، ويكون له الاحترام والتقدير. عندما يأتون على ذكره، يظهر الحزن جلياً على وجوههم. كانوا لطفاء معنا، وعاملونا بكل ود.

ولكن يبدو أن تعليقات مختلفة سبقتنا إلى هؤلاء الذين كانوا في انتظار وصولنا. ربما أعطيت

الأوامر لهم بأن يعاملونا بقساوة وفضاظة كغيرنا من المساجين، ويأنه من غير المسموح إبداء أي تساهل أو رافة معنا.

لذلك تمت الاستعانة بهم، إنهم من المناطق النائية في المغرب. لا يعرفوننا جيداً، ولن تأخذهم بنا شفقة أو رحمة. ولن يغير في الأمر شيئاً أن يكون رؤساؤهم من مدينة الرباط.

ساقونا إلى منزل تحت الأرض يقع داخل الشكنة. وأول ما واجهنا رجل طاعن في السن، يرتدي جلباباً عسكرياً، هندامه غير مرتب، ويبدو منظره متفغضاً، يقف بالقرب من طاولة فوقها تسع قطع من الخبز اللدبور، وعدة علب سردين.

إنه بو عزة أمر المعسكر. يا للمسكين، يبدو أنه يجيد صعوبة بالغة في السيطرة على طقم أسنانه الذي يتراقص كلما فتح فمه بكلمة. يا الله، يرادني إحساس بأنه سيلفظه أو سيثلمه. أضحك في سري من هذا المشهد الفكاهي، بالرغم من أن الخوف كان يمتصر قلبي. يا للقرص، إنه يتجشأ بفضاظة ويدون إحراج. يأخذ نفساً عميقاً، ثم يبدأ بالصراخ في وجوها:

- من الآن فصاعداً، يجب عليكم أن تطيعوني طاعة عمياء. إنني أستطيع أن أكرس رقابكم وأسحقكم لو شئت...

لم نحرك ساكناً، ولماذا نقوم بما يستفز ويثير حفيظته، لا شك أنه يعني ما يقول، إنه يتلقى أوامره من الملك.

أطأطىء رأسي حزناً وخيبة، إذ إن بو عزة مجرد بوق، يردد ما يقوله سيده الذي كنت يوماً ابنته وكان بمثابة أبي.

تسلم بو عزة إدارة السجن العسكري في مدينة القنيطرة أربعين عاماً، وواكب الانقلابات العسكرية، احجز عشرات المساجين السياسيين، إنها المرة الأولى في حياته التي يوكل إليه فيها مهمة من هذا النوع: حبس ثلاث نساء، وستة أطفال، من بينهم طفل عمره فقط ستان ونصف. وماذا عساه يفعل؟ أسقط في يده. إنه لا يرى في قضيتنا إلا أمرين اثنين:

- عليك إذلال وترويض عائلة أوفقيير. إنها أوامر الملك.

ما أقسى هذا التغيير، وما أشد وطأته. بين ليلة وضحاها، نتقل من العز والجماء إلى الفقر والبؤس. هذا التحول صدمني وأفجعني. مع أن هذا كان منتهى الترف والدلال، بالقياس مع ما

سيتظرنا لاحقاً.

يا لسخريّة القدر، فتاة مثلي لا تطيق شظف العيش، ولا تحتمل منظر البشاعة والوساخة، تنتهي إلى هنا، إلى هذه القاذورة التي تثير التقزز، وتبعث الرغبة في التقيؤ. لا مناص من استخدام هذه الأغذية العسكرية البالية، والتي كسبت لونها مما خلق بها من أوساخ. كيف أنام على هذا الفراش الإسفنجي؟ إنه وكر للرمل والغبار. هذه الحيطان السوداء المشققة تدب الرعب في القلوب! يبدو أن هذا مقرنا الجديد لأنهم أحضروا لنا حقائبنا، ورموها فوق الأرضية الرملية لهذه العلبة الصغيرة التي علينا، بدءاً من الآن، أن نتخبرها مقرنا الإلزامي لا الاختياري، وما بين الأول والثاني موت وحياة.

لحسن الحظ أن وجود الأطفال يضيف جواً من البهجة والمرح، ويفجر بعض الحركة والحياة في هذا القبر الساكن، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، أمتلئ عزيمة وتصميماً على الصمود والمقاومة. في اليوم التالي طردت شبح اليأس، وقررت أن أتعاش مع هذا الواقع الجديد. هذا هو الخيار الوحيد. فلأبدأ أولاً باستكشاف هذا الجحر الصغير، إنه مؤلف من ثلاث حجرات ضيقة، على أرضها بعض الفرش فقط، وهذا كل شيء. لا خزائن ولا غيرها، اضطررنا لوضع أغراضنا على شراشف، أما المياه فكانوا يوزونها بيضعة أسطل منها، نستعين بها على قضاء حاجتنا... وأينما همت أنفسنا أدركتنا وجود الحراس في كل مكان.

عندما فتحنا حقائبنا، لاحظت بمرارة التناقض الحاد بين هذا المحيط البائس وبين ملابسنا الثمينة. تمكنا أن نحضر معنا حوالي العشرين حقيبة ممتلئة بملابس من أفخم الماركات العالمية، مثل فيتون، غوتشي، وهرمس، كانت جميعها مزدحمة بالأشياء الجميلة. في حياتنا الماضية، كانت أمي تلبس متوجات الخياطين الباريسيين، وكانت تشتري الملابس للصغار من جينيف. أما أنا، فقد كنت أفرغ محلات الموضة في باريس، ولندن، وميلانو. في قلب الصحراء، كل هذا يبدو فجأة تافهاً ومثيراً للسخرية.

تركت أمي تقريباً كل مجوهراتها كي يتسنى لها حمل حقيبة صغيرة فقط. الحمد لله أننا أحضرنا معنا الستريو، والأشرطة، وراديو يمكننا بواسطته التقاط كل المحطات الإذاعية في العالم.

وزعت الماء، والصابون، وطلبت من الجميع مساعدتي في التنظيف. ثم وضعنا الستريو في زاوية محددة أنا ورؤوف. عندنا براد يبدو أنه لا يعمل جيداً. إنه يصدر أصواتاً مزعجة لا تطاق في الليل. أما

الأضواء فإنها باهتة وخافتة للدرجة أننا نخالها شموحاً.

بالرغم من كل شيء، كنت في المساء أدير زر الستيريو، علّ الموسيقى والأغاني تخفف قليلاً عثا. لقد كانت لا تكف عن الصداح طوال الوقت، فهي تسلبنا الوحيدة وكذلك الراديو الذي نستمع إليه أقل، وأحياناً نلعب الورق مع الأطفال.

حاولنا جاهدين خلق جو مقبول. ووصل بنا الأمر إلى أن نرسي العقارب كي ننظم لها لاحقاً سباقاً فيها بينها. إنه الفراغ اللعين. عشت قصة خيالية بالقلوب. الأميرة التي كتبها تحولت بالنعف إلى مستويلا. تدريجياً، ابتدأت أتخلّى عن عاداتي: أرثني ملابس قديمة، تتشابه يومياً، لأنني لا أغيرها، ولم هذا العناء. السراويل والقمصان النظيفة ستذكرني كثيراً بالماضي. أما الصحراء فتعلم التصحر.

لقضاء الوقت، لا تكف عن الأكل. علينا تقنين الغذاء، لأن المدينة بعيدة، والطريق إليها غير معبد، والمواد التموينية لا تصل إلا مرة واحدة كل ثلاثة أسابيع.

وجبتنا اليومية مؤلفة من خبز، وزيت الذرة، ليس علينا أن نتذمّر بل أن نحمد الله لأننا غالباً ما نحصل على لحم الماعز ذي الطعم الحاد بالقياس مع لحم الخروف. على الأقل نحن لسنا جائعين، لأننا نجد ما نملأ به بطوننا.

في الصباح، نطيل الكوثر لتناول الفطور. بعدها ننظف معاً الأواني ثم نبدأ بإعداد وجبة الغذاء. أتناول الأعمال أنا وأمي، هي تطبخ، وأنا أخسل الثياب في حوض في الهواء الطلق، تساعدنا أيضاً حليلة وعاشورا.

نعيش تقريباً طوال النهار في البهو الصغير. بعد العصرية التي تستغرق عدة ساعات، يهبط الليل بسرعة. نتعشى، نسهّر، نقرأ لنا أمي بعض القصص كي ننام. كم تبدو الليالي طويلة... إنه الشتاء، البيت مثلج، كنا نشعر بالبرد القارس ولا نقدر على النوم. لكن مصابيح الغاز تبث بعض الدفء، لحسن الحظ.

كما في طفولتي التي قضيتها في القصر، الليل يفاقم همومي ومعاناتي. صلتني الوحيدة مع الحياة هي الراديو الذي يتحول أحياناً إلى أداة تعذيب. كل أغنية أسمعها منه تذكرني بلحظة سعيدة كنت قد عشتها في الماضي. أفكر في كل شيء مضى، وفي أصدقائي. تعلمت أن الحنين مدمر وقاتل.

من الصعب علي أن أنتزع من قلبي كل ما أحبته. أشعر أنني عدت القهقري إلى القرون الوسطى، وأتمالك نفسي كي لا أنفجر بالصراخ.

في الظلام، أسمع نسيج أمي. فإلى جانب حريتنا المسلوطة والضائعة، كانت تبكي قبل كل شيء زوجها الذي حرمت منه وهي ما تزال في ريعان الصبا، حكم عليها أن تعيش وحيدة وهي لم تبلغ السابعة والثلاثين من عمرها. أي قدر غاشم هذا! في الصباح غالباً ما تقرأ القرآن، وكنت أرى الحزن يضح من عينيها المتورمتين من كثرة البكاء. مسكينة هي أمي كم تقاسي وتعاني.

سمحوا لنا ببقاء ساعتين يومياً في القرية، التي تقع في الواحة. في البداية رفضت الذهاب كي أبقي برفقة أمي التي كانت لا ترغب بالخروج وكذلك نكايه فيهم، لأنني أرفض أن أمتثل لقراراتهم ومشيتهم. مريم، حاشوراء، حليلة، أمي، وأنا، بقينا جميعاً في البيت. في حين كان الصغار يخرجون مصحوبين بفرقة مواكبة من رجال الشرطة الذين كانوا لطفاء جداً معهم. كانوا يزورون حقول النخيل المكونة برجال سمر البشرة، ويعودون من هناك يحملين بالحنة، والتمر، واللال التي صنعتها النساء. عندما علم أهل القرية بأن الزوار الصغار يرجعون إلى هناك كل يوم وفي ساعة محددة، أصبحوا يحضرون لهم مسبقاً الشاي، والحلوى الطازج الذي يخرج ساخناً من الفرن، بالإضافة إلى الحلوى.

كانت تلك الساعات مهمة جداً للأطفال. يستطيعون أخيراً معاودة حياة شبه طبيعية، يعبرون، يحكون قصصاً، ويكتشفون. إنهم في مدرسة الطبيعة. يبدو عبد اللطيف في غاية الانسجام. لم يبلغ بعد الثالثة، كل شيء يراه يعتبره لعبة مناسبة يتلهى بها. أركبوه على ظهر بغل كي يتزده، وفي نزته تلك شاهد الأبقار، والعجول والدجاج.

إحدى القرويات أعطتنا بعض الفراخ. لكل واحد منا فرخ.

كل واحد منها بات له اسم واتحل شخصية تناسب صاحبه. هذه المخلوقات الصغيرة ساعدتنا على تمضية الوقت. نتحدث عنها فيما بيننا، نلهو بها، نحاول أن نجعلها تنام داخل العلية الكرتونية. في المساء كان الفرح يغمرنا ونحن نركض خلفها وهي تفلت من أيدينا لتتابع هربها ذات اليمين وذات الشمال. إنها لا تريد الدخول إلى منزلها الكرتوني. ترتفع ضحكات الأطفال، وهم يحرون في إثرها، ويسعدون عندما تفر منهم وتتباعد.

أحاول بكل جهدي أن أجعلهم يعتقدون، ولو قليلاً، بأن وجودنا هنا شبه طبيعي. أدخلهم في عالم الخيال، اخترع لهم بعض الألعاب، وأسرد لهم القصص. أريد أن أبعد عنهم القلق والحوم. بكل تفهم وشجاعة، يتظاهرون بالتجاوب معي. لكنهم يعرفون أن هذا ليس عمراً عابراً أو مؤقتاً، كما أحاول أن أدعي.

حتى عبد اللطيف يعرف هذا، كنت أراه، بقماته الصغيرة، يقول بلكة طفولية، وهو يأكل الكثير من الحروف والكلمات:

- أنا، عندما أكبر، سيصبح عندي بيت ولكن ليس كهذا البيت هنا. ستكون أرضه مغطاة بالموكيت وليس بالرمل والغبار.

إذا كان هذا الطفل الصغير في غاية الاستياء مما نحن فيه من بؤس، ويحلم بغد أفضل، فأقصى ما بدأنا نطمح إليه هو بيت عادي لكنه نظيف وأرضه ليست مفروشة بالحصي والرمال. ترى بهاذا يفكر الباقون وبماذا يشعرون؟

أكاذ، المحطة المؤقتة (٢٨ نيسان/أبريل - ٢٠ أيار/مايو ١٩٧٢)

في صباح أحد الأيام الأواخر لشهر نيسان/أبريل رحلونا بأقصى سرعة إلى أكاذ، وهي قرية تقع في الصحراء، قرية من زاغورة وورزازات. عندما أرففنا السمع، التقطنا بعض المقتطفات المتعلقة بهذا الترحيل الفجائي. القرويون بدؤوا يتساءلون عن سبب وجودنا. لقد عرفوا حقيقة هويتنا، وباتوا يستأوون ويستكرون هذه المعاملة التي لا تفرق بين الصغار والكبار.

سرنا مسافة ثمان عشرة ساعة بدون توقف في شاحنة طُليت نوافذها بالقطران، لقد أصبحت معاملتهم لنا أشد قساوة. لم يكن لنا الحق بالنزول، ولا بقضاء حاجتنا. كنا نفعل ذلك بالدور داخل عربة حليب فارغة بعد أن فتحنا غطاءها. مع حلول المساء وصلنا إلى هذه القرية الفقيرة. اججزونا في منزل رئيس البلدية، حيث قضينا فيه شهراً كاملاً، في الظلام الدامس، ولم نغادره خلاها أبداً. في الخارج تبدو الحياة بسيطة ومريحة. خمر المياه في النبع، همسات الريح، حفيف الأشجار، صرخات الأطفال وصيحاتهم وهم يلعبون ضحكات النساء، وباح الكلاب، كل هذا يبدو لنا أليفاً، بعيداً جداً، وقرية جداً، إنه يدمي قلوبنا ويمزقها.

اعتدنا على قتل الوقت بالطبخ، وبالتهام الطعام. تحضر أُمي بعض الأطباق الصغيرة على ضوء الشموع. أما أنا فقد انغمست في صناعة حلوى الكريب المغربية التي يتلذذ بطعمها الصغار. نظمت أيضاً بعض المسابقات الرياضية والألعاب التي تترد الملل عنهم. وجعلت ضحكاتهم تلعلع عليها تخفف من هذا الحزن وهذا الجوّ الكتيب. إنهم يظنون أنفسهم في غيم صيفي. وماذا لدي لأرقه عنهم؟ أعاني من العيش بهذه الطريقة البدائية: القذارة، والأغطية العسكرية، وغياب المنشآت الصحية، والأسرة المصفوفة جنباً إلى جنب كما في المستشفيات. ما زالت عاداتي القديمة تلح عليّ وتأبى أن تدعني بسلام. فما زلت أنصرف كفتاة مللة.

ولكي أتغلب على تعاسة الواقع كنت أسافر عبر الخيال. أفتح كتاب الجغرافيا، الأطفال يتحلقون من حولي ويمتلقون بي بانتظار أن أعلن لهم بدء الرحلة، لنبدأ معاً التحليق والطيران. انتبهوا جيداً واستعدوا لأننا سنحط فوراً في كندا.

أحلم بهذا البلد وأنطلق في وصفه بدقة. غاباته، جباله، بحيراته، المساحات الشاسعة المغطاة بالثلوج. وكلما عارضوني سارعت إلى إقناعهم. حتى أُمي كانت تنجّر إلى اللعبة فتقول: لا، ليس إلى كندا، إنه بلد بعيد جداً، وطقسه بارد. لا نستطيع أن نعيش فيه بعيداً عن أهلنا ووطننا، لن نخلّ معها كلف الأمر عن انتهائنا، ولن نقطع أواصرنا.

في صباح أحد الأيام، وصل بو عزة، وأكد لنا بأنهم كتبوا عنا وعن في مجلة الباري ماتش. كان يبدو فخوراً بنفسه، لأن ذلك أدخله التاريخ، ما منحنا بعض الأمل. فإذا كانت الصحافة تنطرق إلى موضوعنا، فهذا معناه أنهم لم ينسوا وجودنا بعد وأن العالم لن يسمح باستمرار مثل هذا الظلم والعدوان.

بدأ هذا السجن الجديد يترك أثراً بالغاً عليّ. عندما وصلنا إلى أكلز كنت ما أزال فتاة طبيعية، لم أكن أفكر بعد مثلاً تفعل أي سجين، مع أنهم كانوا يعاملونني على هذا الأساس، وأنهم من الآن وصاعداً سيستمرون على هذا المنوال ويوتيرة متصاعدة، مهما فعلت وقلّت، وأينما حللت وكنت. أنا متأكدة من أن أيام الجؤس والشقاء لن تعرف النهاية.

عدنا إلى آتسا، أواخر شهر أيار/ مايو. لقد تغيرت ظروف حياتنا. فخلال غيابنا قاموا ببناء بيت

جاهز على أرض بور تبعد عن الشكنة. كانت الحيطان والسقف والأرض جميعها بلون التراب. إنه أشد متانة من الشكنة التي كانت مهددة بالانهيار في أي لحظة فوق رؤوسنا. هل هذا هو السبب الذي دفعهم إلى إخراجنا منها وإبعادنا ريشاً ينتهون من تجهيز هذا المقر البديل؟ إنهم لا يريدون موتاً إذن. ربما ليس بعد.

لقد أقمنا في هذا المكان الجديد، هكذا نص القرار.

يتألف البيت من مدخل، وصالون، وحمامات، وورشاش للاستحمام، وعدة غرف مصفوفة واحدة تلو الأخرى على طول الممر. لكل واحد متاً غرفة خاصة به. بعد كل البؤس الذي مررنا به تبدو لنا هذه الشقة قصراً. في الأفق البعيد لا نرى إلا السماء، والجبال. سمح لنا أن نخرج إلى هذه الأرض البور، محاطين كالعادة بالحراس.

في أعماقنا، لم يتغير شيء البتة. لا أذكر أنني كنت يوماً بدون حرس ومرافقة. ما إن أفتح النافذة حتى أراهم مصطفىين أمامي، لأنهم مكلفون بأمني وحمايتي. هنا، بدلاً من أن يحمونا يراقبونا، أما الذهاب إلى القرية فممنوع منعاً باتاً. وبالرغم من إلحاحنا، فإننا لا نستطيع أن نرسل الرسائل أو أن نتسلمها. طلبنا من أحد الحراس الاتصال بجدي. وعهدنا بذلك لكنه أخلف وعده.

أحد الصغار اكتشف فتحة في الأرض: أخلفنا قرارنا بأن نستكشف ماذا يوجد تحت الأرض. ربما كان بالإمكان حفر نفق. فكرة الهرب وجدت طريقها إلى رؤوسنا. لكننا لم نكد نهيئ الأدراج حتى غطت آلاف المراسير التي تحتاح جدران القبو وأرضه.

مع حلول فصل الصيف. كانت الحرارة ترتفع في النهار لتصل إلى ستين درجة مئوية في الظل. كانت الشمس تحترق السقف بسهولة. وفي الليل، كانت الحرارة تنضج من الرمل، ومن الصخور التي كانت قد امتصت الحرارة في النهار وخزنتها. أما فوق رؤوسنا فكان السقف يشهد بأصوات مريضة. كنا نخفق في الداخل وكأنا في فرن مشتعل. كنا نقضي كل السهرات والليالي في الخارج.

كي تتمكن من النوم قليلاً، كنا نغطي بشرائشف مبللة، ونواصل رشها وترطيبها بدون انقطاع، كنا نغطي أباريق الماء بمحارم رطبة، كي نحافظ على برودتها بعض الشيء. ومن الطاف الله الخفية، أنهم لم يفرضوا علينا تقنين الماء.

خلال فصل الجفاف كانت تهب رياح الصحراء عنيفة، فيتحطم زجاج النوافذ من جراء قوتها.

وكان التراب يدخل ويتغلغل في كل أرجاء المنزل، ويغطي وجوهنا وأجسادنا. وكان يمر معه العناكب الضخمة السامة والمؤذية، حاولنا مراراً تجتنب العقارب التي كانت تختبئ تحت الأسرة، وعلى الحيطان، وفي شراشفنا وأغطيتنا. أنا وأمي كنا ننظف كل مكان من أجل اصطفاها والتخلص منها. هذا الأمر أضحك الشكنة بأكملها. كنا نجعل بأن العقرب يعشق الرطوبة. وقد أصيبت زوجة بو عزة بلدغة عقرب، فاغتازت كثيراً لأننا نجونا بأعجوبة من أي لدغة.

لتقصير النهار، كنا ننام طوال فترة الصباح، ونسهر ليلاً حتى طلوع الفجر، كنا نضحك، ونلعب، ونروي قصصاً وحكايات. عندما كان الطقس يتحسن قليلاً، كنت أنظم بعض الألعاب لتسلية إخوتي الصغار. اختلقت قرية صغيرة، ووزعت الأدوار على كل واحد منهم. سكينة لعبت دور الخياطة اليهودية، وعبد اللطيف كان ماعداً لها.

فتح رؤوف محلاً لبيع البتراء، ووضع طاولة في المدخل. كان ينادي بأعلى صوته: «بوينو، ملك البطاطة». كان يجب دفع المال من أجل تناول الطعام عنده. ماريا أخذت دور مزينة الشعر، وأنا خبيرة التجميل. أمي كانت الزبونة الوحيدة في هذه التمثيلية. كان يجب عليها أن تذهب إلى الخياطة وصالون الحلاقة والتجميل، وتتناول طعامها عند بوينو. استمدت ما كنت أفعله في القصر. وبدأت أمثل الأدوار التي يمنعونني من ممارستها في الواقع.

«زوين، زوين، بيزاف»

كان بو عزة يضيق الحناق علينا، باضطراب، كلما زاد خوفه من الرباط. فيعاملنا بالسوء. وكان أحياناً يفقد أعصابه فيسيء معاملتنا ويهددنا، كل مرة فيهددنا ويتوعدنا. في صباح أحد الأيام انفجر بالصراخ في وجوهنا، وكاد طاقم أسناته أن يقع على الأرض.

عملت أربعين عاماً من حياتي في نطاق السجن. غير أنني كنت أتعامل مع رجال. أما الآن فقد فرضوا عليّ أسوأ عقاب تلقته في حياتي، أن أقتل امرأة وأطفالاً. هذا ليس عملي، ولا من اختصاصي، لم أتحمّل لحظة واحدة طوال عمري أن أقوم بهذا الدور الذي كلفوني به.

ثم أخذ يغلي، ويرمي كلمات الغضب والتلملل في الهواء. لقد طفع به الكيل. بعد مدّة، أعلمنا بأنه قريباً سيترك المعسكر. كان يبدو مرتاحاً لهذا. ثم أخبرنا أن في القرية عرافاً ذا بصيرة ثابتة يتنبأ بالمستقبل

بدقة ويدون خطأ. لا شك أنه قد أخبره برحيله عن المعسكر.

غير بو عزة طريقة تعامله معنا، أصبح رقيقاً ومتعاطفاً، وبلغ به الأمر أن أحضر لنا ذلك العراف إلى البيت. كان رجلاً مشلول الأطراف، لا يستطيع أن يقف على قدميه، أو يحرك يديه وذراعيه. كان ممدداً على بطنه، وذقنه تلامس الأرض. كان رجال الشرطة يحملونه، وضعوه أمامنا كرزمة، ترافقه امرأة من القرية، بريرية سمراء البشرة. بعد أن تخلصت من غطائها، وضعت أمامه عدته المؤلف من غربال فيه طحين يضع عليه الزبائن أيديهم.

درس العراف آثار اليد بدقة. مع أنه كان أعمى. خاطب أمي بلغته البربرية التي لا تفهمها^(١)... لغة وسط الأطلس، منشأ أمي، كانت مختلفة عن تلك التي يتكلمها برابرة الصحراء. كان أبي واحداً من القلة النادرة التي تتحدث ثلاث لغات بربرية هي المتداولة في المغرب.

كان الرجل يعتبر بصعوبة بالغة. بما إن يفتح فمه حتى يسيل لعابه كالأطفال. كانت المرأة التي ترافقه تنوّل ترجمة كلامه. قال أولاً بأنه يجب عليّ ألا أنعرض للشمس حفاظاً على جروحي. تأثرنا بقوة، لأنه لا يرى، فكيف عرف ذلك؟

لقد أعطاني مرهماً للداولة الجروح.

- تضعين منه على وجهك، ستخفي الجروح مع الوقت. إنه أفضل دواء لمعالجتها.

حدّد بأنه يجب إضافة خليط مكون من بودرة الحرياء، التي تحضف ثم تطحن، وتمزج بحليب الجمل. كل يوم يجب وضع عدة نقاط من هذا المزيج داخل أنفي كي أجرب أثره على جلدي المتلف. يجب أن أعترف بأنه كان ذا فعالية سحرية.

أخبرنا عن ميمي وإصابتها بداء النقطة الذي لن تشفى منه. بالرغم من أن والدي كانا قد استشارا أفضل وأشهر الأخصائيين في فرنسا وأميركا، ومع هذا، لم يكن هذا ما يقلقنا، ولم نكن متلهفين جداً لمعرفة أوضاع كل منا الصحية.

كنا نتعطش لساع أي خبر عن حياتنا ومصيرنا.

- متى سنخرج من هذا الجحيم؟ متى سنرى عائلتنا، وأصدقائنا؟ متى سنعاود حياتنا الطبيعية؟ إنهلنا عليه بكم هائل من الأسئلة المنهكة. تنفس الصعداء وقال:

- مازال الوقت مبكراً جداً، وسيكون الأمر مأساوياً. لكن المعجزة ستتحقق، والعالم بأكمله

سيحدث عنها. وستحصلون أخيراً على ما تتوخون... لكنني أحذركم من أن هذا سيطول حتى كأنه لا ينتهي.

طلبت منه أمي بإلحاح أن يحدد لنا تاريخاً معيناً على الأقل. لكنه رفض ذلك. لأنه توقف عن هذا، منذ أن تعرض لمت الأرواح الشريرة، هذا ما أخبرتنا إياه المرأة المرافقة. بشرنا فقط بأننا محاطون برعاية خفية لأننا من سلالة الرسول. لذلك فإننا لن نصاب بالأمراض الخطيرة. وهذا ما تحقق بالفعل.

في كل مرة تكون فيها غارقين في الضباب، وتتأذنا لجج اليأس العاتية، وفي كل مرة يكون الواحد منا على وشك الانهيار، كنا نسترجع كلام هذا المعجوز الضريع:

- «زوين، زوين، يضاف: إنها ستكون معجزة المعجزات، وأعجوبة الأعاجيب.

هذه النبوءة شدت أزرنا، وأمدتنا بالأمل، وزودتنا بالصبر. بفضلها نجحنا بالصمود عشرين عاماً.

خلال السنوات الأولى في السجن، لم أكن أحلم إلا بالملك، وليس بأبي مطلقاً. كنت أستمطر في ذهني القصر، الجواري، ضحكاتنا، والتهاريج والبهلوانيات التي كنت أقوم بها، مواجهاتي وخلواتي معه، ولحظاتها المميزة والنادرة.

كل المشاهد والصور العائلية التي كانت عالققة في خيالي كانت حزينة ومأساوية. موت أبي المفجع، مراسم الحداد التي تلت، بينما كنت في غمرة هذا، لم يكن يرادني أدنى شعور بالضغينة أو الحقد ضد أحد. حتى إنني لم أتخيل أبداً أنني قمت في أحلام اليقظة بأي ثورة، أو تمرد، أو مواجهة. وحدها ذكريات الطفولة الباكرة كانت مقبولة نوعاً ما، لكنهم سرعان ما سرقوها مني.

كنت أنفضها عني لأعود إلى الواقع، وأنا يمزقني شعور قاتل بالعار والذنب. كنت أبقى بعدها مشتتة ومبعثرة لا أجزؤ على البوح بهذه الكوابيس أمام أحد من أهلي. إنهم لن يفهموني، ولن يتقبلوا أبداً هذه الخيانة مني.

نجحت بتحمل عشرين سنة من السجن أفضل من أخوتي. ربما لأنني كنت متمرسمة وصاحبة تجربة وخبرة في هذا المجال، أعرف ماذا تعني الوحدة، وماذا يعني الهجران. ليس هذا هو كل ما يؤلّني ويمزقني. كل شيء يمضي ويمر، إلا أن يكون عدوك جزءاً لا يتجزأ منك. وتلك هي المصيبة

والهزيمة.

كم كان رهيباً وموجعاً أن يكون من ريتاني هو جلادي، وأن تعصف بي بلا رحمة أو هودة مشاعر متضاربة من الحب والكراهية نحوه. منذ البداية، كانت مشاعري النفسية حيال الملك معقدة وشائكة، ومن الصعب بمكان تمديدتها ويلووتها. لقد حاول أبي أن يقتل أبي بالتبني مما أدى إلى قتله. كانت كارثة وقعت على رأسي أنا.

أحياناً، أضيق ولا أعرف على من أبكي، وعلى من أتحمس. كنت ثمرة تربية القصر، كل ما كنت عليه أدين به أولاً لمن ريتاني ولكتي كنت أحب أبي كثيراً. هذا التنازع الروحي أرخصى ثقله عليّ كمذاب الجحيم. أعود دائماً إلى الوراء. أبحث دائماً عن جواب يخلصني من كابوس التساؤل، الذي يلاحقني ويطارقني ليلاً نهاراً. هل كان بمقدوري أن أفعل شيئاً لضادي ما حصل؟ هل أنا المذنبة؟ إذا كنت أحترم دائماً الحسن الثاني باعتباره أبي بالتبني، فإني كنت أكره فيه الظلم والعسف اللذين أنزلهما بنا بدون رحمة. أكرهه لحقه علينا، أكرهه لما ألحقه بأمي وأخوتي من أذى لا يُحتمل. ضاعت طفولة أخوتي إلى غير رجعة. عانت أُمي الأمرين، وأنا تحطمت حياتي. كيف طوَّعه قلبه على ارتكاب هذه الجريمة بحقنا، وعلى قتلنا عشرين عاماً في أتون السجن المحرق؟

أسوار تامتاغت (٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٣ - ٢٦ شباط / فبراير ١٩٧٧)

قصر الكلاوي

هذا الغناء الذي يمزق مسكون الليل، ابتدأته أنا، ثم انضم إليّ هل التوالي: رؤوف، ميمي، أُمي، عاشورا، حليلة. أصواتنا المخلطة تتعالى بتلك الأغنية التي نتحدث كلماتها عن المنفى، والأمل، والرحيل في الليل. إنها قصتنا.

لقد مررت لنا حياتنا، لكن العدالة لا بد أن تتقم لنا.

المرّة الأولى التي سمعنا فيها هذه الأغنية كانت عندما كنا في آسا. المغنون هم مجموعة من الشبان المغاربة، وفرقتهم الغنائية معروفة جداً في المغرب. رئيسها الذي يدعى درهام، هو زوج إحدى بنات عمي.

تلك الأغنية التي هزت قلوبنا، ولا مست أرواحنا، لم تكن نعرف آنذاك أنه تمّ وضعها وتأليفها من

وحي مأساتنا، وأنها كانت مهداة لنا. رجال الشرطة الذين اصطحبونا في هذه الرحلة الثالثة، في هذه الشاحنة التي ألقونا بداخلها، شرعوا هم أيضاً بتدريبها وإنشادها. ضمت الصغيرتين إلى صدري، وبدأ دمعي يجري على خدي. رحلونا عن آسأ بسرعة قصوى في بداية فصل الشتاء، دون أن يشرحوا لنا سبب ذلك. لاحقاً اكتشفت السبب بنفسي بعدما فكرت ملياً في هذا الترحيل المفاجئ وفي هذه الأونة بالذات، إن الملك يستعد لتنظيم المسيرة الخضراء^(٣)، للمطالبة باستعادة الصحراء الغربية. لذلك، يجب إبعادنا عن الجنوب المغربي، لأن عائلتنا من هذه المنطقة التي لا شك أن فيها الكثير من أنصارنا والمتعاطفين معنا.

الشاحنة التي نقلنا إلى وجهة أخرى جديدة، كان الحراس قد فرشوا أرضها بسجادة حمراء، وزودوها بالماء من أجل الصغار. مازلنا قادرين على قهر العمة، والاكتاب، والإنهاك، والغبار، والقلق، بما لدينا من روح الشباب، ومن حب قوي للحياة. إننا نقهر كل ما يواجهنا من صعاب بالإرادة والأمل.

بالرغم من الحالة المزرية التي نخطئنا فيها من جراء هذه الرحلة، تمكنت ميمي، دلوعة العائلة، من النوم وفهما مفتوح دون أن تبالي بالتراب الذي ينهال على وجهها بعد أن وجد طريقه إلى داخل السيارة عبر الفتحات والنوافذ. كان المشهد مؤثراً ومضحكاً، ما جعلنا نتفجر ضحكاً من منظرها. في إحدى المرات التي توقفت فيها، شاهدت مرور قافلة سيارات ودراجات نارية تقوم بسباق في الصحراء. إننا فقط على بعد عدة كيلومترات من هؤلاء المتسابقين، ولكنهم لا يروننا، ولا يسمعوننا، ولا يشكون حتى بوجودنا. فالحياة تستمر، إنها هنا، قريبة منا، وعلى مرأى منا وسماع، لكن لا أحد فيها يبالي لأمرنا.

بعد هذا الطريق الطويل الشاق والمتهك كما في كل مرة، اقتادونا إلى تامناخت البعيدة عن ورزازات. هذا المنفى أبعد مما سبقه وأكثر وحشة وعزلة. وضعونا في حصن شاسع كبير، تبعث رؤيته الحشية والرهبة في النفس، أين منه الصحراء بوحشتها ورهبتها! إنه بقايا قصر قديم، أسواره الشاهقة تحجب عن أعيننا رؤية السماء.

لم تمت أحاسيسنا بعد، مازلنا قادرين على تذوق بعض مباهج الحياة، ولا نعلم عن رؤية الجمال، ونقدر الفن والإبداع. لا بد أن هذا القصر كان تحفة رائعة في غابر الزمان. وما زالت بعض الآثار فيه

تدل على ذلك. حيطانه وسقوفه مطلية بألوان ساحرة، عليها نقوش وزخارف يدوية. يعود هذا القصر لصاحبه الباشا الكلاوي^(٣) باشا مراکش. الذي كان يعيش في قصر أكثر أبهة وفخامة من قصور الحكام.

دخلنا إلى هذا الحصن عبر بوابة كبيرة مطلية باللون الأزرق. جهزنا غرفتين في الطابق الأول كي نستقر فيها نحن التسعة. في الأسفل كهف ترابي صرنا نستخدمه كمطبخ. في بقعة أخرى صغيرة جداً وضعنا المواد التموينية والغذائية: لقد كان المكان يعج بالعقارب، كلما أمسكنا بواحد منها نضعه في مرطبان ممتلئ بالكحول. ومرة وجدت حليلة ثعباناً ضخماً كان ملتفاً حول نفسه، أربنا أقل مما أرب الحراس الذين فروا هاربين عندما وقعت أعينهم عليه.

إننا نستحم في الطابق السفلي بالقرب من موقد يبقى متقدماً طوال النهار. اخترعت أمي بعقريّة ما يشبه السونا. صنعت خيمة مؤلفة من خمس قصبات مميكة موصولة ببعضها بحبل، وغطتها بقطّاء من البلاستيك، حيث كنا نضع عليه كذلك أغطيتنا، التي كنا نتدثر بها. بعد أن تقوم أمي بتسخين صخور صغيرة بيضاء كانت تضعها في سطل داخل هذه الخيمة. عندما كانت ترش الماء عليها كان يتصاعد منها البخار الساخن. كنا نستحم بالدور. تبدأ أمي وعبد اللطيف، يليهما أنا والصغيرتان، ثم ميمي، فروّوف، وأخيراً عاشورا فحليلة. كان هذا بالنسبة لنا أشبه بالذهاب إلى الحمام، كان هذا الإنجاز الذي حقّقه أمي حدثاً مفرحاً وسعيداً لنا جميعاً.

هنالك سلالم عالية توصل إلى غرفتين رئيسيتين. في أعلى الدرجات بابٌ يفتح على عمر طويل ضيق كالتابوت. في نهايته غرفة صغيرة، نضع حقائبنا في داخلها. إنها مظلمة، لكننا اكتشفنا فيها فتحة تؤدي إلى واحة.

يجب الصعود ثلاث درجات أخرى للوصول إلى مقرنا المؤلف من قاعة ذات أرضية إسمنتية مضادة بكتونين صغيرتين، محفوفة على جانبيها بدعليزين، هما عبارة عن عمريين طويلين، سقفهما عالٍ وضيق، تغلفهما العتمة الشديدة. إنها مكان نومنا.

هنالك زاوية فيها منسلة وثغرة كنا نستخدمها كمرحاض. في جهو القاعة وضعنا طاولة مخصصة للدرس، فرشنا أرضها بسجادة، يجلس عبد اللطيف للعب عليها، وفي ركن منها وضعنا فراشاً، كانت أمي تستلقي عليه خلال النهار، مصحوبة بمجموعة من الكتب بالإضافة إلى الراديو.

كان الأثاث محدوداً وزهيداً، ولكنا كنا نتدبر أمورنا، بإمكانياتنا الفقيرة، أضفينا على هذا المكان بعض الرونق والحياة. صنعنا طاولات صغيرة، من صناديق الكوكاكولا، بعد أن كنا نغطيها بأقمشة جميلة، علقنا على أحد الجدران بعض الصور، وعلى الجدار المقابل له بعض المنمنمات الصغيرة، مرايا، وتحفاً، حلّ هذا يدد وحشة هذا القبر ويدب فيه بعض الروح.

في بادية الأمر، كنا ننام جميعاً في حجر واحد، على الأرض التي لا تغطيها إلا طبقة رقيقة من القش، في فصل الشتاء، في البرد القارس، كنا ندفئ أيدينا فوق المصباح الغازي. أما في الصيف، فكان الحر خانقاً ولا يطاق أبداً. كانت الحياة في الصحراء مذلة ومهلكة.

كانت الجرفان تزورنا دائماً، وقد زادهما الجوع الشديد شراسة وعدائية. وكانت الطريقة أنجع وسيلة للقضاء عليها. ومرة تعرض أخي رؤوف لعضة في وجهه بعدما انقضّ عليه أحدهما بينما كان يرميها بسطل من الماء.

كانت الليالي مخوفة دائماً بالهواجس والأخطار. كان القلق يملك أُمي. فكل ليلة، بينما هي تقرأ على ضوء المصباح، كانت تشعر بلقحة أنفاس تداعب وجهها، وبأحد ما إلى جانبها. أما رؤوف فكان ضحية ليلية لشئ أنواع الكوابيس المرعبة. قررنا إخلاء الدهليز بعدما تفاقم الوضع بشاعة وخطورة. أصبحت ماريا مسكونة بالهلع، فهي تستيقظ كل ليلة كالمجنونة، وتبدأ بالنحيب والصراخ. بات من المؤكد لنا أن هنالك شيئاً غير طبيعي في هذا المكان.

حوالي الساعة الرابعة فجراً، كنت أسمع يومياً أصوات خطوات، وتمتمات مجنونة، ثم لا ألبث أن أرى أناساً يحملون بأيديهم أسطلاً فارغة، يذهبون ويميتون في الحمام وعلى السلام والأدراج. كانت تلك الأشباح تميتني رعباً. في إحدى الأمسيات بينما كنت أرقد في وسط الغرفة، تراءت لي بشكل ظاهر امرأة بقامة شيطانية تنام فوقي وتعصرني حتى كادت تنصنبي. أيقظتهم جميعاً وأنا أنصعب عرقاً وأرتجف من الخوف.

بعد ذلك لم يغمض لأحد منّا جفن، وظلت أُمي تقرأ القرآن حتى مطلع الصباح، علّها بهذا تنجح بطرد تلك الأشباح المخيفة.

روينا هذه الوقائع لأحد أكثر الحراس لطافة معنا. صدّقنا، وأفشى لنا بأن هذا المكان ملعون، لأنه مشيد فوق مقبرة. هل يعقل أننا كنا جميعاً دفعة واحدة ضحية تحيّلات وهلوسات؟ أم أننا كنا فعلاً

نتعرض لمطاردة خثيفة من أرواح الموتى التي حاولت أن تسكننا وتلتبنا؟ إننا نستطيع بسهولة أن نحارب أعداء ملموسين على الأرض، ولكن كيف لنا أن نقاوم قوى فوق الطبيعة؟

هجرنا الدهليز دون أن نجرؤ على وضع قدمنا فيه مرة أخرى. لا شك أن الأشباح كانت تتخذ منه مقاماً، لكنها صارت تتراءى بصورة أخف وطأة عما كانت عليه في داخل الدهليز.

ما زالت أمي تشعر بلفحة أنفاس فوق وجهها، لكنها اعتادت عليها. بعد عدة أشهر مريرة، كان زوار الليل، بعدما ألفنا وجودهم وحضورهم، قد اختفوا إلى غير رجعة.

لدى وصولنا إلى هنا، كرست الأيام الأولى للترتيب والتوضيب وتنظيم المكان. أردت بأي طريقة أن يشعر الصغار ببعض الاطمئنان والاستقرار في هذا الوضع المزري الذي كنا مكبلين فيه، لذلك حاولت أن أوجد لهم قدر الإمكان طريقة معقولة لتنظيم حياتهم المشتتة والضائعة.

كانوا يقضون معظم نهارهم في القاعة المسماة صفّاً. كنت أقوم بجدية تامة بدور المعلمة. وضعت عدة برامج دراسية بمستويات مختلفة. كانت الصغیرتان في المرحلة الابتدائية الأولى، ورؤوف في الثالثة، أما ميمي فكانت في الثانوي الأول. كنا نسيّظ جميعاً في الساعة السابعة، نغتسل، تناول فطورنا، ثم نعكف على الدرس عند الساعة الثامنة. بعد أن أوزع على الصغیرتين نصّين مرفقين بأسئلة حولها وأطلب منها تلخيصاً لما ورد في كل نص، أتركهما يعملان بمفردهما، وأعيد الأمر نفسه مع رؤوف وميمي. بعدما أعاين الأخطاء والصعوبات التي يقعون فيها، كنت أدوّن بعض ملاحظات تساعدني على وضع حلول تربوية لذلك. كنت أصرّ على تعليمهم يومياً على الأقل خمس كلمات جديدة، وأطلب منهم حفظها غيباً مع معانيها، كما وردت في القاموس. كذلك كان عليهم وضعها في جمل مفيدة، أو استعمالها في كتابة نص من عدة أسطر. تدريجياً أضفت إلى البرنامج اللغتين الإنكليزية والعربية. أخذ رؤوف على عاتقه تعليم مادة الرياضيات. بعد أن تراجعها معاً، يقوم بتدريسها للصغار.

في هذه الأثناء، تكون أمي في طور إعداد طعام الغداء. لم يكن هنالك تقنين غذائي مفروض علينا، لكننا لم نكن نملك شيئاً من الفاكهة أو الزبدة أو الكريمة أو البيض أو السكر للصغار. حالما تفرغ من ذلك، كانت تنصرف للاهتمام بعبد اللطيف الصغير.

كانت تعلمه الحروف الهجائية، وتحضر له بعض الألعاب لتسلّيه وليشعر وكأنه في حضنة أطفال. فيها كانت حليلة وعاشورا تقومان بأعمال التنظيف والغسيل، وغير ذلك، بعد أن تنتهي من مساعدة

أمي في المطبخ. في أوقات الفراغ كانت حليلة تنصرف لحياكة الصوف، أما عاشور الأمية فكانت تراجع دروس الفرنسية التي أكون قد أعطيتها إياها.

بعد أن نوقب دروس الصباح ظهراً، نغسل أيدينا، نتحرك قليلاً بانتظار الجلوس إلى طاولة الطعام. نعاود الدروس عند الساعة الثانية من بعد الظهر، مما يتيح لأمي المجال لبعض الراحة والامتناع بهدوء إلى الراديو.

كان نهار السبت مخصصاً للمناظرة بدلاً من الدرس. كنا نختار موضوعاً هاماً، ونجري نقاشاً حوله يشترك فيه الجميع.

كان رؤوف والصغيرتان يهتمون بشكل خاص بأحداث الحرب العالمية الأولى، ولشد ما كانت تستهويهم مادة الجغرافيا، كنا نقوم دائماً برحلات خيالية إلى شتى أنحاء العالم. كنا نتحدث عن لويس الثاني، وبأير الذي كان يسحرني ببيلاده، وتاريخه. صحيح أن الطرق التعليمية التي اتبعناها لم تكن نموذجية، لكنها كانت تلقى الاستحسان لديهم.

حوالي الساعة السادسة، كنا نذهب في جولة إلى الخارج نترك خلالها لخيالنا العنان. كانوا لا يسمحون لنا بالخروج إلا إلى ساحة صغيرة معبئة، محاطة بأسوار مرتفعة، كانت تشعرنا بأننا مدفونون أحياء في أحد القبور. ومع هذا كانت وسيلتنا الوحيدة لاستنشاق بعض الهواء المنعش. كنا نفرش سجادة على أرضها، ونوقد الكائنون كي تصنع لنا أمي الكريب الشهوي الذي كنا نتهافت على التهامه. لقد كانت هذه أيضاً وسيلة أخرى لتحظى ببعض الأجواء العائلية الطبيعية.

في آخر المطاف كان يجين وقت الاستحمام، يليه العشاء، ثم القراءة الإلزامية. الصغيرتان كانتا تقبلان على الأمر بسرور، أما رؤوف فكان متكاسلاً ومتطلباً كي يتحمس للمطالعة، كانت تستهويه قصص الحرب، والمغامرات، أو الطيارين والجنود في حرب الهند الصينية. نستمر بالمطالعة حتى الساعة العاشرة ليلاً خلال الأسبوع، فيما تتأخر أكثر في نهايته.

في الليل، كانت الوطاويط تأتي لتحط فوق رؤوسنا. بادئ ذي بدء، كانت تخيفنا، ثم سرعان ما صرنا نتنظر مجيئها بفارغ الصبر، كي تحدث في هذا الصمت القاتل بعض الضوضاء.

مرة واحدة كل شهر، كنا نستعد لعرض مسرحية بعد أن نقوم بتحضيرها ملياً. حضرت للمناسبة مسرحيتين، واحدة بالفرنسية، وأخرى بالعربية، بالكاد كنت في الحادية والعشرين من عمري،

لكنني كنت أملك طاقة جبارة. كنت أتصرف بهم كما يحلو لي، بشبابهم، بسذاجتهم، كي أحقق أحلام طفولتي. كنت أقوم بدور واضحة السيناريو، وقائدة الفرقة، وضابطة الإيقاع، والمخرجة.

كنا نرقص، ونغني، ونقوم بالإيماء. جمهورنا الوحيد كان أمي. كنا نكتب كل هذه المنوعات من أجلها. ونقوم بالتحضيرات بدقة شديدة. أما الملابس فقد كنا نتدبر أمرها ضمن إمكانياتنا، ونختارها من بين ملابسنا. قصصت شعر عاشورا وفق تسمية ميراي ماتيو، لأنها كانت ستؤدي إحدى أغانيها. المسكينة لم تكن تفهم كلمة واحدة بالفرنسية. كم كان منظرها فكاهياً، وهي تغني أغاني البلاي باك، وتلبس فستاناً أسود، كذلك وهي تتعرف على أداء بعض الحركات والرقصات التي أصررنا عليها أن تعيدها أكثر من مرة. كان من الصعب علينا أن نقاوم الرغبة الشديدة في الضحك. غالباً ما كنت أقلب الأدوار. كنت أرثي جليلاً رجالياً، وأرسم لحية صغيرة على ذقني، وكان رؤوف يأخذ دور زوجتي. بقاته الطويلة، وسيقانه الممتلئة بالوبر، وصدره المزيف تحت العباءة المغربية التي يضعها. كان يؤدي الحركات النسائية بإتقان ومهارة مبالغ بها، مما كان يجعل أمي تستغرق في الضحك طوال مدة العرض الذي يستمر ساعتين كاملتين. أجل تعويض يمكن أن نحظى به هو أن نراها، ولو للحظة صغيرة، سعيدة فرحة.

في بعض أيام السبت، كنا نمثل بعض الأدوار ونعيد بعض المشاهد المقتبسة من الوقائع التي تجري في كازينو مونت كارلو. مثلوا العائلة، سكينه ورؤوف، صنعوا لعبة روليت، ورسموا سجادة خضراء، فيما حاولت أمي أن تستعين بذاكراتها كي تساعدنا على وضع الأرقام بالترتيب كما يجب.

بعض حبات الحمص اليابسة، كنا نستخدمها بديلاً للطابات. كان رؤوف يؤدي دور غريس كيلي، وأنا دور الأمير رينيه. كان يرتدي فستان سهرة مكشوف الظهر، ويضع الماكياج، والتسمية المناسبة، وإن كان لا يشبه الأميرة بدقة، إلا أنه لم يكن أقل جمالاً منها في شكله الجديد. أعدنا مخازن تشبه تلك التي كانت في آتسا، ولكن بسلام أطول، وصنعنا أيضاً لعبة مونوبولي. لقد علمتهم لعبة اليانز التي كنت ألعبها مع آلان ديلون.

كنت أسرد دائماً للأطفال بعض الوقائع والأحداث التي حصلت معي عندما كنت مرافقة. نادراً ما كانت ذكرياتي تغادرني، كانت السلاح الوحيد الذي أمتلكه لأقاوم الجزع والكره. مع أنني بهذا كنت لا أكمل عن الدوران حول نفسي. كل واحد منا كان يروي القصص التي عاشها في الماضي،

عليهم بذلك يؤكدون لأنفسهم وللآخرين بأنهم سبق لهم أن عاشوا من قبل، وبأنهم مازالوا على قيد الحياة. عبد اللطيف هو الوحيد الذي ليس عنده ما يقوله، لأن وعيه تفتح هنا بين قضبان السجن. مع السنوات والأيام، ويلا وعي، بدلنا بتحوير وتبديل ذكرياتنا، هنا نقص، هناك نزيد نبدل ونغير علنا هذا نتجح بإضفاء بعض التجديد. أحياناً كانت تختلط الأمور علينا ونروح نرد ذكريات بعضنا وننسبها لأنفسنا، كنا نتبادل الأدوار. كنا نكافح ونناضل ضد السقوط في الهاوية السحيقة التي كان يشدنا إليها الملل والفراغ.

كان علينا أن نتعلم كيف نعيش جميعاً مع بعضنا البعض، في حالة من التشويش والاختلاط، والإرهاق، والظلمة، والقنطرة، والعزلة، والتفوق، والسجن. الأمر لم يكن دائماً سهلاً وبسيطاً، لأن الصغار كانوا يكبرون يوماً بعد يوم. بالرغم من كل الطاقة التي كنت أبذلها، كان ما زال لديهم قناعة ثابتة بأن وجودهم مهدد وعلى كف عفريت. كان أخي رؤوف يكتم لوعته وحزنه في نفسه. عندما وصلنا إلى تامناغت، كان عمره خمسة عشر عاماً، ولم يكن بعد قد فرغ من الحداد على موت أبيه، وفي هذه السن يكون المرء بحاجة ماسة إلى وجود أبيه.

لم يكن باستطاعته أن يثأر له. ومع الأيام فقد القدرة على التعبير عن نفسه، وقد كان محاطاً، كظله، بالنساء والأطفال. بالنسبة لنا جميعاً، كان هو أكثرنا وحشة وبتاً.

عاشت مسكنة مرهقة صعبة. كانت متقلبة الأطوار طوال الوقت. لم تكن تعرف ماذا تريد، وكيف تحيا؟ تارة تكون مبتهجة، وأخرى متكدرة وحزينة، وهكذا دواليك. كل يوم كانت تضع لي رسالة تحت وسادتي تخبرني فيها أنها تحبني، وتكشف لي أيضاً ما يتأبها من قلق وهواجس، وشكوك ورغبات. بعدها كنت أسارع لتهدئة روعها والتخفيف عنها، ونتناقش معاً حول الكثير من الأمور.

كان التعامل مع ماريّا حساساً للغاية، بالرغم من تعلقنا المتبادل ببعضنا البعض، إلا أنها كانت هشة وسريمة العطب، تؤذيها أقل صدمة فتمتنع عن الطعام، والكلام، واللعب والحركة. كان يكفي أن ننظر إلى عينيها لنعرف مبلغ الرعب الذي تشعر به. كانت تبدو وكأن صاعقة أصابتها.

مريم التي كانت غارقة في مرضها، كانت تحتل بشق النفس مظاهر الحداد، والسجن، وظروف حياتنا. كانت مدمنة على تعاطي دواء الموحادون الذي كنا نؤتم لها بواسطة بعض الحراس، ومع هذا كانت نوبات الصرع تتعاقب عليها الواحدة تلو الأخرى، وبفترات متقاربة. مسكنة ميمي كم كان

وضعها ألياً وفظيماً! كنا نقف إزاءها مكتوفي الأيدي، وعاجزين حتى عن تهدئتها وتطيب خاطرها. في غمرة إحدى الثوبات التي كانت أعنى من سابقاتها، سقط من يدها قدر الحليب المغلي، لينصب على فخذهما. استغرقت الحروق عدة أشهر كي تبرا وتزول آثارها بسبب سوء العلاج.

كنا نبالغ بتدليل عبد اللطيف جميعاً دون استثناء، علنا بهذا نعوضه بعضاً من طفولته المفقودة. كان هو محور عطفنا واهتمامنا، وكنا نصنع له بعض الألعاب من الخشب والكرتون، ونقص عليه الحكايات، ونفرقه بالمداعبة والقبلاط، بالإضافة إلى بعض الحيل والأكاذيب.

ربما أسأنا التصرف معه عندما أحطنا بهذه الحماية الزائدة والمبالغ بها. للأسف، لم يكن هذا الأمر في صالحه عندما أطلق سراحه، لابل سبب له مشاكل كثيرة، وأضراراً بالغة. لعنا نجحنا في التخفيف من وطأة الحاضر الذي كان يحياه في وحشة السجن، لكننا أخفقنا بمساعدته في مواجهة المستقبل وأعبائه. ولكن ترى هل كان ذلك الخيار الذي اتجهنا معه فعلاً من صنع أيدينا؟ وهل كانت أمامنا خيارات أخرى؟!

كان العراف على حق: كنا فعلاً محاطين بعناية إلهية، فلم نسقط ضحية الأمراض الخطيرة والفتاكة التي كانت تتعاقب علينا، لكننا كنا في كل مرة تنجح بالنجاة منها. كدت أن أموت مرة بعد أن أصبت بحمى التيفوئيد، بسبب الحرارة المرتفعة التي لازمتني عدة أسابيع متتالية. كانت أمي تسهر على معالجاتي، تضع على جبهتي ضمادات الماء كي تخفّض الحرارة. إحدى عمرضاتنا، أعطتني حبوب الأمبرين، وهو الدواء الوحيد الذي كان بحوزتها بعدما وجدت أن حالتي تتدهور من سيء إلى أسوأ. اتصل قائد المعسكر بالرباط لكن ذلك كان مضيقاً للوقت، ولم يُجِدْ نفعاً، فأنا من تكبدت بمفردي تلك الآلام المبرحة. قبل أن أقع في الغيبوبة، عندما هجرني الحمى، كنت في حالة مزرية وفظيعة، أصبحت كهيكل عظمي، وفقدت كل شعري. ومع هذا لم أمت بل بقيت على قيد الحياة.

كنا نعيش حالة من العزلة التامة، ولكن بفضل جدي، «بابا الحاج» كما كنا نناديه، كنا نتلقى قليلاً من الرسائل والكتب. منذ اختفائنا، لم يأل المسكين جهداً ولم يترك وسيلة للتواصل معنا، وتنسم أخبارنا وإرسال بعض الأشياء لنا، متحملاً بمفرده كل الأعباء والمخاطر التي تترتب على تحركاته في ظل حالة من القمع والتصف، أصبح معها كل من يمت بصلة لعائلة أوفقي من قريب أو من بعيد تحمل عليه اللعنة.

بعد أن كان قد طرق كل الأبواب، وكاتب رؤساء الدول الأجنبية، وكتب إلى الرئيس جيسكار ديستان، والمنظمات الدولية والإنسانية، ذهب لالتهام المساعدة من الأمير مولاي عبد الله. توسل إليه أن يتوسط عند الملك كي يسمح له بإرسال بعض الكتب والرسائل إلينا.

لم ينسنا الأمير. مرة أخرى، أظهر مدى إنسانيته عندما وافق على طلب جدي. وبذلك تمكن «بابا الحاج»، وبشكل دوري، من إرسال بعض الروايات، والمسابقات، والمخطوطات المدرسية التي كنا قد أوصيناه عليها، وكنا بأمر الحاجة إليها. عندما وصل صندوق الكرتون الكبير الممتلئ كتباً إلى تامناغت، لم تسعنا الفرحة، كنا نتصرف مثل الأطفال الصغار عندما تقع أعينهم على شجرة الميلاد. كانت الدليل الحي والملموس على أن هنالك في الخارج إنساناً ما زال يحيا.

هذا الجميل كلف مولاي عبد الله غالياً، إذ أثار عليه نقمة الملك الذي اقتص منه وفرض عليه ملازمة داره لكنه لم يستسلم وهو على فراش الموت، رجا أخاه مرة أخرى أن يفرج عنا ويطلق سراحنا. داخل الصندوق الكرتوني، كنا نتسلم رسالة شكرية من «بابا الحاج»، تكون فيها الأخبار ملفقة وحذرة. ولكن بفضل نجاح جهوده الخفية مع بعض الحراس تمكن من إقناعهم بإيصال رسائل لنا لا تظالمنا عين أي رقيب أو حسيب. وهذه الطريقة أصبح بإمكاننا تلقي رسائل عديدة من أقاربنا وأصدقائنا. كانت تسلم أولاً بالطبع إلى جدي.

مما خديجة، زوجة جدي، كانت تتولى بنفسها حمل البريد سراً. تعطيه للحراس، وتحصل منهم على رسائلنا، وذلك وفق مواعيد سرية، كانت تذهب على دراجتها النارية، وهي تتوخى أقصى درجات الحيلة والحذر. كانت الأنظار الملكية تحمدق بكل من كانت تربطنا به صلة، من كل حذب وصوب. هي أيضاً دخلت في المقاومة. لكنها لم تقم طويلاً بدور الوسيط: لأنها قضت نحبا حرة علينا بعد مضي عدة سنوات على سجننا.

في باريس، كدت أعقد قراني على شاب يدعى علي العياشي. كان يواظب على كتابة الرسائل الملتهية بكلمات الشوق والحب والتي توجه عادة من رجل إلى خطيبته. في البداية تجاوبت مع رسائله، ولكن أسلوبه المتوهج والمتقد سرعان ما أصابني بالنفور. إنه لم يستوعب الحالة التي كنا نخبط فيها، سمعت جاهدة أن أشرح الفروقات الشاسعة التي تباعد بيننا. كتبت له مرة في إحدى الرسائل:

«هنالك من هم في الداخل، وهنالك من بقي في الخارج، هنالك عالم يفرق بيننا وأسوار تفصلنا.

حتى في أعماقنا لا شيء يجمع بيننا».

توقفت عن مراسلته، وبهذا وضعت حداً لتلك القصة. في كابوسنا اليومي، لم يكن هنالك مكان لأحلام المستقبل، ولا للحب، مع أنني كنت في العمر المناسب والمطلوب.

كانت الرسائل الأخرى تثير ألماً وأشجاناً أكثر مما كانت تفرحنا. كنا نترقب وصولها بفارغ الصبر، لأنها كانت الصلة الوحيدة بيننا وبين الخارج. كنا مصدومين إزاء أنانية وسوء تصرف بعض هؤلاء الذين كانوا يرسلوننا. وماذا عسانا نقول؟ كانوا يصفون لنا بعض التفاصيل عن حياتهم الهادئة والمريحة، ومهرات الميلاد وموائد الغنية والمنوعة، والرحلات، والأعياد والأحداث السعيدة. وكل المتع والمباهج التي تدل على حياة طبيعية. كنا نغص بريقنا عندما نقرأها، ونشمر بالضييق لأننا كنا محرومين من كل هذا.

راسبوتين

من بين الخمسة والعشرين حارساً الذين أوفدوا الحراستنا ليلاً نهاراً، ثلاثة أرباعهم كانوا ممن كلّفوا بمراقبة بيتنا في الرباط.

كانوا يعرفون أبي، من قريب أو من بعيد، ويحترمون أمي، ويجيئوننا بطريقة أبوية صرفة. كانوا يحضرون لنا البيض الطازج، والحلوى للصغار، واللحم اللذيذ، والبطاريات للراديو. كلما ذهبوا لشراء حاجياتهم، كل منهم حسب إمكانياته المادية، كانوا يشترون لنا معهم بعض الحلوى، ويمررونها لنا خفية عندما يضعون لنا أسطل الماء التي كانت مخصصة لنا يومياً.

أحدهم أعطى عبد اللطيف حمامة صغيرة. بعد فترة وجيزة، أحضر والنا أخرى. وباضت الحمامتان وفقس بيضهما، وصار عندهما، بعد عدة أسابيع، مجموعة كبيرة. وضعناها داخل صندوق كرتونية باتجاه حائط البهو.

صارت الحمامات محوراً ننظم حوله حياتنا. كل واحد منا أخذ واحدة له، ومنحها اسماً ولقباً، تماماً كما كنا فعلنا مع الفراخ من قبل.

كنا نستمتع بمراقبة سير نموها وتطورها ساعات بكاملها، سيما أيام الأحاد حيث لم يكن هنالك أي حصص دراسية. إحدى الإناث بينهن كانت تدعى حليلة. كنا نتأمل حياتها الغريزية مع الذكر،

قلباتها، وتعبيراتها العاطفية والجنسية.

إلا أن السجناء يظلون دائماً سجناء، بالرغم من حبنا للحمامات، لم نترك فرصة نفوتنا دون أن نخطف ببوضها. كانت أمي تصنع لنا بها الكاتو بالليمون، مما يؤدي مشاعر ماريا، المدافعة الكبيرة عن الحيوانات، والتي كنا نطلق عليها لقب بريجيت باردو.

بعد خمسة أو ستة أشهر على وصولنا إلى تامتاغت، قذف لنا رجال الشرطة حبة بطاطا من فوق السور، خبئوا بداخلها رسالة صغيرة، لتحذيرنا من أن حملة تفتيش واسعة ستطال مقرنا عما قريب. وبأمر مبثوث من وزير الداخلية، وصل الكولونيل بن عيش إلى المكان قادماً من الرباط. هذا الرجل، كان قد فقد أخاه، الطبيب الشخصي للملك، أثناء أحداث انقلاب الصخيرات، وهو يمثل أبي مسؤولية موته. كانت تلك إشارة إلى أن الملك لا مكان في قلبه لعائلة أوقفير.

داهم المكان بعنف، وراح يدفئنا، كنت ما أزال في قميص النوم، وشعرت كأنني أتعرض للاغتصاب، كنت دائماً أقوم بنفس ردة الفعل الحمقاء في كل مرة يتناول فيها أحد علي ظلماً وافتراء، كنت أردد في نفسي هذه العبارة:

ـ آه، لو أن أبي على قيد الحياة، لما تجرأ أحد من هؤلاء...

دخل إلى الدهليز الذي نستخدمه قاعة صف عندما يكون الطقس قارساً.

كانت صورة أبي معلقة على الحائط. كانت نقطة ضعفنا جميعاً، وكانت أثيرة لدينا، لأنها أخذت له عندما كان مع كتيبه في إيطاليا. أعطى أمراً بتزعمها، ثم راح يطأها بقدميه. فعل الأمر عينه بصورنا الأخرى، وبأشياءنا، وبأثاثنا الزهيد، وبالأوعية التي كنا نحفظ فيها بعض المواد التموينية.

صادر الكتب التي لم يتسن لنا الوقت الكافي لإخفائها بعدما أحاطنا رجال الشرطة علماً بذلك.

بعد رحيله، كان البهو أشبه بساحة معركة. كنا مجمعين من الخوف، والحزن، والقلق. لم تصدق أعيننا ما شاهدت من مظاهر وحشية وعنف. وبدأنا نعي أننا سنحجز هنا لمدة طويلة الأجل، وأنه لن يكون لدينا هناك من آخر. لقد كنا رهن الاعتقال، ولا داعي لإضافة كلمة أخرى.

حتى ذلك الوقت، كنا لا نزال نعامل جيداً، كنا نشبع، وكانت الموسيقى والراديو يسمحان لنا بالتواصل، مع الخارج.

غير وصول بن عيش مجرى حياتنا. كلف رجال الشرطة باضطهادنا وتعذيبنا. من الذي أعطى أمراً

بالتشدد والقساوة في معاملتنا؟ من الذي كان له مصلحة بتضييق الخناق علينا؟ لم تكن نملك أي جواب يشفي غليلنا، ويبدد حيرتنا.

المخازنية، وهم قوات مساعدة للشرطة، كانوا ينفذون أوامر رؤسائهم بحذافيرها. التزموا بالبرنامج الجديد التزاماً أعمى. أما رجال الشرطة، الذين كانوا أكثر رقة وحساسية، فقد ردوا على ذلك بأن أقاموا حولنا شبكة مساعدة سرية ماثوثة. إنهم من الجيل القديم الذي كان قد قاوم الانتداب الفرنسي. كانوا معتادين على المجازفة مع أخذ أقصى درجات الحيلة والحذر. كانوا يعرفون كيف يتحركون دون أن يثيروا الانتباه من حولهم.

كانوا يعلموننا مسبقاً بمواعيد حملات التفتيش والمداومة. وذلك من خلال قذف جزرة أو حبة بطاطا من فوق السور، هذه التحذيرات كانت تتيح لنا المجال لإخفاء كل ما هو مهم، مثل الراديو الذي كنا نخشى أن يصادروه. البعض منهم كانوا يلهبون بأنفسهم إلى الرباط لمقابلة جدي كي يحضروا لنا البريد والأدوية، بما فيها الموغادون لمي، وبعض المال الذي يساعدنا على تحسين ظروف معيشتنا.

كل خمسة عشر يوماً، عندما كان الحراس يفتحون الباب كي يزودونا بالمواد التموينية، كنت أسارع أنا وروؤف للمكوث في الساحة علناً نتمكن من إلقاء نظرة على المنظر خارج حدود السور. عندما اقتادونا إلى هذا الحصن، كان الوقت ليلاً، لم تكن نعرف أي شيء عن المكان الذي كنا نحتجز فيه. والأسوار العالية التي تحيط بنا كانت تحجب عن أعيننا الرؤية.

في كل مرة يفتح فيها الباب، كان هنالك رجل صغير، منظره مضحك، يحاول أن يبعث لنا برسالة ما بنظرة من عينيه. كان شكله الخارجي غريباً، بلحيته، وشعره الطويل، ونظراته النفاذة والمركزة كما لو أنه كان يتعاطى المخدر، مما ذكرني براسبوتين، ولكن بحجم صغير. لم نعرف أبداً ماذا كان يريد، وكنا نجده غريب الأطوار. في صباح أحد الأيام، دخل أحد رجال الشرطة، والمح لنا بتكتم شديد أن علينا استدعاء ممرض. ثم أشار بعينه نحو من أسميته راسبوتين الصغير بدافع الحذر، نظاهرنا أننا لم نفهم شيئاً. لاحقاً، وتحت وطأة إلحاح ذلك الصامت الملتحي، قررنا استدعاءه للدخول.

إنه من أبناء قرية جدي لامي، كان غيوراً، وذا مروءة ككل البرابرة، ولم يكن ينشد إلا مساعدتنا. في الليلة التي أعقبت لقائنا الأول، سمعنا جلبة مدوية، في ساحة الحصن. نزلنا بسرعة مذهلة، وجدنا

على الأرض كيساً من الطحين.

أرسل لنا راسبوتين إشارات ضوئية من فانوسه. بالكاد لمحنا وجهه، كان هنالك إلى جانبه أشخاص آخرون.

حتى تلك اللحظة، الحراس الذين كانوا يدللوننا، كانوا يفعلون هذا على دفعات: مرة لحم بفتاك، وأخرى علبه بيض، قليل من الطحين، وبعض السكاكر التي تكون غالباً قد عبرت من جيب إلى آخر.

بفضل راسبوتين، دخل التموين مرحلة جديدة، صار أشبه بسوق تموين، صار لدينا كيس طحين، كيس أرز، كيس سميد، كيس سكر، صفيحة زيت، مئة وخمسون بيضة....

كي يوصل إلينا كل تلك المواد التموينية، كان على راسبوتين والمتواطئين معه أن يحملوها من الواحة التي تقع في أسفل الحصن ثم يدخلوا بها إلى حيث الجزء المتهدم من الحصن، ومنه إلينا عبر حل طويل كانوا يربطونها به. وهم يتسلقون تلك الصخور كانوا يعرضون أنفسهم للمخاطر، لأن أي ضجة كانت كفيلة بلفت نظر أحد أفراد القوات المساعدة، الذين كانوا يراقبون كل منافذ ومداخل السجن ومحيطه.

كانت عملية تغريغ الحمولة، تستغرق مدة لا يستهان بها من الليل.

في آخر المطاف، كان المريض، يصحبه رجلان من الشرطة، يهبط إلينا عبر الطريق التي سلكتها إلينا أكياسه. كان هذان الشرطيان خجولين بعض الشيء، لكنهما كانا فخورين بهذه الفرصة التي أتاحت لهما فيها مصافحتنا. في كل مرة، كانوا يرفدوننا فيها بالإعاشة، وبالطبع في حال تسنى لهم ذلك، كنا نجلس وإياهم للحديث والنقاش حتى مطلع النهار.

كان هذا التواصل قيماً جداً لنا، وخصوصاً لأخي رؤوف الذي كان في حاجة ماسة إلى رفقة ذكورية. كنا نشرب الشاي، ونأكل الكاتو الذي أحضره لنا معهم. الصغار كانوا في حالة قصوى من البهجة والإثارة. كان عبد اللطيف يرفض الذهاب إلى النوم. ويشد نفسه إلي وهو يقاوم النعاس. حتى بالنسبة إليه، كانت هذه اللحظات مهمة جداً. كنا نتحدث عن شتى المواضيع، نمزح، وتبادل النكات، وآخر المستجدات العالمية، لكن راسبوتين كان لا يدع مناسبة تقوته ليذكرنا بحقيقة الواقع المرير. كان يقول لنا: لن نخرجوا أبداً من هنا، ضَعُوا جانِباً كل الأوهام الأخرى.

كنا، لسذاجتنا، نمّي النفس بالحصول على عفو ملكي قد يتم في يوم عيد العرش، أو في عيد ميلاد الحسن الثاني. بيد أنه حطم كل أحلامنا وحوّلها إلى سراب، باسم سياسة الاحتياط والتدبير التي كان يعتمد عليها.

أمي التي كانت لا تعبر أذنها لهذه المباحثات، كانت تسمى بكل ما أوتيت من قوة، إلى تهدة وخافنا وخنقها في مهدها، فتسارع إلى القول:

ـ ألا ترون أنه رجل مجنون؟ لا تتركوه يدبر رؤوسكم، يا صغاري، إنه ببساطة لا يعرف ماذا يقول.

صحيح، أن كل المظاهر توحى بأن راسبوتين ربما كان معنوياً، لكنه كان رجلاً شجاعاً، مستعداً للقيام بأي مساعدة. بعد شهرين كاملين على آخر زيارة له عشنا في جو من الأمل والترقب، بانتظار حلول موعد مناوبة الحراس، الذين كانوا سيحملون لنا معهم الرسائل، وراديو، وكتاباً أخرى، لأن ما أرسله جدي منها في المرة الأخيرة لم يكن كافياً.

أتى اليوم الموعد، رؤوف الذي كان على أحر من الجمر، تسلى السور المرتفع، واعتلى حافته، انضمت إليه، ورحت أراقب بألم العين وصول الشاحنة. عندما تقابل رجال الشرطة المقبلون مع زملائهم الذين كانوا متأهبين للرحيل، تصافحوا وتعاقدوا، ثم جرت بينهم عملية التسليم والتسليم. هللنا لمراى الصناديق التي لمحتاها في مؤخرة الشاحنة. ووعدنا أنفسنا بأيام مديدة من المطالعة، والموسيقى، والفرح.

لكزني رؤوف بكوعه وقال لي بصوت قلق:

ـ كيكّا، انظري، حصل شيء غير طبيعي. إنهم يتراكمون في كل الاتجاهات.

نظرت إلى المكان الذي أشار إليه بأصبعه، رأيت حشداً من الجنود، ورجال الشرطة في حالة من الاستنفار، فيما كان راسبوتين يتدفع راکضاً. لا شك أن أحداً ما وشى به... بعدما وقع الممرض في أيديهم، فتشوا أمّنته، وجدوا المال، والراديو، والكتب، وجهاز الستيريو، صادروا كل ما كان بحوزته، ما عدا الرسائل التي كان قد تمكن من إخفائها جيداً.

بعد مرور ثمان وأربعين ساعة على فرط عقد شبكتنا، وصل اليوسفي، المقدم في جهاز المخابرات، يرافقه ثلاثة من رجال الشرطة. كنا نعرفه من قبل، فهو الذي استجوب أمي بعد موت أبي.

بعدما فتشوا كل مكان، وضعوا على طاولة صغيرة آلة كاتبة وفتحوا ملفاً وبدأ التحقيق، وراحوا يستجوبوننا بلا هوادة. استغرق الأمر طوال النهار. بعد طول لف ودوران أعلمونا بأن الممرض اعترف لهم بأننا نحيك مؤامرة للقيام بعمل هدام.

بذكاء، ادعى راسبوتين تورط جميع الحراس بتسهيل مهمته. وهكذا لم يعد بإمكانهم معاقبة أحد بعينه. وتابع بأنهم ساعدونا لأسباب سياسية وإنسانية في آن معاً. وقال:

-نصبر فثنا كما يتصرف أي رب عائلة مع أولاده. أي شخص آخر كان سيفعل الأمر نفسه.

كانت النتيجة اعتقال كل رجال الشرطة، ليعودوا لاحقاً ويخلوا سبيلهم. أما في الحصن، فكان علينا أن نعاني الأمرين عقاباً لنا على ذلك. فقد وصل الفريق الجديد من المخازنية الذي أرسلوه للقيام بمهمة وضعنا تحت المراقبة المشددة، والتي شملت التفتيش، والمداومة، ومضاعفة الحراسة، ومنع البريد والكتب، وقطع أي اتصال لنا مع عائلتنا.

فرضوا علينا سياسة تقشير، وصاروا يقطرون لنا المواد الغذائية بالقطارة. لحسن الحظ أن أجسامنا في فترة الدلال الماضية قد خزنت بعض الاحتياطي، لأن ما نحصل عليه ما كان ليسد رمقتنا. وبالرغم من ذلك، استمررتنا في الصمود والتصدي.

المقاومة

ثارت ثائرتنا من هذه الظروف الجديدة التي تحيط بنا. ولكن ماذا نفعل؟ كنا في حالة من العجز، والعزلة، والخضوع التام للإرادة الملكية النافذة.

في ليلة من ليالي السهاد واليأس، خرجت إلى الساحة لأخفف حدة هذا البركان الذي يتأجج في صدري. ولأول مرة منذ زمن بعيد بدأت أبكي. ورحت أقتش من بين دموعي عن جواب، وأنطلق بتساؤل وحيرة نحو السماء التي كانت تلتصع فيها النجوم المضيئة. كان الليل يسدل عباءته السوداء الحالكة، ويخفي بها بقوة وجه الكون. جاؤيني الصمت والسكون، لا أحد يسمع همس استغاثاتي وتوسلاتي. حتى الله لم يستجب لنا عندما نادينا مراراً وتكراراً كي ينقذنا ويخلصنا من هذا الموت البطيء. لقد دفنونا أحياء، هكذا سنهلك ونهترى دون أن يتمكن أحد من إنقاذنا. أردت أن أصرخ بأعلى صوتي، لكنني خفت على الأطفال الصغار من نفسي. حبي لهم، وخوفي عليهم، يتصران في كل

مرة أكاد أخرج فيها عن طوري، وأطلق لثاثيري العنان.

في صباح عيد ميلادي الثالث والعشرين، استيقظت باكراً، جلست على كرسي، كنت بمفردي والجميع نيام، غصت في تفكير عميق حول حياتي، وعمري الذي يضيع، وشبابي الذي تذوي شعلته، استغرقت في هذه اللجج المتلاطمة من الأفكار ساعات منهكات.

تمنعت ملياً، بعين الرضا، كيف خط الزمن بريشته الساحرة فوق صفحات وجهي وجسدي. كان شعري طويلاً مسترسلاً يصل إلى آخر ظهري. كان يكفي أن أنظر في مرآتا الكبيرة، التي ما زلنا نمتلكها، وأضبط الحراس وهم يتأملوني، كي أعرف أنني كنت جميلة، وأنتي كنت واثقة بأنهم من حسن نواياهم يكونون لي عاطفة أبوية خالصة. كان جسدي الغضّ يتفجر أنوثة وإغراء، وكان وجهي فتياً وناعماً. كنت أعرف أن هذا سينبل ويتلاشى بلا عودة خلف أسوار هذه المقبرة الجماعية. وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء كانت ضرباً من المستحيل. ولماذا الحسرة والأسف، كيف سأحب؟ ومن هذا الذي سيحيني؟ فليرحل ربيع العمر عني... لا أبالي!

لم تكن أمي في كل حياتها جميلة كما كانت الآن. غالباً ما كنت أتلهى عن العمل الذي أقوم به كي أمتع أنظاري بها. يا للخسارة، كم كان أبي سيفرح ويسر بمرآها! الفتاتان الصغيرتان، كبرتتا بلا طفولة، وصارتا في عمر النساء. من يرذلها طفولتها المغتصبة؟ من يعوضها كل ما فاتها؟

ماذا أقول عن رؤوف الذي حرم من كف أبيه قبل أن يشتد ساعده؟ وعبد اللطيف المحروم من كل شيء! هذا الصغير الذي تفتحت عيناه على حياة التيه والشنات؟ وحليمة وعاشورا اللتان دفعهما وفاؤهما وإخلاصهما إلى ملازمتنا كظلنا! كنت أحمل أوجاعهم جميعاً في قلبي، وأصلي من أجلهم ولا أطيق رؤيتهم يعانون ويتألمون. بعد أن كنت في حداد على أبي، صرت في حداد على حياتي وحياتهم. الحرية زائد الأمل تساوي الحياة، العبودية زائد اليأس تساوي الفراغ والعدم. في غمرة حزني كنت أسمع صوتاً خفياً يمس لي: انهضي، واخلمي ثوب اليأس عنك... ما زال أمامك درب شائك وطويل من المقاومة والتحدي. وهذا ما كان يعيد دائماً النشاط إلى شجاعتي المتهاكة.

رفعنا عريضة إلى الملك وقّعناها بدمنا. سلموها إلى أمر المعسكر، الذي رفعها بدوره إلى رؤسائه. بساذجة، وريثاً بصبيانية، كانت هذه الرسائل تستصرخ الشهامة الملكية والمروءة الملكية. كتبنا له أنه لا

يليق به أن يسمع بتعذيب امرأة وأطفالها. وكأننا كنا نخشى أن تكون إجابته بمستوى عريضتنا. أنا وأمي، ورؤوف، وميمي بدأنا تنفيذ إضراب عن الطعام، في عز الشتاء. كانت الأرض والجدران مغطاة بالجليد. لازمنا أسرّتنا، ورحنا نتكوّر تحت أغطيتنا الهزيلة نلتمس تحت طياتها بعضاً من الحرارة والدفء.

في البداية، كنا نمتلئ حماسة وجدية، ولم تكن نشعر بالضعف والوهن. ثم لم تلبث أن انتصرت غريزة الطبيعة، عدنا إلى تناول الطعام خفية عن أعين الحراس. في إحدى حقايب أُمي، الموجودة في ركن معزول مع سائر أمتعتنا، كنا نحفظ بقطع خبز، بعد أن كنا قد وضعناها تحت الشمس، كي تلين وتصبح طرية. كنا نسمي هذه العملية بالجلسة البرونزية.

كنت أنظف قطع الخبز بفرشاة أحذية كي أنزع عنها العفونة، ومن ثم أدور بها على المضربين من سرير لآخر. كذلك كنا نمتلك ذخيرة من الحمص، كنا نضيفها إلى قائمة طعامنا السرية. وكانت وجباتنا تتوزع على الأطباق التالية: طاجين بالحمص، حساء الحمص، مقبلات من الحمص. هذا التموين الهزيل سمح لنا بالصمود، ويأن نعيد الطعام القليل إلى السجانين.

ولكن سرعان ما تراجينا، فالوعد بالحصول على كيلو زبدة أثار شهيتنا للكرب والكاثو ووضع حداً لإضرابنا. على أي حال، هذا الإضراب لم يلق صدقاً عند أحد. فلا أحديهم لمصيرنا، لذلك لم يحقق أي نتيجة مرجوة.

ومع هذا، كان يجب أن نتابع تمردنا. عقدنا النية على فكرة الحرب. قبل فترة وجيزة من إضرابنا، عشر رؤوف، الذي كان من عادته أن ينقب في كل مكان، على نافذة في الغرفة الصغيرة حيث كنا نضع أمتعتنا، كانت مغطاة بالطين. وكان هو يتحرق فضولاً ليعرف إلى أين تغضي هذه النافذة. لذا عمد إلى إزالة جزء من الطين، ليكتشف صحة ظنه. كانت هناك نافذة حديدية سرعان ما قُبضت.

كان المشهد الطبيعى رائعاً، أثار حلقة الغرفة. وأخيراً صار بإمكاننا الاستمتاع بالنظر إلى السماء. عبر الفتحة رأينا واحة تقع على بعد خطوات فقط. كان يتأهى إلى أسماعنا عبرها نجيب الغربان، وهديل الترغل، وأصوات الرعاة الصغار وهم ينادون على قطعانهم، بالإضافة إلى خرير المياه.

كنا نشراحم وتسابق كي تتمكن من أخذ دور لمتيح أنظارنا بالمشاهد الجميلة والساحرة التي كانت تنكشف من خلالها. وأخيراً، عدنا نسرّح أعيتنا في الأفق الواسع والرحب، ونستنشق ملء

صدورنا الهواء النقي المنعش. كنا قد نسينا هذه المتع التي لم نعرف قيمتها إلا عندما حرّمونا منها. أعدنا إغلاق النافذة إغلاقاً غير محكم بحيث نستطيع فتحها مجدداً عندما نريد. من حين لآخر، وكلما أحسّ أحدنا بالكآبة، يجلس مقابل هذه النافذة، يشاهد منها طلوع النهار، أو مغيب الشمس. وكان فصل الربيع يكسب الواحة رونقاً وجمالاً. إذن لم يتغير شيء البتة. ما زالت الطبيعة تخضع لدورة الفصول.

كانت ماريا وسكينة أكثر من يتردد على ذلك المكان. كانتا تتابعان بشغف شديد أدق التفاصيل. ولا تطبيقاً أن يفوتهما منها شيء. كم كنت أتألم وأشعر بالغصة، عندما أجدهما قابعتين هناك، وهما تلصقان وجهيهما الحزينين بقضبان الشباك الحديدي.

من الصعب بمكان رؤية طفل جائع أو مكتئب. إنه منظر فظيع تقشعر له الأبدان. عندما قررنا الحرب، أول فكرة طرأت لنا هي أن نوسع فتحة هذا الشباك. لكن الحراس تنبهوا للأصوات التي كنا نحدثها بينما كنا نجمع الردم ونقله لإلقائه في فجوة الحمام البالغة من العمق خمسة أمتار. الجلبة كانت مدوية، محادف الحراس إلى المداهمة والتفتيش. بقدرة خفية، كنا قد نجحنا في إزالة كل الآثار وإخفائها قبل اقتحامهم. لم يعثروا على شيء. هذه الحادثة كانت بمثابة إنذار لنا بضرورة توخي مزيد من الحيلة والحذر.

كان يجب علينا تغيير وجهة خطتنا. المطبخ الذي كان ترابياً، بدا لنا أنه المكان الأمثل. أخذ كل منا، أنا ورؤوف، ملعقة بيده، ورحنا نحضر بهما الحائط الذي يرتفع عشرين مستمتراً عن الأرض، لم يكن بحوزتنا أدوات أخرى، وكنا نريد أن نفتح ممراً في الحائط. في زهاء أقل من عشر دقائق على يده الحفر تساقطت كمية كبيرة من التراب، لكن كان علينا أن نتحاشى انهيار الأحجار.

خلال بعد ظهر يوم واحد، أحدثنا ثغرة تكفي للتسلل. زحفت أرضاً إلى داخل هذا النفق، وجدت نفسي أمام فتحة، حاولت أن أوغل في التقدم، وإذ بي أشعر بشيء ما يمس فخذي، انتفضت مذعورة، ورحت أصرخ، ولؤلؤل:

- رؤوف، هذا وكر للجرذانه كيف لي أن أتقدم؟

- كيككا، أصغني إليّ جيداً، ألا تريدنا أن نهرب من هذا المكان الملعون؟ إنها فرصتنا الوحيدة! هيا

تعقلي، وتسلّحي بالشجاعة، وتقدمي... هيا بعض الشجاعة تكفي...

لكثرة ما ألتح رؤوف واستحلفني، أطعته لا شعورياً. بها أنه كان لا مناص من هذا فلا أقدم... كي
نتقدم...

شرعنا بإزالة الأحجار. كان عملاً خطيراً وشاقاً. كنا نحمل الردم الثقيل بأن شديد غخافة أن يقع
منه شيء ما أرضاً، ويشير انتباه الحراس. ها نحن أخيراً نحصد ثمرة مثابرتنا وإصرارنا. من بين الركام
نجدنا بالعبور من الفجوة إلى الجهة الأخرى. ما أروع الشعور بالحرية.

كنا نترنح تعباً من وطأة السماء والهواء. مشينا بصمت دون أن ننس بكلمة، كنا نتخاطب بلغة
العيون والإيماءات. منذ ثلاث سنوات ونحن نعيش في الفراغ والسكون، كادت تلك تكون آخر نزهة
نقوم بها. على حين غرة انهار أرضاً عمود حجرى، على بعد عشرات متراً. أحدث سقوطه دوياً مفرعاً.
بالكاد كان معنا الوقت الكافي كي نتخفى كدمج البرق جانباً.

كان يلزمنا عدة دقائق كي نستعيد أنفاسنا المخطوفة من أثر تلك الصدمة المريعة. كان بوسع هذا
العمود الحجري أن يقضي علينا بالكامل. تلاقى نظراتنا أنا ورؤوف. كنا نفكر في نفس الأمر. ما هذه
القدرة العلوية التي أتقذتنا من موت محتم؟ دون الحاجة إلى النقاش فهمنا أنا وأخي، أن علينا وضع
خطة دقيقة للهرب تشبه تماماً عمليات الكوماندوس. في كل مرة يهرب اثنان، أما هرب الجميع دفعة
واحدة فهذا أمر محفوف بالمخاطر.

خلال ساعتين، مكثنا في الخارج كي نحلل، ونقيّم، ونجري كشفاً دقيقاً لخطواتنا. بعدها تسلقنا
صعوداً إلى طابق الحصن الأخير، ونحن نحاذر الصخور التي قد تنهار علينا في أي لحظة.
في الأسفل، كان بعض الحراس يستشقون الهواء الطلق في الواحة. كان يمكننا بسهولة سماع
صدى ضحكاتهم. استكشفنا من مكاننا الموقع، فهناك أشجار اللوز، والأعشاب الكبيرة، والأرض
الحمرراء.

ثم لفت رؤوف انتباهي إلى خط صغير يبعد عن الواحة قليلاً.
هل ترى؟... هنالك جدول يحيط بالحصن... عبره نستطيع الوصول إلى ورزازات.
على مضض رجعنا على أعقابنا. كان لا بد من إقناع الآخرين بالموافقة على السير في خطتنا
المدروسة.

تممس الصغار، وهللوا لكل حرف وكلمة، يريدون البدء بالتنفيذ فوراً. كان الشك يرتسم جلياً

على وجه أمي. بصمت مطبق، وبدون تعليق اكتفت بالاستماع إلينا.

حاولنا إقناعها، وعقدنا شراشف فرشنا ببعضها البعض.

شرحنا لأمي أن حبلاً طويلاً من الشراشف سيوصلنا إلى أسفل الجهة المقابلة للدور. كان الارتفاع يبلغ حوالي عشرين متراً. عندما أريناها المكان المقصود. رفضت بحدة وجزم قائلة إنها لا تريد أن تدعنا نخاطر بأنفسنا. لم تفلح كل الجهود التي بذلناها في دفعها إلى تغيير رأيها. قالت لنا:

- لا أهتم على فكرة الهرب، ابحثوا عن وسيلة أخرى، أقل خطورة، لا أريد أن أخسر كم...
بعدما فكرت قليلاً، تهلل وجهها وأضاء. لا شك أن هنالك باباً في الحصن يقضي إلى الواحة. يكفي أن تعثروا عليه، وتزيلوا الجدار الذي يغطيه، ساعدت يمكننا أن نهرب منه.
بحثنا عن الباب بين الأعمدة المتهدمة والمنهارة، وكتل الصخور.

وأنا على عجلة من أمري، تعثرت بحافة ماء، ولولا حذمي، ولهامي وبالطبع ملاكمي الحارس، لكنت هويت في الفراغ، وانتهيت في الهاوية. عندما استدرت، كانت أمي شاحبة اللون كالأموات.
حتى اليوم، ما زال طيف تلك الحادثة يحتل مكاناً في ذكرياتنا المخيفة والمرعبة. لقد انتبطت في ذهني إلى الأبد نظرة الملح التي احتلت وجه أمي.
مدفوعة بإلهام سري، طلبت من أمي فجأة أن تساعدنا لإزاحة صخرة كبيرة من مكانها. الباب الذي أضنانا البحث عنه كان موجوداً خلفها. لم يعد هنالك داع لأن نجازف بحياتنا كي يتاح لنا الهروب من هنا.

قبل مجيء اليوم الموعود، كان علينا أن نتمرّن على التجلّد والصبر. ثلاث مرات أسبوعياً، كنا نخرج أنا ورؤوف ظهراً، في الساعة التي تكون فيها الشمس في أوجها. كل واحد منا يحمل كيساً ثقيلاً على ظهره، ونروح نمشي في الباحة قرابة أربع ساعات.

كل خططنا ومشاريعنا ذهبت سدى. كان في حوزتنا بعض المال القليل الذي تبقى لنا مما كان يرسله جدي. بعد أن نجتاز الواحة سنستقل الباص باتجاه ورزازات. يلزمنا في رحلتنا بعض المواد الغذائية. ليس لدينا بطاقات هوية. لكنني وجدلت بين أوراقتي دفتر التلقيح لصديق مغربي تعرفت عليه عندما كنت في فرنسا. أعطيت لرؤوف كي يستعمله، وحفظت في رأسي جيداً اسم شقيقته في حال تم توقيفنا. كل هذه الأفكار كانت خرقاء وصبيانية. كان يوجد بين كتبنا واحد لا نعيّره أي اهتمام، لأنه يدور

حول موضوع السحر، والتنجيم، وعلم الأبراج. بالصدفة، وقعت أُمي عليه، وبعد ما تصفحته ملياً، قررت تطبيق بعض الوصفات وأعمال السحر على نية تسهيل عملية هروبا.

صنعت لعبة من شمع، وخزمتها بالإبر، وهمست ببعض التلاوات الغامضة التي من شأنها مساعدتنا في تحقيق مبتغانا. ضحكنا حتى انهمرت دموعنا. نعتناها بالساحرة، أما هي التي لم تكن تؤمن طوال حياتها بكل هذه الشعوذات، فقد بدت منسجمة في حالة من التركيز الشديد. لا عجب، فالموجوع يتعلق بحبال من هواء.

في اليوم المقرر للهرب، بينما كنت أنا ورؤوف في الخارج لإجراء مراجعة شاملة ونهائية، وإذ بإحدى الفتيات تهرع باتجاهنا وتحتف بجزع: عودوا بسرعة، إنهم هنا، يريدون مقابلة أُمي.

وصلنا كالريح، بأنفاسنا المقطوعة، وبمظهر أشعث يغطيه الغبار. أعلمنا رجال الشرطة بأننا سنفادر تامناغت. صبينا جام غضبنا وكتبنا على أُمي. ورحنا نضاعف من سخريتنا إزاء ما كانت قد قامت به مؤخراً من أعمال سحرية أعطت على ما يبدو نتائج عكسية، وعتناها بأنها ساحرة «الرزايا والبلايا».

ردت بسخرية وألم:

- كنتم تودون الانتقال من هنا؟ أليس كذلك؟ ها قد تحقق لكم ما أردتم.

كان الصغار مسرورين بالرحيل. مضت أربع سنوات ونصف على تاريخ احتجازنا. قضينا أكثر من ثلاث سنوات منها هنا، في هذا الحصن المهدم. عبد اللطيف الذي ولد في شباط / فبراير، سيحتفل عما قريب ببلوغه سن السابعة. الفتاتان كانتا في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة. ورؤوف في التاسعة عشرة. أما مريم فكانت في العشرين، وأنا في الثالثة والعشرين، وأُمي بالكاد بلغت الأربعين. كانت الصغيراتان متحمستين، كنت أنا متعبية، وخائفة وقلقة، توقعت أن يكون ما نحن مقبلون عليه أسوأ مما نحن فيه.

بالطبع، لم يخبرونا ألبته عن وجهة سيرنا، لكنهم تركونا نمشي النفس بالأوهام. نعتقد بأن ظروف حياتنا ستتغير نحو الأفضل. توهمنا أنها كانت رداً على عريضتنا... نعم... وبأن الملك أخذته الرأفة بنا أخيراً، وأن معاملتهم لنا ستلين وستحسن، وبأنهم سيطلقون سراحنا، وبأن غداً ربما كان يوم الحرية، بدليل أنهم طلبوا منا للمة أغراضنا الشخصية فقط، وترك الفرش والأغطية... كل ما تعود ملكيته

للدولة. من المؤكد أن ملف قضينا سيتم إخلاقه إلى الأبد...

استوحينا هذا من تصرفاتهم، مع أنهم كانوا متكئين جداً. ولكن لماذا كل هذا الغموض؟ بلا شك، لكي تتم عملية الانتقال بدون مشاكل، وأن نتجاوب معهم بإرادتنا ورضانا. كنا نشعر بمزيج من الخوف والأمل. كم كنت محظوظة، عندما احتفظت بالراديو الصغير في جعبتي لأن حذمي كان صائباً وفي مكانه.

كأنت لبي قناعه راسخة بأن هنالك حدوداً لكل شيء في حياة الإنسان، يا في ذلك المعاناة والألم. لكنني في بير جديد تبين لي أنني كنت مخطئة...

سجن الأشغال الشاقة في بير جديد (٢٦ شباط / فبراير ١٩٧٧-١٩ نيسان / أبريل ١٩٨٧) البداية السيئة

ها هي حقائبنا ملقاة أرضاً في الباحة. يسيطر علينا جو من الترقب والانتظار. لم تكن نريد ترك تامناغ بدون اصطحاب حماماتنا النفيسة، التي أخذت نحوم فوق رؤوسنا، وتتجمع حولنا، تصفق بجناحيها وتطير، وهديلها الجزل يصم الأذان. إنها لا تعرف أننا بعد لحظات وجيزة سنهجرها ونرحل.

ها هم الصغار يتراكمون في كل الاتجاهات في إثرها، عندما يتجحون بالإمساك بها كانوا يضعونها في سلال القش. ضحكات عبد اللطيف، وماريا، وسكينة تجلجل مدوية. يخالون أنفسهم على موعد مع رحلة للعب والتسلية. بعكسنا نحن الكبار، شعور القلق والخوف ما زال يستوطن نفوسنا. دقت ساعة الصفر، حاملة معها رياح الإرهاب العاتية. رجال الشرطة يصرون على تفريقنا، وإجبارنا على الصعود إلى عرباتهم المصفحة، كل اثنين في عربة على حدة. بفضاظة وعنجهية راحوا يدفعوننا بأعقاب بنادقهم إلى الأمام. ترفض أمي الإذعان لمشيتهم، تصر على بقائنا مجتمعين مع بعضها البعض. أخذت تتوح وتبكي، وتتوسل إليهم ألا يفعلوا بنا ذلك حتى تراجعوا عن غيهم. مما لا شك فيه أن خشيتهم من إحداث بلبلة وفضيحة هي التي دفعتهم إلى تعديل قرارهم. عدنا وتوزعنا على النحو التالي: صعدت أمي برفقة عبد اللطيف ورؤوف، مريم بمعية حليلة وعاشورا، وأنا والصغيرتان. كادوا يوقموننا أرضاً، وهم يدفعوننا للجلوس بسرعة. وضعنا أمام أقدامنا السلال

التي تحتوي الحمامات الثمينة. للأسف لم نستطع الإمساك بها جميعها. في المقعد المقابل يجلس جنديان من المخازنية، مع كل منهما بندقيته. حتى الأطفال لا يجرؤون ساكناً. تسمم الجو وتغير. بورو، الأمر الجديد للمعسكر، لم يكن أيضاً رقيق القلب. جاء ليحل محل زميله السابق منذ عدة أشهر. ومن يومها، تمت مضاعفة عدد عناصر المخازنية الذين يقومون بحراستا. هذه الإجراءات الجديدة وضعت تحسباً لأي عملية حرب قد تحصل بواسطة كتيبة مغاوير مبهمة تصل من الجزائر لهذه الغاية. أصبح هذا؟ أم إننا لم نستوعب الأمر جيداً؟ أليس لهذا السبب تم ترحيلنا من تامناغت؟

عبثاً نحاول الاستفسار والسؤال، لم يعطونا أي شرح أو توضيح كالعادة. كنا نأمل فقط ألا يتبعنا بورو إلى حيث يقتادوننا.

استغرقت الرحلة أربعاً وعشرين ساعة، كانت تزداد صعوبة ومشقة تدريجياً وباضطراد كلما أمعنا في السير. يراقبوننا بحدود توقف، ولا يبعدون أعينهم عنّا طرفة عين، حتى عندما نهبط من السيارة لأمر ما، يصطحبوننا بأنفسهم، ويقفون فوق أنوفنا ريثما تنتهي من قضاء حاجتنا كي يعيدونا. إنهم لا يتركوننا نسترد أنفاسنا.

إننا في شهر شباط/ فبراير. اغتيمت فرصة تباطؤ عجلات السيارة، ألصقت وجهي بزجاج النافذة، الأشرطة الملونة تزين الأشجار. من المؤكد أنها من ضمن التحضيرات التي تسبق عيد العرش، إنها تدل على أن الملك ما زال أقوى من أي وقت مضى.

أغوص في ذكرياتي وتأملاتي لحظات قليلة. في القصر، هذا العيد كان مصدر سعادة وغبطة، ونحن كنا فيه موضع غنج وتدليل. يتشكّلني من شرودي الواقع المرير، وكالمحمومة أروح أتلفت من حولي، أين نحن؟ وماذا نفعل هنا؟ الظلام الدامس يوقظ اللوعة والأحزان في قلبي.

تحت وطأة الإنهاك، والتعب، والبرد القارس، أحاول جاهدة أن أتفكس بعمق. الهواء مشبع بالرطوبة، أسمع تقيق الضفادع. أستعج أننا تركنا الصحراء، وصرنا بالقرب من الساحل. صحت تكهناقي وظنوني. ثكنة بير جديد، تقع على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً من الدار البيضاء. هذا ما عرفناه لاحقاً بعد مدة طويلة.

سيول الفياضانات قطعت الطريق، مما جعل مرور العربات المصفحة التي نقلنا مستحيلاً. إننا مجبرون على الميوط منها، والصعود في عربات لاند روفر. أبقونا موزعين إلى ثلاث مجموعات كما كنا.

غطوا أعيننا، لكن بينما كانوا يقومون بذلك تمكنا بلمح البصر من التقاط المشهد. إننا في منطقة زراعية تغطيها الحقول. وعلى مقربة منا مزرعة مسيجة بأسلاك حديدية شائكة ويعملوا برج مراقبة. ترى هل سيمون بنا هنا؟

لشدة شعوري بالبرد، أخذ جسدي يرتجف، وأسنانني تصطك، في غمرة الليل البهيم، كما يحصل عادة في المسرحيات والأفلام. فجأة سمعت صوت رجل، ينم عن الثقافة، والتميز، والإنسانية. سرعان ما اختلط صوته بصوت بورو وأصوات بعض المخازنية.

وإذ بالرجل يخرج من الظل. إنه الكولونيل بناني، المسؤول المشرف على عملية نقلنا من مسجن لأخر. إنه يقترب مني ويغمري بسترته، ويعرض عليّ السجائر التي أحضر لي منها علبتين. طفرت الدموع من عيني لكثرة ما تأثرت بنبل أخلاقه، وشهامته. ثم تابعنا طريقنا. قطعنا مسافة خمسمائة متر، قبل أن نتوقف القافلة أخيراً. عندها بدأت أسمع صوت هدير مولد كهربائي. ترى.... هل استجاب الملك للمريضة التي كنا قد رفعناها إليه؟

أدخلونا إلى أحد المنازل، كنا ما تزال معصوبي الأعين. أغلقوا الباب، ثم نزعوا المناديل التي كانت تحجب عنا الرؤية. المبنى صغير، ومشيد وفق التصميم الاستعماري من مادة الإسمنت. شكله الهندسي بشكل عام يشبه الحرف ال (L) كما يكتب بالفرنسية.

ندخل إليه عبر بوابة خشبية، تفتح على عمر طويل يؤدي إلى باحة صغيرة تتصب فيها خمس شجرات من التين، تقف كأنها من عناصر الحرس. وللمبنى أربعة أبواب، إنها زنازاتنا الأربع، ثلاث منها تتابع بخط مستقيم، أما الرابعة والأخيرة المخصصة لأمي فتفصلها زاوية قائمة عن الثلاث الأوائل.

في تجويف صغير يقع قريباً من أول خلية، ترتفع نخلتان ضخمتان، تتجمع أغصانها الوارفة كغيمة فوق المكان. الجدران التي تقبع بين جنباتها عالية ومسيكة، لا نرى من خلالها بضيق ضوء. إنها جدران مشتركة مع إحدى تكتات برج المراقبة. يحيط بالمكان العديد من المقاتلين والجنود المجهزين بكامل سلاحهم، لا نستطيع أن نأتي بأي حركة دون أن تلتقطها عين المراقب الشاخصة بأنفاسها.

أعلمونا بأنهم سيفرقوننا في البيت ليلاً. ويأبأن لنا الحق أن نرى بعضنا خلال النهار، وأن نتناول وجبات الطعام سوية، لكن في الليل يجب على كل واحد منا أن يعود إلى زنزانه. توزعنا على الشكل التالي:

أمي وعبد اللطيف، أنا وأخواتي الفتيات. عاشورا وحليمة. أما رؤوف فقد كان بمفرده.
نزل علينا هذا الخبر كالصاعقة، وأخذنا نجهش بالبكاء. استصرخت أمي ضماثرهم، ورجعهم،
وناشدتهم قائلة بأن ليس لهم الحق أن يفرقوا بينها وبين صغارها... وأضافت بأسى وانكار:
- أستطيع أن أتحمل كل شيء إلا هذا... إنه فوق طاقتي...
- سيدتي اعلمي أنني أشعر بالعار مما أقوم به.

قاطمها الكولونيل بناني ثم أضاف وهو يبدو في أقصى درجات التأثر والارتباك:
- هذه المهمة ستصمم حياتي بالعار إلى الأبد. لكنتي من سوء حظي العاثر تلقيت أوامر، وأنا مجبر
على تنفيذها.

هذه الزنزانات الغارقة في البؤس، لم تغير أي شيء في واقعنا المرير والبأس أيضاً. كنا قد اعتدنا
على الإتهاك والتعب، والاقساخ، لكننا هنا كنا في مكبٍ للغايات. كيفما استدرنا، أو لمنا، كان يصينا
رذاذ القذارات. الجدران مطلية باللون الرمادي، الرطوبة خائقة، الماء يرشح من السقف نزولاً حتى
الأرض. الضوء الكهربائي شحيح، يزودنا به مولد كهربائي، لا يعمل إلا ساعتين فقط في الليل. أما
الفرش الإسفنجية البالية فكانها ملتصقة بالأرض، ويغطيها شرشف لا داعي للحديث عن نظافته.
كل زنزانة تحتوي على عدة غرف صغيرة، ومقيفة تكاد لا تتسع لشخص واحد ذات سقف
تتكشف منه السماء، تغطي القضبان الحديدية والسبيكة والمشبكة. إنه مصدر الهواء النقي الوحيد
لدينا. تلك المخصصة لأمي نصل إليها بعد أن نتجاز ثلاث درجات. أما الرئيسية فهي مجهزة بحمام
وغرفة مهملات، علوها متر ونصف المتر عن الأرض، مشيدة في وسط ارتفاع الحائط، نصل إليها
بمساعدة سلم.

قديمًا، كان للزنزانة نافذة، تم إغلاقها، وتغطيتها بلوح بلاستيكي داكن اللون. واستطاع عبد
اللطيف الذي كان ما يزال صغيراً على التجلد والتحمل، أن يجد فيها متفناً له. فقد نجح في إحداث
ثقب في البلاستيك بواسطة سيخ اللحم المشوي، وألصق عينه به محاولاً اكتشاف ما يوجد خلفها
في الخارج.

في زاوية الباحة، تقع الزنزانة التي تقاسمتها مع أخواتي، بالإضافة إلى العلية المشبكة بقضبان
الحديد هنالك غرفة، فيها أربعة أسرة، يتسلل إليها ضوء خفيف من كوة في الحائط مغطاة بقطعة من

البلاستيك، وحمّام، وخزانة أودعنا فيها حقائبنا، وما يسمى «غرفة رياضة»، وزاوية مرحاض صغيرة مخصصة للاستحمام الذي نقوم به بواسطة بعض الأسطل المثلثة بالماء. نستخدم الماء الذي يزودتنا به للشرب وللاستحمام. عندما تتركه يسيل أرضاً، نستمتع بمشاهدته، بهذه الوسيلة نحاول خلق جو من المزاح، والمرح. بواسطة قضبان حديدية انتزعناها من الأسرة، نرسم بالماء خطوطاً وأشكالاً. ونسابق خط الماء الجاري على الأرض. عندما يحظرون علينا الخروج من زنزانتنا، نستخدم صفائح الماء بدلاً من المرأة.

تبتلع أمني أرضاً على بطنها، تفعل بدورنا مثلها. وهكذا فإن انعكاس صورنا يسمح لكل واحد منا رؤية ظل الآخر. خلال سنوات، كانت هذه طريقتنا الوحيدة للتواصل مع بعضنا البعض، بغير الصوت. كانت لحظات مؤثرة بشدة. كم كنا بحاجة أن نتعاطق، وتلامس. لكن الجدران والحواجز كانت تفرق ما بيننا.

زنزانة عاشورا وحليمة ملاصقة لنا. المرأتان تنامان في غرفة صغيرة جداً، مسقوفة بطبقتين من القضبان الحديدية المشبكة. بالقرب منها زنزانة رؤوف، الحمام فيها كناية عن ثقب محفور في الأرض، وتطل على الباحة المزروعة بأشجار التين. الإجراءات الأمنية أكثر تشدداً على أخي. للوصول إليه، يجب المرور بثلاثة أبواب.

جرت أول مداخلة في بداية شهر نيسان/ أبريل. بعد شهرين من وصولنا إلى بير جديد. أرادوا إرهابنا وترويعنا ليس إلّا. يدير هذا المعسكر بورو. إنه شخص عبوس، يفتقر إلى رهاقة الروح، خالٍ من أي ذرة إنسانية، يتلقى أوامره من الرباط وينفذها بحذافيرها كلمة كلمة. يصادر الأسطوانات، والكتب، والأجهزة... من حسن حظنا أننا اكتسبنا مهارة في ردة الفعل الخفية والسريرة.

فيما البعض يشغلون المخازنية يسارع أحدنا إلى الجهاز، ويمتص الحقة يسحب الأسطوانات ويخبئها بين فخله. المذياع الصغير أخفيناه عن أعينهم بنفس الطريقة، كذلك الكتب المدرسية، والشريط الكهربائي. خلال هذه الإحدى عشرة سنة من الكابوس المتواصل، وصلنا هذا المذياع الصغير بالعالم الخارجي. ربما بدوننا ما كنا لتتمكن من البقاء أحياء.

بعد عدة أيام مضت على تفتيش غرفنا، أتوا يحملون بأيديهم معاول، وأزالوا كل ما من شأنه أن يضيفي بعض الحياة على المكان مثل الأزهار، والأشجار.

كثاً، كل سنة، في ذكرى عيد ميلاد الملك، نرسل له بطاقة نطلب فيها العفو عنا. في شهر تموز/ يوليو، أرفقنا الرسالة ببعض الصور التي رسمتها بنفسي له، ولولده سيدي محمد، ومحمد الخامس. لم يتأخر شكره لنا طويلاً، إذ بعد مدة قصيرة، سجننا بورو وزمرته جميعاً في زنزانة رؤوف منذ الصباح وحتى حلول المساء. تناهى إلى أسباعتنا ضجيج حطام، وتكسير، وضربات مطرقة. عندما أخرجونا، صدمنا من حجم الأضرار التي أحدثوها. أخذوا كل ما تبقى لنا من بعض المقتنيات الزهيدة، والكتب المدرسية، وألعاب عبد اللطيف، والمواد التموينية، وكل ملابسنا تقريباً، ومصاغ أمي، وألبوم ضوري. ثم أضرّموا النار في كل هذه الأشياء التي جمعوها، وسمحوا لنا بالاشتراك في حضور المشهد، ما أحدث للصغار صدمة نفسية، أقوى من تلك التي أصابتهم عندما هجم بورو مرة على سكبنة يفتشها بعنف، بحثاً عن بطارية المنياع الصغير التي وجدها معها. أصيبت من شدة الصدمة بالحمى التي استمرت عشرة أيام وجعلتها طريحة الفراش.

في صباح اليوم التالي، عادوا مجدداً، أخرجونا إلى الباحة. كان بورو يذرع المكان ذهباً وإياباً، قال لنا إنه يعرف إلى أية درجة كان الصغار متعلقين بالحمائم. والحق أنها منذ سنوات تدعم معنوياتنا. وأضاف بأن هذه الحمائم إنما خلقت لتؤكل. لذلك كل يوم سيلبغ اثنتين منها. بالرغم من دموعنا وتوسلاتنا، نفذ كلامه، على مدى عدة أيام، كانوا يعودون كل صباح بائنتين مذبوحتين. قررنا تجنب عبد اللطيف هذا المشهد الفظيع، هذا الطفل الذي بلغ عامه السابع في ٢٧ شباط/ فبراير، نفدت قوته وتلاشت منذ اليوم الثاني لوصولنا إلى بير جديد.

بعد وقت قصير من مجيئنا، حاول الانتحار. كان يمتطي دراجته التي ما زال يحتفظ بها. راح يجري بها في الممر المحاذي لباحة شجر التين. كنت أتحدث مع أمي، عندما لمحته بطرف عيني وهو يقع أرضاً. اندفعنا باتجاهه، وصلنا إليه. كانت نظراته ساهمة، ولا يستطيع أن يقف. فجأة غاب في صبات عميق، أسنده رؤوف تحت إبطه فيها حاولت أنا أن أسقيه كوباً من سائل عشة الحنة المغلية.

بلغت المستيريا الجهازية مداها. راحت عاشورا وحليمة تنوحان، وتصرخان وتشدان شعرها. أعصاب الجميع متشنجة جداً. بالنسبة لأمي، كانت جامدة بلا حراك، كأنّ أحداً ما جردها من قوتها ومن لون وجهها الذي كان غائضاً بلا حياة. كانت لا تستطيع حتى الصراخ أو البكاء.

نجحت في استعادة كمية لا بأس بها من الأدوية التي ابتلعها، من فاليوم وموغادون، التي كانت

أمي تجبها في علبة صغيرة استعداداً لأي نوبة قد تصيب ميمي. إنها تحتفظ بها دائماً معها. لا تعرف كيف تمكنت من الحصول عليها. بعدما أخبروه بها حصل، جاء بورو، اقترب من سرير عبد اللطيف، حبه نائماً، هز كفيه بلامبالاة. لا يستطيع أن يفعل أي شيء بدون إذن الرباط.

— ماذا، إذا مات؟ قالت أمي وهي تجهش بالبكاء.

مرة ثانية اكتفى بهز كفيه قبل أن ينصرف.

كان عبد اللطيف قوي البنية. لذلك استيقظ دون أي أعراض جانبية.

التفسيرات التي قدمها لنا، أصابتنا في صميم قلوبنا. لقد ضاق ذرعاً بكل الماراة التي تتضح من محادثتنا وحر كاتنا وسكنا. لا شيء إلا الهم والغم، والخوف والقلق، والتوتر... منذ نعومة أظفاره لم يعرف عالماً آخر إلا الجدران، وقضبان السجن.

— الحل إذن هو أن أضج حداً لحياتي. هكذا فكر برأسه الصغير، ولكن بعقل ناضج، أنضجته المصائب.

إعتقد، لبراءته، أنه بموته سيخرجنا من هنا، ويضع خاتمة لمعاننا وأحزاننا. منذ ذلك اليوم قررنا تجنبه كل إزعاج قدر الإمكان. لم نعد نتحدث أمامه في أي موضوع يחדش مشاعره وإحساسه، ابتلعنا لوعتنا وألمنا، واخترعنا له عالماً من الأحلام، وجعلناه يعتقد بصحتها.

الجحيم

الخطوة الأولى التي اجتازنا بها بوابة الجحيم، صارت في طيات الماضي. منذ تلك اللحظة المشؤومة رحنا نتقدم، بلا حول ولا قوة، خلال إحدى عشرة سنة من مرحلة تعذيب إلى أخرى. صمد تماسكنا العائلي وتلاحقنا أمام هذه الولايات والتحديات. واتحادنا، ومحبتنا المتبادلة لا يعرفان حدوداً، في بير جديد فرقونا، وبغثرونا، وقضوا على أية خصوصية عائلية. فماذا بعد؟ لقد تجاوزوا ما كنا نعتبره خطاً أحمر.

في البداية، كان مسموحاً لنا بالخروج جميعاً مع بعضنا البعض إلى الباحة. عند الساعة الثامنة صباحاً، كانت تفتح الزنزانات أبوابها، مما يسمح لأحدنا بالتوجه فوراً لزيارة الآخر. معظم الأحيان، كان اجتماعنا يتم في زنزاتي. حرية التجول هذه استمرت عدة أشهر، لكنني أنا، ورؤوف، وأمي علمنا مسبقاً بأن العزل سيأتي عاجلاً أم آجلاً، لذلك لا بد من أن نتحضر نفسياً له.

وهكذا وقع ما كنا نخشاه في بداية سنة ١٩٧٨.

في ٣٠ كانون الثاني/يناير، يوم عيد ميلاد رؤوف العشرين، احتجزوه في زنزنته، وفرضوا عليه العزلة الكاملة. لم يعد له الحق بالخروج أو برؤيتنا. لاحقاً بعد عدة أيام أتى دورنا، بحجة أننا نجرأنا وطلبنا بزيادة عدد قوارير الغاز الصغيرة لأننا كدنا نموت من شدة البرد. نجت حليلة وعاشورا فقط من هذه الإجراءات التعسفية. سمحوا لهما بالخروج من الزنزانة مرة واحدة في النهار، وياتقاط الأوراق المتساقطة وتجميعها لتلقيم الكاتون بها طلباً للدفء.

بعدما فرقوا بيننا نهائياً، كان بإمكاننا الخروج إلى الباحة لاستنشاق بعض الهواء في أوقات مغلقة. نخرج أمني من الصباح وحتى الساعة العاشرة، ثم يأتي دورنا بعدها مباشرة.

خلالها كنت أُنسى تحت نافذة رؤوف الذي كان يطل عليّ من خلف القضبان، ونروح نثرثر في العموميات. كان يبتكر الحديث، وعنده حاجة ماسة للتعبير عن لواعجه، وأفكاره. لقد كان العزل خنجراً حاداً في خاصرته. محادثاتنا غالباً ما كانت تدور حول أبي، ورغبته بالتأثر له. كان مهووساً بهذه الفكرة. ولكن، سرعان ما لبثوا أن منعونا حتى من هذه الفسحات.

صرنا سجناء ليلاً نهاراً، أقاموا الحواجز بيننا، منعونا من أي اتصال، وأخذت معاملتهم تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، انتزعوا منا بصيص الضوء الأخير، حرمونا من تواصلنا ولقائنا العائلي، أصبحنا مجرد أرقام ليس إلّا. أضحت الزنزانة عالمنا النهائي المفروض ومقرنا الوحيد الإجباري. حتى مقاييس الزمن تغيرت، لم يعد هنالك أي قيمة للوقت. إنها مرحلة الفراغ والعدم.

كانت حملتهم الشمواء مركزة على رؤوف، وأمني، وعليّ. أرادوا تحطيمنا أولاً وكسر شوكتنا بالكامل. أمني لأنها زوجة الرجل الذي يكرهونه. أنا، لأنهم يعرفون تأثيري الكبير على أفراد العائلة في أمور الحل والربط. أما رؤوف، فلأنه ابن أبيه، وأنه ربما سيتقم له من جلاذيه. في أفهامهم فكرة واحدة، ألا وهي كيف يحولون بينه وبين ذلك. كان رؤوف أكثرنا معاناة واضطهاداً. لقد ذاق الأمرين.

صدر تعميم منع بموجبه الحراس والمخازنية من معاملتنا بأي رافة أو إنسانية. وأوعز إليهم باستخدام أكثر درجات التضييق والإرهاب. فكان أن مورست علينا سياسة القبضة الحديدية بأبشع صورها.

عشت حالة من الرعب اليومي، كنت أسوت خوفاً من أن يقتلوني أو يعذبوني جسدياً، أو ينتصبوني، أو أن يضاعفوا من إذلالهم وتمعتهم. كم كنت أشعر بالخزي والعار، لأنني تركت الخوف يتسلل إلى قلبي ويقهرني.

لم تعرض أبداً لأي اعتداء جسدي، باستثناء رؤوف الذي صَبَّوا عليه جام غضبهم وحقدهم. لقد تعرضت مرة واحدة إلى لكمة على وجهي لأنني نهرأت على تحدي أحد الضباط، مما أوقعني أرضاً، فارتطم رأسي بأرض المر الصلبة. كانت الصدمة عنيفة، هُرعت الفتيات إليّ وتدافعن نحوي، وهن في حالة من الهلع. للممت نفسي بسرعة كي لا أزيد من لوعتهن، ورحت أهدئ من روعهن مدعية أنني فقدت توازني فوقعت، وأني بخير ولم أصب بأذى. أخفيت عنهن الحقيقة المرة، ولكن ليس لوقت طويل، لأنني عدت ورويت لهن بنفسي ما حصل، لكنتي رجوتن ألا ينسن بينت شفة لأمي. كنت أشعر بالدله ولت نفسي كثيراً.

الرجل المرعب لم يكن هذه المرة بوروبل الكولونيل بن عيش... أحد ضباط الملك، وهو الذي قلب حياتنا في تامتاغت رأساً على عقب. كانت مهمته أن يجعل حياتنا جحيماً. فهو الذي أعطى الأمر بذيخ الحمايات، وهو الذي حرمانا من الغذاء. قادراً ما كنا نراه. كنا نعرف بقدمه عندما نسمع هدير الطائرة المروحية التي تحلق في السماء، أو من حركة المخازنية والحراس التي تصبح غير عادية. مع الأيام بدأ يتكشف تدريجياً بأننا كنا تحت رحمة مخطط إجرامي يستهدف تعذيبنا والإجهاد علينا. لم تكن سجناء فحسب. الأمر أبعد من ذلك، لأن المطلوب هو تزييفنا من محتوانا، وتحويلنا إلى أشكال بشرية شوهاء. لكن عروقنا ظلت نابضة، فبالرغم من أننا كنا الضحية، إلّا أننا لم نتسلم أبداً، وحاولنا قلب الطاولة على جلادين بوسائل بدائية فطرية زودنا بها رب السماء. غريزة البقاء كانت في أوجها، وعملنا أفكاراً وفنوناً، كي نصمد، ونستمر.

حاولنا أن نستخدم معهم فن المناورة والمراوغة، لكن لم يكن النجاح حليفنا دائماً. مع بن عيش كان الأمر مستحيلاً، ومع بوروبل كان صعباً إلى حد ما، إذ لا شيء يردعه. كان ينفذ الأوامر كرجل آلي، فلو طلب منه قتلنا بالسلاح الأبيض لفعل دون تردد أو إبطاء. لكن المخازنية، وإن كانوا قساة القلب، مجردين من إنسانيتهم، إلّا أنهم كانوا أغبياء، ومن السهل زعزعتهم. وفي مطلق الأحوال، كانت المقاومة هي خيارنا النهائي والوحيد، ولا بد منها.

مرة واحدة كل شهر، كانوا يزودونا بحمل من الحطب للمطبخ. بعد فتح الباب المصفتح، كانوا ينادونني بخشونة، وبأعلى صوته، مما يبعث الرعب في قلبي. أتحرك باتجاههم، وأقف عند عتبة الباب، لم يكن لي الحق باجتيازه. عندها أروح أرفرف بعيني، يبهمني الضوء المتسلل من فتحة الباب. أنخطأ بعد أن يبعثوا أرضاً قطع الحطب، كانوا يأمروني بملمتها وتجميعها.

في البداية، كان الحطب عبارة عن غصون طويلة، تبلغ زهاء متر ونصف المتر. بلا اكتراث، كنت أتباطأ في فرزها، وأعطي الأكثر طولاً منها إلى الفتيات. اقترح علينا رؤوف الاحتفاظ بها، وتخبئها جيداً في تجهيف موجود في مكان مرتفع من الحائط داخل زنزانتنا، تحسباً لعملية هروب محتملة.

إنها تصلح كدعامات في تشييد نفق. بعد ثلاثة أشهر من ذلك، توقف الحراس عن تزويدنا إلا بقطع الحطب الصغيرة. يبدو أنهم تكهنوا بما يدور في رؤوسنا.

أطلقنا على أضخم عملية في مقاومتنا تسمية «الإعداد والتجهيز»، تلك العملية أدت إلى كسر الطوق الذي كان محكماً من حولنا، فقد أزلنا بعض الحواجز الأساسية التي كانت تعيق حركة التواصل بيتنا وتمنعها، إذ نجح رؤوف بتزج بلاطة من تحت سرير بمساعدة ملعقة وسكين. حيث أخفى داخلها، مذياعنا «المتقل، المخلص»، بعد ما غلفه بمنديل قديم، لحمايته من الرطوبة. في الليل، كان يخرج، ليستعين به على وحدته المدمرة. ثم راودته فكرة أن يستخدم الميكروفونات وشرط المسجل الكهربائي لتمديد شبكة توصل من زنزانة لأخرى.

لجأنا إلى استعمال قضبان السريير المعدنية بدل الموصل، كل ليلة كنت والفتيات تنزع قضبان أسرتنا ونربطها ببعضها البعض بشكل مستقيم بهدف مذهبها عبر ثغرات موجودة في الجدران. كان من المفترض أن يمتد خط القضبان من زنزانتنا ليصل إلى زنزانة حليمة وعاشورا، ولكن للأسف كان الطول غير كافٍ وبالكاد وصل إلى نصف المسافة المطلوبة.

وجد رؤوف حلاً يقضي بوصله بشرائط مكبرات الصوت الكهربائي، ومن ثم بالميكروفون الذي يمتلكه. فعلت الشيء نفسه من جهتي. أدوات الوصل كانت كناية عن أشرطة رفيعة من الفولاذ، حصلت عليها من الطبقة الثانية من التشبيك الذي كان يمر من فوق باب زنزانتنا المصفتح. ثم كنا نلفها حول السالب والموجب لميكروفوناتنا. أثناء البث، غالباً ما كان يجب تبديل الأشرطة الحديدية التي كانت تنقطع، ما عدا ذلك، كان الصوت ينبعث إلى حد ما بوضوح.

عندما يبدأ برنامج إذاعي يشير اتهام رؤوف، كان يعاجل وصل الميكروفونات بالكهرباء، كي يصل صوت البث الإذاعي إلى أسماعنا. أمي وعبد اللطيف صارا أيضاً يستغيان من الأمر. كنت أستمع بطرف أنبوب ماء كنت قد نشلت من الباحة، مستغلة تحول أنظار الحراس عني. أنجزت به خط «تلفون» كان يخترق الحائط المشترك بيننا. خلال النهار كنت أخفيه في سرير ميمي. كان الحراس لا يتجرؤون على الاقتراب منها، وتفتيشه، بسبب نوبات الصرع التي كانت تتابها مما كان يرهب هذه النفوس المريضة. كانوا يعتقدون أن الجن يتلبسها.

بواسطة هذه الوسائل الشحيحة والبدائية، ولكن الفاعلة، تمكنا من التواصل مع بعضنا البعض طوال الليالي. كان الأثر سحرياً عندما كانت أصوات جوزيه آرثير أو غونزاغ سان-بري تخترق الجدران، وترافقنا في وحدتنا، وكأنهم يجلسون إلى جانبنا. كم كنا نستمتع بذلك. لاحقاً، صرت كل ليلة أسرد لهم حكاية بواسطة الوسيلة نفسها.

لقد قمت بتطوير الاختراع على الوجه التالي: تخليت عن قضبان الأسرة، فهي ثقيلة الوزن، ومن الصعب التحكم بها. استعضت عنها برصاصات ابتزعتها من حقائبنا، دون أن أغير شيئاً في المبدأ المتبع.

في المساء، ما إن يدير الحراس المحرك الكهربائي، حتى كنا نستغل الضوضاء كي نقوم بالتمديدات. نخرج القضبان، ونمررها من زنزانة لأخرى. خفف نظام الاتصال الذي اخترعناه من وطأة الكابوس الذي كان يحشم فوق صدورنا. لن يكتشفوه أبداً، لأننا كنا دائماً نخبىء الميكروفونات بين أفخافنا.

في النهاية، لم يبق منها إلا واحد، لم تتلفه الرطوبة، وكنت أحفظ به في جوزي. كان بمثابة طوق نجاة لأخي رؤوف، وصلتنا الوحيدة. حفاة الأقدام، بأثواب رثة، كنا نرتعد من شدة البرد شتاء، ونختنق من حدة الحر صيفاً. لم يعد لدينا ممرضة، ولا أدوية، انتزعوا منا الساعات، والكتب، والأقلام، والأشرطة، وألعاب الصغار. كان لا بد لنا من الاستجداء والتسول، كي ننال بركات وحسنات السجانين. كنا نستخدم، بحرص شديد، قلماً وحيداً لا نملك غيره ونوفره للحالات الطارئة. كذلك كنا نستهلك البطاريات بحيث كانت نخدمنا عدة أشهر، نجحتنا بالحصول عليها بواسطة رجل كبير السن، كان يعرف أحد أهمامي الذي كان وجيهاً في منطقته.

أوقاتاً كان يقسمها الحراس. كانوا يدخلون إلى زنزاناتنا ثلاث مرات يومياً، عند الصباح يحضرون

لنا وجبة الطعام، وعند الظهر يحضرون لنا الحيز. حوالى الساعة الثامنة والنصف يأتوننا بفطور الصباح الذي تكون عاشورا قد حُضرت في بهو زنازتها، وهو كناية عن قهوة مزوجة بدقيق الحمص، ولكن كان يبدو كالماء الساخن لا طعم له ولا رائحة. كنا نعرف بقدمهم من حركة المفتاح في قفل الباب، ومن خششة مفاتيحهم. كان حضورهم يرهنا، لأن الخوف يملكنا من أن يكتشفوا أمر المنياع، أو البطاريات، أو الثغوب المحفورة في الجدران.

إذا صدف مرة أن تزامن فتح باب زنازتي مع زنازاة أمي، التي تقع في المقابل، كنت أتعلم وإياها التواجد في تلك اللحظة بالقرب من الباب كي تتمكن من إلقاء نظرة خاطفة على بعضنا البعض. كانت تخاطر لنا مثل هذه الأفكار في لحظة وبدون تخطيط مسبق.

عند الظهر تقريباً، كنا نسمع صوت الصغير الذي كان يعلن عن وصول الشاحنة التي تحمل الحيز. ثم عند السابعة والنصف، كانوا يعودون مجدداً لإحضار وجبة المساء التي كانوا يضعونها أرضاً بالقرب من الباب.

كانوا يبذلون ما بوسعهم كي يشعرونا بأننا سجناء حقيرين، في زنازاتهم البائسة. أما المراقبة فقد كانت مستمرة، ساعة بساعة، وليلاً نهاراً. عندما كنا ندفن وجوهنا في الشباك علنا نلمح السماء، كنا لا نقع إلا على نظراتهم العابسة التي تطالنا من برج المراقبة، الذي كان يعمل على مدار الساعة.

في الأشهر الأولى، حاولنا أن نضع برنامجاً يومياً قدر الإمكان لتحركاتنا، ونقضي به على شعورنا بالملل. في الصباح، كنت ألعب مع أخواتي «الكرة الطائرة» في «صالة الرياضة»، صنعنا طابة من قصاصات المحارم، وبحسب مزاجنا كنا نتبعها بجلسة تمارين رياضية، نذهب بعدها للاستحمام ونحس تنصب عرقاً، وأخذنا التعب. عندما شئت سكيناً، بدت عليها آثار السمّة، وظهرت بعض المؤشرات على أنها من النوع الذي يخترن الوزن بسهولة. كنت أقلل لها من كميات الطعام، وأجبرها على الرياضة، كي لا تتهاوى أكثر في إهمال نفسها.

لاحقاً، توقفنا نهائياً عن القيام بالرياضة البدنية، لم تعد أجسادنا تطيعنا، مللنا كل شيء، ولم يعد هنالك ما يشير اهتمامنا. كانت الأيام تمر ببسط لا ينتهي. عدوتنا الرئيسي كان الوقت، كنا نراهم ونشم رائحته، ونشعر به ونلمسه لمس اليد. إنه وحش مخيف وخطير. كم كان يصعب علينا ترويضه. خلال النهار، كان يكفيننا أن نتنسم بعض الأثير المتسلل من الكوة كي نتذكر أنهم دفنونا أحياء في هذا القبر.

غسق الصيف يذكرني بحلاوة تلك الأيام الخوالي. يحملني إلى شاطئ البحر حيث كنت أملاً رقتي
بمبق راحته الممتدة، وأنسكع على رماله الناعمة بقدمين عاريتين، وأملأ عيني ببريق زرقته، وأرمي
نفسي في أحضانه، ثواني معدودات، أغيب لأعود بعدها أكثر بأساً وألماً. تلك الذكريات لم تعد تحمل
لي السلوى والعزاء بقدر ما باتت تجلدني وتكويني. كل الأيام والساعات باتت متساوية متشابهة. لا
نعمل فيها شيئاً مهماً وذا بال.

أحياناً كنا نتابع بنظراتنا تحركات الصراصير الكثيرة وهي تستقل من زاوية إلى أخرى. أصبحنا جثاً
متحركة خالية من الروح. نعرف أن النهار قد ولى من تغير الضوء. لقد كان احضاراً بطيئاً لا يعرف
قراراً. لكن الموت ما زال بعيد المنال. وكلنا لاحت طلائمه، عاد واخفى. حتى الموت أصبح ضيقاً.
فهو الآخر يمارس سادته وعنجهيته علينا بهذه المتعة. إنه لا يرغب بنا ولا يريدنا. أما لعذابنا أن ينتهي
ولمعاتنا أن تحط رحالها. كان الصمت يزحف علينا وينهشنا بأنيابه، دون أن يجهز بالكامل علينا.
كان سره التشفي بنا، والتلذذ برؤيتنا نألم، ويرضي غروره أن يرى في أعيننا الرعب والخوف... كم
كان يشور ويغضب من وقع خطي الحراس، وخشخشة مفاتيحهم، وصفير الريح، وحفيف النخيل،
وزقزقة العصافير... كانت هذه الأصوات تكثر صفوه وهناءه وتمكر عليه انسجامه وهو يتفنن في
ترويعنا وتعذيبنا.

فقدت الأشياء دلالتها واختلطت الصور والأشكال والأصوات. نسينا الضجيج في المدن،
والأزقة، والساحات. نسينا حركة مرور السيارات، وتدفق البشر وتدفقهم في الشوارع، وتجمّعهم في
الأمكن العامة والمقاهي، نسينا كيف يتحدثون، ويتسامرون، ويضحكون، كيف يعملون وينظفون
وينجحون، كيف يعبون ويلعبون ويتزوجون. تبدلت أحاسيسنا وتحدّرت، كمبريض خرج لتوه من
غرفة الجراحة، وما زال تحت تأثير البنج.

كانت ميمى هي الوحيدة بيننا التي كانت تتمتع بقدره خارقة على تحديد الوقت. كان يكفي أن
تحملي في الشعاع الذي كان يجده طريقه إلينا بخضر وحياه من الكوة المرتفعة في الجدار. ما إن تنسأل
بصوت مرتفع: ترى كم الساعة الآن؟ حتى تبعد عن وجهها الغطاء الذي تتدثر به وهي مستلقية في
سريرها، بعد أن تلقي نظرة عابرة على أشعة الضوء، وتحبب على الفور:
- إنها الثالثة وعشر دقائق تماماً.

كنا نكتشف لاحقاً أنها أصابت كما في كل مرة، فهي لم تكن تخطيء في التوقيت. في كل شهر، كانوا يتكلمون علينا بعلبة تايد، كنا نستعملها للغسيل، والجلي، والتنظيف، وغسل وجوهنا أيضاً. أما أسناننا فكانا نفرکہا بالملح. قبلاً كنا نفعل هذا بالتراب الذي كنا نستخدمه أحياناً لجلي الصحون. ولكن في أحد الأيام استيقظ عبد اللطيف صباحاً بضم متورم، أزرق اللون، ولسان ممتلئ بالبقع البيضاء، ما جعلنا نقلق جميعاً عن هذه العادة واستبدالها بالملح. أحياناً، ما إن يفتح الحراس باب الزنزانة حتى أتوجه مباشرة إلى حنفية الماء البارد الموجودة في الحائط المقابل لنا لكي أغسل شعري بمسحوق التايد. كانت رغوته تتناثر في كل مكان... كان لدى المخازنية قناعة تامة بأن شعرنا كث وجيل لهذا السب. سمعت مرة واحداً يقول للآخر: - إن شعرها ساحر. أنا أيضاً جريت غسل رأسي بغسل المسحوق، غير أن النتيجة كانت مريضة ونجية للأمال.

على أي حال لقد وقانا الاستحمام بمسحوق التايد من الصلع والأمراض الجلدية. لم تكن نغير ملابسنا أبداً. هي نفسها دائماً، ملابس القتال، كما كنا نطلق عليها. كانت أمي تخطط لنا من ملابسنا القديمة ومن الشراشف التي تغطي فرش الأسرة الإسفنجية سراويل بأحزمة مطاطية. كانت تعتمد ألا تسلما إياها قبل أن تنهي خياطتها جميعها كي توزعها علينا نحن السبعة في نفس اللحظة. ربما كانت هذه طريقتها لإخبارنا بأنها تحبنا بالتساوي، ولا تفرق بيننا. عادة ما كانت العادة الشهرية تباهتاً جميعاً في نفس الوقت تقريباً. كانوا لا يحضرون لنا القطن، ولا الفوط الصحية. كنا نستعير عنها بمناشف الحمام المهترئة لكثرة ما استعملت. نضعها بعد أن نطويها عدة طيات. ثم بعد ذلك كنا نرسلها لحليمة كي تغليها وتغسلها. كنا نباعد ما بين سيقاننا ريثما تجف تلك الخرق المبللة كي نستعملها مجدداً.

كانت حرمتنا متهكة، وخصوصيتنا مغيصة، كانوا يحصون علينا أنفاسنا. نعيش تحت رحمة أنظارهم. نفتسل، ونذهب إلى الحمام، ونأوه من الألم، ونرتعش من الحمى... كل هذا تنقسمه معهم... الليل وحده كان يلفنا بغلاظه السوداء ويسترنا من نظراتهم الفتاكة. عندها كنا نستسلم صاغرين لأحزاننا التي تجتاحنا كالسيل الجارف، فبكي وبكي حتى تجف دموعنا. كانت حالة التضامم والانسجام تسود بيننا اللهم إلا في بعض الأحيان حيث كان الفتيات

يتخاصمن فيها بينهن. وكنت أنا دائماً بيضة القبان، ومشتكى الضيم، والحكم.
كنت بمثابة أم لمن. علمتهن الثقافة، والتهديب والعلم، وآداب السلوك، واحترام الآخرين.
تابعتهن منذ البداية بنفسي. هنا، أو في بير جديد، في سجن الأشغال الشاقة، لم أكن لأسمح لمن
بأي عبث واستهتار، أو تجاوز للقواعد والأصول. كنت أصرّ على التقيد بآداب الطعام أثناء تناول
الوجبة: غسل اليدين، المضغ بتأنٍّ وروية، الجلوس المستقيم، وعدم إهمال عبارات شكرًا، من فضلك،
معدرة...

وفي موضوع النظافة لم أكن لأسمح بأي تساهل أو تهاون. كنت أصرّ على أن نعتي بنظافتنا كل
يوم، على أكمل وجه، حتى في أيام الدورة الشهرية، بالرغم من أن الماء الذي يوزعونه علينا في عز
الشتاء كان قارساً ومتسخاً، وكانت ملاسته تبعث الرجفة في أبداننا، فشهو، ونحمرّ بشرتنا. فما
تعلمته في القصر التصق في جلدي إلى الأبد. عندما كان رؤوف يريد أن يسخر مني، كان يقلد لهجة
المرية ريفل وهو يخاطبني، سيّان عندي لأنني لم أكن أبالي. بالطبع لا شك أن الروح تترك أثرها على
الجسد، والجسد بدوره يؤثر عليها. هذه العلاقة بينهما لا يمكن تجاهلها. كنت أتشدّد في موضوع
النظافة البدنية لسببين اثنين: أولاً كي نرفع من روحنا المعنوية، لنتمكن من التصدي والمقاومة. وثانياً:
كي لا نفقد إنسانيتنا بالكامل، ونتحول إلى سوخ بشرية.

حاولت مرة أن أدرس أنفي في شؤون لم أكن لأكثرث بها عادة. أردت أن أتسل من جهة، وأن
أجرب هذا النوع من الاهتمامات التي كانت تستهوي الكثير من النساء من جهة أخرى. قررت أن
أعطي بجوالي. وما شجعتني على ذلك أن أُمّي كانت قد أفست لي سرّ جمال المرأة البرية، قالت لي بأنها
تضع قناعاً لوجهها من معجون التمر. أثره فعال، يربط البشرة وينقيها من الشوائب، ويبعد عنها
التجاعيد. تحمست للفكرة وقررت تنفيذها، خصوصاً أنهم كانوا في شهر رمضان يضيفون إلى الوجبة
بضع حبات من التمر. جمعتها وعجتها بعد أن رطبتهما بالبخار كما تقتضي الوصفة، ثم دهنت بها
وجهي وأخلدت إلى النوم. النتيجة كانت تثير الضحك، أتت الفران ليلاً، وأخذت تلعق التمر عن
وجهي، لقد كانت محظوظة، إذ وجدت وجبة جاهزة ولذيذة بانتظارها. أما البشرة فلم يزدرد وفتحها
ولم ينقص، بقيت على حالها.

كنا نقصّ شعرنا بمقص صغير كانت أُمّي تحفظ به لحياطة ملابسنا بعلمهم، وبإذن مسبق منهم.

كان أخى رؤوف قلقاً لأن لحيته لم تنبت بعد مما جعله موضع سخريتنا وتعليقاتنا. فيها بعد راحت تنمو ولكن ببطء، ثم ما لبثت أن صارت غزيرة مما أَرْضَى رجولته الهلعة وأسكن روعها. بالإضافة إلى أن هذا وضع حاداً لغمزنا ولمزنا وللشكوك التي كنا نثيرها من حوله لناكفته ومداعبته. لقد بدا متأكداً من نفسه وهو يقول في إحدى المرات: لن أحلقها إلا في الوقت المناسب، لأن هذا سيكون مؤشراً على قرب موعد خروجنا من السجن. وفعلاً هذا ما حصل. لقد طلب من السجّانين في صباح أحد الأيام أن يحلقوا له لحيته. ولإقناعهم لعب على وتر رجولتهم الحساس، اشتكى لهم قائلاً:

- أنا رجل، ولا يمكنني البقاء في هذه الصورة.

اصطحبوه إلى الباحة حيث أجلسوه، وأزالوها له. وبعد انقضاء شهر أفلتنا من برائن السجن. وهكذا تبين أن جملة رؤوف التي قذفها عبثاً أصبحت نبوءة.

الجوع

تبا للجوع، وسحقاً له! كم يذل الإنسان ويحط من قدره. إنه ينسيك أهلك، وعائلتك، وأصدقائك، ويمحذك من كل قيمك ومبادئك. ويتزعج منك كرامتك وإنسانيتك. إذ يحولك إلى وحش بشري لا يأتمر إلا بفريزته. وهذا ما أصابنا نحن. لقد كنا نزرع دائماً تحت ثمر الجوع الدائم. ولم نشعر يوماً بالشبع. أما النخمة فقد اتحت منذ زمن سحيق من قاموس تداولنا. نحن بالكاد نجد ما نسد به الرمق.

مرة واحدة كل خمسة عشر يوماً، كان بعض المخازنية يضعون لنا بعض المواد التموينية في زنازة عاشورا التي كانت تتولى بنفسها طبخ وجبة الطعام لنا جميعاً. بعد أن تنتهي من إعدادها كانت تناولنا الكمية الضئيلة الخاصة بنا من فجوة صغيرة في الحائط المشترك الذي كنا قد حفراه بيننا. كان عليها أن تتولى أمرها جيداً وتعمل ما بوسعها كي تتمكن بهذه الكمية المحدودة من أن تطعم تسعة أشخاص يومياً، وعلى مدى خمسة عشر يوماً، حتى يحين موعد التسليم الجديد. لقد كانت هذه المهمة صعبة وشبه مستحيلة. كانت هذه المواد الهزيلة لا تشتمل على الحليب، والفاكهة. فقط بعض حبات تمر ضامرة، وحبات ليمون عفنة كانوا يضيفونها إلى القائمة من وقت لآخر. بالإضافة إلى بعض الخضار المهترئة الذابلة، وكأسين من الطحين، وقليل من الحمص والعدس، واثنين عشرة بيضة فاسدة، وقطعة لحم هزيلة، وبعض قطع السكر، وليتر من الزيت شهرياً، وعلبة من مسحوق التنظيف. هذا

كل ما كنا نحصل عليه فقط. لم يكن لنا مجال للتفريط بلزّة واحدة من هذه المواد بها فيها الفاسدة ومع هذا، وفي أحيان كثيرة، كان معيتنا ينضب قبل موعد تسليم الحصة الغذائية الأخرى.

طوال سني عمري لم تقع عيناى على خضار في حالة مقرفة شبيهة، وما كنت لأتصوّر لحظة واحدة أن بإمكاننا أن نقرب منها أو نتذوقها. كان الجزر أخضر اللون بجذور طويلة وسميكة. والياذنجان أزرق اللون، رخواً وليناً كالكرهما. كانت عاشورا تحضر به طبقاً أسماه الصغار بـ«الطاجين الياباني». كان العمدن مليئاً بالسوس الذي يطفو على سطح الماء.

لكثرة ما كانت الطبخة تترك فوق النار، كانت تفقد بعضاً من مذاقها الحاد والمنقّر. إنه مقرز ومع هذا كنا تسابق فيها بيتنا على اختطافه والتهامه، إن مشاكلنا الهضمية كانت طقيفة قياساً مع مشاكلنا الصحية الأخرى. يبدو أن أجسامنا اعتادت على الميكروب وقلة النظافة. بدلاً من العصير كنا نتجرع الماء العكر والملوث.

إكتشفت أن عاشورا وحليمة كانتا تقومان بعملية مطو منظم على المواد الغذائية التي كنا نودعها في حوزتهما. كانتا تقطعان بعضاً من الخبز والشكر لنفسيهما دون سائر المساجين. في كل مرة كنت أضرب أخماسي بأسداسي وأعيد حساباتي على أفع على مر هذا اللغز المحير. لقد نصبت المواد بسرعة البرق فما الذي يحصل؟ عندما كنت أنساءل أمامهما بصوت مرتفع كانت إجابتهما دائماً بنفس النغمة: -إنها الجرذان... إنها الفئران... لقد فسدت وأتلفت...

لكنني علمت أنها غير صادقتين، وفقدت ثقتي بهما، قررت أن أتولى إدارة التموينية بنفسي. فصررت أنتزعها منها وأصدرها مباشرة بعد حصولنا عليها. أخذت أضعها في الغرفة الصغيرة، أما الخبز فقد كنت أخبئه داخل الحقيبة. كنت أريد الاقتصاد في الاستهلاك قدر الإمكان كي لا تفرغ جعبتنا قبل أن نحصل على البديل.

يومياً، كان يلزمنا قليل من السكر لقهوتنا الممزوجة بالحليب، بالإضافة إلى فطور خفيف للصبيان حوالى الحادية عشرة والنصف، لا سيما عبد اللطيف الذي كان في طور النمو ويحتاج إلى الطعام. نحن الفتيات، كنا نكتفي بالقهوة والحليب صباحاً ولا نزيد عليها شيئاً طوال النهار بانتظار وجبة العشاء التي تحتوي على قليل من الخضار. في الصيف لم نكن نشعر ألبتة بالجوع بسبب شدة الحر من جهة، ولأننا كنا معتادات على هذا النظام التجويمي من جهة أخرى. في الشتاء، كانت معدتنا تصرخ من شدة

الجوع إلا أننا لم نكن نصني إليها.

في المساء، كنت أزود عاشورا بالمواد اللازمة كي تحضر الطاجين فوق الكانون، بعدما تقسم الكمية إلى تسع حصص على عددنا جميعاً. نفس المشهد كان يعاد دائماً. الطباخة الماهرة لعائلة أوفقي كانت من خلف الحائط تجهش بالبكاء قائلة:

- ولكن يا كيكا كيف تريدني أن أطعم الجميع بهذه الكمية الزهيدة؟

لم تكن دموعها لتؤثر بي. كنت حازمة وبلا شفقة. للصمود حتى آخر الشهر، كان لا بد من إدارة حكيمة.

في فصل الربيع، كنا نقطف نباتاً برياً يشبه الهندباء، كانت تقطفه حليلة من تربة الباحة وتسلمي إياه كي أغليه. أضيف إليه الثوم، وزيت الزيتون، ثم أحشو السندويشات بهذا الخليط. لقد اخترعت طبخات من وحي القلة والعوز. في الشتاء كنت أعدّ وجبة مؤلفة من كوب صغير من الطحين، والسيد، والحمص المطحون، أضغ المزيج في الوعاء وأضيف عليه بعض الزيت والسكر، وأسكه في أكواب، وأوزعه على الجميع. القهوة التي كنا نحصل عليها كانت من النوع الرديء، أما الشاي فقد كنا نوهم أنفسنا بشربه، إذ كنا نسكب الماء الساخن فوق حرق النعناع المستهلك لكثرة ما استعمل على مدار عدة أيام.

كل يومين، كان الحراس يحضرون لنا الخبز في أوعية كرتونية، كنا نفرغها أرضاً من محتوياتها ونبدأ بتفكيك ثنائها المطوية. كانت تفيدنا لتدوين القصص التي كنت أرويها. كان هذا الكرتون بأهمية الغذاء وقيمته بالنسبة لنا.

في أحد الأيام، بينما كنت منهمكة كالعادة بتفكيك القطع الكرتونية، لمحت الفتيات وهن على أربع يلحسن فئات الخبز اللاصق بزواياه. منذ تلك اللحظة وضعت قانوناً لن يقضي بتخصيص يوم لكل واحدة منهن لفعل ذلك بانتظار أن يأتي دور الأخرى في يوم آخر، وهكذا دواليك، بدلاً من أن يتقاتلن كالكلاب المهتاجة.

لم نعرف أثناء احتجازنا في بير جديد ماذا يعني البيض الطبيعي. كانت القشرة الخارجية خضراء اللون، وفي داخلها سائل أسود اللون أيضاً تنبعث منه رائحة كريهة تشمئز منها النفس. كنت أضعها في وعاء بعد أن أكسرها، وأتركها طوال الليل لتهدئتها، وفي الصباح كنت أخفقها مع قليل من السكر.

أغمس قطع الخبز في المزيج ثم أقليها بالزيت. وتصبح جاهزة للتوزيع، ما إن تزول الرائحة حتى نعلم البهجة والسرور من زنتانة إلى أخرى. مزجها بالخبز أضاع طعمها الرديء إلى حد ما. وأصبح بإمكاننا ازدهادها كي نسد بها جوعنا.

بتنا خبراء في فنّ التوفير والتدبير. لم نأنف من التهام الخبز المبلل ببول الفئران وقذاراتها. كانت محبوب الزنتانة من زاوية لأخرى طوال الليل. وكان ميمي ما زالت ماثلة أمام عيني وهي جالسة في سريرها تتظف قطعة الخبز بأطراف أصابعها من بعر الفأرة الأسود ثم تضعها في فمها. كل ما لدينا من خبز كان دائماً مجهوراً بقرص الفئران.

كمي نخفف من استعمال موادنا التمثوية، كنا نلتقط ثمر التين المتساقط من الشجر المزروع في الباحة. في السنة الأولى، عندما كان ما زال يحق لنا الخروج من الزنتانة، كنا نجمع كمية كبيرة منه ونكدسها لوقت الحاجة. كانت عاشورا تصنع منه طبقاً من السلطة وتضيف إليه بعض الحطبات. عندما أجبرنا على التزام أماكننا باتت حليلة تقوم بالتقاطه بمفردها.

عندما لاحظ الحراس مبلغ اهتمامنا بهذا التين باتوا يحرصون على إسقاطه من الشجرة، ثم يدخلون إلينا ويبدؤون بالتهامه أمام أعيننا. لذا لم يكن يتبقى لنا إلا بعض الفاكهة المهترئة أو الجافة. بالرغم من ذلك كنا نحمد الله على أننا كنا على الأقل نجد ما يجنبنا الموت من الجوع.

كم كنا نلهث خلف الفتات، نأكل، نلحس، نمسح، لا نبقي ولا نذر. إذا فرغ أحد من حصته قبل الآخر كنا لا نتوانى عن التهام ما بيده من طعام بعيون الحسد.

لقد ساهم حسن التصرف والتدبير بشد أزرقنا ومنعنا من الاختصاص فيما بيتا. كم كنا نلذذ بأحلام اليقظة التي كانت تدور حول قطعة من اللحم. وكم كان يسيل لعابنا عندما تتسلل إلى أنوفنا رائحة الطاجين المخصص للحراس. أصبحنا مهووسين بالطعام الذي بتنا نفكر فيه ليلاً نهاراً. كم كنا نحترق أنفسنا ونخجل من تصرفاتنا التي انحطت إلى هذا الدرك الوضع.

ميمي، التي كانت أكثرنا ضعفاً وهشاشة، لم تكن تتردد في سرقة بعض حبوب الفول خلصة، لتمضغها سراً وهي تحبىء رأسها تحت الغطاء ممددة في سريرها. كنا نلقبها «ميمي الحيازة» لأنها كانت تعشق الطحين والخبز. وحتى عندما كنا نمارس لعبتنا المفضلة التي تقول: «معلك أربعون دقيقة من الحرية لتفعل خلالها ما تشاء»، كانت تسارع للإجابة:

- أقف أمام الفرن، ألثم ما يحلوي من الخبز، ثم أطنناً من قطع الكاتو.
أما رؤوف فقد كان يود مضاجعة كل امرأة تمر أمامه. أما أنا فكنت أتوق إلى إفراغ مكتبة بكاملها
من محتواها، أو على الأقل أن أحمل أكبر قدر من الكتب. ثم أتنهد وأضيف: وأمارس الحب مع رجل
أقابله صدقة كي يتسنى لي أن أختبر هذا الأمر.
أما الصغار فقد كانوا يحملون بالألعاب.

كان للميلاد عيداً مقدساً لدى عائلتنا. حتى في القصر، حيث تُراعى المظاهر الإسلامية، كان للميلاد
موقعه المميز وسحره. لكن مع الأسف واقع التقنين الغذائي المقروض كان يمنعنا من الاحتفال به
كما يجب، كذلك الحال بالنسبة إلى أعياد ميلادنا. كنا نستعد لحجته قبل أشهر، حيث كنا نقتصد ونشد
أحزمتا كي نتمكن من تحضير قالب من الحلوى. كنا نقتصد في كمية المواد المستهلكة ونحرم أنفسنا
من البيض والسكر لتأمين المقادير اللازمة. ولكننا كنا نعوض هذا الحرمان في يوم العيد حيث كان
كل واحد منا ينال قطعة كبيرة. كان الحراس يتولون بأنفسهم توزيعها على الزائرات، وهم كالأطرش
بالزفة، لا علم ولا خبر. كنا نخفيها جيداً تحت ملابسنا؟

خلال الأيام القليلة التي تسبق جمعيه الرابع والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر، كانت
حليمة وعاشورا تمرران في أنبوب الغاز عبر الفجوة الموجودة في الحائط المشترك بيننا، كي أوصلها
بموقد صغير. هكذا كنا ننجح بتحضير قالبين من حلوى العيد بخليط مؤلف من الحمص المقل،
والطحين، والبيض والزيت، والقهوة، والسكر. كنا على درجة عالية من التنظيم.

أما العمل فكنا نقاسمه فيما بيننا. نتوزع المهام المتنوعة ما بين زينة حليمة وعاشورا وزنايتنا. لم
نفتقد وجود البراد أبداً. لقد كان الطقس قارساً بما دفعنا للاستغناء عنه والاكتفاء بترك قالب الحلوى
كي يتجمد خارجاً. كانت شهيتنا لا توصف ونحن نلثمهم لدرجة أننا كنا نتدافع وتتسابق لاختطاف
القطعة الأخيرة المتبقية منه.

لا قيمة للميلاد بدون ألعاب. لذلك كنا نحاول صنع لعبة للصغير من الألواح الكرتونية التي كنا
نجمعها مسبقاً، وكلما استطعنا. في إحدى السنوات صنعنا له حاملة طائرات، ودبابات، وشاحنات
مرسيدس، وسيارات فولكس فاكن بلون الزعفران، وبمجلات من أوراق فضية اللون. في تلك الآونة
كان يمكنني أن أبكر أشياء كثيرة بقطع من الورق. أما اليوم، فلا أعرف لماذا فقدت هذه المهارة.

على مدار تلك السنوات، وبمناسبة الميلاد، كنت أكتب له رسالة، وأنا أتعمد أن أغير خطي. كنا ندعي بأن بابا نويل هو من تركها خصيصاً له. ظل يعتقد بهذا حتى سن الرابعة عشرة. كانت حليلة تحضر بعض التراب لأمي كي ترسم فيه نقوشاً وأشكالاً على أرض الزنزاة، كانت فرحة عبد اللطيف عارمة، وكانت رؤيته على هذه الحالة تبعث الدفء في قلوبنا.

شهرزاد

كنا مساجين بلا كتب ولا دفاتر ولا ورق، لذلك توقفت عن التدريس، غير أن الفتيات كنّ يتحرقن فضولاً لمعرفة الحياة. كنّ دائماً يسألني إن كنت مررت بمغامرة عاطفية، وكذلك عن قلة الفم وبعض جوانب العلاقة الجنسية. كنت حريصة على إعطائهن إجابات شافية تناسب أعمارهن، مستعينة على ذلك ببعض ما كنت قد قرأته في الكتب عن هذا الموضوع الحساس.

كان عبد اللطيف متعطشاً للعلم والتعلم، وأمي كانت بحاجة للحديث وللقيام ببعض الاهتمامات. أما رؤوف الذي كان الأكثر عزلة بيتنا، فقد استفاد من «التمديدات الإذاعية» كي ينفس كربته وضيقة بعض الشيء. للسكيتان عاشورا وحليمة كانتا مصابيتين بالضرر والاكثاب.

كرست نفسي لخدمة عائلتي المنكوبة، فلم أبخل عليهم أبداً بما أستطيع تقديمه حتى لو كان على حساب نفسي. كان وقتي مخصصاً بالكامل للإصغاء إلى كل ما يدور في خلدكم من أفكار وهواجس وأحلام وأمنيات... بطيئة خاطر كنت أعلم، وأوجه، وأنصح، وأصوب، وأحضن، وأشدّ الأزر، وأشيع الأمل... و... كنت «إذاعة متحركة» لا تتوقف عن البث طوال النهار، مما يتركني عطمة القوى ومنهكة ليلاً... لقد أعطيتهم كل ما كان لدي من قوة و طاقة. لم يكن بإمكانني التوصل من مسؤولياتي حيالهم. لقد قاومت وتجلدت وتصبرت، وعضضتُ على جرحي وألمي، ولأجلهم هم وحدهم تمسكت بالحياة.

فجأة أتاني إلهام داخلي كبير، ورحت أقصّ عليهم إحدى القصص. من خلالها كنت أحدثهم عن الحياة والحب... وأحلتُ بهم بعيداً... حيث كانوا يضحكون، ويبكون، ويتألمون، ويعلمون، ويسافرون... وكنت أضمن السرد الكثير من الوقائع التاريخية، والجغرافية، والأدبية. كنت أنقل إليهم كل ما أعرفه... والباقي كنت أخلفه من مخيلتي.

كانت مهمة شاقة ومعقدة. كان علي أن أرضيهم جميعاً دون استثناء، على اختلاف أذواقهم وأعمارهم. في عمر العشرين لا بد أن يكون لدى رؤوف اهتمامات ورغبات أخرى تختلف عن تلك التي تهتم الفتيات الصغيرات أو حتى عبد اللطيف. هذا إذا لم أقل أيضاً أمي أو عاشورا وحليمة. لكل منهم ذوقه الخاص به. ومع هذا، لقد لاقت الفكرة إقبالاً وتهاقاً من الجميع. صرنا ما إن يُدار المولد الكهربائي حتى نسارع إلى توصيل «التمديدات» اللازمة من خلية لأخرى. بعد ذلك بساعة، عندما يتوقف هذا المدير الذي يصم الآذان كنت أروح في قلب الظلام أروي حكايتي. نعم هذا ما كنت أقوم به ليلة بعد أخرى، وعلى مدار إحدى عشرة سنة وأنا حبيسة بين جدران السجن. لقد غدوت «شهرزاد الحزينة» بين ليلة وضحاها.

في البداية كانت الحكاية تستمر حتى الساعة الثالثة فجراً، ثم ما لبثت أن تقدمت نحو الرابعة، وبعدها صارت تمتد حتى الساعة الثامنة صباحاً، موعد مجيء الحراس لإيقاظنا. لقد ابتدعت سلسلاً إذاعياً... أهل الميكروفون بيدي وأبتعد عن كل ما حو لي إلى عوالم أصنعها بنفسي.

ما إن أبدأ بالكلمة الأولى حتى تكرر السبحة، ويأخذ الأشخاص أشكالهم وأسماءهم... وتتحدد الأماكن والأزمان، وتتشكل الروابط والعلاقات... لقد أنجزت مئة وخمسين قصة شيقة، كل واحدة منها تختلف عن سابقتها. كنت أصف شكل الأبطال الخارجي، ثم مواصفاتهم الشخصية، والحياتية، والمصرية. وأخترع لهم ماضياً وأصلاً وسلالة عائلية، كان الصغار يصرون على معرفة كل شيء عنهم، ويغمرونني بأسئلتهم.

أما القصة فكانت تدور أحداثها في روسيا إبان القرن التاسع عشر، ولا أدري لماذا ذهب خيالي إلى هناك، فأنا لم أشاهد فيلماً من قبل، ولم أقرأ أي كتاب عن روسيا باستثناء رواية الدكتور جيفانغو، وهذا ما فعلته لاحقاً.

لقد وصفت قصر سان بيترسبورغ وكأنتي كنت أعيش بين جنباته، وتحدثت عن المهام التي كان يتولاها القوزاق، وعن التزهات على سطح نهر القولغا المتجمد، عن الأرستقراطيين وعن الموجهين. كنت أقوم بعدة أدوار دفعة واحدة: الكاتبة، السيناريست، المخرجة، والممثلة. وأنا أختلق كل هذه الشخصيات، كنت أطلق العنان لانفعالاتي ورغباتي، ومكورتاتي، وهلوساتي. هكذا كنت أعيش من خلالها بعض المحرمات، والشذوذ الجنسي، والحياة، والحب الكبير. كنت أحاول أن أتوغل داخل

النفس البشرية وأعتبر عنها بكل تقلباتها وتناقضاتها. فتارة أكون محبة، كريمة، خجولة، متحفظة، وطوراً شريرة، قاسية، ظالمة، مدمرة... كنت البطل، والبطلة، والمحللة في آن معاً. أربكتني قدرتي التي تكشفت لي فجأة بالتأثير على الآخرين والمعالجة، وتحريك ميولهم ومشاعرهم. كانوا ينسجمون مع القصة ويواكبون تطوراتها بشغف وانفعال، لأنها بالنسبة لهم واقعية، ومن هنا كان من السهل عليّ اللعب على هذا الوتر الحساس، وتحويله إلى الوجهة التي أريدها. عندما كنت أستشعر أن الجو أصبح حزيناً وكثيلاً، والتأثير بلغ أشده، سرعان ما كنت أضفي بعض الانفراجات والانقشاعات من خلال بعض العبارات والمواقف. كانت القصة تقارب واقعنا اليومي المعاش، بكل تفصيلاته وخباياه، وشجونه وهوميه، وأحزانه وأفراحه، وعداواته وصداقاته، ونزاعاته، وأزماته... لدرجة أنهم كانوا خلال النهار يتابعون فيها بينهم الحديث عنها، ويتظنون بلهفة شديدة تطورات الأحداث، فكانت سبباً تسأل بقلبي:

- أعتقد أن ناتاشا ستجو من هذه المعمة بسلام؟

بدوره كان رؤوف يبيها مطمئناً:

- لا عليك، لأنني أشك في أن تعلن روسيا الحرب...

كانت القصة بعنوان «الندائف السوداء»، وبطلها أندريه أولياتوف. كان أميراً، شاباً، يعيش في روسيا في زمن القياصرة. ومع أنه كان جميلاً وذا ثراء فاحش، إلا أنه كان فظاً وشيطانياً يثير الرعب والشر فيها حوله. فقد أبويه عندما كان طفلاً صغيراً. فقد ماتت أمه وهي تلده، وأبوه انتحر فيما بعد. ولم يبق له في هذه الدنيا إلا جدته لأمه التي ورث عنها هذا الجمال الخارق. كان أولياتوف يعيش في قصر واسع كبير، تحيط به بساتين وجنائن تبلغ مساحتها آلاف الهكتارات. ويمتلك حوالي ألف من الفلاحين العبيد. كانت هوايته الوحيدة هي ركوب الخيل. كانت جدته ترغب في تقديمه إلى البلاط، لكنه كان يصبر دائماً على الرفض. فهو يفضل أن يصول ويجول في ممتلكاته كما يحلو له من الصباح وحتى مغيب الشمس. عندما كانوا يشعرون بوصوله أو يسمعون صوت خطواته كانوا يسارعون للاختباء... كان شريراً ويسعده إلحاق الأذى بالآخرين، ويتلذذ برؤيتهم يتعذبون ويعانون. وفي إحدى الأمسيات، وقع عن صهوة جواده، فالتفت بسرعة ليتأكد من أن أحداً لا يشاهد ما حصل له، لأن ذلك من شأنه، ويجرح كبريائه. فهو يعتبر نفسه أفضل فارس في المملكة على الإطلاق. بينما

كان يستجمع قوته للنهوض عن الأرض، لمح شيئاً صغيراً يلمع بين التراب. التقطه، فإذا به تعويذة، أخذها، وعاد إلى قصره. هناك، أصر على معرفة هوية صاحبتها، ولألا أعدم كل الفلاحين المعبد دون استثناء. هرع مدير أعماله ليطلب المساعدة من إيفان العجوز، وهو بطيريك ذو لحية طويلة بيضاء. لقد امتنع لونه بعدما عرف بأمر التعويذة، لأنها تخص حفيدته ناتاشا التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها. طلب منه مدير الأعمال أن يستدعيها فوراً، لكن ناتاشا كانت قد لاذت بالفرار.

وفي اليوم التالي، وبينما كان أندريه أوليانوف يتنزه كالعادة فوق جواده لفتت انتباهه أصوات وحرركات وضججات، اقترب بهدوء شديد وراح يراقب ما يجري هناك من خلف أوراق الأشجار: كانت ناتاشا وجبيها نيكيتا يبجان عاريين في الغدير. كانت ساحرة جميلة، ويقدر ما كان شعرها داكناً، كان شعر نيكيتا أشقر. كانت ترقص له، فجأة لمحا أندريه أوليانوف، فتملكها الرعب، وفرا هارين بسرعة الريح. لحقها على حصانه، وتمكن من القبض عليها فيما اختفى جبيها داخل الغدير. بعدما اغتصبها عاد بها إلى قصره. بعد يومين، أتى لرؤيته نيكولا بارنسكي، ابن حاكم موسكو. ليخبره بأنه ذاهب للالتحاق بالجيش، ومعه مجموعة من أصدقائه، من ضمنهم واحد اسمه برجسكي كان مضطراً للاختفاء عن الأنظار. لقد وجدوا عنده مناشير سياسية. قبل أندريه أن يساعده على الفرار. أعاره جواداً، وعبر به الغدير وصولاً إلى الجهة المقابلة، إلى بر الأمان. كانت هذه المرة الأولى التي يتورط فيها بعمل مناوئ للسلطة. لكنه كان يجهل تبعات مثل هذه الخطوات، والنتائج التي قد تترتب عليها.

هكذا بدأ الفصل الأول على هذا النحو، ثم صرت كل ليلة أضيف تدريجياً بعض الشخصيات الأخرى، وأجعلها تتقابل وتتجاوز، وأمن في وصف أماكنها، وردود فعلها، مستخدمة كل أنواع التشويق والإثارة، حتى نجحت بجعلهم يمسون أنفاسهم من شدة التأثير والانسجام. الغريب أنني اليوم لا يمكنني سرد أي قصة بدقة وتفصيل بمثل ما كنت أفعل سابقاً. حقاً، أنني لا أعرف كيف جادت مخيلتي بكل ذلك، ولا أعرف سر تلك المهارة العالية التي كنت أتمتع بها آنذاك، والحيوية والطاقة، طوال إحدى عشرة سنة، وكيف أنني لم أشعر قط بالملل والتعب، وحافظت على استقطاب شغف المستمعين واهتماماتهم. بينما أنا مأخوذة في متابعة سرد روايتي، غالباً ما كان خط ما في التمديدات بيني وبين رؤوف يتقطع وذلك في عز الليل المدهم. وما كنت لأنتبه لذلك، لولا

مسارعة إحدى الفتيات إلى لفت انتباهي إلى صغير رؤوف الذي يحاول بهذه الطريقة أن يشعرنا بذلك. بعد أن نوصل ما انقطع وتتمكن من إصلاح مكان العطل والخلل يتوقف رؤوف عن الصغير إذ يصله صوتي مجدداً في تلك اللحظة. هذا النوع من الحوادث كان يتكرر عدة مرات في الليلة الواحدة، لذلك كان الحراس يستغربون ويسألون رؤوف عن سبب صغيره. ليقطع عليهم الطريق، كان يرد بأنه إنها يفعل ذلك لإخافة القتران والجردان التي تسرح وتمرح داخل الزنزانة. عندما كانوا ينظرون إليه بريبة كان يتابع بخلة متعمدة وسخرية:

- ماذا؟ ألا تعرفون هذا؟ ومن لا يعرف أن الصغير هو الطريقة المثل لإخافة الجردان والقتران وإبعادها عن المكان.

كان الحرس يدون اقتدهاشهم من سعة اطلاعتنا وحسن تدبيرنا. وإن كانوا يعاملوننا بخشونة وسوء، إلا أن هذا لا يعني أنهم لا يكتنون لنا التقدير والإعجاب. كانوا يحترمون ذكائنا في التعاطي مع ما يمر بنا من محن وظروف، لذلك لا عجب أن يصدقوا ما لفق لهم رؤوف. ومنذ تلك الآونة، ما إن يصفر رؤوف حتى يشاركوه بذلك من جهتهم. من جهتنا كانت تتنازعنا رغبة بالضحك على غباهم وقلة عقلهم، والخوف من القيام بأي حركة قد تسترعي انتباههم، وتفتح أعينهم علينا. تابعت بشغف القيام بدور شهرزاد، وكانت جمعيتي لا تنضب من القصص والروايات. سافرت بهم عبر الدول والأقطار، من روسيا القيصرية إلى بولونيا، والسويد والنمسا، وهنغاريا، وصولاً إلى ألمانيا والولايات المتحدة الأميركية أيام الحرب الأهلية. كان يعيش في غيليتي لويس الثاني حاكم مقاطعة بافاريا أو الملكة سيسي. حتى أنني كتبت رواية حول جلة وحفيدتها الصغيرة قامت سكية بتدوينها، ووضع وتصميم غلاف لها.

لقد احتفظت بأثر هذه القصة لأنني كتبتها على ورق الكرتون ولكن، لسوء الحظ، لم تكتب النجاة لأي من دفاتري القديمة التي أتلّفها صديق لي كنت أودعتها لديه عندما هربنا، فعمل ذلك بدافع الخوف من التورط بالمشاكل والمتاعب التي قد تجر عليه الولايات.

في الوقت الحاضر، نادراً ما تثير مجدداً فيها بيتنا موضوع السجن والاعتقال، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للحكايات التي ما زالت تحفظ في نفوسنا بروقها وسحرها، لدرجة أنه عندما يتذكر بعضنا إحدى شخصياتها، تضيء وجوهنا جميعاً وتلتئم، إنها عراؤنا الوحيد عن تلك الفترة السوداء المرعبة.

أعتقد جازمة، بعيداً عن الادعاء والغرور، أن هذه الحكاية أُنقذتنا جميعاً من براثن الفراغ، والفوضى، والعبث، والوحدة، والصمت، وخصوصاً من سيف الرعب الذي كان مسلطاً فوق رؤوسنا كظل ثقيل، ولا نعرف ماذا نفعل حيال الطوق الخائق الذي ضربه من حولنا بدون شفقة أو رحمة. بهذا السلاح الوحيد قهرنا الصمت، والوقت والملل والروتين والخوف والعمة، واستعلنا زمام الأمور بعض الشيء. أصبح هنالك حدث عشنا معه في حالة من النشاط والتنظيم والحركة. فالمذبايح ساعدتنا فقط على معرفة التواريخ التي لم يكن يهمننا بينها إلا مواعيد أعياد الميلاد وبعض المناسبات الأخرى. لا أنكر مساهماته العديدة في كسر عزلتنا وربطنا بالعالم الخارجي. لكن أهم ما في القصة أنها أخرجتنا من طور الجمود والركود والاستلاب، إلى طور المبادرة والحياة والحركة. فكنّا عبر الشخصيات والمواقف التي نخلقها نعبّر عن أفكارنا وهواجسنا، ونجد فيها متفصلاً وتعويضاً يخرّجنا مما كنا نخطط فيه ولو بصورة وهمية ومؤقتة. من خلالها كنّا نعيش الحياة التي نحرمان منها. كنّا نحب، ونخطب، ونزوج، ونرزق بأبناء، ونمرض، ونموت. حتى الآن، نستشهد ببعض الوقائع والأحداث التي وردت في سياق القصة كي نؤكد أحاديثنا أو مواقفنا. ويكون حوارنا على النحو التالي:

- بل، بل، ألا تتذكرين؟ كان الطقس حاراً لا يطاق في اليوم الذي التقت فيه ناتاشا الأمير.

- لا، لا، إنك مخطئة، فأنالِم أصب بالحمى في اليوم الذي ولد فيه حفيد أندريه، ولكن في اليوم الذي أصبح فيه قيصراً.

لولا ذلك المتفلس لأصبنا حياً بالجنون. عندما كنت أخص في وصف الأماكن والأشياء من حمامات البلاط، إلى الفساتين المرصعة باللؤلؤ والمزينة بالدنيل، والتفتة، والحلي، إلى العربات، وبذلات الضباط العسكرية، والكونتيسات الجميلات اللواتي كن يرقصن الفالس على وقع أنغام الفرقة الموسيقية الملكية، كنت أحاول أن أحلهم وأهرب بهم بعيداً إلى عالم آخر ليس فيه براغيث، ولا أزمة فوط صحية، وبرد، وجوع، وقنارة، وماء ملوث، وتيفويد، والتهاب أمعاء. أردتهم أن ينسوا آلامهم وألا يستسلموا للقنوط واليأس.

الأمر اض والأفات

ما كنا لنبقى على قيد الحياة، لولا العناية الإلهية التي أحاطتنا بالحماية والرعاية اللازميتين. ما إن كنا

نصل إلى حافة الموت للمحتم حتى كانت تمتد إلينا يد خفية وتتسللنا من السقوط في الهاوية. أكثر من عشرين مرة تعرض كل واحد منا للإصابة بأمراض خطيرة كادت تطيح به، إلا أنه كان يخرج منها سليماً معافى. هذا الإله الذي كان يحمينا، ويتقننا من الموت، لماذا تركنا نواجه ذلك للمصير الحافل بالويلات المرعبة؟

كانت بعض الأمراض خطيرة مثل: الحمى، الالتهابات، الإسهال، والفيروسات التي لا نعرف لها اسماً. وأخرى أقل خطورة مثل: التهاب اللوزتين، والشعب الصدرية، أوجاع الرأس والأضراس، البواسير، والروماتيزم. ولكنهما لم تكن أخف وطأة وألماً، لأننا لم نكن نمتلك أي دواء. كنت أدواها جميعاً بزيوت الزيتون.

عندما أصيبت مناريا بمرض فقدان الشهية، كانت تغلي من فرط الحرارة وتصاب عرقاً وهي طريحة الفراش الذي كانت تلازمه طوال النهار. لذلك كنت أواظب على تنظيفها بالماء وتجفيفها أربع أو خمس مرات في اليوم الواحد. ثم كنت أضع لها فوق مكان الألم علبه الحليب الصغيرة الممتلئة بالماء الذي تقوم عاشورا بتسخينه، كان هذا هو العلاج السحري لنا في كل أزمات الهلع التي كانت تصينا.

كانت ميمي أكثرنا عرضة للإصابة بالمرض. كانت نوبات الصرع تنهك قواها ولا تغادرها إلا بعد أن تكون قد امتصت كل طاقتها. والانقطاع عن تناول المهدئات كان يصيبها بالاكشاش. قضت حوالي ثلثي سنوات وهي ممددة في الفراش، كنا دائماً نجبرها على النهوض من فراشها، وعلى الاستحمام.

المسكينة ميمي كانت تعاني أيضاً من داء البواسير. مما كان يفقدها كميات كبيرة من الدم يومياً. كنت يومياً أنظف جروحها بالماء والصابون منعاً لاستمرار التزف، وهدف تخفيف الألم. فقد كان من المستحيل وهي في هذه الحالة أن نذهب إلى الحمام. فضلاً عن أنها فقدت شهيتها للطعام. في آخر المطاف، خسرت ميمي كل صحتها، وأصبحت معلقة في هذه الحياة بخيط واهن جداً، بدون طعام مع نزيغ مستمر. أصبحت تعاني أيضاً من مرض فقر الدم، ومع هذا كانت تتحلل بالتجلد والصبر. فلم نسمعها يوماً تشكو أو تتذمر. رجوت بورو مرة أن يرسل لها الطبيب ولكن محاولتي باءت بالفشل. كانت لثتها بيضاء اللون، ولونها أصفر بالإضافة إلى أنها فقدت أظافرها.

كانت تتلاشى أمام أعيننا تدريجياً، دون أن تتمكن من أن تفعل لها أي شيء. عدا عن ذلك، كنا أحياناً نحتك مع زوار يحملون ميكروبات كثيرة. عندما تمطر السماء بغزارة، كانت الضفادع تتساقط على الأرض، فنلتقطها ونضعها في الأسطل بأعداد كبيرة كي نعطيتها لأخي عبد اللطيف الذي يفتر إلى الرفقة والألعاب، عليها تشغله بعض الوقت وتسليه، وتدخل السرور إلى نفسه.

كذلك كانت الصراصير الضخمة السوداء اللون رفيقا الدائم. في الليالي التي كنت لا أنام فيها بسبب آلام المفاصل، وأنا مستلقية في العتمة، كنت أشعر بهذه الصراصير فوق جسدي وهي تدغدغ جلدي.

كانت زنزائتنا تحت خزان الماء الرئيسي: الجدران ترشح بالرطوبة، حتى في فصل الصيف، وكان البعوض يجد فيها مرتعاً خصباً له. كانت تغطي السقف خلال النهار وفي الليل كانت تهاجمنا وتلسعنا، أصوات أزرها كانت تصم الأذان كهدير الطائرة. كنا ننظم مسابقة فيما بيننا، من يقتل أكبر عدد من البعوض فإنه سيفوز ببيضة كاملة. كانت ماريامي بطلة عملية التطهير والإبادة، وهي التي تفوز بهذه اللعبة. كل ربيع كان السنونو يأتي ويقيم فوق الحائط الصغير المقابل لزنزائتنا. كان فرحنا به لا يوصف، فهو يسلينا عن همونا وأفكارنا بعض الشيء ويقضي على الملل والروتين. على مدار أسبوعين كنا نواكب نمر كاته ونصرفاته أولاً بأول. كان هناك زوجان يوظبان على المجيء إلى ذلك المكان على مدار إحدى عشرة سنة. لقد شيدا عشهما وتزاجيا، ووضعت الأنثى بيضها. كنا نواكب كل مرحلة بملاحظاتنا وتعليقاتنا، ولطالما استوقفتنا مرحلة الحب والتزاوج. على ما يبدو أنها كانا لا يكتفيان بمرة واحدة. استتجنا ذلك من أصواتها ونمر كاتها خلال النهار. لكن طيور السنونو كانت تحمل معها كذلك البراغيث التي كانت تَحْرُزُنا بدون هوادة. كان يحلو لها الوخز تحت الإبط، وما بين السيقان، الألم الذي كان يتسبب لنا به وخزها لا يطاق، ولم تكن نتوقف عن الحك حتى ينفر من جلدها الدم. وبعد عدة أيام من ذلك كانت المواضع تتفخ وتتورم، ما كان يسبب لنا ألماً أثناء المشي أو احتكاك الفخفين. ولكننا كالعادة كنا نعلق على آلامنا ومصائبنا بروح متهمكة وساخرة ونقل النبأ إلى الآخرين على هذا النحو:

- قضي الأمر، لقد صار لكل واحدة من البنات خصيتان.

كانت الفران أكثر لطافة. كانت صغيرة، سريعة، وتختبئ في كل زاوية ومكان، وتخرج ليلاً

من جحورها، وتسلق أسرتنا. كنا نتقبل حضورها أكثر من الجردان التي كانت تجتاحنا بالرغم من كل التدابير الاحترازية وماسحيق البودرة، والمصائد التي كنا نصبها لها، سيما في مواسم الجفاف. وصل بنا الأمر إلى تبني إحدى الفئران، أسميناها بينغون، الاسم الملكي لتاليرون، لأنها مثله تمتلك رجلاً أقصر من الأخرى. ولقد ماتت المسكينة أخيراً لكثرة ما كانت تأكل. إنه لغز يصعب فهمه واستيعابه، في الوقت الذي كنا نعاني فيه من شدة الفاقة والجوع، كانت هذه الفئران تستوطن الأماكن التي كنا نضع فيها موادنا التموينية بدون حبيب أو رقيب. كانت تلتهم كل ما تقع عليه، والأنكى من ذلك أنها كانت تخلف وراءها قناراتها دون أن تجد في ذلك أي إخراج. كنت أمتلك جلياباً صوفياً بلون الخوخ وأحفظ به معلقاً خلف الباب لوقت الحاجة سيما عندما يبدأ موسم البرد. ومرة، ذهبت لإحضاره كالعادة في مطلع كل شتاء، فكانت المفاجأة، لم يبقَ منه إلا أشلاء ونشف متناثرة. لقد قرضته الفئران التي لم تكن توفر أي شيء تصل إليه أنيابها.

طوال أشهر، ظلت تتبع من الزنزانة رائحة منفرة كريهة. احترت في أمري، وحاولت معرفة السبب. استحمت، غسلت ملابسي، نظفت المكان. لم يتغير الوضع. طلبت من الفتيات مساعدتي على تفتيش الفرش. الطامة الكبرى، أن فأرة كانت تعيش مع صغارها داخل الفراش، لعلها وجدت في هذا المقر الدفء الذي كانت تشده وتبحث عنه، وأنا أتمدد فوق الفراش، سحقته جميعاً؛ أخرجنا جثتها الهامدة. كاد يفضي علينا من تلك الرائحة النتنة.

لا بد من الإشارة أيضاً إلى الجراد، الذي كانت أصواته المزعجة تنقب أذناننا، والذي كان يتغلغل في كل مكان، ما إن يصبح الطقس حاراً. ولا أنسى كذلك صديقاتنا العقارب التي كانت تقوم بجولات استطلاعية في أرجاء زنزانتنا للاطلاع على سير أمورنا.

كانت الجردان هي أكثر ضيوفنا تخويفاً وترويعاً لنا. في الليل، ما إن يدار المولد الكهربائي حتى كانت تهب لزيارتنا. كنا نترقب مجيئها واتحامها بهلع وخوف. ونحن نتفوق في أسرتنا، والدماغ متجمدة في عروقنا. الغريب أننا كنا نصاب بنوبات من الضحك ونحن نعلق على مجيئها. كان يحلو لها التنافس والتسابق بعدائية باتجاه زنزاناتنا وتجعجج بالتسلل إليها من تحت بابها المصفتح. أصوات تدافعها كانت تمزق الصمت، وتبعث الارتعاد في فرائصنا. ما إن تتسلق أسرتنا، حتى تبدأ بالقفز والتجول

فوق أجسادنا المتشنجة من شدة الملح والرب. الحق يقال، لقد كانت «نبيلة» وأخذتها الرأفة بنا فلم تحاول ولو مرة واحدة أن تمضنا.

عندما عمد الحرس إلى نصب كمان وأفخاخ لها، ازدادت عنفاً وشراسة. فالجفاف ضاعف من جوعها ونهمها. فأصبحت لا تتورع عن المجيء إلينا في عزّ النهار، للبحث عن أي شيء تلتهمه. إحدى الإناث، السميات، كانت دائماً تجر في إثرها جرذين صغيرين، كنت قد سمعت مرة بأنها عادة تحمل معها البراغيث التي تسبب الإصابات بوباء الطاعون، أردت أن أتأكد من ذلك بنفسي، لذا عاجلت، بمساعدة الفتيات، إلى حشر أحد صغارها في زاوية، ثم وخزته بعصا صغيرة كنت أحملها لهذه الغاية. ملايين البراغيث الحمراء اجتاحت الزنزانة. كدت أتيأ من فظاعة منظرها وهي تغطي كسادة أرضية المكان. لذا قررت أن أباشر فوراً في شن الهجوم. طاردت واحداً منها بعد أن سدت المنافذ بإحكام في وجه الباقي. أهويت عليه بعصاي بكل عزم وتصميم. الخوف والغضب ضاعف ثلاث مرات من حجمه الطبيعي، أصبح شكله يشبه هراً برياً. نظر ليّ بشراسة واستفار، وكثر عن أنيابه الأمامية متحزراً للهجوم.

دبّ الملح في قلبي. لكنني تمالكت نفسي وتجلدت. ورحت أهس في داخلي:

- هيا... دعي الخوف جانباً... تشجعي إنه ليس إلّا جرذاً... فلماذا كل هذا الجبن والتردد...؟
هيا...

ما إن هممت بتسديد ضربة له، حتى تسلق الحائط كالبرق، ثم قفز بقوة نحو رأسي... صرخت صرخة مدوية وأنا أنتفض وأتلوى... بهلع سارعت الفتيات لإنقاذي من مغالبه، وبكل ياس واستهانة رددت له الصاع صاعين حتى أجهزت عليه. اقشعر بدني، وأصبت بالصدمة، تراءى لي أنني قتلت كائناً بشرياً... الأصوات والحشرات التي صدرت منه وهو يلفظ أنفاسه... ظلت دائماً تطاردني...

تدريجياً، أخذت زيارات الجرذان إلينا تخف وتباعد، حتى أصبحت تقتصر على المجيء مرة واحدة أسبوعياً. مع أننا كنا قد اعتدنا على حضورها يومياً. لاحقاً، أخذ هذا الموضوع حيزاً في محادثتنا، فعندما كنا نسال ميمي: كم الساعة الآن؟ كانت تحيينا بتهكم ودعابة: إنها الساعة التي نتشرف فيها بزيارة الجرذان.

التهكم والسخرية

كان في تامناغت قائد درك يدعى شفيق، ارتطمت قدمه مرةً بالطاولة. المسكين لم يكن يجيد الفرنسية جيداً، ولكنه أراد أن يتظاهر أمامنا بالعكس، سبياً وأنه سمعنا تتحدث فيها بينما بهذه اللغة. لذلك استدار باتجاه أمي وقال لها جملة لم يعرف «المغفل» أنها كانت «مكسرة». فبدلاً من أن يقول: ارتطمت قدمي بالطاولة، قال: ارتطمت قدم الطاولة بي. كدنا ننضجر جميعاً بالضحك، لولا عون الله ورحمته. أحد الرقباء يدعى الرئيس إبراهيم، أطلقنا عليه تسمية «كاباسيكو»، وهو اسم طبّاح كان يعمل لدينا، ويشبهه كثيراً. كان هذا الرقيب يمشي دائماً وهو يدندن، ويضع يديه في جيبيه، في أحد الأيام، بينما كنا نتحدث وإياه، أشار بسبابة إلى رأسه وقال لنا:

«كل ما لدي موجود هنا، كل الإليكترونيك يخرج من هنا.

منذ ذلك اليوم، أصبحنا كلها أردنا أن نقول إن فلاناً ذكي، نشير بسبّاباتنا إلى رؤوسنا، مثله تماماً، وننضجر بالضحك.

روح التهكم والسخرية سمحت لنا بالبقاء والصمود خصوصاً أنها كانت تتجلى في أقصى لحظات الفجعة والألم. وكلما اجتاحتنا المأساة والأحزان ازدادت هذه الطبيعة فينا تمهراً وحضوراً. أصبحنا على هذه الشاكلة منذ اللحظة التي توفي فيها أبي، لا نجد وسيلة أخرى نعبر فيها عن خيبتنا، وحزننا، وألنا، ومعاناتنا، إلّا بالضحك، والتهكم والسخرية.

كنا نلتذ بالسخرية من كل شيء، من مصائبنا، ومن همومنا، ومن الآخرين، ومن أنفسنا. التهكم والسخرية كانا ردنا الوحيد على الظلم والقهر، والجور، والتعنت، وتكالب الزمان علينا... باتت لنا لغة خاصة مليئة بالغمز واللمز والإشارة والرموز. لا أحد يفهمها غيرنا. هذا التواطؤ فيها بيتنا أردنا من خلاله أن نحتمي ساحتنا، ونفرض طوقاً دفاعياً حول أنفسنا بقينا من كيد المعتدين وشرهم.

في ذلك الجو البوليسي الإرهابي، اضطررنا إلى استنباط نظام الرسائل السرية التي كنا نتبادلها غالباً فيما بيننا. من كان يسمعها كان يظنها بلا معنى، لأنه لم يكن لها أول ولا آخر... فمثلاً كنا إذا أردنا أن يُبلغ أحدهنا الآخر بأن المهمة التي كانت مطلوبة منه قد نجح بإتمامها كان يقول: عاد القندس إلى سيدتي بالرمح الصغير...

وإذا أرفق الجملة بتمتة خرساء من بين شفثيه فمعنى هذا أن النجاح كان باهراً. وإذا كان أحدهنا

يتحدث مرة واختلطت الأمور عليه، فلم يعرف كيف يعبر عما يرمي إليه، كنا نعلق بأنه «في طريقه إلى مالاغوا»، لأن الرحلة الجوية إلى مالاغوا كانت عادة محفوفة بالمطبات الهوائية. هذه الرموز فيها بيتا ما زالت سائدة، إذا أردنا أن نمرر لبعضنا رسالة سرية معينة، ولا نرغب أن يعلم بها أحد من الحاضرين.

الأميرة نزهة، شقيقة الملك، ماتت في أيلول/سبتمبر ١٩٧٧ في حادث سيارة. سمعنا النبأ عبر المنيع، وأحزننا لأننا كنا نحبتها كثيراً. توثبت لدينا روح التهكم فسارعنا إلى هذا التعليق: لو أنهم يخرجوننا من هنا كي نكون في عداد «الطُّلَبَة»^(٤).

هؤلاء «الطُّلَبَة» بجلايهم البيضاء، يتم استئجارهم لقراءة القرآن على الميت، وكان معظمهم من المرتزقين، وأكثر ما يستهويهم في عملهم هو الولائم والمآدب التي يقيمها أهل الفقيد إكراماً لذكره، فما بالك إذا كانت هذه العائلة ملكية أو بورجوازية. ساعثذ يكونون على موعد مع ليلة القدر، وتفتح لهم أبواب الرزق من السماء. لذلك رحنا نحلم ونحن في السجن ونتمنى لو أن بمقلورنا الذهاب إلى هناك متكرين بجلايب «الطُّلَبَة» البيضاء، كي توجه فوراً إلى المواعد لنحتمل ما نستطيع تحميلة، ونأتي به إلى سجننا. نعم إلى هذا الدرك الأسفل انحدرو سقف طموحنا وأحلامنا.

كل واحد منا كان يمتلك عدة ألقاب، حسبما تقتضي الظروف وتستدعي الحاجة. كانت ماريا «هياسيلاسي» أو «نيجي» لأنها كانت شديدة النحول. ورؤوف كان «بوينو، ملك البطاطا» أو «مونش» أو «جيجي المشاكل»، وجيجي اسم كلبة صغيرة كان يفتيتها أبي، كانت تدور دائماً حول نفسها تماماً كما يفعل رؤوف غالباً، و«المشاكل»، لأنه كان يمر على نفسه المشاكل والمتاعب...

كانت ميمي «بتي بول»، على اسم دب والت ديزني الصغير لأنها كانت تشكو دائماً من البرد، وأيضاً كانت «ميمي الخبازة» بسبب حبها للخبز. في نطاقنا الخاص جداً، كنا نناديها أحياناً بـ«بببير الذرة»، أطلقت أمي عليها هذا اللقب في لحظة تملل بلغ أشده «لقلة درايتها وتبببرها». قالت مرة بغضب بعد أن خرجت عن طورها بعدما رمت بصحن الطعام أرضاً، وحطمت سطح السخانة التي كنا ندفيء أيدينا فوقها.

—إنها بلهاء مغفلة، لا تحسن القيام بأي عمل. كلما لمست شيئاً أعطته.

أردت تخفيف الاحتقان فقلت لها:

- لا يا أمي، إنك غطت تماماً، إنها ستصبح عبقرية. فالبرت آينشتاين عندما كان يجري أبحاثه على الذرة، كان هو أيضاً أموج مثل ميمي وكان يشعل الحرائق طوال الوقت.
ومن لحقتها غدت ميمي «بيير الذرة»، ما إن تأتي بأي حركة خرقاء حتى نناديها بهذا اللقب ونحن نضحك.

أما سكية فكان صدرها يضيق لأي دعاية نوجهها إليها. اكتفينا بتسميتها علناً «شارلي»، وسراً من وراء ظهرها: «بوب سمين جداً، ليتحرك بسرعة أكبر»، إشارة إلى استدارتها وسمتها، إنها إحدى الجمل المأخوذة من الدروس الإنكليزية التي علمتهم إياها عندما كنا في تامناخت.
أما أنا فقد كنت «هتلر»، «مازارين»، «موسوليني»، «ستالين» بسبب شخصيتي الأمرة، وميلي الدائم للإمساك بزمام الأمور.

أطلقنا على أمي وعبد اللطيف تسمية «وسيلة ويورقية»^(١٠) إشارة منا إلى تلاصقهما الدائم، وارتباطهما المتين ببعضهما البعض. كنا ننادي أمي أيضاً «سيغموند» نسبة إلى سيغموند فرويد لأنها كانت تفسر نفسياً كل الظواهر التي تحيط بها. كذلك كنا نلقبها بـ«گران بيكسو»، بسبب تبذيرها وإسرافها مع أنها أصبحت معدمة وفقدت كل ممتلكاتها. عاشورا كانت «بارنايه» أو «ببي».
أما حليلة التي كانت مهووسة بالاعتناء بشعرها، فكانت تلملم الأعشاب من الباحة لهذه الغاية وكانت تحب شعرها بمتدليل تعقله حول رأسها. وبالرغم من ذلك، كانت تظهر منه خصلتين على شكل أذني «دنفو». ارتأينا أنه الاسم المناسب لها.

فيما بيتا، كنا نلقب أبي بـ«الذئب الشرير»، أو بـ«موسي ديك»، ملك البحر، هذا اللقب أطلقناه عليه عندما قضينا برفقته نهراً كاملاً على شاطئ البحر، وكان يرتدي سترة نجاة ضخمة ويقوم بالتزلج على الماء. عندما كنا نتذمر مما أقدم عليه، وكلفنا ما نعيه من السجن، كنا نردد بتهمك وسخرية لاذعة: كان أفضل لـ«موسي ديك» لو أنه مات غرقاً في ذلك اليوم، فلولا لما كنا نحن هنا، ولحظي هو بعد موته بحداد وطني على الأقل...

عشرون عاماً خارج الزمن

بفضل المذياع الصغير، كنا على علم بكل ما يجري حولنا من أحداث. رؤوف الذي كان يستمع

إليه طوال النهار، كان يزودنا بكل المستجدات العالمية. كان يمضي ساعات بكاملها وهو ينقل إلينا كل ما التقطته أذناه من أنباء. عبر التمديدات التي وضعناها، كنا نستمتع نحن كذلك لكل برامج البث الإذاعي، الأدبية، والأخبار السياسية، المغربية والفرنسية. كنا نتابع محطات راديو فرنسا الدولي، وفرانس أنتر، وأوروبا الأولى.

لم أكن أفوت أبداً، ومهما كلف الأمر، برنامج «راديو سكوبي» لجاك شانسيل، و«بوب كلوب» لجوزيه آرتر. كنت أستمع إلى حكايات جان بيير شابرول التي كان يرويها بصوته الأجش. كذلك البرامج التاريخية لآلان ديكو. البرنامج الذي كان مفضلاً لدى أمي هو «ما يرغب المستمعون». كنا نحب أيضاً مابشا بيرانجييه وجان-بيير الكباش، جاك براديل، كلمتين سيلارييه، آلان ديه شالفرون... وحيث إننا لم نكن قد شاهدناهم من قبل رسمنا لهم في أذهاننا صوراً تتماشى مع أصواتهم: لقد كانوا أصدقاءنا في محنتنا، ورفاقنا في وحدتنا، إننا ندين لهم بالكثير... لأنهم ساهموا في دعم صمودنا، واستمرار مقاومتنا.

كانوا هم بمثابة صلة الوصل بينا وبين الحياة التي كنا نعيش على هامشها. مثل غريق ينتظر فوق الجزيرة قارب الإنقاذ، كنا ننتظر على أحر من الجمر مواهيد برامجهم. في منتصف الليل كنا نستمع إلى برنامج «الخط المفتوح»^(١) لغونزاغ سان بري. عندما كانت تصدح مقدمة البرنامج الموسيقية التي أعدها إريك ساتي، كان الصمت المطبق يعم زناناتنا. كان يتهيا لنا جميعاً أنهم كانوا يخاطبوننا نحن فقط. غدا صوت المديعة أليفاً للدرجة أنني بت مقتنعة أنها تعرفنا، ولن تتأخر بالتطرق إلى ذكرنا، باعتبار أننا أصدقاء مقربون لها.

في إحدى الأمسيات كان ميشال جويرير يتحدث عن المغرب، فيها كان غونزاغ سان بري يتوجه إليه بأسئلة حول البرابرة. بدأ قلبي يخفق وجف حلقي، حبست أنفاسي ورحمت أصغي إلى الحوار بكل جوارحي. حدس خارق أعلمني بأنهم سيتطرقون بحديثهم إلى ذكر عائلتي. لم يطل الأمر حتى طرح عليه غونزاغ السؤال التالي:

- ميشال جويرير، أليس الجنرال أوفقيير رمز هذا الشعب المعتز بالصحراء؟

وافق الوزير على كلامه بشكل ضبابي، وقفز بسرعة إلى موضوع آخر. في العتمة التي كانت تغلفنا، انتابتني فرحة عارمة، لم أستطع أن أفسرها. سمعتهم يذكرون اسم عائلتي، يعني أننا ما زلنا

موجودين في أذهانهم، جميعاً، ولم نمت، وأنه بإمكاننا العودة إلى الحياة من جديد يوماً ما. كان السور الذي يفصل بيتنا وبين العالم الخارجي سميكاً جداً، وكانت المواد الغذائية تصلنا مغلفة بالجرائد وكذلك اللحوم والخضار، كان الحراس يسارعون إلى تمريقها كي لا تصل إلى أيدينا، ونكتشف من خلالها التواريخ والأحداث. بالرغم من كل احتياطاتهم، كانت عاشورا وحليمة تنجحان من حين لآخر بتهريب قصاصة من إحدى الجرائد خلسة عن أعينهم. بهذه الطريقة أيضاً وصلت صفحة جريدة شبه ممزقة عليها صورة امرأة جميلة شبه عارية. خباها رؤوف بجانب مقتنياته الثمينة الأخرى كالمذايق، والميكروفونات... كنا نسخر منه ونسأله بدعابة عن أخبار «خطيته العزيزة»... إلى أن وصلته قصاصة جديدة، بالوسيلة عينها، وكانت كناية عن صورة أحد الثقابيين، بشارين طويلين، وهلى شيء من السمنة. كانت فرصة له ليرد لنا الصاع صاعين، فراح بدوره يسخر منا قائلاً بأن هذا الرجل الطريف يصلح حبيباً لي أو لأمي...

مرة أخرى، كان دوري كي أحصل على صورة لاعب كرة قدم بقمته الرياضية المشوقة، كان من الصعب عليّ أن أمنع نفسي من الإعجاب به. كنا جميعاً مغرمين بكرة القدم، وأولهم أنا. خلال مشاهدة دورات كأس العالم لكرة القدم، كنا نضع متديلاً في أيدينا، نعض عليه، كلما تحمستنا، بدلاً من الصراخ سبياً عندما كانت فرنسا تشارك في اللعب.

مازلت أتذكر جيداً المباراة الشهيرة التي جرت سنة ١٩٨٢، بين فرنسا وألمانيا. كم كانت خيبتنا كبيرة عندما خسرت فرنسا بضربات الترجيع أمام ألمانيا. قامت أمي بصنع كرة قماشية لعبد اللطيف من بقايا الخرق، كان يلعب بها داخل الزنزانة، وراح يقذفها بقدمه باتجاه الجدران.

بعدما شرحنا له المبادئ الأساسية لهذه الرياضة أصبح من أشد المتحمسين لها. عبر المذايق، عايشت موضوع «الحركات النسوية»، و«التحرر الجنسي». لولا ظروفنا القسرية آنذاك، لكنت بدون أدنى شك ناضلت في صفوفهن، ودافعت عن مطالبهن الحقة. كنت معجبة ببثوات وفلورا غرولت وديميريل سيرف وبنجاح ريجين دي فورج الباهر في روايتها «الدراجة الزرقاء»، لقد حسدتها قليلاً على النجاح الذي حققته عبر هذه الرواية، وأجبرت نفسي على العمل بجهد على قصصي وأن أسرد بأسلوبي الخاص بعض روائع الأدب العالمي.

بمرور السنوات، أصبح للمذايق بدوره أيضاً مصدراً للألم والمعاناة، عندما كنت أسمع أنه تم إخراج

فيلم ما، كنت أقول لنفسي بتحسر: ربما كان يمكنك أن تحصل على دور، لو...
وعندما أسس روبير حسين فرقة المسرحية، لم تمنح لي ليلة واحدة لم أحلم فيها بالانتساب أنا أيضاً
إلى فرقة.

عندما كنت أسمع المذيعين يتحدثون عن «الاختراعات الحديثة»، عن التلفزيون الملون، والشرائط
الممغنطة، وآلة الفيديو، والكمبيوتر، وطائرة الكونكورد، أو قطار السرعة القصوى، كانت هذه
الأنباء تذكرني بمصيتي الكبيرة، وبمدى تخلفي وابتعادي عن عجلة الحياة التي كنت أعيش على
هامشها.

كنا نوهم أنفسنا بأن كوكب الأرض، لدى خروجنا من هناك، سيكون بأبهى حله، وسيتمكن أن
نحقق ما نشاء من رغباتنا بكبسة زر، كما يحلو لنا، وبدون عناء نحصل على الفطور، والعشاء، وتنجز
أشغالنا اليومية. كنا نستمتع كثيراً في رحلة الخيال والمخيلان.

ولكن ما إن نصحو من تلك الأحلام، مع انتهاء البرنامج الإذاعي، حتى نجد أنفسنا مدفونين
أحياء بين أربعة جدران ملهتة تحت الأرض السابعة. كل شيء في الكون يتغير ويتبدل إلا مصيرنا
وقدرنا...

الليل

لم يعد هنالك من شيء نفعله إلا التفكير، والتأمل، والتساؤل طوال النهار. كان رأسنا لا يكف
ثانية واحدة عن العمل. أما في الليل فحدث ولا حرج، كان الماضي ينهال عليّ كالسيل الجارف،
ليقلب مواجعي ويؤلني. أهرب إلى الواقع الحاضر، أجده حالكاً مدلهماً، أفر إلى المستقبل... إنه سراب
لا حقيقة.

عندما كان أخواتي يقلدن لي النوم، كنت أنهض من فراشي، أنظر باتجاه الكوة في أهل الجدار،
أبحث بعيني عن أثر للساء. أريد أن أعاتب الله وأسأله لماذا يفعل هذا بنا؟ لماذا؟ المسكينة أمي ما
زالت تصر على التمسك بعبادته وبمحبه رغم تلك الشرور التي تنتشر في الأرض؟

أما أنا فكنت كلما خاطبت وجهه له شتى التهم، ولطالما عتبت عليه ولته، واعترفت له بأنني لم أعد
أؤمن بوجوده... لكنني كنت دائماً أعود عن جهلي بطلب المغفرة منه وأرجوه أن يقبل عذري، ربما

كنت أخاف من عقابه وانتقامه. لأعرف لماذا كان تتجاذبني نحوه سلسلة من المشاعر المتناقضة. بعدما كنت أفرغ من نوبة غضبي، كنت أراجع عن كل ما أعلتته من مواقف سابقة حياله، فأقول له: أراجع عن كل ما قلته. فلنبداً من الصفر، ولكنتي أحذرك. إنني أنتظر منك إشارة...

انتظرت معجزة من السماء، لكنها لم تأت. يبدو أن قدرنا الأسود لن ينتهي.

كنت أنتظر مجيء الليل بفارغ الصبر كي أنعم ببعض الحرية. في النهار، كنت أضغ قناعاً. كنت مليكة القوية، الأمرة، التي تبث الأمل والحياة في نفوس الآخرين. ولكن، ما إن يلوح الغسق حتى ألقى دروعي جانباً. أخيراً أشعر بأنني قريبة من سائر البشر. فهم مثلي يشعرون بالنعاس، ويرغبون بالنوم. ولكن هل تطاردهم الأشباح والكوابيس التي تطاردني؟

كنت لا أكف عن التفكير الدائم بأبي. في السنوات الأولى، كنت أراني مسؤولة عن موته. ربما كان بإمكانني أن أفعل شيئاً ما لإتقائه. كنت فتاة مستهترة، لا يعول عليها. كم كنت أرتعب كلما تذكرت طريقة إعدامه، إنها صورة فظيعة، تضغط على صدري وتخنقني... كيف استطاع أن يتحمل كل تلك الوحشية والإذلال. كلما تذكرته غلى الدم في عروقي ونشهنى الألم والغضب واللوعة. أريد أن أتفجر ذرات متناثرة كي أشفي غليلي.

قاومت من أجله الملك. هذا الإسم الذي أراد محوه من الوجود، يجب أن يبقى دائماً رمزاً للشجاعة.

لا شك أنهم يخبرون الملك عن صبرنا وتجلدنا بالرغم من كل ما أنزله بنا. موقفنا المقاوم المتحدي يعني أننا نتصدى بكل عزم ونحد لكل أنواع العقاب الذي يريد الملك به أن يكسر شوكتنا، ويخني رؤوسنا. ولكن لا، لقد خاب ظنه، لأننا، أكل أوفقي، لا نموت إلا وقوفاً. إنه قدرنا، وخيارنا الوحيد، لا مجال أبداً لأي مساومة أو مقايضة.

لطالما تساءلت في سري: ترى لماذا فرض الحسن الثاني علينا هذا الموت البطيء، ولم يقتلنا فوراً؟ لكان بهذا هوّن علينا وعلى نفسه.

هذا السؤال كنت لا أنفك أطرحه على نفسي في خلواتي. وناقشناه عدة مرات أنا، وأمي، وأخي رؤوف، ولكن دون أن أجد إجابة مقنعة تفسح حذاً لتخطي وحيرتي، حتى توصلت بحلمي إلى خلاصة في أحد الأيام مفادها ما يلي:

لعل إبقاءنا على قيد الحياة مرده إلى جو التوتر والاضطراب الذي كان يسيطر آنذاك على البلاد، التي كانت قد خرجت للتو من انقلابين عسكريين متتاليين، الأمر الذي زعزع أمنها واستقرارها وأدى إلى حالة من الغليان والاحتقان على الأرض. وللملك لم يعد موضع إجماع عام، بعد أن كان دائماً أمير المؤمنين ممثل الله على الأرض. لقد أصبح يعاني من العزلة السياسية، ولم يعد محاطاً برجال أقوىاء كأبي على سبيل المثال، كي يساعدوه على الخروج من هذا المأزق السياسي، وإعادة إحكام السيطرة على مقاليد الأمور. بعد تلك الضربات السياسية والعسكرية التي تعرض لها، لم يستطع الخروج من مرحلة الزعزعة والفراغ. إذن المناخ العام لم يكن ملائماً البتة في تلك الآونة للقضاء علينا مع ما قد يمكن أن يترتب عليه من نتائج خطيرة.

لقد سمحت له المسيرة الخضراء باستعادة نفوذه نوعاً ما داخل البلاد، وبإعطاء المغرب دوراً في الساحة الدولية. لقد أجاد توظيف هذه القضية جيداً: التغطية الإعلامية التي رافقت هذا الحدث كانت ضخمة ومدروسة، وعادت عليه بنتائج باهرة ومرضية. لقد ساهمت هذه المسيرة في تهميش قضيتنا، وطمئنا ملفنا في الأذهان.

فلماذا بخاطر إذن بالقيام بأي عمل قد يؤدي إلى إعادة نبش هذه الأحداث مجدداً؟ فلتبق الأمور على حالها، معلقة. وهكذا بدلاً من أن يجهز علينا ويرمينا، تركنا نموت في غياهب السجن المظلمة موتاً بطيئاً.

لا شعورياً حاولت مرة أن أعطي للمسألة تفسيراً نفسياً وعاطفياً. فقلت لنفسي إنه ربما كان يتنازع شعوران متناقضان، ما بين الكره الذي يكنه لنا في الوقت الحاضر، وما بين المودة القديمة التي كانت توحدنا وتجمعنا. كلما ازداد صراعه الداخلي ومعاناته كلما رغب بالاعتصام بنا أكثر، نحن الأطفال، ذرية هذه السلالة، وأيضاً هذه المرأة أُمي، الوحيدة التي تمجرات على مقاومته ومجاهدته. لا بد إذن من أن تدفع الشمن ويحمد حتّى إلى الأبد.

على أي حال، كان السجن وما زال تقليداً راسخاً ومعتمداً من قبل القصر، ويدخل ضمن أقصى أنواع العقاب الملكي على الإطلاق. للاقتصاص من أي معارض، يتم إخفاؤه عن الأنظار كي يُنسى اسمه ويذول من الأذهان، ويترك كي يموت بمفرده موتاً بطيئاً. إنه أشبه ما يكون بالدفن الحي، وبجرد التطرق إلى ذكره جريمة لا تغتفر تمجرّ على صاحبها المصائب والويلات. بالنسبة لنا، صحيح أننا نجونا

من الموت الذي كان محتماً، لكتنا صرنا على هامش الحياة، بعد أن انتقلنا من مملكة الأحياء إلى مملكة الظل. لقد سلخونا عن كل ما يمت بصلة إلى الواقع المعاش، وراهنوا على تبدد قواتنا وتلاشيها في هذا القبر الذي وضعونا في جوفه أحياء.

كم كان هذا الانسلاخ قاسياً ومريراً. لقد كنا في عمر الشباب والثورة والحركة. كان علينا، كي نضع حداً لآلامنا، أن نخمد مشاعرنا وأحاسيسنا ونصبح كآلة صماء. كم كنت أتوق إلى الموت وأشتهيه، بات ذكره يؤنسني، وصرت أقضي الليل بكامله أناجيه، وأستصرخه أن يتحنن عليّ بنظرة، وأن يبادل شوقي بمثله.

كانت الرؤى التي نراها في منامنا تساعدنا على الهروب من السجن إلى عالم الأحلام، كنا نحاول من خلال تفسير وقائعها استقراء بعض شؤون الحاضر والمستقبل.

حلمت مرة أن الملك كان في مدينة إفران، وأنه أعلن عن مبادرة للوفاق الوطني: هذا ما تحقق بالفعل لاحقاً وذلك سنة ١٩٨٣ كما علمنا من المذيع.

حلمت أيضاً، أن حفلاً ضخماً أقيم في القصر احتفاءً بزواج الأمير مولاي عبدالله. بعد عدة أسابيع، توفي المذكور سنة ١٩٨٤.

مرة أخرى حلمت أن الملك موجود في الصحراء الغربية، وهو محاط بحشد غفير من الرجال رجال سود يلبسون جلابيب بيضاء، ويواكبه سرب من طيوز الترغل. ترقبنا هذه الرحلة بفارغ الصبر على أمل أن تعود بالنفع علينا. لقد حصلت بالفعل، لاحقاً، لكنها كانت غيبة للأمال، لأنها كانت نجاحاً سياسياً بالنسبة إليه، لكنها لم تأت بأي جديد يغير في قضيتنا.

قبل فترة وجيزة، من أخذ قرارنا بحضر نقى، رأت حليلة في منامها يوماً أبيي. كنا جميعاً مجتمعين في غرفة من طين، بدون سقف، كانت هي الوحيدة التي تتحدث معه. أعطاه حبالاً وطلب منها أن تعطينا إياه: إنه سيكون ذا نفع لنا عندما نهرب.

لأشعورياً بتنا نترقب في كل مرة أن تتحقق بعض التنبؤات التي نكون قد تكهننا بها مسبقاً خلال تفسيرنا لبعض الرؤى والمانامات.

منذ أن كان عمري خمس سنوات، وأنا أرى كابوساً مرعباً، يجثم فوق صدري كل ليلة. أراهم في ثوب رث، في حديقة فيلا باسمينة، أتسلق الأدراج ركضاً، أفتح الباب، وأقف هناك يحيط بي الظلام

الدامس. عبثاً أحاول الوصول إلى مفتاح الضوء، السواد يغلف كل شيء، والثيلا كانت مدمرة. مع الأيام، تحول الليل إلى مصدر للهواجس والآلام. لم أعد أجد فيه أي متعة. السلام الذي كنت أنعم فيه تلاشى، والوحدة التي كانت تمنحني بعض الشعور بالخصوصية تحولت إلى كابوس حقيقي. منذ بدأت أروي لهم الحكايا، قلّ نومي، وهاجمتني أوجاع الروماتيزم، دفعة واحدة. كان سرد الحكايات يستمر أربع أو خمس ساعات. لذا كانت عضلاتي تتقلص من قلة الحركة. وما إن أستلقي على سريري حتى تورقني شدة الألم وتقض مضجعي. لدرجة أنني كنت كلما تحركت، أتاوم وأتوجع. فمن كانت تعيسة الحظ مثلي، عبثاً تنشد الراحة.

الحب والجنس

كانت مناسبة عيد ميلادي مثل خنجر ينفرس في قلبي. وعندما بلغت الثالثة والثلاثين، شعرت باليأس والاستسلام. لأنني لن أعيش أبداً أي قصة حب كبير، لن أبني عائلة، ولن يحضني أي رجل بين ذراعيه، ويقول لي أحبك، هل تقبلين الزواج بي؟ كنت أجن وأفري مثل حبة فاكهة ذابلة. في الليل كنت أحلم بفارس يحطمني على حضن أبيض، يهيم بي حباً، يتزوجني، ويسعدني، يسمعي كلاماً جيلاً، ويعانقني.

لماذا أعذب نفسي بمثل هذه الأوهام المستحيلة؟ قررت أن أضع حداً لها. تعلمت كيف أسطر على نفسي، وأخنت هذه الأفكار في مهدها، لأنها كانت تضاعف ألمي، وتدمرنني. إن ما لدي من مصائب ومتاعب يكفي، ولا أحتاج إلى المزيد منها. دأبت بكل جوارحي على وأد مشاعري وأحاسيسي، كانت حرب إلغاء ضد الرغبة، والجوع، والبرد، والعطش... حولت نفسي إلى امرأة بلا عاطفة... امرأة من ورق... كنت أركز في حكاياتي على الحب الكبير، وأحاذر الاقتراب من التصويرات ذات الإيحاء الجنسي، كي لا أثير الكوامن والرغبات المكبوتة، وعقد التقص والحرماني لدى المستمعين. تعلمنا جميعاً بين جدران الزنازة كيف نخدر رغباتنا الجنسية ونكتمها.

استلزم الأمر من أخي رؤوف جهداً جباراً، لا شك أنه كان يعاني بضراوة من شدة الكبت والحرماني. لقد عاش بعض التجارب الجنسية قبل دخوله السجن، شأن كل شبان العائلات البورجوازية. كان يحاول أن يحدثنا بإسهاب عن كل مغامراته العاطفية والجنسية، أسلوبه كان فكاهياً ومضحكاً للغاية،

مع أنه كان يخفي وراءه شعوراً بالحسرة والمرارة.

لم يستغل المخازنية وضعيتنا الهشة الضعيفة كي يتحرشوا جنسياً بنا. حصل فقط مرة واحدة أن حاول أحدهم اغتصابي. بعدما تمت مصادرة المنياع، حاولت باستماتة الحصول على آخر. أصبح من الصعب رشوة أحد الحراس كي يحضر لنا الأشياء الضرورية التي تساعدنا في الحفاظ على سلامة عقولنا مثل الأقلام، والبطاريات.

وقع اختياري على الرجل المسؤول عن مفاتيح زنزانتنا، الرقيب الأول كاباسيكو، أسبوعاً بعد آخر حاولت أن أستميله، وعدته أنه إذا أحضر لي مدياعاً، فإنني سأعطيهِ المال الذي سيرسله لنا جدي فيها لو نجحنا بإعادة الاتصال به. كونه لم يقل لا، فشرنا الأمر على أنه نعم. وأخذنا نتنظر إحصاره بفارغ الصبر. لكن كاباسيكو كان يتلصقاً ويراوغ.

بعد ظهر أحد الأيام، فتح الباب في ساعة غير معتادة، ودخل كاباسيكو. طلب من الجندي الذي يرافقه أن يتنظره في الخارج. أمرت الفتيات أن يلزمن فرائشهن، أردت أن أتفاوض معه بمفردي. دفعني إلى الحائط، ألصق جسده بي، أخذ يمسح بيديه فوق جسدي. كان يتنفس مثل حيوان هائج، أصبت بالقرف من رائحته المقرزة، شعرت برغبة للتقيؤ، حاول أن يقتلني، وينزع عني قميصي، استجمعت قوتي لأبعده عني، ابتلعت صراخي، لا أريد أن أدب الرعب في قلوب إخوتي، وأزيد همهم، خصوصاً أخي رؤوف الذي لو عرف بهذا لاشك أنه سيجهز عليه. ابتعدت عنه، وأنا أرتجف، لم أحرك شفتي بكلمة، أخرستني الصدمة، وقبل أن أنمالك نفسي عاجلني بالقول:

- طلبت مني أن أحضر لك مدياعاً أليس كذلك؟

- نعم.

- إذن، لماذا التمتع والمقاومة؟ ستهترئين هنا قريباً، وسيشخ جسدك ولن ينفع لشيء. حتى وإن كنت مخطوطة، أين هو خطبك الآن؟ الجميع رموك وتخلوا عنك.

بعد صمت طويل قلت له:

- حسناً، متحصل على ما تريد. ولكن ليس الآن. إنني بحاجة إلى دليل، أحضر لي المنياع أولاً، وسأمتحك الباقي.

كنت مستعدة أن أفعل أي شيء للحصول على هذا المنياع. مع أن هذا الاستسلام بدا لي أشد سوءاً

من الاغتصاب، طوي ملف هذه الصفقة إلى الأبد، لأن كاباسيكو تملكه الخوف والرعب. غالباً ما كنا نتحدث فيها بيتا عن موضوع الجنس، كنا بحاجة ماسة إلى تعويض هذا النقص، والتفيس بأي طريقة. مع الزمن، يزول حاجز الحياء بين الأهل والأولاد تدريجياً. كنا نقول كل ما يمر برأسنا من أفكار بعيداً عن العيب والمحرمات. بعد مضي ست سنوات خلف قضبان السجن تحولنا إلى وحوش، لا نتورع عن ارتكاب المعاصي وانتهاك المحرمات. تمسكنا بالقيم الأخلاقية وحده هو الذي هاننا من الإقدام على أي فعل من هذا النوع. اهلوسات التي كانت تتابنا لم تكن فقط جنسية، بل كانت أيضاً إجرامية، وصلت إلى حد التفكير بالقتل. كنا أحياناً نقول: من أجل الطعام قد نضطر يوماً إلى ارتكاب مجزرة إذا لزم الأمر.

أصبحنا في سنوات الأسر الأخيرة مثل حيوانات هائجة في أقفاصها. تفلتت من عقالاتنا، وأدركنا ظهورنا لصوت المنطق، كان الغضب المتأجج في نفوسنا يحرك خطواتنا إلى مزيد من العنف، والعدائية، والقوة، لقد خسرنا أنفسنا، فإذا بهمنا بعد؟
فلتقط الأتعة... لم نعد نؤمن بشيء...!

عائلتي

كانت أمي مثالنا وقدوتنا، خلال عشرين سنة، بقيت متصبية القامة، لا تشكو ولا تتذمر. مع أنها كانت أكثرنا فجيعة ومصيبة. لم تحتمل مفارقة صغارها، بكّت في سرّها لأنهم جوعى، ولأنهم فقدوا كل شيء، ولأن هذا السجن قد سرق شبابهم. بشموخها وكبريائها ألهمتنا الشجاعة. فكرة ركوب الأخطار، والهروب كانت فكرتها. كانت تعلم حجم المخاطر، وتعرف أنها قد تفقدنا في خضم هذه المغامرة، ولكن قناعتها كانت راسخة لا تتزعزع. خلال تلك السنوات الرهيبة، كنا نتحدث من خلف الجدران بدون أن يرى بعضنا بعضاً، اكتشفت أهمية الصوت. كنت أستمع لحالتها النفسية من خلال نبرات صوتها، لا شك أنها كانت تستشعر كذلك حالتي النفسية. كانت شاهدة على ضياع حياتي، وعاجزة عن فعل أي شيء لإتقاضي.

علاقتنا كانت دائماً قوية: كنا نتواطأ معاً حتى في الألم.
منذ نعومة أظفاري، لم يخفّ حبي لها يوماً. إنها حزينة من أجلي وقلقة من فكرة ألا أتمكن من

إنجاب الأطفال. كانت تعتقد أن هنالك لعنة تترىس بي وتطاردني في كل محطات حياتي. كنا نرهف الأسماع علناً نلتقط صوتاً أو حركة لتصرف إحدانا ما تفعل الأخرى داخل زنازتها، لنطمئن أنها ما زالت حية لم تمت، وأن أمورهما تسير كالعادة. في الصباح، كنت أعرف أنها استيقظت، من جلبتها وهي تنظف، وتتناول الفطور مع عبد اللطيف، وتهتم به.

بعد ذلك كانت تمشي داخل المساحة الضيقة، فيها كان عبد اللطيف يلعب بكرة القدم. كنت أتابع الأصوات التي كانت تصدر عن تحركاتهم من الساعة التاسعة صباحاً وحتى الساعة مساءً. إننا نلین بالكثير لأخي عبد اللطيف. لم يعرف طوال حياته إلا السجن. كان أكرنا انسجماً مع أمي، وحياته كانت عبارة عن سلسلة متواصلة من العذاب منذ أن أبصر النور. ومع هذا كان تفكيره صائباً، وذا بصيرة نافذة. لقد تفوق علينا في هذا المجال. كان وهو يمشي يستخدم ما يعرفه ليخترع ما كنا نفعله ونحتاجه. كان في جعبته دائماً حل لكل معضلة، حتى إننا أطلقنا عليه لقب «جيو، يجيد كل شيء».

لقد اكتشف مثلاً أنه يمكننا إعادة شحن البطاريات الفارغة وذلك بوضعها تحت الشمس الحارقة، أو بتغميسها في الماء المغلي. هذا الأمر كان مهماً بالنسبة لنا، حتى وإن كانت مدة استعماله محدودة. منذ أن كنا في بير جديد لم يتوقف عبد اللطيف عن التفكير لحظة واحدة بالهرب. انتزع القشرة التي كانت تغطي الحائط، كي يجري عليها تحليلاً. بعد عدة تجارب، تمكن من اختراع جفصين بيادة مصنوعة من مسحوق التايد والطحين، واخترع كذلك نوعاً من الإسمنت مؤلفاً من الرمال والتراب. لقد ساهمت اكتشافاته بتسهيل عملية الهروب.

في تلك الأثناء شاب علاقتي بأمي نوعاً من الغموض. رغماً عني، صادت دورها. أصبحت بمثابة الأم لرؤوف وللفتيات.

ما زلت أتذكر كيف كانت ماريما وسكينة تلوذان إلى سريري وتختبئان بين ذراعي. وكيف كانتا تطرحان عليّ شتى أنواع الأسئلة المتعلقة بالحياة والكون والإنسان، والموت... كل ما لا تشجرآن على إخباره لأمي، كانتا تجربانهني به. في مثل سنهما، نشعر بالرهبة من أمهاتنا، فكيف إذا كان يفصل بيتنا وبينها جدار سميك.

لقد توليت بنفسني الاعتناء بهم، وتثقيفهم، وتأديبهم، حاولت بكل الوسائل الممكنة رفع معنوياتهم، كنت أحتهم الكبرى، وأمهم، وأباهم، ومستودع أسرارهم، ومرشدتهم وحاميتهم. كان هذا الأمر

طبيعياً بالنسبة لي. كانت العاطفة التي أكنها لهم غميقة وأقوى من مجرد عاطفة أخوة. على غرار أمي كانوا هم أكثر ما أحب في الحياة. لأجلهم وحدهم كنت أتألم وليس لأجلي.

حاولت أن أحقق لهم ولو جزءاً صغيراً من أحلامهم. أعطيتهم دروساً في الرقص إرضاءً لما رآها التي كانت تتحسر على ضياع حلمها بأن تصبح راقصة أوبرا. كذلك وضعت نظاماً غذائياً صارماً لسكينة كي لا يزداد وزنها وتصبح سمينة. سهرت على صحة ميمي، كنت عمرضة رهن إشارتها وفي خدمتها. صنعت الألعاب، والرسومات الجميلة لأخي عبد اللطيف، وكيف أنسى محادثاتي المطولة أنا وروؤف التي كانت تتم بفضل «تمديداتنا».

كان من الواجب عليّ ليس فقط محبتهم، ولكن حمايتهم والنود عنهم كذلك بأفضل ما يمكن، كي يتابعوا حياتهم بأقل ضرر ممكن، فيما لو خرجنا يوماً ما من هنا.

كنا نفكر دوماً بالذي سنفعله حالما نخرج من السجن. كانت ميمي ترغب في الزواج وإنجاب طفل. أنا وسكينة وماريا كنا نريد أن نعيش معاً في قصر في منطقة باريس، كانت ماريا ستتعلم الطبخ على الآلة الكاتبة كي تصبح سكرتيرة لي، فيما كانت سكينة تتوق إلى إعداد الولائم للمدعوين. وفيما سأصبح أنا مخرجة سينمائية كبيرة سيقين من وراء الكواليس.

عندها، سنشتري مزرعة في كندا، وسنعيش فيها جميعاً مع أزواجنا. أنا وروؤف سندرس الطب في جامعة مونتريال وسنسكن في مبنى الطلبة الداخلي. بعدما نحصل على الإجازة الطبية، سنذهب لممارسة مهنتنا في الكاميرون. وهكذا كنا نجول على كل المهن والاختصاصات، ونزور مختلف الأماكن والبلدان. الحلم عزز صمودنا وبقاءنا. وعاطفتنا المتبادلة خففت من وقع مأساتنا بعض الشيء. تواجدنا مع بعضنا البعض شكل لنا دعامة معنوية ونفسية كي تتعالى على جراحنا، وكي لا نستسلم لليأس والإحباط مثلنا كمثل الجسد الواحد.

ولإدخال الأمل والبهجة إلى قلوبنا كنا نستعيد دائماً قول العراف الأعمى في آنا: زوين، زوين بزاف.... رويداً، رويداً ستحصل المعجزة.

ليلة السكاكين الطويلة

رغم ما تتمتع به أمي من شجاعة وجراءة، ورغم ما تعرفه عن القصور ودسائسها كانت ساذجة

باستحقاق، وظلت تعتقد جازمة بأن الملك سيصدر عفواً بحقنا في ٣ آذار/ مارس ١٩٨٦، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستلامه العرش.

أما أنا فكان حديسي في محله، وما تلا لم يجيبه.

في ذلك الصباح، حوالي الساعة العاشرة، دخل الحراس إلى زنزانتنا. لم يتلفظوا بكلمة واحدة. كانوا يتحادثون بنظراتهم، ويركزون عيونهم فوق الشبايك الحديدية التي كانت فوق الباب المصفتح، وعلى هذه الزنازة أيضاً. عندما خرجوا أخيراً، بدون كلمة واحدة، بدأ كل واحد منا يعطي تفسيراً مختلفاً حول غرابة تصرفاتهم.

في اليوم التالي، في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، فتحو كل الأبواب، ودفعونا باتجاه الخارج. كنا نتمایل وترنح، لم نعد نحسن المشي، الضوء كان يخدش أعيننا.

كنا نجن من الفرح، يروية بعضنا مجدداً، إنها المرة الأولى منذ أعوام طويلة. لقد تغيرنا كلياً. منا من نما وكبر، ومنا من اقترب من الشيخوخة أو شاخ. لم تعد أُمي تعرف فتياتها اللواتي كن صغيرات. تركت سكينه وماريا وهن في الرابعة عشرة والخامسة عشرة، وهما امرأتان شابتان في الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرهما.

أصبح رؤوف رجلاً، قامته أشبه ما تكون بقامة أبي. وعبد اللطيف غداً شاباً في السادسة عشرة من عمره. وأُمي كمهددا ما زالت جميلة، ولكن آثار المصائب والهنوم والأحزان كانت واضحة عليها. شعر حليلة وعاشورا صار بلون الرماد.

غدونا جيمعاً كالجنث المتحركة، بقامات نحيلة هزيلة، وبوجوه شاحبة ممتمعة، وعيون محاطة بهالات زرقاء، ونظرات تائهة زائفة، وبشفاه جافة متقلصة، وبشعر متساقط. وبالكاد كانت سيقاننا قادرة على حملنا...

حليلة التي كانت تحتفظ بكسرة مرآة، بكت بحرقة عندما نظرت إلى نفسها فيها. لم تصدق أن هذا الشبح المرعب الذي يحديق بها كان هي.

ولكن فرحة اللقاء طغت على ما عداها. لا نريد أن ندع أي شيء يعكر صفوها وهناءها. كنا مزقنين ما بين الرغبة بالتماق والتلامس، والرفض بإظهار ما كان يحتل بداخلنا من ألم بسبب الفراق، أمام أعين جلادينا المسلطة علينا من كل حذب وصوب. لذلك لم نتخل عن تحفظنا. أذهلت تصرفاتنا

المتهاكة بورو، الذي راح يشجعنا على الاقتراب من بعضنا البعض وهو يقول: هيا تعانقوا، اعلّموا أنه بمناسبة عيد العرش، سيُسمح لكم، منذ الآن فصاعداً بالتواجد مع بعضكم بدءاً من الثامنة والنصف صباحاً وحتى الثامنة مساءً.

شكراً، لأنهم منحونا هذا الإحسان بعد مضي خمسة عشر عاماً بين قضبان زنزاناتهم. كنا نجتمع في الصباح داخل زنزانتني. دَعَمُوا القضبان الحديدية التي كانت تغطي سقف الغرفة الصغيرة التي كنا نضع فيها متاعنا. تركوا الأبواب مشرعة، كي نتمكن من الخروج إلى باحة المعتزل. بعد طعام الغداء، كنا نُحتجز جميعاً أسوية، حتى حلول المساء حيث يعاد فصلنا وتفريقنا عن بعض من جديد.

في البداية، غطت نشوة اللقاء شبح الخيبة واليأس الذي كان يخيّم على حياتنا. كانت أُمّي ترمقنا بحزن وأسى. كانت تبكي في سرّها نكبتنا، وتتحسر، لم يبقَ مثلاً إلّا عظام نائمة، وأشكال خفيفة. ومع هذا، كنا نعتبر أنفسنا معظوظين جداً، ونترفع فوق قمة السعادة، لأننا عدنا والتقينا. هذه «الحقبة السعيدة» امتدت فقط من شهر آذار/مارس إلى تشرين الثاني/نوفمبر. رحنا خلالها كالسابق نقوم بتمثيل بعض الأدوار المسرحية، كي نشغل أنفسنا ببعض الشيء، ونطرد عنا الملل. بعد الغداء، كنا نستعين بالأغطية العسكرية لتأدية المشهد، فيما كانت أُمّي تقلد «بوليدور» وهو يعتلي دراجته، كنت أنا أقوم بدور المتحدث الإذاعي، أما عبد اللطيف وماريا فكانتا يتكرران بزي المخازنية، ويقلدان لهجهم. كذلك، كنا ننظم «الألعاب البهلوانية» من وقت لآخر.

بعد أن نفتح السيرك بالقرع على الطبول والموسيقى، يدخل رؤوف أولاً وهو يحرك السوط بيده والذي كان عبارة عن مناديل صغيرة معقودة ببعضها البعض. ثم يدخل ياثره فيل صغير. إنها ميمي تمشي باتجاهه على قوائم أربع، كان نحوها مرعياً بهذا الثوب الأحمر والأسود الملصق بجسدها. عندما كان على رؤوف أن يضرب بسوطه الأرض، كان على ميمي أن ترفع ساقيها في الهواء، وكنا نحن ننضج بالضحك. لم نشع أبداً من المازحة، والملاسة، والمعاقبة.

حوالي الساعة الثانية من بعد الظهر، كان رؤوف يأخذ قيلولته بعيداً عنّا. بعد هذه السنوات الطويلة اعتاد على الوحدة والعزلة. إنه بحاجة للاختلاء بنفسه من حين لآخر، كي يتمتع بالهدوء، كان يسدّ أذنيه بطابات صغيرة، صنعها من فتات الخبز لهذه الغاية. استغرق صنعها عدّة ساعات. كانت

أحياناً تصل إلى أسباعتنا زججته الغاضبة، في وجه الفئران الصغيرة، التي كانت تتحرق شوقاً للفوز بها كان يضمه داخل أذنيه من خبز.

في المساء، كنت كالعادة أوأظب على «سرد الحكاية» ولكن بمرح وبشاشة الآن. كان يخلو لعبد اللطيف أن يضع عينه فوق ثقب محفور في حزام زنزاننا. مرةً عاين من موقعه شاحنة عسكرية، لم يتمالك نفسه من الإعجاب بها. حاول توسيع الثغرة كي يتمكن من رؤيتها بوضوح أفضل. ومع هذا ظلت الفتحة صغيرة جداً، بالكاد يصل حجمها إلى ما يساوي حجم قطعة نقد معدنية. في صباح أحد الأيام، كان في وضعته كالعادة، بدون توقع دخول الحراس. لم يكن عنده الوقت الكافي للتحرك، أخبروا بورو بأمره. حضر فوراً لمعاينة الفتحة بنفسه. قال لنا: أعلم جيداً، أنكم تبحثون عن طريقة للهروب.

كان اليوم هو يوم الجمعة. بناء على ذكائهم وحساباتهم الدقيقة، ستنهي من توسيع الفتحة بالكامل نهار الأحد.

أتلج صدري حائتهم وغباؤهم. كان الثقب صغيراً، ويقع في مكان مرتفع عن الأرض، ما يجعله بدون أدنى شك الموقع الأسوأ لحفر نفق. يا للسلاجة عقولهم! هل يمكن لعامل أن يصدق «رواية» بورو هذه...

في مساء اليوم نفسه، فرّقونا عن بعضنا بدون أي شروحات. في صباح اليوم التالي، أبلغوا أمي أنهم سيعيدونا إلى الوضعية السابقة. قررت إعلان الإضراب عن الطعام إلى أن يتراجعوا عن قرارهم، ويسمحوا لنا بالاجتماع مع بعضنا مجدداً. التقطت هذه المحادثة عبر الحائط، أعلمت عاشورا بالنبا، وهي بدورها نقلته لرؤوف.

في اليوم نفسه، باشروا بتدعيم الجدار بيناء جدار آخر أمامه. استمرت الأشغال ثمانية أيام، لم تكن خلالها نعرف ماذا كانوا يميكون لنا. كادت هذه الضروضاء تفقدنا صوابنا. بعد أن كنا قد اعتدنا على الصمت المطبق.

تابعت أمي الالتزام بالقرار الذي اتخذته، امتنعت نهائياً عن الطعام. ولكنها رفضت أن نحدو حذوها. تريد أن تموت بمفردها. لعل تضحياتها بنفسها تعيد لنا حريتنا. حاولتُ جاهدة أن أثنيها عن عزمها، لأن ذلك لن يؤدي إلى نتيجة، لكنها رفضت أن تصغي إلي.

في خضم الاجتماع العائلي الطارئ قرر الجميع السير على خطاهما، باستثنائي أنا. كان يجب أن يتولى أحد منا مهمة التفاوض مع بورو. وافقت بطيبة خاطر على القيام بهذا الدور، كان جسدي هزيلًا، ولا يتحمل الصيام. فيما استلقى الآخرون في أسرّتهم، وقروا أحاديثهم، ورفضوا تناول أي شيء ما عدا الماء. حتى هذا امتنع عنه سكينه نهاراً بأكمله، وكاد يغنى عليها، لولا أنني عدت وأجبرتها على شرب قليل من الماء، وانتصرت غريزة البقاء. خلال هذا «الإضراب المفتوح»، صاروا يحضرون لنا كميات ضئيلة من المواد الغذائية. الخضار الطازجة، واللحم، والفاكهة كذلك. إنها مؤامرة واضحة. لذا تعمدت ألا أألمس شيئاً مما جلبوه لنا. كان طعمي لا يذكر، كنت تقريباً كالآخرين. في المساء، أتناول فنجاناً من الماء الساخن تسبح فيه ورقة من النعناع، كي لا أقع مريضة.

بعد مضي خمسة وعشرين يوماً، أتى بورو أخيراً كي يراني. شرع في حديث طويل ينضح بالتفاهل والتلف، يريدني أن أفزع الآخرين أن يتراجعوا عما يقومون به. وأعلن لي بأن كل ما سيفعلونه هو أن يدفئوا أول من سيموت منا. وبأن لا أحد سيتدخل لإنقاذ حياتنا. لم أعره سمعاً.

عندما أدرك الحراس بأن المواد الغذائية بدأت تتكدس. داهموا الزنزانة، كنا في اليوم الخامس والأربعين من الإضراب، ولم يتبق منا إلا الجلد والعظم. وهكذا فكل ما تكبّدناه ذهب مع الريح، لا أحد يريد أن يسمعنا.

إزاء اللاجئ من نضالنا، أطبق اليأس علينا بالكامل. صرنا الإخفاق، وقضى على آخر أمل لنا. يا لروعة الموت. يبدو أننا لم نكن حتى في عداد المساجين، كي تؤخذ مطالبنا بعين الاعتبار. وبما أن إضرابنا لا يتمتع بأي مصداقية أو مشروعية، فمن الطبيعي ألا يؤدي إلى نتيجة. كان هزالنا مريعاً. اعتدنا على قلة الغذاء. لم تعد أجسادنا تقبل الطعام. كانت كل لقمة تنزل كالسم إلى بطوننا.

طاول الاضمحلال قوتنا، وأملنا، وحياتنا. أصبح الموت ملاذنا الوحيد. لأول مرة منذ خمس عشرة سنة، كنا ننزع إليه كي يأتي ويخلصنا، وإلا سنضع بأنفسنا حدّاً لحياتنا. ما زلت أذكر كيف كانت تلك الأمسية الواقعة في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦. كانت السماء مرصعة بالنجوم، ولا يشوب صفاءها غيمة واحدة. في عتمة الليل، قطعت أمي شرايتها بمقصها الصغير.

قبل أن تلقي بنفسها إلى لجّة اليأس، كانت قد رددت لي بأنها تحبني، وبأنها توصيني خيراً بأخوتي وأخواتي. بادىء ذي بدء، لم أحرك ساكناً، حافظت على رباطة جأشي. ثم إذا كانت تريد أن تموت فلا يمت لي أن أمنعها، إنه حق طبيعي لها. رويداً، رويداً بدأ الجزع يتسرب إلى نفسي. حوالى الساعة الرابعة صباحاً، ناديت عبد اللطيف، وطلبت منه أن يتحرى إذا كانت أمي حية أم ميتة.

من وراء الحائط أجابني بهلع: نبضات قلبها ضعيفة للغاية.

هرعت إلى الباب المصفتح، وتعلقت بالشباك الحديدي ورحت أصيح وأصرخ:

- أغثوني، أمي على وشك أن تموت، ونحن على شفير الانهيار.

بحّ صوتي من كثرة الصراخ، لم يجاوبني أحد. كنت أسمع صدى كلماتي التي كانت تتردد في العتمة، شعرت بالملذلة والمهانة وأنا أتوسل إليهم وأنشدتهم أن يبتوا لإنقاذ أمي. هددتهم أن أفجر قارورة الغاز الصغيرة لتحولنا جميعنا إلى أشلاء، ما لم يتحركوا. بفزع شديد، دخلوا إلى زنازتها. سمعت صراخ بورو. لكنهم خرجوا دون أن يعتنوا بها.

شرحت لعبد اللطيف كيف يضمد لها جراحها بخرقة من أحد الشراشف، كانت أمي ما تزال تنفّس، لكنها فقدت الكثير من دمها.

نجت هي، لكننا نحن سنموت. بدأنا جميعنا بالهلوسة. اليأس المتراكم خلال هذه السنوات الأربع عشرة الفظيعة، انحطاطنا الجديد والعقلي ظهر من خلال هذه الهستيريا الجماعية التي كان من المستحيل إيقافها. حتى الآن كنا ما تزال نتحاشى الثورة والتمرد. لكننا فجأة في تلك الليلة تحولنا جميعنا إلى مجانين.

عمّ اليأس جميع الزنازات. عبد اللطيف كان يراقب حالة أمي، عاشورا وحليمة تنوحان، وتشدان شعرهما، ونحن كنا غرقى في مأساة نفسية، وأطبقت علينا الدائرة بإحكام، فلم يعد هنالك وجود للزمان والمكان بالنسبة إلينا.

«ليلة السكاكين الطويلة» كما أسميناها كانت من أفظع ما مرّ بنا في الوجود وكأنها نهاية العالم. أصبح كل شيء ممكناً. قتل الأخ أو الأخت، الانتحار، تفجير السجن بقارورة الغاز التي كانت لدينا.

كل واحد منا كان يريد أن يكون البادىء بالخطوة.

أجرينا سحبا بالقرعة، فازت سكيته، ثمّددت على سريرها. أخذت وضعية مريحة، وجلست أنا قبالتها، وشرعت في جرح منقصها بقطعة حديد من علبه السردين، وصتارة صوف.

غرزت قدر استطاعتي، اخترقت اللحم وأنا أنشج. وكان هذا جرحي. تغفّن وجهها من الألم، لكنها كانت تبسم لي. أخيراً، نجحت أن أثقب لها شرياناً. واندفع الدم. كانت سكيته تبتلع الألم، وكانت تعطي وجهها أمارات الشوة. وما لبثت أن غابت عن الوعي.

تبادلنا النظرات أنا وماريا وميمي، اعتقدنا أنها ماتت. كانت عيوننا مليئة بدموع لم تشأ أن تتساقط بالرغم من يأسنا، كنّا سعداء من أجلها، لأنها لن تتألم بعد اليوم.

عادت سكيته إلى وعيها بعد ربع ساعة. ارتعدت فرائصها وأخذت تنفض عندما اكتشفت أنها ما زالت على قيد الحياة. ألقت بنفسها على صدري وأخذت تتهمني وتقول:

- لا تريد أن تقتليني أليس كذلك؟ لا تريدني أن أموت؟

- بل صدقي، أريدك أن تموتي. سكيته صدقيني حاولت كل ما في وسعي... فشل الأمر.. انظري إلى كمية الدم التي فقدتها... إنها الحقيقة. صدقيني.

حاولت جاهدة أن أقنعها أنني لم أتعمد أن أخطيء في تنفيذ مهمتي.

بعد أن تناقشنا فيما بيننا لفترة وجيزة، فيها إذا كان ينبغي تضييد جرحها أم لا، تغلب علينا النعاس، وقعنا فوق الأسرة، لم ندر إذا ما كنا نياماً أو كان مغنى علينا.. كنا خائري القوى.

هذه المحاولات الفاشلة للالتحار، انطبعت في نفوسنا إلى الأبد. الاقتراب من الموت لم يكن مختلفاً عنه.

في تلك الليلة، بعد أن متنا جميعاً وانتقلنا إلى الضفة الأخرى، أتت قوة خفية جبارة، وأعادتنا إلى الحياة مجدداً.

استمر الكابوس حتى صباح اليوم التالي، سمعت وقع خطوات الحراس وهم في طريقهم إلى زنزانة رؤوف... ثم تعالت الصيحات المذعورة.

من تحت الباب المصفح، تابعت تحركاتهم المضطربة باتجاه زنزانتة. ليلة أمس، «ليلة السكاكين الطويلة»، قطع رؤوف هو أيضاً شرايينه. كاد ينجح... اعتقدوه ميتاً.

انتظرنا طوال النهار... دون أن يتكرموا علينا بأي خبر. في المساء، ألغوا جسده في الباحة التي

يلفها البرد القارس. حيث تركوه مستجى هناك بدون علاج أربعة أيام كاملة. كان رؤوف في غيبوبة. إن أيامه معدودة. لعل هذا ما كانوا يفكرون فيه. لم يضعوا في حساباتهم أنه ما زال قادراً على الخروج من هذه المحنة سليماً معافى. شيئاً فشيئاً، أخذ أخي يستعيد وعيه، في الليلة الرابعة، كان لا يزال راقداً في الباحة ورغم أن جسده كان واهناً، إلا أن ذهنه كان حاضراً. حين ألقوا به في الباحة وسمع القائد شفيق يتحدث إلى جنوده، تظاهر أنه ما زال في غيبوته.

ثم سمعه يتوجه بحديثه إلى بورو قائلاً:

- هذا الوضع يحول حياتي إلى جحيم لا يطاق. أشعر بالخزي والعار عندما أنظر إلى هؤلاء الأطفال المساكين. شبح هذه الجريمة التي تفرقها بطاردتي وينقص عيشي. لا أستطيع أن أساهم في قتل الأطفال. لم يعد بإمكانني المضي أكثر في هذه المهزلة، ماذا يريدون؟ قل لي ماذا يريدون؟

أجابه بورو:

- أنت لم تدرك الأمر بعد، مع أنه واضح، سيموتون جميعاً، سيدفنون هنا. وحتى يأتي أجلهم، ما علينا إلا الانتظار. هذه هي الأوامر.

كان لوقع كلامهم أثر الصدمة الكهربائية على أخي. وقدرة قادر، استجمع قوته، وعاد إلى زنزاته مغلقاً وراءه الباب.

راح الليل بطوله، يتزعج البلاط، ويوسع الشجرة الموجودة في الحائط الذي يفصل بينه وبين الممر. فعلت حليلة وعاشورا من جهتهما الأمر عينه. وهكذا، تمكنت من الاتصال به، والتحدث معه. كان هنالك جدار واحد يفصل بيننا. تمدد من جهته على الأرض كما فعلت أنا من جهتي. لم يكن بإمكاننا رؤية بعضنا. لكننا نجحنا بالتلامس بعد أن دفع كل منا يده داخل الفتحة باتجاه الآخر. كان يقبض على يدي أكثر مما يلامسها.

وأنا مغمضة العينين، كنت أستمع إلى صوته، حاولت أن أستعيد صورته، إنه نسخة طبق الأصل عن أبي.

كان يائساً لدرجة لا يتغنى معها أي طفيف أمل. صادر الحرس الراديو، عثروا عليه وهم يفتشون زنزاته، انقطعت صلتنا نهائياً مع العالم. شعر رؤوف بعقدة الذنب، وحمل نفسه مسؤولية ذلك. قال لي وهو ينشج بالبكاء:

- كيكا، سموت هنا، هذا ما يريدونه. لقد سمعتمهم. قالوا إنهم سيجهزون علينا. ومن سموت أولاً سيتم دفنه في باحة السجن.

قضيت ساعات وساعات، وأنا أحاول أن أهدى من روعه. وأبعث الطمأنينة والسكينة إلى نفسه. رحت أبدد مخاوفه وشكوكه وأعيد إليه بعضاً من الأمل الضائع. لا أعرف كيف تنسى لي ذلك. مع أن حالي كان لا يقل سوءاً عن حاله.

قلت له:

- لن ندعهم ينفذون مخططاتهم... سترى أننا سنقاوم...
بقينا في هذه الوضعية، اليد باليد حتى الصباح. كانت عيناى مطفأتين... لكن لوعتي كانت متوقدة.

ساهمت «ليلة السكاكين الطويلة»، بالإضافة إلى كلام بورو، في تغيير وجهة سيرنا. لن نكون مستلبين بعد اليوم، ولن ندعهم يعبثون أكثر بحياتنا. عادت أرواحنا إلى التوثب، والأمل، والتحدى والمقاومة...

مشروع الحرب بات متبلوراً لدينا. لا يتقصنا إلا البدء بتنفيذه.

النفق

تلقى بورو أوامر تقضي بتشديد الحراسة علينا ومراقبتنا. كل الأجسام الحادة والمجارحة تمت إزالتها، استبدلوا ما كان قد تبقى من أغراض زجاجية بأخرى من كرتونة، نزعوا الزجاج أيضاً عن المصباح، صادروا السكاكين والشوك، والفناجين، وقناني الزيت البلاستيكية التي كان يحملونها أن نضعها بعد أن نقطعها نصفين تحت الماء المغلي، فكان شكلها وهي تنكمش يشير ضحكتنا.

منذ الآن فصاعداً، كل أيام الاثنين، والأربعاء، والجمعة، في الساعة الثامنة صباحاً، كان الحرس يفتشون الزنانات بحثاً عن أقل أثر لنفق أو لثقب. إنها إجراءات الكولونيل بن عيش الذي لا يفوت فرصة لكي يستم حياتنا.

تلك المداهمات لم تكن بالأمر السهل. تصميمنا كان قوياً لا يتزعزع. لقد قررنا جميعنا الحرب. انتهى الأمر.

منذ ليلة السكاكين الطويلة»، ترسخت لدينا هذه القناعة، وعرفنا أن لا خيار آخر أمامنا. إنهم يراهنون على تساقطنا وتلاشنا. لكن لا، وألف لا، لن نسمح لهم أن يتألموا معنا بعد اليوم...
لكثرة ما كان رؤوف يرهف السمع إلى خطوات الجنود أثناء التبدل والمناوبة أصبح يعرف نوعية كل شبر من الأرض، نسبة الرطوبة فيها والارتفاع. طلبنا من عاشورا وحليمة أن تحفرا في زنزاتهما، وترسلا عينة من التربة كي يجلها. كل واحد منا فعل الشيء عينه في زنزاته.
بعد آلاف المناقشات، وعلّة تجارب عند عاشورا وحليمة قررنا أن نحفر نفقاً في الزنزاة المعتمة المحاذية لنا، تلك التي نضع فيها حقائبنا، ومؤناتنا. والبلاط كان في حالة تساعد على إخفاء الحفريات التي ننوي القيام بها.

هنالك سبب آخر دفعنا إلى اختيار هذا المكان بالذات، وهو أننا عندما وصلنا إلى بير جديد، بعد أن رفعت العصبة عن عيني، عرفت أن هذه الزنزاة تقضي إلى حقل بور. وتأكد لنا هذا الإحساس، لأننا لم نسمع يوماً أي صوت يصدر منه، أو ضجة، أو حياء، أو حتى نقيق حمار. من المؤكد أن السجّاتين كانوا قد ضغطوا على مالكه لكي يهجره.

أمي ورؤوف، مهندسا الفريق، هما اللذان وضعنا تصميماً للمشروع الذي تم تنفيذه في هذه الزنزاة المظلمة، التي تقرر نزع بلاطها. حلل رؤوف لون التراب الذي أرسكه له، وشرح لي كيف يمكننا أن نتعرف على طبقات الأرض. الصلصال يعني بأنني وصلت إلى الأساسات، وعندما يجب متابعة الحفر بشكل عامودي. كنت أصغي إلى إرشاداته بإمعان، كان يغلي من حقنه لأنه لا يشاركنا بنفسه في تنفيذ الأشغال. كان يروح ويبيء في زنزاته مثل وحش هائج في قفص.

في ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٨٧، بعد ظهر اليوم الذي قررنا فيه نهائياً المضي قدماً فيما اعترنا القيام به، نزعنا الإسمنت. ورفعنا البلاطات وذلك بملقعة، ومقبض سكين، وغطاء حلبة سردين، وقضيب حديد، انتزعناه من أسرّتنا.

وعندما أقول نحن، فإنها أقصد أنا، وماريا، وسكينة، أما ميمي فكانت ضعيفة لدرجة لا تستطيع فيها أن تساعدنا، لكنها كانت تشجعنا، وكانت فعالة عندما يتعلق الأمر بتظيف الأرض من آثار الركام.

خلال ساعتين، وبالرغم من خوفنا من أن يكتشفوا أمرنا، قطعنا مرحلة مهمة. انتزعنا ثنائي

بلاطات. وعلى مدى أسبوعين، تمزنا على أن نترعها، ونعيد إلصاقها بالإسمنت الخاص الذي اخترعه عبد اللطيف، وهو مزيج مؤلف من التراب والرماد والمطاط. بما أن هذا لم يكن كافياً، وضعنا استراتيجية كي نحقق إنجازاً مهماً بمساعدة القضيب الحديدي الغليظ الذي كنا نخفيه دائماً في أسرتنا، قمنا بتوسيع الثغرات التي كانت قد أحدثتها الجردان والفئران في الجدران، والتي كان الحرس قد سدوها بالإسمنت الذي أعدنا فتحه مجدداً. كنا نرطبه بالماء، كي لا يشتد ويقسو ويتصلب.

إزاحة البلاط لم تكن بالأمر السهل. كان يجب الانتباه جيداً وأخذ الاحتياطات اللازمة، مخافة أن ينكسر أثناء القيام برفعه، وكذلك استخدمنا مبشرة خضار قديمة لتحية الإسمنت الذي يغطيها ويمسك بها.

ولكي لا نجذب أنظار السجانين إلينا، كنا نتظر أن تتعالى صيحات طيور السنونو: هذه الضجة الجهنمية التي كنا نتوتر ونشمتز منها، أصبحت أخيراً مجدبة وناقعة لنا.

في اليوم الذي نجحنا فيه أخيراً، بإزاحة البلاطات المطلوبة وبالشكل الصحيح، انتقلنا إلى الخطوة التالية، حفر ثغرة تصل إلى مستوى الأساسات.

بعد طبقة الإسمنت التي كسرناها، بمساعدة قضيب الحديد، وقمنا على بعض الأحجار الصغيرة، ثم الضخمة. في اليوم الأول واجهني حجر بضخامة الصخرة. كان من المستحيل متابعة الحفر. نقلت هذا الخبر السيئ إلى رؤوف. قال لي بلهجة أمرة:

- اعمل على اقتلاعه.

- ولكن أين سأضعه؟

- تدبري أمرك. تريدان الهرب أم لا؟

في زنزانة أمي وعبد اللطيف عليّة مرتفعة عن الأرض. حيث توضع عادة بعض الأغراض والحاجيات. يتم الوصول إليها عبر سلم خشبي. بعد تلك الليلة الليلاء «ليلة السكاكين الطويلة» نزع الحرس السلم، وسدوا الفتحة بحائط قاموا ببنائه.

ما إن خرجوا من الزنزانة، حتى سارعت أمي ببعدها، إلى رفع عبد اللطيف فوق كتفها، كيف يعيد انتزاع إحدى اللبنة بسرعة، قبل أن يحف طينها، ويصبح من المستحيل تحريكها من مكانها.

كنا قد حفرنا حفرة ضخمة تحت سريري بين زنزانة والدقي وزنزانتنا. أخرجنا «الصخرة» بعد

تعب ومشقة حيث تمكنت أسي وعبد اللطيف من إخفائها في كوة مع أحجار أخرى أصغر حجماً. إدخال الأحجار واحداً تلو الآخر وبهذه الطريقة المتتوية لم يكن بالأمر الهين، وقد أرغمتنا بالطبع على توسيع الحفرة. كان عبد اللطيف أرشقنا في التسلق وكانت والدتي تمدد بالأحجار بغية وضعها بعناء ويشتي الحبل بين أكوام من الملابس التي استعملناها يوم ذلك ككواتم للصوت. كنا نحاول أن ننم عمليات نقل الأحجار في الوقت الذي يدار فيه المولد الكهربائي، وذلك كي لا يرتاب حراسنا.

أما الأحجار التي كانت تعترضنا ونحن نحفر التفت فكانت تستقر في زنزانة الوالدة التي كانت تمزجها في خرق ثم تحمل عبد اللطيف على اكتشافها كي يتمكن من رميها من كوة غرفتها الضيقة. كان الحراس يدققون في آثار الرطوبة البادية على الجدران وكانوا لا يتنبهون لما ابتدعه عبد اللطيف صاحب الخيال والحيل، إذ رأى أن يسد الثقوب بين الأحجار بخليط يشبه الكلس، هو عبارة عن طحين وماء ساخن كان يضيف إليه حفة من مسحوق الغسيل. وكفي يحف هذا الخليط المعجب بسرعة كانت حليلة وعاشورا تشعلان تحته ناراً توقدانها ببعض الأغصان. كان الصغير عبد اللطيف يجول وهو على أكتاف الوالدة بصحنه المليء بمسحوقه ليمحو عن الجدران آثار الرطوبة. لما تقدم بنا العمل أضحي رمي ما يعترض طريقنا من رمل وأحجار يزداد صعوبة. وكان البلاط المفرغ من الداخل سيكشف ما نقوم إن خطرت ببال أحدهم فكرة ملاسته أو القرع عليه.

صنعت والدتي من سراويلنا البالية مساند مستطيلة مختلفة الأحجام وكنا نملأها بالتراب الذي كنا نخرجه. كنا نعمل كفريق في مصنع بشكل آلي، كنت في حفرتي أملاً صفيحة زيت قديمة تزن خمسة لترات بالتراب، ثم أشد الحبل فتنبه أخواتي في الأعلى أن رفع الصفيحة قد خان فكن يرمين الفائض من التراب داخل الزنزانة ثم يخلطه بياه تكون مريم قد ملأت به الدلاء، ثم تعجنه وكأنه خبز. عاشورا وحليمة كانتا متخصصتان بصناعة الخبز وكانتا تسللان إلى زنزانتنا من كوة، كبرت مع الأيام، كانت قد شقت في الجدار الفاصل بين زنزانتهم وزنزانتنا. كان عبد اللطيف يتسلل بدووه من الكوة التي كنا قد حفرناها بين زنزانتهم وزنزانتنا كي يشار كنا هو أيضاً في تنفيذ مشروعاتنا.

كان النساء الثلاثة يصنمن من التراب أشكالاً مكورة بحجم قبضة اليد وكنا نخبئها في زنزانة الوالدة وكانت الوالدة تملأ مساندنا بها ثم تغطيها وتغلقها، وكان عبد اللطيف يمرر هذه الأكياس من

الكوة وبدورنا كنا نعيدنا إلى النفق.

بعد ليال من الحفر بلغنا الأساسات فتبدل لون التراب من الأحمر إلى الرمادي، حينها شرعنا نحفر بشكل أفقي، فبحسب نصائح رؤوف وحساباته لابد من حفر نفق طوله خمسة أمتار كي يكون مخرج نفقنا خلف السورين.

خلال عملنا لم نشعر مرة لا بثقل التراب والأحجار ولا بتعب أو جهد، وكأن قوة جبارة سيطرت علينا فجعلتنا نتصرف كحيوانات، نعم حيوانات لا بشر، تعمل بصمت وهي منكبة على عملها. كان الكلام ببيتنا نادراً، فقد كنا نتفاهم بالإشارات والنظرات.

أفقدني هذا العمل أعزائي، أما أصابعي فما عدت أميزها عن الجروح التي أخذت تغطيها، كما أضحي جلدي عبارة عن ندوب. ورغم كل تشوهاي لم أكرث لمصابي. كنا نضيء ليلاً بمصابيح نصنعها بأنفسنا. كانت الوالدة قد تعلمت صناعة الفتائل يوم كانت طفلة تعيش في الريف، وكنا نغمس هذه الفتائل في الزيت ونشعلها كل مساء.

حين كنت أخرج من جحري كنت أتناول ما إذا كنت في يقظة أو حلم فالوجوه الكالحة المحاطة بشعر مغبر والأجساد الهزيلة المضادة بأشياء شموع تضيء ما في وسعها ضوءاً رطباً ينعكس على جدران مقوية وعلى أرض مثورة بالتراب والأحجار، هذه الأطياف التي كانت تظهر لي كانت أطياف أموات ما زالت فيهم بقايا حياة لم تغادرهم.

لم يكن الحفر من الأمور الصعبة على القوارض التي تقمصناها... حوالى الرابعة فجراً حين كنا نسمع نقيق الحمار كورنليوس كنا نتوقف عن العمل ونحاول إعادة الأمور إلى حالها فنقتل النفق ونسد الكوات بسين زرناناتنا. حين بدأنا بحفر النفق لم يكن إقفاله بالأمر اليسير. لكننا سرعان ما ابتدعنا تقنيات تعيننا على إخفاء مخططنا. كنا نضع المساند الضخمة قبل المساند الصغيرة ونثبتها بالأحجار الصغيرة والكبيرة وكنا قد أدخلنا نرقم الأحجار لتيسير مهمتنا. ملء الفراغ ليلة بعد ليلة لم يكن ترفاً فقد كنا نخشى أن يتبه حراسنا أن ما وراء الأحجار قد بات خالياً. ولزيد من التمويه كنا نضيف على إنجازنا تراباً أحمر مبلولاً بالماء وبعض الإسمنت كي نلصق البلاط عليه وكان الكلس يعيننا على تمويه الكوات. مهمات التمويه والتزيين هذه أوكلت جميعها لسكينة التي قامت بعملها على أكمل وجه.

مع شروق الشمس، كانت جميع الحفر تعود إلى حالها ولم يكن من السهل على أكثر المخيلات

اتساعاً تصور النفق الذي كان يحفر داخل هذه المساحة الصغيرة. وكان من واجبي، قبل استيقاظ الحراس بساعتين تقريباً، تنظيف الزنزانة من التراب والغبار. أحياناً كان الوقت يداهمني، فما إن ألبس ثيابي حتى أسمعهم وقد دخلوا غرفة الوالدة. كانت تحاول تأخيرهم ما استطاعت، طارحة عليهم أسئلة عجيبة سائلة إياهم أن يؤمنوا لها مطاط إطارات قديمة لكي تصنع لنا منه نعالاً أو أي شيء من هذا القبيل.

كان جزءنا يتحول رعباً في بعض الأحيان. مرة نشفنا الكلس واكتشفنا في الصباح أن التراب من تحتنا ما زال وطباً تاركاً على البلاط دوائر صفراء اللون. حاولنا ما استطعنا محو الآثار وبلغنا الوالدة بمصائبنا كي تحاول استبقاء الحراس معها أطول فترة ممكنة. ولحسن الحظ لم يلاحظوا شيئاً.

ذات مرة كنت أحضر يبطء حين سمعت عطسة أحد الحراس وكأنه على بعد خطوات مني. فتكورت على نفسي وعدت إلى موقعي. حين خرجت من نفقي استقبلتي وجوه أخواتي القلقة. ثم خيم الصمت الشديد على زنزانتنا. توقعنا أن يفتح علينا الحراس الباب، لكنهم لم يفعلوا، فعدت إلى جحري. حين كان الجنود يدخلون إلى زنزانتنا بهدف تفتيشها كنا نقبع في أسرتنا متذرعين بالثعب والمرض. كان الحراس يفتشون الزنازين بدقة مسلطين أضواء كشافاتهم تحت الأسرة وفي الزوايا عند السقف. كانوا يقرعون الأرض بعصيتهم لتقصي أي صدى مريب. كان رؤوف والوالدة يعيشان على أعصابهما حين يسمعان وقع خطواتهم الثقيلة وضرباتهم على الجدران. لكن شعورهم بالملح كان مشوباً بحالة استلاب لا توصف، فقد كان رهاننا يوم ذاك رهان حياة أو موت، وكان هذا الإحساس مسكراً. ففي نهاية النفق قد نخرج من سباتنا. كنت أنسى الآمي وجوعي ويدي الجريحتين اللتين تسببان لي أوجاعاً حادة ما إن أتفّس أو أنحني.

لحسن الحظ لم يفكر الحراس مرة بالسير على بلاط زنزانتنا. كانوا يدورون حوله ويتوقفون أمامه فقط لا غير. كنا مقتنعين أننا بحماية العذراء مريم، فحين فتحنا الأرض للمرة الأولى كانت تضاربها ترسم صلياً بطول البلاط. وقد صنعنا نسخة عن هذا الصليب بالكرتون كنا نضعه على التراب قبل إعادة الأمور إلى حالها. وقد أطلقنا على النفق اسم «نفق مريم». كان إيماننا بعجائبية هذا الصليب عظيماً، وكنا كل ليلة نصلي مرتين، مرة ونحن نفتح النفق وأخرى ونحن نقفله. وبما أننا رفضنا الإسلام لأنه لم يقدم لنا أي شيء جيد اخترنا العقيدة الكاثوليكية. لقد أمضت أُمي طفولتها في مدرسة للراهبات

وكانت بالتالي تعرف جميع الصلوات عن ظهر قلب وكانت رغم تمسكها بعقيدتها الإسلامية، وبعد تردد، قد اقتننا هذه الصلوات. شقيقتي منى اختارت لنفسها اسم مريم تيمناً بالعدراء، وقد فتحت الطريق لعبد اللطيف وسكينة لتغيير أسمائهما فقد كان الملك الحسن الثاني هو الذي اختار لهما أسماءهما، وكانا لا يريدان قبول هذه المنة منه. قررت سكينة أن تطلق على نفسها اسم ياسمين أما عبد اللطيف فاختار اسم عبد الله. من بين أخواتي الثلاث تمسكت ماريّا وحدها بقرارها. أما الاثنتان الأخريان فغيرتا رأييهما حين وجدتا أن ازدواجية الأسماء لا تناسبهما.

خلال النهار كنت أتابع سرد القصة، قصة مشروعا، وكأننا تحت تأثير خدر ما. كنا لا نأكل شيئاً تقريباً، وننام ساعات قليلة ونعيش على أعصابنا. كنا نتواصل مع رؤوف عن طريق «الكوة» فنسرد له تباعاً ما أنجزنا. عدم اشتراكه معنا كان يغضبه وكان يحضر بدوره من جهته.

ذات ليلة أسعدنا وفاجئنا حين انضم إلينا، لكنه لم يعد الكرة ثانية لخطورة المغامرة ولتردي صحته. فهو مثلي كان يشكو من التهابات ومن هزال سببه الحرمان. كنا، هو وأنا، متورمين. فقد كان طوله الفارع (متر وخمسة وثمانون مستمراً) لا يعينه على التحرك بيسر في هذه الحفرة.

لكنه ومن بعيد كان يسدي لنا بنصافحه الهندسية، فقد طلب منا أن ندعم النفق كي يضمن لنا مزيداً من الأمان. حين انتهينا من الحفر طلب مني أن أبحث عن مدخراتي من أخشاب كنت قد جمعتها حين وصلنا إلى هذا المكان. كنت قد خبأت الأخشاب في قبو صغير فوق حمامنا وذلك قبل أن يقرروا حرماننا منه. هذه الكوة كانت بارتفاع ثلاثة أمتار عن الأرض تقريباً. ولبلوغها تسلقنا ذات ليلة الواحدة على أكتاف الأخرى ونحن نقهقه من الضحك. لقد كنا في حاجة ماسة لهذه الضحكات. ماريّا بكيلوغراماتها الثلاثين كانت أرشقنا، وبعد ألف محاولة فاشلة تمكنت أخيراً من بلوغ المخبأ والحصول على الحطب المخبأ فيه. بعد فتح الكوة كان لا بد من إغلاقها. وكانت مهمة صعبة على هذا الارتفاع. لكننا تمكنا من تنفيذ خطتنا وأقلنا الشفرة بالمزيج الذي صنعه عبد اللطيف والذي لم يحفّ بالسرعة المرجوة رغم كل ما بذلناه من جهد.

مع شروق اليوم التالي استبقت أسئلة الحراس فأبلغتهم بأن الماء يرشح على الحائط وأنه لا بد من إيجاد وسيلة لإصلاح ذلك. ولما كنت أعرف أن أي طلب من طلباتنا لن يتفد يوماً كنت مطمئنة أنهم لن يفعلوا شيئاً.

يوم الثامن عشر من شهر نيسان/ أبريل بلغت الأمطار الخمسة المثلث عليها وتوقفت عن الحفر. كنت قد عملت بلا كلل وبلا شكوى رغم كرمي الطبيعي للأمكنة المغلقة. كنت قد تقمصت جسد حيوان من فصيل الزواحف أو حشرة تعيش في التراب. خلال تلك الأيام العصية كنت أشعر بأنني قاب قوسين أو أدنى من الجنون.

كنت أحياناً أتوقف فجأة عن التنظيف، ألطم رأسي وأقلل أذني حين كان يجيل لي أنني أسمع خطواتهم أو صرير المفاتيح في الباب. حينها كنت أتوقف عن العمل وأرغمي على الأرض متوقعة وصول أحدهم وقلبي يكاد ينفجر من الخوف لكن أياً منهم لم يدخل علينا.

هذه الأصوات لم تكن تفارقني. كنت أسأل البنات باستمرار إن كانت الأمور تسير بشكل عادي. كنت أعيش ومشروع الانتقال من العقل إلى الجنون لا يفارقني. كنا قد توافقنا على الحرب معاً في شهر كانون الأول/ ديسمبر وخططنا لمغادرة معتقلنا في ليلة شتوية لا قمر فيها، في ليلة يكون فيها حراسنا المغاربة يصطكون من البرد ويقعون في غرفهم متدثرين بملابسهم الصوفية من قمة الرأس حتى القدمين. كنا نريد لفارنا أن يتم تحت جناح ليل يحمينا، لذا أقمنا التفق وموهنا البلاط ونحن نعرف أننا ستعبد مباشرة عمليات الحفر قبل أسبوعين من الموعد المضروب.

كنا قد عقدنا جملة من الاجتماعات العائلية لنقرر من سوف يهرب وكيف ستدير الأمور حين نستعيد حريتنا. كنا لا نملك درهماً، بيد أن سواراً من أساور والدة وهو هدية من الوالد يحمل اسمها واسمه قد بقي معها، عاصياً على جميع ضروب التفتيش، اجتهدنا جميعاً لحو الأسماء عنه بهدف بيعه فور خروجنا إلى الحرية.

بقليل من الكرتون والمطاط والطحين تمكن عبد اللطيف من صناعة مسدس يشبه المسدسات الحقيقية وذلك بإشراف رؤوف الذي أوع في شبابه بالأسلحة النارية، وكان قد أخذ قروساً في كيفية استعمالها. هذا المسدس الوهمي صنعناه ليكون بمثابة خشبة خلاص تنقذنا في الظروف الحرجة. أما معرفة مكاننا جغرافياً فكانت على قائمة أولوياتنا.

كانت أمي تصغي بدقة إلى أزيز الطائرات المدنية المارة فوق رؤوسنا فاستتجت أننا بين الدار البيضاء ومراكش وأنا على الأرجح أقرب إلى الأولى. هدفنا الثاني والأهم كان أن نفكر بطريقة تبعدنا قدر المستطاع عن الحراس وملاحقاتهم. كنا قد رسمنا وتخيّلنا كل ما قد يحدث لنا إن نحن تمكنا من

الفرار. تخيلنا خطأً واقعية وأخرى أقرب إلى السيناريوهات السينائية. كنت أتخيل في إحدى الخطط أنني قد بلغت طريقاً عاماً تمر به السيارات. للفت أنظار سائقي الأجرة، وكحي لا أثير ربهتهم، كنت أرى نفسي وأنا أقوم بتمثيل دور فتاة هوى وذلك رغم اعتراض والدتي ورؤوف. وبعد إغواء السائق أخطط لتهديده بالمسدس الوهمي وحين سترتعد فرائصه سوف أنادي أخوتي ونصعد كلنا داخل سيارة السائق المرتعب.

سألتي أخوتي وأنا أسرد على مسامعهم قصة هربنا المتوهمة ماذا كنت لأفعل إن لم يكن السائق وحده. الأمر بسيط أجتهم سوف تضرب مرافقه حتى الإغواء بقطعة حديد تمكن عبد اللطيف من نزعها من إحدى النوافذ. هذا السيناريو العنيف كان واحداً ضمن مجموعة طويلة، فلو أبدى السائق تجاوباً معنا فلن نؤذيه بالطبع وكنا سنخبره أننا مهاجرون نعيش في بلجيكا وأنا قد جئت إلى المغرب لزيارة أهلنا، وأن سيارتنا الغولفو قد تعطلت وأنا نبحث عن ميكانيكي يعيتنا على تصليحها. جميع خططنا المتخيلة كانت تقضي بنا إلى السفارة الفرنسية، فقد كنا قد توافقنا على طلب اللجوء السياسي.

لبلورغ هدفنا هذا، أي الوصول إلى السفارة الفرنسية، كنا سنحتاج إلى وقت كافٍ لتأخير اكتشاف الحراس لفرارنا. ويوم هربنا كانت الخطة تقضي بأن تسعى أمي إلى استبقاء الحراس في زنازنتها أطول فترة ممكنة وذلك كي لا يبدؤوا عمليات البحث عنا. كنا نفكر معاً بكل تفاصيل خططنا وكنا قد جمعنا كميات من الفلفل كي نستعمله إذا ما اعترضتنا كلاب شاردة. وكانت أمي قد خاطت لنا ثياباً خاصة لتلك الليلة، ثياباً سوداء مع أغطية للوجه مفتوحة فقط عند الفم والعيين كما صنعت لنا من جلد حقايبنا التي كانت فاخرة ذات يوم نعالاً لا تشبه على الإطلاق الأحذية التي تجدها في المحلات.

كنا ونحن نخطط لفرارنا لا نستبعد الأسوأ، لذلك قررنا قتل أنفسنا إن قبض علينا، فنحن لم نكن نرغب بالاستمرار في هذا الوضع المزري والفظيع. فكرت الوالدة أن افتعال انفجار صغير تسببه قارورة الغاز التي في حوزتها قد يشغل الحراس عن البحث عنا. أما رؤوف التواق للكمال فقد كان يحاول استباق الشاردة والواردة. أما أنا فقد كنت من نمط مختلف. كنت أتمرق شوقاً لخوض التجربة معتبرة أن الاحتمال سيكون يومها سيد الموقف. كتب رؤوف على عشرات الورقات التي كانت تغلف الزعفران الذي كان يستعمل للطبخ، والتي جمعناها بصبر، بيانات لتقديمها لشخصيات سياسية

وفنية فرنسية وكنا قد نوبنا إيصال هذه الوريقات للسفارة الفرنسية، وذلك بعد أن أضاف كل واحد منا بعض الجمل المؤثرة.

رغم دقة تنظيمنا لهذا الهروب ظل السؤال الأساسي معلقاً، فخلال الأسابيع التي أمضيها نستعد لهذا اليوم لم نطرح على جدول مباحثاتنا أسماء الذين سيشاركون في هذه المغامرة. كان رؤوف يريد الفرار وحده لشدة خشيته علينا جميعاً. أما أنا فكنت واثقة من مرافقته. من جهتها أعلنت ماريا أنها ستتحرر إن لم نأخذها معنا. ولأنني كنت أعرف أختي تمام المعرفة فقد بدا لي تهديدها جدياً.

كان عبد اللطيف سيشاركتنا للمغامرة أيضاً، فهو أكثرنا حرماناً إذ إنه لم يمر من الحياة إلا هذا المعتقل. كانت الوالدة تتمنى الفرار معنا لكنها كانت عاجزة عن ذلك. فقد كان جسدها المتورم لا يسمح لها بدخول النفق ولا حتى التسلل من زنزانة إلى أخرى كما يفعل عبد اللطيف. توسيع الكوة من أجلها لم يكن وارداً كي لا يتحطم بلاط القرميد المدعم للحائط.

واقفت سكونية على البقاء مع الوالدة مؤكدة نبلها وشجاعتها. كانت ستغفل النفق بعد رحيلنا فترحبنا وقتاً ثميناً كنا بأمر الحاجة إليه. وحتما ميمي، ولهشاشة صحتها، لم تكن قادرة على التفكير بمواكبنا.

الهروب

يوم الأحد، ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٨٧، اليوم التالي لإغلاقنا النفق، كنت أفترض أرض الزنزانة، معرضة وجهي لأشعة الشمس الربيعية.

كنا نصغي لزقزقة العصافير، يبدو أن الطبيعة، مثلنا، استيقظت من نومها بعد سبات طويل. الغريب أننا كنا نشعر بالرضا بالرغم من كل ما كانت قد حفلت به هذه الأشهر الأخيرة من الانتظار. إن لدينا ما يدفعنا إلى التأمل والرجاء. أخيراً، أوشكنا على الخروج من هذا القبر.

كانت ميمي تام في سريرها، بينما كانت الفتاتان الأخريان ترقدان بجانبني، وكنا نثرثر باسترخاء. فجأة تنهى إلى أسهامي صوت «الحركة التحذيرية» والتي كان مصدرها زنزانة أمي التي همست لي قائلة عندما اقتربت من الجدار:

— اسمعي يا مليكة، سمعتهن وهم يتحدثون. لقد تلقوا أمراً ببناء عمارس وبرج مراقبة، فوق سطح

الزئزنة التي تقع فوق النفق، وأن الكوخ سيبنى تماماً فوق النقطة التي يقع فيها المخرج. وسيكون هنالك كشافات ضوئية.

- ماذا عسانا نفعل؟

أجابني بتمزق وحيرة:

- ما من خيار آخر، سيتهون من ذلك خلال ثمان وأربعين ساعة. هذا يعني أنه وداعاً للهروب.

يجب عليكم حفر النفق مباشرة الآن، والرحيل هذه الليلة.

كانت لدي اعتراضات كثيرة، إذ كيف يمكنني أن أحفر عامودياً ثلاثة أمتار خلال عدة ساعات ليس إلا؟ كان هذا ضرباً من المستحيل.

كنا قد خصصنا لهذا أسبوعاً كاملاً من العمل. لكنها رفضت أن تصغي لي، وأصررت على رأيها قائلة:

- إما هذا أو لا شيء. إذا لم ترحلوا هذه الليلة، فإنكم لن تخرجوا من هنا أبداً. أخبرني رؤوف حالاً بالأمر.

كان لرؤوف رأي متوافق مع أمي، بأننا لا نملك أي خيار آخر.

وهكذا بدأت الحفر عند الظهيرة، لأنتهي من حفر المسافة المطلوبة في الساعة السادسة مساءً.

لم يبق لدينا من أشغال إلا إزالة التراب الذي تراكم بسبب الحفر.

كنت أعمل باستماتة، لم تعد المللعة تكفيني، لو تسنى لي أن أنزع الأرض بأسناني لفعلت. كنت

أحفر، وأفرغ. تعطل تفكيري، وانسلخت عن الوجود، غدوت كآلة متحركة. أحفر، وأفرغ التراب،

وأحفر، وأفرغ التراب.... كطاحونة هوائية لا تتوقف عن الدوران.

وقعت على عتبة لبلاّب تضرب بجلورها عميقاً في الأرض. شدتها بكل قوتي. خلال عدة

ساعات، كنت أناضل كي أقتلعها وأجتثها من جنورها. لوهلة، بدا الأمر شبه مستحيل، إلا أنني

وضعت كل ما لدي من قوة وأكثر. كان يجب أن أزيل هذه العقبة بأي ثمن. فجأة لاحظت الساء أمام

عيني، كانت خيوط الضوء تشير إلى نهاية النهار، شعرت بنسمة ريفية تداعب وجهي بنعومة.

تسمرت في مكاني، وأنا ما أزال متشبعة بعشبة اللبلاّب. كنت في حالة من الدخلة والذهول، ولم

تلبث أن اتابنتي موجة من النشوة والفرح ورحت أتهف في نفسي كالمسحورة:

- يا إلهي، ما أروع هذا، أيعقل أن الحياة هنا، على قاب قوسين أو أدنى من تناول يدي؟
لا أدري بعدها كيف تابعت إزالة واقتلاع ما تبقى من أعشاب، وأنا أبكي، والدموع تغطي وجهي.
يا إلهي ما أجملها من لحظة، وما أروعها أيضاً! أن تستعيد حريتك المسلوقة، بعد كل هذا المخاض المريع
الدامي، كنت مكتوفة الأيدي يملكني شعوران من الخشية والفرح.

عدت إلى الزنزانة وأعلنت لهم بافتخار أننا انتصرنا.

- أخيراً: لقد رجع القنديل إلى سيدني بالرمح الصغير.

لشدة فرحتهم، سارعت ماريا وسكينة، لاجتياز النفق والتأكد من جهوزيته بنفسيهما. عادت
وأمارات الرضا ترسم على وجهيهما. ثم أرسلنا عبد اللطيف للاستكشاف وللاستطلاع، ولدراسة
الموقع ميدانياً، وتحديد نقطة الانطلاق التي سنبدأ منها رحلتنا هذه الليلة. كذلك أردنا أن نعرف إذا
كانت السكة مراقبة، وهل فيها أي تواجد للحرس.

عاد، وقلبه يخفق بشدة. ما إن أخرج رأسه من النفق حتى شعر بنظرات مصوِّبة باتجاهه؛ لاشعورياً
أغلق عينيه بيأس، وهو يفكر بأن كل شيء قد أفلت من أيدينا وضاع وتبحر. ما إن بدأنا حتى انتهينا،
يا لسخرية القدر، عندما تجرأ أخيراً بعد عدة نقاشات أن يفتح عينيه المبلتين بدموع الحياة والمرارة، كاد
ينشى عليه من شدة المفاجأة: إن من سدّد إليه النظرات كانت مجرد هرة ليس إلّا. كم كانت فرحة عبد
اللطيف بهذا الاكتشاف عظيمة. رفع وجهه إلى السماء، وتنفس الصعداء.

مؤتت لنا أمني للملابس التي خاطمتها لنا، وبعض المواد الغذائية، والسندويشات والفلفل، وقضيب
الحديد. أصررت على أن أضع في جعبتي الدفاتر التي تحتوي على الحكاية التي ألقتها وكتبتها. كانت
أمني تعارض هذه الفكرة، خوفاً عليها من التلف والضياع. وبإلغيتي استجبت لحديثها الذي تبين
لاحقاً أنه كان صائباً.

تأهباً للرحلة، وصل رؤوف كالعادة متسللاً من الشجرة مع هبوط الليل، حانت لحظة الوداع،
تمددت على صدري، فعلت أمني الأمر عينه من جهتها. كانت قلقة، ومرتبعة، تتساءل في سرها، إذا
ما كانت حقّة في دفعنا للرحيل. تلك كانت اللحظة الوحيدة التي لمست فيها حيرتها وترددتها. عبر
تشابك اليدين، تبادلنا رسائل صامتة. أعلنت كل واحدة مثلاً حبها للآخرى. كان صوتها يرتجف عندما
تكلمت أخيراً لتقول لي:

- إنني ألتصقك على لحمي ودمي، إنني أضع بين يديك قلذات كبدي، أعرف أنك ستكونين كالأم لهم. عديني أنك ستعيدنيهم إليّ أحياء.

كانت سكية ترتعد، فيما كانت أسنانها تصطك من شدة التأثر. كان الدمع يلتصق في عينيها، لكنها لم تذر فمها واحدة، كانت المسؤولية التي تنتظرها جسيمة. إنها هي من سيعيد سد الفتحة بعد أن نمضي لأنهم كلما تأخروا في اكتشاف أمرنا كلما كان الأمر في مصلحتنا.

شدتني ميمي بحنان إلى صدرها وهمت في أذني قائلة:

- أنا متأكدة من أنك ستنجحين.

أظهرت حليلة وعاشورا من الهلع والتأثر الشيء الكثير. عبرتا بصخب عن خشيتها علينا من هذه الرحلة وحرقتها لفراقنا.

كنا في حالة قصوى من الرهبة والانفعال، لا يمكن أن أنساها ما حييت. لا أعرف إذا ما كان ذلك مجرد شجاعة من قبلنا، أو أنها كانت إرادة بقاء تلك التي أملتنا بهذا القدر الهائل من العزم والقوة.

ارتدينا ملابسنا بصمت، حمل كل واحد منا جعبته، ومضيينا الواحد تلو الآخر، كل بدوره باتجاه التقى. خرج عبد اللطيف وماريا بسهولة ويدون مشقة، لأنها كانتا نحيلين... رؤوف أحدث ارتجافاً في الأرض... حبسنا أنفاسنا من الخوف... لكنه نجح بعد جهد جهيد بالوصول بسلام. عندما حان دوري كانت الكارثة، بالكاد تقدمت قليلاً حتى علق خصري... جسدي المتورم من مرض الزلازل كان أضخم من أن يسهه ذلك الممر الضيق.

راح رؤوف يهمس لي بكلمات التشجيع، ويهدئ روعي، لكنني عشتاً حاولت أن أنجح... كنت أبكي من شدة الألم، وأمسح في دموعي...

شعرت بسكية خلفي، راحت تقول لي بحزن وخوف:

- كيكا، ارجعي، تعالي، وهوني عليك... إنك تمحدثين الكثير من الضجة والضوضاء، إنها خطيرة عظيمة، ولن يتأخروا بسأحك...

هذان العناد والإصرار من قبلي كادا يوديان بالجميع إلى التهلكة. لكن كان الموت عندي أهون من البقاء والرجوع إلى الوراء، أخذت نفساً عميقاً، وبكل قوة دفعت بنفسي إلى الأمام... كان الأمر أشبه بمخاض عسير، بولادة أخرى جديدة، أعدت مليكة ثانية إلى الحياة.

اجتزت أخيراً هذا النفق، بشق النفس، وبعدما انسلخ الجلد عن فخلي. لكنت في تلك اللحظة لم أشعر بأي شيء البتة، وحتى لو فعلت ذلك ما كنت لأكثرث أوابالي... حسابات رؤوف كانت دقيقة، وجدنا أنفسنا في الجهة المقابلة وجهاً لوجه مع السور تماماً كما كان قد تكهن وتوقع...

مشينا بمحاذاة السور المرتفع، كان يمتد أمامنا سياج مشبك بارتفاع حوالى أربعة أمتار، تغطيه أعشاب الليلاب. تسلقته مارياً وهي تستند على رؤوف، بعد أن دعمها، قام بدفعها نحو الأعلى، ملقياً بها فوق أرض الحقل. انتظرنا قليلاً، عندما لم نشعر بأي حركة من جهة الحرس، حينها فقط، قفزت بدوري لأنضم إلى ماريّا، ثم تلاقي عبد اللطيف، فرؤوف. بعدما التأم شملنا واجتمعنا، كان لا شعورياً أن يلتصق كل واحد منا بالآخر ويمسك بيده المرتجفة. آنذاك لم نقو على الفكك والإتماد عن بعضنا البعض، كنا نتنفس بصعوبة دون أن نتحرك من مكاننا. بدت تلك اللحظات طويلة، ومشوية بالمشاعر المختلطة. كان صعباً بالنسبة لنا أن نستوعب أن المرحلة الأولى من خطتنا قد انقضت بسلام. استعدنا رباطة جأشنا، وأخذنا نفساً عميقاً، قبل أن نبدأ المغامرة الكبرى.

الهاربون (١٩-٢٤ نيسان / أبريل ١٩٨٧)

التيه

اعتادت أحياناً على العتمة، منذ أن بدأنا نعيش في الظل. بدون خوف، غصنا في لجّة الليل. كنا نتعلق بأيدي بعضنا البعض، فيما كان يسيطر علينا شعور جارف بالحماس، والنشوة، والافتقار التام بأن هنالك حاية إلهية ترافقنا ولن تتخل عنا.

كان الصمت يجيم على الناحية التي يتواجد فيها الحرس. أخذنا نزحف على بطوننا في الحقل الرطب. فجأة تعالى نباح الكلاب الشاردة، التي ما لبثت أن وصلت وهي تعدو باتجاهنا. كانت نهمة، وعدائية، وأكثر وحشية من مثيلاتها الألمانية. راحت تقترب شيئاً فشيئاً منا، حتى كدنا نشعر بأنفسها اللاهثة فوق وجوهنا، لا شعورياً، وسياساً، التصقنا ببعضنا البعض بحثاً عن الأمان. قائد الرهط الذي كان يمدّ بالعشرات، بدا مكثراً عن أنيابه، وهو يستعد للتوثب والانتفاض.

من شدة الظم، تحولنا إلى تماثيل من شمع، حيناً أنفاسنا في صدورنا. إذ وحدها المعجزة بإمكانها أن نخلصنا من براثن هذا الكلب، الذي كان بناحه يصم الأذان.

لم نصدق أعيثاً، فجأة وعلى حين غرة، استدأ عائداً من حيث أتى تتبعه سائر الكلاب. ما كنا ننفس الصعداء، حتى كان الحرس يندفعون إلى المكان، وهم يصوبون مصابيحهم، وكشافاتهم الضوئية، بحثاً عما أثار انتباه الكلاب وهيجانها. هنا، كنا متأكدين من أننا هذه المرة، وقنا في الفخ المحتم، في تلك اللحظة العصية ودنا لو أن الأرض ابتلعتنا، وأراحتنا من هذا الخطر الداهم. ارتعلنا وارتمجنا مثل ورقة في مهب الريح، عندما سمعنا قرعة أسلحتهم. تبادلوا بعض الكلمات المبهمة، فيما بينهم، ثم ما لبثوا، أن ابتعدوا.

بعد عدة دقائق، بقينا مستترين في أماكننا، لا نقوى على أي حركة، الله وحده يعلم كيف تمكنا لاحقاً من استعادة السيطرة على أنفسنا. وعندها، تابعا وجهتنا نحو اليمين، بعدما كنا نزحف باتجاه الحرس دونها علم منا.

وجدنا أنفسنا في حقل مزروع بالفول، يقع قريباً من الثكنة. كنا بحاجة لاستراحة قصيرة، أدونا وجوهنا، لإلقاء أول نظرة على الثكنة. كان البلدو يسلط ضوءه على أسوارها، وأسيجه ومراقبه، فيما كان الضباب يغلغ أجزاءه الباقية. إنه منظر فظيع.

هنا إذن، بددنا إحدى عشرة سنة من عمرنا، وخسرنا شبابنا وصحتنا، وأحلامنا، وآمالنا. في معسكر الموت هذا، كنا ننتظر بفارغ الصبر النهاية التي لم تعرف طريقها إلينا. إنه الجحيم المستمر الذي ذقنا في أتونه حشرات الموت والعذاب. نيلونا بين حمة وأغلقوا علينا الأبواب. أطربوا أذانهم بصر خاتنا، واستغاثاتنا، ومتعوا أعينهم بالآلنا ومعاناتنا. لم تأخذهم بنا رحة أو شفقة. يا للحقد كم أعمى قلوبهم! يا لجورهم وتعسفهم!

تملكتني الحرقه واللوعة، ورحت أذرف الدمع وأبكي، انقبض قلبي وسرت رعدة في جسدي، لقد تذكرت تلك اللواق ما زلن يتجرعن كأس الحميم هناك. كان الله في عونهن، ولنا من بعدهن الصبر والسلوان. سيطر الحزن والوجوم علينا جميعاً، وغرقنا في بكاء صامت.

بعد وقت قصير، حاولنا بشق النفس استعادة رباطة جأشنا، بهدوء شديد قطفنا بعض الفول، وورحنا نأكله نيتاً. كان طعمه منعشاً، وحلو، ولذيذاً كقطع الحرية. عاودنا زحفنا، بعدما شعرنا أننا

ابتعدنا يا فيه الكفاية عن الشكنة، نهضنا وقوفاً، ومشينا بخطوات خفيفة. لكثرة ما كان الحقل رطباً، تبللنا من قمة رؤوسنا حتى ألمحس أقدامنا.

في ذلك الظلام الدامس، رحنا نتخبط على غير هدى، اكتشفنا لوهلة أننا كنا ندور حول أنفسنا. وكأننا في وسط البحر أو الصحراء...

لم يكن هناك أدنى مؤشر أو علامة نستدل بها على تحديد وجهة سيرنا. كانت أمي قد علمتني، كيف أتبع حركة النجوم، لكن التجربة أثبتت أنني كنت تلمبة فاشلة، فأنا لم أنجح بتمييز واحدة منها عن الأخرى وكانت أشكالها جميعها مختلطة عليّ.

بينما كنا نهم على وجوهنا، سمعنا صوت سعال جعدنا في أرضنا. رفعنا رؤوسنا باتجاهه، فإذا بنا على بعد خطوات من إحدى نقاط المراقبة. لقد عدنا إذن إلى المعسكر، تلقائياً، رحنا تركض بخطوات خائفة مرتبكة... بعدما أخذ التعجب كل قوتنا، توقفنا لا نعرف أين... أشعلنا بياس السجارة الوحيدة التي كانت بحوزتنا... عليها تعيد إلينا بعضاً من صفاء ذهننا... رحنا تتأوب على تدخينها بقلب متقبض، وحيرة قاتلة... حتى الآن مازلنا نراوح مكاننا، ومازلنا نجهل الوجهة الصحيحة التي نخرجنا من هذا المأزق الخطير.

بإذعان واستسلام طلبت من عبد اللطيف أن يتولى قيادتنا.

قلت له:

«من كان في شك، لا شك أنه ينوء بعدد لا بأس به من الخطايا، أما أنت، فإنك ما زلت برعماً صغيراً، يرفل بالنقاء والطهارة... لم تر شيئاً بعد من الدنيا، ولم تمسك بلوشها الشرور... إذا كان الله فعلاً موجوداً، ستأخذه الشفقة بك... وحينها ستكون أنت من يخرجنا من هذا المأزق، ويوصلنا إلى الحرية.

اتبعنا خطواته بدون أي كلمة. كانت أجسادنا منهكة من شدة الألم... وملابسنا تقطر ماء لكن كان لا بد لنا من حث السير قدماً...

ناداني عبد اللطيف الذي كان في مقدمتنا:

«كبيكا، تعالي انظري... إنه قاص... لا أعرف ما هو. هرعت باتجاهه لأجد أمامي طريقاً تعلوه طبقة من الإسفلت، قفزنا من شدة الفرح، وانهمرنا على عبد اللطيف لثماً وتقبيلاً... يا للمسكين إنها

المرّة الأولى في حياته التي تقع فيها عيناه على الإسفلت.

في تلك اللحظة اتبنا إحساس غريب، شبيه بذلك الذي طغى على رواد الفضاء، عندما وضعوا قدمهم على سطح القمر لأول مرة.

عدنا إلى الحقل كي نبدل ملابسنا بأخرى مناسبة. ارتديت فستاناً طويلاً كان لأمي، وتعود موضته إلى السبعينيات، قماشه من الكشمير الممزق الذي يلائم طقس الحريف. فيها اكتفى الآخرون، بارتداء السراويل والقمصان المتواضعة، ذات الموضة البالية، والتي كان من المفترض أن تمنحهم مظهراً «عادياً»، كما كنا نرجو وتأمل. بعد أن انتعلنا الأحذية المصنوعة بجلود فيتون، تخلصنا من الملابس الأخرى، وأخفيناها في الحقل.

انطلقت قافلتنا، كنت أسرع خطواتي كي أحثهم على مجارأتي، رحت أتقدمهم بعدما استعدت دفعة القيادة من عبد اللطيف، وهم يلحقون بي. كانت خطواتهم بطيئة ومتعثرة من شدة الإنهاك. راح رؤوف يسخر من مشيتي الرشيق والحويّة. ويشير من طرف خفي إلى مربيتي الألزاسية وهو يقول مقلداً لهجتها:

- هلموا، هيا... هلموا...

أخيراً، وجدنا أنفسنا أمام تعاونية حليب. بعدما تشاورنا، قررنا تنفيذ المشهد الأول. فيها اختبأت ماريّا وعبد اللطيف، تقدمت من المكان يستدني رؤوف، وأنا أصبح وأولول على الطريقة المغربية، وأطلب مساعدة الله ورسوله.

وإذا بنا طور مسلح بعضا يخرج إلينا. كان يلبس جلباباً بقلنسوة. تظاهرت بالإغواء، وألقيت بنفسي بين ذراعيه دون أن أسأله رأيه. كان مضطراً أن يتلقفني كي لا أسقط أرضاً. نظر إلى رؤوف برية سائلاً إياه ما الخبر، فأجابته:

- أجهضت زوجتي الأسبوع الفائت، ويبدو أنها حتى الآن لم تسترد عافيتها.

ضاغف الرجل من شكّه وحذره معلقاً:

- لكتني لم أسمع أي هدير أو ضجة، من أين خرجتم في هذا الليل المدهم.

كي أقطع عليه الطريق في طرح المزيد من الأسئلة، ارتحمت أرضاً ورحت أتناظر أنني أتلقى من الألم. بكل آيات التهذيب، واللطافة طلب منه رؤوف إحضار كوب من الماء، بعد أن شرح له بأننا

مهاجرون قدمنا لتونا من بلجيكا حيث نعيش، وأنها المرة الأولى التي نزور فيها المغرب بعد غياب خمس عشرة سنة. وأضاف:

-وها نحن أتينا طلباً للمساعدة، بعد أن تعطلت سيارتنا.

كان الناطور على درجة عالية من الحذر، كشأن كل المغاربة الذين تعلموا كيف يعيشون في ظل نظام قمعي يقوم على الخوف والرهبة. فهو لم يصدق رؤوف، وراح يستجوبه محاولاً الإيقاع به. وبالرغم من ذلك، لم يمتنع عن إحضار الماء لي. أثناء المحادثة، حاولت أن أفهمه بأننا من أقارب وزير الداخلية إفريس البصري^(٣)، أخلته الخشية والرهبة، مما دفعه إلى التحلي بالهدوء وإظهار بعض الليونة في معاملتنا.

هذه المرة، كنا نحن من حاول أن يستجوبه ويحث على الكلام، اقترح علينا أن نتنظر شاحنة الحليب التي نذهب إلى بير جديد، أقرب مدينة إلى هنا. أخيراً، حصلنا على المعلومة التي كنا بانتظارها. قضينا هناك ثلاثة أرباع الساعة، كان الخوف يستولي علينا من إيلاخ الرجل عثاً، ولكن لحسن الحظ، لم يكن عنده هاتف في كوخ الحراسة. فتحت الأبواب، وخرجت شاحنة الحليب. مر السائق بشاحته من أمامنا دون أن يتوقف كي يقلنا معه. أصبنا بالهلع، كانت الساعة الرابعة صباحاً، وكنا ما نزال ندور في حلقة مفرغة بدءاً من الساعة الحادية عشرة ليلاً، وها قد أضعنا سدى ثلاثة أرباع الساعة بانتظار هذه الشاحنة التي ولت. النقطة الإيجابية الوحيدة هي أننا بتنا نعرف إلى أين نذهب. يبعث الأسى، عاودنا طريقنا، لا شك أن منظر موكبنا كان مضحكاً ويثير الشفقة، نمشي خلف بعضنا، بخطوات متسارعة، وكأننا آلات أوتوماتيكية، كان هذا آخر همتنا، كل ما كان يشغل تفكيرنا هو التقدم والوصول بسرعة.

بعد عدة كيلومترات من المشي، شاهدنا باص ركاب من النوع الذي يجوب القرى والنواحي. الفلاحون الذين كانوا يجتشدون في الموقف كانوا يحملين بالأكياس الضخمة، والدجاج، والحراف التي كانت هائجة وتحاول الإفلات.

انضممنا إليهم. كانت أنظارهم جميعاً مصوبة نحونا، فما أرى كنا. حتى الآن ما زالت العتمة تظللنا، لكن النهار لن يلبث أن يتغنى، وسلط علينا ضوءه المتوهج، كنا تهيّب من لقائه بعد طول الغياب. عرض رؤوف على السائق أن يدفع له سوار الذهب ثمناً لنقلنا. فيما تقده الآخرون البيض أو

الدجاج، وهم يسامون قدر استطاعتهم. رفض السائق الذي أصر على الدراهم أو لا شيء. تخلينا عن فكرة الباص، وعادنا مسيرنا.

مرت بنا شاحنة. رفعت إبهامي مؤشرة له بالوقوف. كان السائق رجلاً لطيفاً، ودوداً. أصعدنا نحن الأربعة معه دون أن يطرح علينا أي سؤال.

اكفى ببساطة بتحذيرنا بأننا على مدخل بير جديد، معرضين لمقابلة حاجز درك. وأنه يمكننا تفاديه إذا سلكنا طريقاً فرعياً، حيث كان قد أنزلنا. لحسن الحظ، معلوماته كانت غير دقيقة، بلغنا بير جديد دون أن نلمح شبح حاجز.

كانت البلدة صغيرة، وغارقة في فقر مدقع، تحتوي فقط على عدة بيوت بائسة على جانبي الطريق، بالإضافة إلى بعض الحوانيت والمقاهي فقط، كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف. في المقاهي التي كانت تفتح أبوابها تتعالى أصوات المنوعات الغنائية التي تكاد تصم الأذان. كان الخدم يحملون طلبات الزبائن المختلفة من شاي، وبنعناع وكريم. الحياة هنا ثابتة لا تتغير، كل صباح تأخذ مجراها الطبيعي المعتاد. على عكسنا نحن تماماً، كنا محرومين حتى من هذا.

فجأة بدا لي منظر الشارع غريباً. احتجت لعدة دقائق كي أفهم السبب. فأننا لم أعد معتادة على الازدحام والضوضاء. الصراخ، الأصوات، أبواق السيارات، والأغاني الشرقية الصادحة، أزيز الدواليب على الإسفلت... كل هذا، كان يفتك بأذني، وبأعصابي. الضوء كذلك كان يندش أعينا ويبهرها... أصبنا بصداع حاد.

كدت أفقد صوابي من شدة التأثير، كنا ننظر حوالينا بشراهة ونهم، وكان الناس يدورهم يتأملونا ملياً. ولكتنا، نحن المساكين الفقراء، لم تكن تبدو متافرين مع هذا الديكور البالي. سئياً رؤوف الذي كان كالفلاحين تماماً بلا أسنان، إذ تساقطت بسبب الأمراض والضربات معاً.

في آخر القرية، كان يوجد موقف لسيارات الأجرة، يكتظ بحشد من البشر الذين كانوا يتحلقون، ويتجهرون. ذهب رؤوف ليستوضح بعض المعلومات ثم عاد ليعلن لنا بأن سيارات الأجرة تتجه إلى الدار البيضاء.

ثم رجع من حيث أتى عليه يجد سائقاً يقبل أن يقلنا في طريقه إلى هناك. لم أكن مطمئنة، وكنت شبه متأكدة بأن غخطه لن يكتب له النجاح. لذلك، عندما شاهنته يلوح بيدي، لم أدرك بسرعة أنه كان

يحاول أن يستدعينا للانضمام إليه. أهم ما في الأمر أن المعجزة تحققت: وافق السائق على اصطحابنا بمعية مقابل السوار الذهبي.

كان رجلان يجلسان في المقعد الأمامي بجانب السائق. صعدنا نحن الأربعة إلى المقعد الخلفي... انطلق السائق كالإعصار. التزمنا الصمت، وسرشنا في أفكارنا. بحرقه وألم، بدأت أفكر بألمي الحبيبة وبأخوتي. للمرة الأولى، منذ مدة طويلة، أدرك فجأة الحالة المأساوية التي مرّ بها عبد اللطيف. سجن عندما كان في الثانية والنصف من عمره. إنه أول خروج له في حياته التي بلغت الثامنة عشرة الآن. كان أخي الصغير يحدّق في كل ما يمر أمامه باندهاش وانبهار... وكأنه قدم لتوه من كوكب آخر. كيف لا تحطّف أبصاره كل هذه المناظر والاكتشافات؟ فهو لم يصعد في سيارة إلا مرتين أو ثلاثاً في حياته، فقط كي يشحن من سجن لآخر.

كانت أختي ماريا بالكاد تزن ثلاثين كيلو غراماً. كانت عيناها الكبيرتان تلتهمان بوسمهما وجهها الناعم الصغير. رؤوف أيضاً كان تحيلاً مثلها، لكنه تورم وانتفخ بسبب داء الزلال. كان شاحباً، وعموماً، وبدون أسنان.

كانت خمس عشرة سنة قد مضت، خمس عشرة سنة من العذاب الذي ترك آثاراً فظيعة لا يمكن أبداً أن تمحي. ومع هذا فكّلما نظرت إلى وجوه إخوتي، وتأمّلت ملياً في تقاطيعهم وتعابيرهم، أجد أنهم ما زالوا يحتفظون ببعض الملامح من الطفولة المشخنة بالجراح.

كنت أشعر بعقلة الذنب حيالهم، وأحمل نفسي مسؤولية ما أصابهم، ورحت ألعن في سري السجن وأمواله وأحزانه وأشجانه. لقد كانت بصايته جلية على وجوه كل أفراد عائلتنا المنكوبة.

الدار البيضاء

لن أنسى أبداً الصدمة التي سببها لي وصولنا إلى الدار البيضاء، عبر الأحياء الشعبية. كنت قد نسيت كل شيء عن المدينة. كانت الجموع تمشي بخطوات متسارعة، تتدافع، وتحتاج الأرصفة، سالكة طريقها دون أن تعير انتباهها لأحد. كان كل شيء ينهكني، فرملة السيارات، صرخات الباعة، العربات التي تجرها الأحصنة، المراتان اللتان كانتا تشادان وتخاصمان الشرطي الذي كان يطلق صفارته في الهواء. كما كانت تقتحم أنفي بلون استئذان روائح البززين، والطعام الذي كان يباع في

المحلات والمطاعم.

إنها المرة الأولى، منذ خمس عشرة سنة، التي أرى فيها هذا العدد الهائل من الناس بلمحة بصر، وألتقط هذه الكمية من الأصوات المختلفة. كانت حواسي مستنفرة ومستفدة. تراءى لي أن الشعب المغربي تضاعف عدده ثلاث مرات عما كان من قبل. كل شيء بدأ أكبر حجماً. وأحدث، وأجذ... زادت نسبة النساء اللواتي يلبسن على الطريقة الأوروبية، ويضعن مساحيق التجميل، ويعتبن بمظهرهن.

هذه الجموع التي لا تنتهي من الناس الذين يسرون ورؤوسهم مطرقة نحو الأرض، ذكروني بفيلم شابلي «الأزمة الحديثة». كانوا يثيرون في داخلي شعوراً غريباً بالشفقة. يبدو أن حالتهم لا تقل سوءاً عن حالي.

تساءلت في نفسي بحيرة: إذن، أهذه هي الحياة؟ ... أهذه هي الحرية؟ إنهم أيضاً مساجين مثلها كنت أنا...

آلاف من التفاصيل التي لم أكن ألاحظها في حياتي السابقة كانت تغفر أمام عيني: المباني التي تشبه أقفاص الأرانب، النظرات الشاردة، الفقر، الإرهاق، الاضطراب والعصبية بدون طائل. إخوتي لم تراودهم الأفكار التي كانت تحتاحني، على الأقل، ليس بنفس الشكل والصورة. عبد اللطيف ما زال يفتح فمه من الاندهاش، فيما كانت ماريا ورؤوف يفرقان في الصمت. كانت عجلات السيارة تنهب الطريق بسرعة قصوى. مع كل توقف فجائي كان قلبي يخفق من الخوف. بعد كل ما لا يقناه وتكدناه، إنها ليست اللحظة المناسبة كي نقضي نحبنا في حادث سيارة. بدأ السائق بالمراوغة. لأنه كان يرتاب فينا، وأراد إبلاغ رجال الشرطة بشأننا. واحتج قائلاً: - ليس من حقّي أن أوصلكم إلى قلب المدينة...

بدلو ماسيته الرقيقة، عرف رؤوف كيف يقنعه ويغير رأيه. بطبيعة الحال نحن أعطينا قطعة من الذهب، تبلغ قيمتها ٢٥٠٠ درهم، مقابل توصيلة سيارة بالكاد تكلف خسين درهماً. أمل عليه رؤوف عنوان سكن جميلة، حبيته للمراهقة، والذي يقع في حي أنفا السكني. بينما كان السائق يبحث عن الشارع، كنت أنظر حولي، بدون أن أتعرف على أي شيء يذكر. كنت أشعر وكأنني حللت في كوكب آخر. كنا كما في رواية الأقزام عندما يصلون إلى بلاد العمالقة.

كان حي أنفا دائماً يشبه حي بغرلي هيلز ولكن بحجم أصغر. الفيلات الضخمة كانت تتوالى جنباً إلى جنب الواحدة تلو الأخرى. بعضها كان أشبه بالقصور. كل فيلاً منها تحتوي على حوض سباحة، وملاعب تنس، وغولف، ومروج خضراء مشربة ومزينة بالأزهار الجميلة. وفي مرآها تنتظر عشرات السيارات الملتزمة. بالإضافة إلى جمع غفير من السائقين، وعمال الحديقة، والطباخين والخدم... الذين يسهرون على خدمة وراحة أسيادهم.

لكن بعد خمس عشرة سنة، بدلت لي البيوت أكثر فخامة. والحدائق الغناء أشد روعة، ومظاهر الغنى زادت بذخاً وفحشاً. كان ذلك بلا شك حقيقة. والحقيقة الأخرى أيضاً هي أنه لا يوجد أي قاسم مشترك بين كل هذا الجمال وبين السجن الحقيق الذي قررنا لتونا منه.

انطلق التاكسي بسرعة، بعد أن أنزلنا. لكن المفاجأة كانت بانتظارنا، لقد انتقلت جملة من هنا، شعرنا بأننا مهجورون ومثبوذون، ولكنني قاومت هذا الشعور المؤلم. وأوعزت لهم أن ينتحوا جانباً، فيها اقتربت من إحدى الفيلات، كان البستاني يروي العشب بمرشته، وهو يرتدي مريضة بيضاء.

ألقيت عليه التحية باستعلاء، وطلبت منه أن ينادي سيدة المنزل، مدعية بأنني على موعد معها. نظر إلي مهدداً وأمرني بالرحيل فوراً. وقال:

-أسرع بالغروب عن وجهي، وإلا أحضرت لك رجال الشرطة. من كان مثلك، لا يحق له ارتياد هذه الأمكنة.

لم أجد على إكمال ما بدأت، وهرعت نحو الخارج للانضمام إلى الآخرين. كنت أقطر مهانة وذللاً. في الماضي البعيد، عندما كنت ما أزال مليكة ما كان هذا الرجل ليجرؤ على أن يكلمني هكذا. لقد انقلبت الأمور، وها هو يطردني شر طردة، وكأنني متسولة بائسة...

تابعنا السير بدون أي هدف محدد. لم تكن نعرف ماذا نفعل، اخترت عشوائياً، وكيفما اتفق، إحدى الفيلات، كبست على زر الجرس الداخلي، ردّ علي صوت نسائي. طلبت منها بعض الماء.

تقضي العادات المغربية بالاستجابة لطلبات المتسولين هذه. إحدى الخاديمات الفاتنات بمريضة زهرية اللون وبقعة صغيرة ملقاة بدلال فوق شعرها المسرح بعناية، خرجت من البيت. استعرضتها، وأنا أشر بالحدس من مظهرها، لعل نظرة اللفه التي كانت في عيني أفرعتها، لأنها تراجعت خطوة إلى الوراء ما إن رأني وقبل أن أسرع في التكلم معها.

أعدت تمثيل روائي الصغيرة أمامها، عن بلجيكا، وغرة الخمس عشرة سنة، والإجهاض، سألتها إذا كان يمكنني إجراء مكالمة هاتفية. كانت المياه قد بدأت تجري فيما بيثا، لكنها أجابتي، بأنها تفضل أن تستأذن أولاً سيدتها. بعدما أغلقت الباب، أعطيت للآخرين إشارة بضرورة البقاء مختبئين خلف سياج الجهنمية.

لاحقاً، بعد عدة دقائق، فُتح الباب مجدداً ليظهر رجل جميل طويل القامة، في حوالى الخمسين من عمره، كان شعره رمادي اللون، يضع رويماً إسفنجياً. لا شك أنني عكرت عليه صفوه، وقطعت عليه ما كان يقوم به، لأنه كان ما زال يمسك بيده آلة الخلاقة الكهربائية. كانت تصوح منه راحة زكية، وتبدو عليه آموات الدعة والاسترخاء، مسافات ضوئية كانت تباعد بين ما كان عليه وبين حالة الفقر المدقع التي بدت واضحة على مظهره الرث والمزري.

طريقتي في التعبير أثقلتني من هذه الورطة. عاجلته بالكلام بلغة فرنسية رفيعة، ومتقاة. لا شك أن لهجتي طمأنته، ما حدا به إلى مناداتي بـ «سيلي العزيزة»، ومخاطبتي قافلاً:

«أخبرتني خادمتي أنك تعرضت لحادث إجهاض، أمل أن لا يكون هنالك أي نزيف، فأنا طبيب، وبإمكانني أن أقتلك إلى المستشفى إذا أحببت.

رحمت أعظمهم الحديث، وأدخله من باب لأخرجه من آخر، دون أن أعطيه المجال، ولا الوقت الكافي للتأمل والتفكير. وختمت بسؤاله إذا كان بإمكانني إجراء اتصال هاتفي. وافق، ورجاني بالتفضل والدخول.

بدأ لي منزله كقصر، مع أنه لم يكن باذخاً، ولكنه كان مرتباً، ونظيفاً، ومريحاً، ويمتد على الراحة والاسترخاء، بجدران البياض، وأرضيته المغطاة بالأجر وشتوله الخضراء المتتالية أمام النوافذ. أما الهاتف فكان موضوعاً على طاولة صغيرة جميلة بالقرب من الدليل السنوي الذي كنت لم أنس بعد كيفية استعماله. لكن قلبي بدأ يخفق بسرعة وأنا أرفع السهامة. شعرت وكأنني صحت لتوي من سبات عميق، كما في فيلم لويس دو فينيس، حيث يعود البطل إلى الحياة بعد سنوات طويلة من الرقاد، ويجب ألا يفصح نفسه.

لكنني كنت مثل هذا «النائم» أكذس رغباً عني الزلات تلو الأخرى. كان خط جدي دائماً يعطيني رداً بأنه مشغول. الدكتور عوفي - كما عرّف نفسه - لفت انتباهي إلى أنه

يجب عليّ أن أطلب ستة أرقام لاختصة علي غرار ما كنت أفعل. وهذا ما كان معترفاً به في زمني. كاد قلبي يتوقف عن الخفقان، لأنني ربما انكشف أمرى، حاولت الالتفاف عليه بأن ادعيت بأنني أعرف هذا جيداً، ولكن كما يحصل معنا في بروكسل، أن الخط دائماً مشغول، لكثرة ما يثرون. عرض عليّ فنجاناً من القهوة. عندها أخبرته بأنه كان في صحبتي زوجي وأخته وأخوه. بدا أنه لم يسبب له هذا الأمر أي مشكلة. وأشارت إلى رفقتي الآخرين بالدخول بينما ذهب هو ليرتدي ملابسه.

وصلت الخادمة، تحمل صينية ممتلئة بالمأكّل اللذيذة: من كاتو، وخبز، ومربيات، وقهوة ذات نكهة أخاذة. تبادلنا جيعاً النظرات بصمت. بالرغم من شدة جوعنا وخوارنا، كان من المستحيل علينا أن نلمس أي شيء من هذا... وإلا لكانا خلال دقائق فقط التهمنا كل الأطباق ومعها الموكيت، والأثاث وحتى الكلب الذي صلب لب عبد اللطيف، فهو لم يكن قد رأى في حياته كلباً من قبل. كم كانت المفاجأة كبيرة لأخي، عندما راح يلاعبه، ويلمس يديه، ويدور حواليه. كانت مشاعر عبد اللطيف ممزقة بين الخشية والشوة.

جلسنا جميعاً في الصالون، مشغولين كالأوتاد، قلقين خاضعين أن نوسخ الموكيت الأبيض بأحديتنا الرطبة التي كان يغطيها الوحل. بعد مدة من الوقت، انضم إلينا الدكتور يرتلي بثلته، وقميصه النظيف، وربطة عنقه، كان في منتهى الأناقة ميباً بالنسبة إلينا. أخذ يتحدث بطريقة متحضرة واجتماعية، فيما كان يسألنا إذا كنا نرغب بمزيد من القهوة، بدوري أعلمته بأن لنا أصدقاء في الدار البيضاء، ذكرت أمامه آل بـج وآل بـج وهما من كبار العائلات البورجوازية.

أضاء وجهه، لأنه أخيراً فتح له باب ضوء لم يكن يتوقعه. قال باندهاش... - غير معقول... إنهم أصدقاؤني أنا أيضاً. مطمئناً بسبب هذه العلاقات المشتركة بيننا، عرض علينا أن يقلنا بسيارته إلى منزل عائلة آل بـج ج.

لهذه العائلة تاريخ عريق في حقل المصارف في مدينة الدار البيضاء. أحد أبنائها، كميل، الذي يكبرني في السن بعض الشيء، كان يعتبر من أجمل شباب جيله. أما أخوه الأوسط، العربي، فكان من أعز أصدقاؤني المقربين جداً. خلال إجازتي الأخيرة في قبيلة، التي سبقت الانقلاب العسكري بوقت

قليل، أقمت له عيد ميلاده في منزلنا. كنت أراهم يومياً، وكنت أحبهم كثيراً.
عندما أوصلنا الطبيب أمام منزلهم، طلبت من إخوتي الاختباء من جديد، ودخلت بمفردي دون
أن أقصر الجرس، اكتفيت فقط بدفع الباب، بدا لوهلة وكأن هذه الخمس عشرة سنة لم تمض قط. كل
شيء كان معيقاً بالنسبة إليّ: الأثاث، اللوحات، الروائع الأليفة. كان رأسي مصاباً بالدوار. بدا المنزل
خالياً. رحت أداعب الكلب الذي استقبلني بحفاوة. وأنا أجتاز المطبخ لمحت هاتفاً. بدون تفكير،
بدأت أطلب نمرة جدي، في كل مرة، كان أحد ما يرفع السماعة، قائلاً بتنمر «ألو». أصررت على
متابعة المحاولة بالرغم من إحساسي بالفرع.

أخيراً استوعبت أن هذا خط داخلي، ثم لم ألبث أن تعرفت على صاحب الصوت، إنه العربي.
طلبت منه أن يتزل، هون أن أكشف له عن هويتي. وافق بتنمر.

عندما دخل إلى الغرفة، صدمني مظهره، واحتجت إلى بضع دقائق لكي أتعرف إليه. الشاب
الذي كنت أعرفه كان نجلاً، في الخامسة والعشرين من عمره، والذي قبالي الآن يناهز الأربعين
من عمره.

تبادلنا إلقاء التحية، أظهر عدم معرفته لي.

فقلت له:

-إنني مليكة.

-ابنة الحاجة.

لم أقتر على لفظ اسم عائلتي. كنت خائفة من الإفصاح عن هويتي، وهذا الخوف بقي يطاردني
لسنوات طويلة.

-ما زلت لا أفهم شيئاً.

بتشجيع وألم نجحت بتهجئة الاسم:

-أوفقير، مليكة أوفقير.

تجمد من شدة الصدمة. ثم تمالك نفسه وقال بلهجة حادة ومتعجرفة:

-ماذا تريدين؟

رويت له بأنهم أطلقوا سراحنا، وأن ماريا، ورؤوف، وعبد اللطيف كانوا معي. كنت أرثف

خوفاً، سبياً وأنتي لم أعد أعرف ماذا أفعل. خلال سنوات السجن، كنا نتصرف على أننا أبرياء. إنه أحد حقوقنا الطبيعية. لقد كنا ضحايا، ولم تكن ملفين كما حاول، باستقباله وردة فعله، أن يُشعري. لم أكن لأتحيل يوماً أن أصدقاءنا المقربين يمكنهم أن يعاملونا بهذه القسوة والإجحاف. لقد وجه إليّ العربي لتوه أول صفة. ابتلعت كبريائي، وأجبرت نفسي على التفكير بالآخرين الذين كانوا بانتظاري، وبكل خططنا ومشاريعنا.

قلت له بجفاف:

-إنني بحاجة إلى المال. وأريدك أن تقلنا إلى محطة القطار.

كنت قد علمت بوجود هذه السكة الحديدية من السائق. في زمني، لم يكن هناك أي خط حديدي بين الدار البيضاء والرباط.

بدون كلمة، خرج من المطبخ ليعود لاحقاً بعد عدة ثوانٍ، محملاً بثلاثة مائة درهم. ما يعادل مائة وثمانين فرنكاً فرنسياً. بدا لي المبلغ سخياً وكافياً. كنت أجهل أن الدرهم الآن سنة ١٩٨٧ لم يعد له نفس القيمة الشرائية كما كان في تلك الفترة.

ألقي عليّ العربي موعظة أخلاقية، طلب مني عدم الاقتراب من أخيه الكبير الذي كان يعاني من الاكتئاب منذ وفاة خاله. إنني متأكدة أن كميل ما كان ليعاملنا كما فعل العربي. كان دائماً، طيباً، وإنسانياً وحساساً، وبالتحديد وفياً. لكن لم يكن لدي وقت لأتحرى عنه. أخرج العربي السيارة من المرآب. نظر إلى أخوتي باحتقار أكثر منه بخشية، دون أن تأخذه بنا شفقة، أشار إلينا بالصعود ثم لم يلبث أن ألقي بنا أمام المحطة مثل حزمة غسيل وسخة.

هذه المقابلة زعزعت تقني بنفسي، لكنني لم أشأ أن أرزح تحت وطأة هذا الشعور المؤلم. هذه الدراهم التي كانت تملاً جيبي أعطتني إحساساً بأنني غنية، وأول إنفاق لي كان من أجل عبد اللطيف. اشتريت له مطبوعة «الفريق». كان قد اكتشف كرة القدم بفضل المنياع، وكان يحفظ غياً الصورة التي كانت عليها تشكيلات الفرق الفرنسية والمغربية. كذلك الأمر بالنسبة إلى الجولات والباريات، والكؤوس.

تزودنا بالسجائر ونحن نفكر بسكينة. كانت تحب التدخين كثيراً، إلى حد أنها في بئر جديد قامت بتجفيف الأعشاب التي كانت قد التقطتها حليلة وعاشورا من البهو الخارجي، ثم أخذت تلفها

بأوراق الكرتون أو الزعفران.

بذلنا جهداً مضيئاً للحصول على التذاكر. كنا خائفين من هذه الجمهرة، وخصوصاً من المدقي التذاكر، وهم في لباسهم الرسمي. الصورة العملاقة للملك، التي كانت معلقة على أحد الجدران أروعنا، مما حدا بنا إلى الاندفاع جرياً من المكان، كنا نلهث ونرتجف وكأن شبحاً خيفاً كان يطاردنا. من المؤكد، أن هذا كان غباء منا، لكنه كان لا شعورياً.

أخيراً، ركبنا القطار، كان منظرنا غريباً بعض الشيء، والنظرات مصوبة نحونا. بعدما استقر بنا المقام داخل المقصورة، طلبنا القهوة، ورحنا ندخن معها السجائر. إنها المرة الأولى منذ عدة ساعات، التي يراودنا إحساس بالحرية. ولكن، عندما دخل المدق لكي يستعرض تذاكرنا، أخذتنا الرجفة من قمة رأسنا حتى ألمحص قدمينا.

كان بالقرب منا زوجان فرنسيان يعلقان على فساد الحكم، والبذخ الفاحش في عيد العرش، وتكاليفه الباهظة، وعن السياح المبعدين عن «المامونية»⁽⁸⁾. فعل الرغم من أن غرفهم كانت محجوزة، إلا أن الحكومة عادت واسترجعتها لأنها احتاجت إليها في هذه المناسبة. أراحتنا هذه المحادثة، إذ إننا لم نكن الوحيدين الذين نحمل على النظام.

من حين لآخر، كان الفرنسيان يلقيان علينا نظرة فضول واهتمام. كنا نتحرق رغبة لإطلاعهم على حقيقة أمرنا، والإنضاء لهم بسرنا. يبدو أنهما لطيفان، ومنفتحان. ولكن من يضمن لنا أننا لم نخدع بكلامهما الجميل؟ وأنها ربما سيفقدان بنا؟

بدافع من حزننا الشديد جداً، عدنا وإبتعلنا نداءات الاستغاثة.

حالة الدهشة التي كانت تعترى عبد اللطيف، كانت تنمو وتزداد مع كل اكتشاف جديد. لم ير صحيفة في حياته. كان ينظر بدهشة إلى صور اللاعبين مع الكرة. الوحيد الذي تعرف عليه بينهم كان ذلك الذي صورناه له في السجن.

بلغ ذموله أشده عندما ألقح القطار وأخذ يسرع شيئاً فشيئاً. كانت شفتاه معلقتين، وعينه جاحظتين، فيما كان يمعن نظره في المشاهد التي كانت تمر أمامه. حاول رؤوف أن يهدئ من روعه، لكن مساعيه ذهبت سدى. كم أحزننا رؤية عبد اللطيف، وهو على هذه الهيئة من الذهول والاستلاب، إنه أول خروج له إلى الدنيا التي يجهل كل شيء عنها، ولم ير منها إلا الظلام والعتمة.

وخلال خمسة أيام من هرونا، لازمه إحساس دائم بأننا نتواجد داخل قطار متحرك. في طنجة، عندما كنا في بهو فندق «أمل» سألني إذا ما كان القطار سيتوقف يوماً عن الحركة والدوران أم لا.

الرباط

بخطوات يشلها الخوف، رحنا نتقدم في محطة الرباط الرئيسية، فيما كان رأسنا يضح بعشرات الأسئلة والصور. هل أذاعوا أمرنا؟ هل صدر أي بلاغ بحقنا يقضي بالبحث عنا، وإعادتنا فوراً إلى السجن؟ هل هم يترصدون لنا بالمرصاد في مكان ما هنا؟ ربما على أرصفة المحطة أو خارجها؟ تبا لهذه الأفكار المزعجة. كل شيء يبدو طبيعياً، ولا أثر لأي رجل شرطة. اتجهنا بتردد إلى موقف سيارات الأجرة. هذه المحطة كانت أضخم، وأحدث، وأكثر ارتياداً من أي واحدة أخرى. كانت جموع الناس تدفعنا وهي في طريقها الذي كانت تعرف وجهته جيداً، على عكسنا نحن الذين كنا لا نعرف أين نذهب. ولم يكن هنالك من أحد في استقبالنا.

صعدت ماريا مع رؤوف في السيارة، فيما ركبت أنا الثانية بمعية رؤوف. كانت التاسعة صباحاً. كان علينا أن نتقابل سوياً أمام مبنى السفارة الفرنسية.

كان رجل شرطة يحرص الباب. ترددت لحظة، ثم تقدمت نحوه. قائلة:
- أريد أن أدخل.

- السفارة مغلقة.

أجابني، كما لو كان هذا الأمر بديهاً ومسلماً به.

استغرقت عدة دقائق كي أعني وأفهم. كنا في نهار الإثنين الواقع في ٢٠ نيسان/أبريل. بكلمة أخرى، كان يوم عيد الفصح، بالرغم من دقة خططنا، فقد غاب عن بالنا هذا التضييل المهم. من يدري ما الذي كان سيحصل لو أننا أخرنا هربنا إلى يوم لاحق؟

اقتراب رؤوف، محاولاً أن يزع نفسه في المناقشة، لكن الشرطي كان ينظر إلينا بحذر. اكتشف بسرعة أننا ندبر أمراً ما. انهال علينا بالأسئلة، وصل به الحد أن سألنا إذا كنا ملاحقين من العدالة. بازدرام واحتقار راح يحدجنا بنظراته شرراً بدءاً من رؤوسنا الجرداء وصولاً إلى أحييتنا الملوقة بالطين.

كي لا نندع له الوقت الكافي لمزيد من الاستجواب. سارعنا إلى الصعود في سيارة التاكسي. السائق

بدوره، راح ينظر إليّ برية عندما طلبت منه أن يوصلنا إلى السفارة الأميركية. كانت هذه هي الخطوة البديلة الوحيدة لدينا، في حال تضرر طلب اللجوء السياسي إلى السفارة الفرنسية.

ولم يلبث أن سألني:

- لماذا تبدين وكأنك مطاردة؟ من أين أنت قادمة؟ هنالك شيء ما يجتنبه وراءك؟ إنك تبدين أوروبية، ولكن لا، قطعاً، إنك فعلاً غربية...

التزمنا الصمت، ولم نردّ بشيء. أسئلة من جهته، وصمت من جهتنا. وصلنا أمام مدخل السفارة الأميركية. قررت أن أجرب حظي بمفردي. أوقفني رجل شرطة مغربي على الباب، وطلب مني أن أضع حقيتي جانباً. كنت أحتفظ في داخلها بالمسدس الذي صنعه عبد اللطيف والذي يبدو حقيقياً. خشيت أن يعتبروني إرهابية.

وأنا أنتفض قلت له إن ألعاب أخي فيه. لكن الرجل أخذ الحقية من يدي بلا اكتراث رامياً إياها في إحدى زوايا محراسه. بعدما أعلمني أنه يمكنني أن أسترجمها وأنا خارجة.

لم أكن على يقين من أمري. كنا متأكدين جداً من نجاح مساعينا في السفارة الفرنسية. بحيث إننا لم نحضر بها فيه الكفاية في حال الفشل والإخفاق. علماً عن أننا لم نكن في وضع معنوي يمكننا من ذلك. فقد كنا نتخط في حالة من الملح والتمزق. كنا نعوّل على تطبيق السيناريو الذي وضعناه خلال أسابيع بعدما حافظناه ظهر أعزّ قلب. ولكن مواجهة المفاجآت وما هو غير متوقع كان يتطلب مجهوداً من الصعب تجاوزه. لذلك كنت مشتتة وضائعة. وأنا أرتجف، سلكت مرتفعاً يقود إلى مكاتب السفارة.

من جهة اليمين كان يوجد محراس زجاجي يربط فيه رجلاً من حيث يتابعان حركة الذهاب والإياب أمام شاشات المراقبة. من جهة الشمال المقابلة لهما، كان يوجد رجل مغربي يضع بثلة وربطة عنق، يقف أمام السلسلة الحديدية التي كانت تحمي مدخل المكاتب.

سألت المغربي أن يزودني بطلب للهجرة. استوضحته عن طريقة الإجابة. عندما كان يجاوبني، كنت منهمكة في التفكير بالمخرج المناسب. كان يكفي أن أترع هذه السلسلة التي كانت في متناول يدي كي أجد نفسي فوق الأراضي الأميركية. في الجهة الأخرى، كان الموظفون يعملون، حاولت أن

ألفت نظراتهم بعينين كلهما استجداء لكن دونها جدوى.

اقترب رجل من الحارس المغربي، بعدما أبرز له بطاقته، أزاح من طريقه السلسلة مفسحاً له المجال في الدخول. ترددت مرة أخرى، كيف أتصرف. هل كان عليّ أن أتبعه باندفاع؟ أو ربما من الأفضل لي أن أقفز فوق السلسلة، وأنا أصرخ طالبة حق اللجوء السياسي؟ ولكن إذا قبلوني، ماذا سيحصل لهؤلاء الثلاثة الآخرين؟ هل سيطردون؟ أم أنه سيلج عنهم؟ أو أنهم سوف يقتلون؟

لو أن المغربي كان أميركياً لما ترددت أبداً في القفز فوق السلسلة. لأنه كان سيجسد لي الخلاص، وأميركا، حقوق الإنسان. ولكن في المقابل هل كان بإمكانني أن أثق بأحد مواطني بلدي؟ وماذا عساي أن أفعل لو أنه سدّ عليّ الطريق؟

عندما قررت أخيراً الانتقال إلى التنفيذ، كان الوقت قد تأخر. من غرفتهما الزوجية، كان رجلا الأمن يراقبان تحركاتي، أخفعتها الريبة في تصرفاتي. تحادثا فيما بينهما بالإنكليزية وهما يشيران نحوي ثم ناديا عبر مكبر الصوت بطلب الرجل المغربي، بعد أن قالوا له بأن مظهري يبدو غريباً، خرج أحدهما من مكانه متجهاً نحوي. أصبت بالهلع، التفتت الطلب، استعدت حقيتي، وانطلقت كالسهم إلى الخارج، فيها كان قلبي يكاد يتوقف من شدة الخفقان. واثبتهم إلى حيث ينتظرونني داخل سيارة التاكسي. إنها الهزيمة بعينها. لم يبق أماناً إلا سفارتا بريطانيا العظمى، وإسبانيا، لكنهما كانتا مغلقتين أيضاً. ولم نعد نعرف ماذا نفعل.

كان بإمكان أحد آخر أن يساعدنا، وهو صديق بربري بلجيكي. كانت إحدى بناته في نفس الصف معي، في القصر. طلبنا من التاكسي أن ينقلنا إلى الأكدال، الحي الذي يقطن فيه مع عائلته المؤلفة من زوجته للا مينا، وبناته، لطيفة ومليكة. في تلك الحقة، كانت الأكدال حيّ القيلات الصغيرة الخلابّة. لكنّها أزيلت جميعها وتم استبدالها بالمباني.

لم نعد نعرف فيها شيئاً. كان التاكسي يدور في حلقة حول نفسه، وكنا نحن بدورنا نزداد تشوّشاً. فجأةً تذكرت أن منزلهم كان يقع بالقرب من مركز البريد. بضربة حظ، كان ما زال الوحيد الذي لم يطاوله التدمير.

سألني البواب عن الاسم الذي كان عليه أن يخبرهم به. قلت له بأنني أرغب بالتحدث إلى للا مينا، من قبل مليكة، ابنة الحاجة فاطمة.

عاد وأعلن لي بلهجة مشككة:

- لا تعرف أحداً قط بهذا الاسم. إذا لم ترحلي فوراً من هنا، فإنها ستتصل بالشرطة.

أصررت على موقفي وقلت له:

- قل لها، بأنني أنا مليكة، مليكة أوفقيير.

تجمد في مكانه من هول المفاجأة، لقد أصابه الذعر. قال لي أخيراً:

- لا تصري، إذ لا داعي لذلك. إنها لا تريد أن تعرف شيئاً.

لكنه يهدوء أوصد الباب الذي يفصل بين الصالون والمدخل، وراح يستجوبني بنظراته. سألته

عن مكان سكن لطيفة قال لي:

- إنها تعيش في أكادير. أما أختها مليكة، فقد كانت تعيش في الطرف الآخر من الشارع.

كنت أعرفها جيداً، كانت تعمل مدرسة في مطلع شبابها. في الفترة التي كان فيها أبي ما زال مديراً

للأمن العام، كانت تأتي إلى البيت لإعطاء الدروس الخاصة لإخوتي الصغار. إنها في الوقت الحاضر

متزوجة من مقاول وربة عائلة.

بقليل من الأمل، قررت أن أضرب هذه العجينة في الحائط، وأجرب حظي. تمررنا أمام المبنى

ورحنا ننتظر وصولها. حوالي الثانية عشرة والنصف ظهراً، شاهدنا إحدى السيارات وهي تتوقف.

نزلت منها سيدة مسنة يتبعها أولادها الأربعة في خط مستقيم، كانت مثل دجاجة تتقدم فراخها. من

الواضح أن مليكة كانت تزيد عشرة كيلو غرامات في كل حمل.

تقدمت بانجماهما. نظرت إليّ بتركيز، وراحت تململق في وجهي كلما ازدادت اقتراباً منها. كانت

الصورة تتضح في ذهنها أكثر. أخيراً، تغضن وجهها، وتراجعت إلى الوراء وأخذت تصيح وتبكي:

- ولكن لماذا أنا بالذات؟ لماذا تفعلون بي هذا؟ لا يحق لك هذا... أيها الأطفال، ادخلوا فوراً إلى

المنزل.

قالت لهم هذا وهي تبدو على حافة الإصابة بالهستيريا. تابعت تراجعها وهي تدفعني بذرعاها كي

أغرب عنها وكأنني كنت مصابة بداء الجذام.

عدنا إلى قلب المدينة، كي نودع الرسائل في مركز البريد الرئيسي. أرسلنا عشرات منها إلى العديد

من رجال الشرطة، والفنانين، ومن بينهم آلان ديلون، سيمون سينيوريه، سيمون فيبي، روبر

باديتير، وجوزيه آرثير...

كنا نريد أيضاً إجراء بعض المكالمات الهاتفية. حبسنا أنفسنا في حجرة الهاتف لكتنا لم نعرف كيف نشغل الجهاز.

في كل مرة كان يقترب خلالها أحداً منا، كنا نخرج منها عدواً. كنا نتصرف وكأنهم كانوا يطاردوننا. بالرغم من خوفنا، حاولنا أن نمزح فيما بيننا بعض الشيء. الأمر الذي سمح لنا أن ننسى قليلاً بأننا كنا قارين. لكتنا لم ننجح أبداً في طلب ولو نمرة واحدة.

كان الوقت يمر، وكان يجب أن نلوذ إلى مكان ما. لم يتبق لنا إلا أصدقاء الطفولة الذين كان بإمكانهم أن يساعدونا ومن بينهم رضا، صديق رؤوف الحميم. كان في الماضي يسكن بالقرب منا في شارع الأميرات. كي فصل إلى بيت رضا كان لا بد لنا من المرور بمنزلنا القديم. كنت أعد الصغير دائماً أن أصطحبه يوماً لرؤيته. مع أنه لم يكن يتذكره أبداً، لكنه كان يحب الاستماع إلينا ونحن نتحدث بحنين عنه.

لعلها هذه هي الفرصة الوحيدة لذلك.

أعطيت موعداً للآتين أمام منزل رضا، وتحلفت عنهما أنا وعبد اللطيف كي نسلك الطريق الذي يؤدي إلى منزلنا.

كنت خائفة مما سأجده. ترى هل أجرى المستأجرون الجدد بعض التغييرات عليه؟ هل احترموا خصوصية المكان؟ هل ما زالت غرفتي بين المسبح وصالة السونا؟ والحديقة، هل ما زالت مزروعة بالأزهار التي كنت أحبها كثيراً؟

عندما وصلنا إلى المدخل، اعتقدت أنني أخطأت العنوان، فبدلاً من الفيلا الساحرة المحاطة بحديقة مزروعة بأعشاب دائمة الاخضرار، لم يعد هناك إلا أرض جرداء بور. بعد رحيلنا، تم هب البيت. عرفت حاشيتنا القديمة كيف تستغل الأمر كي تتوزع فيما بينها أثاثنا، ولوحاتنا، وصناديقنا، وحلي أمي، واليوميات الصور، والمنمنمات الصغيرة، وملابسنا، ومتاعنا، وذكرياتنا... ثم قام الحسن الثاني بإزالته. لم يعد له وجود كما الحال بالنسبة لنا. بهذا العمل الوحشي، قام برميها في العدم.

اعتبرت هذه الضربة قاضية، إن لهذا المنزل أهمية خاصة ومعتبرة في نفسي. عندما كنت في القصر، كان هو محور كل تفكيري، إنه رمز الأسرة الطبيعية والسعيدة، وملاذئي الأمين.

خلال سنوات السجن الطويلة كنت أعلق آمالي عليه، وأستعبد زاوية زاوية في ذهني. في الليل، وقبل أن أنام، كنت أروح أتجول في كل غرفة، وأستعرض كل الموجودات. كان بمثابة حبل السري، والشيء الأخير الذي كان ما زال يربطني بأبي وبأيام السعادة الهاربة. باختفائه، انهارت بلمحة كل نقاط الارتكاز التي كنت أستاذ عليها. كنت أشعر كما لو أنني متخة، ومغتصبة، ومقتولة، وأني وحيدة في هذا العالم مرة ثانية. لم يعد لأي شيء قيمة عندي. كي لا أثير قلق عبد اللطيف، تظاهرت بالضياع، وادعيت بأنني نسيت أين البيت. قبل الكلبة بدون تذمر وامتناع.

عاود التاكسي انطلاقه إلى بيت رضا. كان هناك بستاني أمام الباب. قال لي باستهجان واستغراب:

— رضا؟ لقد تزوج. لم يعد يسكن هنا... أبواه؟ إنها في فرنسا...

لكثرة ما ألححت عليه، أعلمني من طرف شفاهه، بأن رضا يسكن في مجمع زهوة. صعدنا إلى التاكسي ونحن نشعر بمتهى الإحباط. حل مدخل المقر السكني، أوقفنا الناطور، كان حذراً، متشككاً، وغبراً سرياً ككل النواظير المغاربة.

حاولت أن أبدو طبيعية، وسألت عن المبنى الذي يوجد فيه رضا. قصدته بحذر كما لو أنني كنت في حالة حرب، وأني اجتزت لتوي خطوط تماس خطرة. حيث كان بالإمكان في كل لحظة سقوط رصاصة من شأنها أن تقطع مجرى سيري.

قرعت الجرس. خادمة ما فتحت لنا الباب. قالت: لقد خرج رضا لتوه. رفضت أن تقول لي أين يتناول رضا غداءه. طلبت منها كويماً من الماء، ورجوتها أن تدعني أجري مكالمات هاتفية. أردت الاتصال بجوزيه آرثير. رافقتنا برناجه خلال فترة الأسر والاعتقال، كنت أحس أنه سيساعدنا بما لا يقبل الشك... لكنها أشارت لي بالرحيل دون أن تدعني لطلبي.

كنت لا أزال أحاول أن أجعلها تعدل عن رأيها، عندما سمعت صوت هدير طائرة هليكوبتر، جذبت الصغير من يده ورحت أنزل جرياً على الأدرج. رؤوف وماريا اللذان كانا بانتظاري أمام مدخل المبنى راحهما أيضاً يركضان. كانت تحلق على علو منخفض، مما أمكننا رؤية الجنود الذين كانوا يجلسون بداخلها ويضعون رشاشاتهم فوق ركبهم. تابعا ركضنا واختبأنا نحن الأربعة خلف أشجار السرو ونحن نرتجف والواحد منا يلتصق بالآخر. كنا نجهل أن جئنا هو أيضاً يسكن في هذا

المجمع ولذلك بدأ رجال الشرطة بحثهم انطلاقاً من هنا.

خطرت لرؤوف فكرة جديدة، واحدة إضافية، لكن في الوضع الذي كنا عليه، لا يمكننا إلا التجربة والمحاولة. بالقرب من مجمع زهوة كانت توجد فيلا لأصدقاء طفولة آخرين، باتريك وفيليب بارير، وهما فرنسيان ولدا في المغرب. كانت دائماً تربطنا بهم علاقة طيبة، وكنا نحب جداً أبويهما، لا سيما أمهم، وهي امرأة فائضة الأمومة، ودائمة القلق على ذريتها.

بعد عدة دقائق من السير المتواصل، وجدنا المنزل الصغير الجميل، والمحاط بالأشجار والأعشاب. فتحت لنا الخادمة. قلت لها:

- نريد رؤية مدام بارير من قبل مليكة ورؤوف أوفير.

أعادت إغلاق الباب، كنا نتوقع كل شيء بدءاً من طردنا كلبصوص، وإهانتنا وتحقيرنا وصولاً إلى الإبلاغ عنا. لكننا كنا منهكين من التعب، خائرين من الجوع، مرتعدين من البرد، والخوف واليأس. لم نعد نستطيع أن نخطو خطوة واحدة.

سمعنا ركضاً في الممر ثم فتح الباب فجأة. كانت ميشال بارير أمامنا، والدموع غملاً عينها. لم تستطع أن تتكلم بكلمة واحدة بقدر ما كانت تبكي. فتحت ذراعها على وسعها وضمتنا إليها بقوة وهي تهمس:

- أطفالي... أطفالي الأعزاء... أي سعادة هذه!

دعنا للدخول. لأول مرة منذ هرونا كنا نشعر بالأمان.

كانت تأخذ قهوتها برفقة زوجها، طلبت منا نحن الأربعة أن نتبعها. كان لوك بارير يملك مشرة. في الفترة التي كنا نعرفه فيها، كان كثير التردد على القصر. نهض من مكانه وعانقنا. بدا مندهشاً ومتفاجئاً جداً لرؤيتنا. قلت له إنهم أطلقوا سراحنا.

- ولكن كيف ذلك؟ لم يذع هذا الخبر على التلفزيون، ولا على الراديو أيضاً...

- أنت... إن الأمر هكذا... عندما اختفينا، لم يعط أحد أي توضيحات بهذا الخصوص أيضاً...

بدا كلامي معقولاً... إذ كم وكم من الذين تم إخفاؤهم، غابوا نهائياً إلى الأبد عن الأنظار، ودون أن يعرف أحد ما كيف تم ذلك؟ ولماذا؟

تابعت على نفس النوال، وقلت له إن أمي والآخرين سيخرجون قريباً هم أيضاً. وإنهم كانوا قد

مدونا بالمال اللازم للرحلة قبل إطلاق سراحنا.

لم أكن مرتاحة وراضية عن نفسي عندما كنت أقوم بتلفيق هذه الأكاذيب. شعرت أنه كان ذا حدس قوي.

فيما يتعلق بي، لقد كلفني غالباً أداء هذا الدور، والتظاهر بأن كل شيء طبيعي وعلى أفضل ما يرام في الوقت الذي كان فيه رأسي محموراً بالأفكار والهواجس، ويكاد من شدة غليانه أن يتفجر. كم كان يؤدي أن أصرخ وأملأ الدنيا صراخاً، هنا في وسط صالونهم المرتب، والمزين بالأشياء الجميلة التي تنضج بالدغف والحب والأمان والأطمئنان، فيما كنا نحن نخشع من وطأة الطوق الذي كان يضيق علينا بإحكام. كنا ملاحظين ومطاردين من قبيل جميع رجال الشرطة في بلدنا المغرب. إننا، منذ خمسة عشر عاماً، ندفع ثمن جريمة لم نرتكبها. أي كابوس هذا... أما أن له أن ينتهي؟

يا لأمي، وسكينة، ومريم، إنهن ما زلن سجينات، ويتكبدن ريباً سوء العذاب، كي يعترفن بمكان وجودنا...

كنت أضحج بالخوف، والرعب، والقلق، والثورة، وعقدة الذنب، والغضب. بدون وجودنا كانت الحياة تسير في مجراها الطبيعي بانتظام، إننا نحن من عكّر صفوها، وأربك هدوءها وكثر عيش أصدقائنا الذين لطالما أحببناهم ولم تنسهم. أصبح مجرد ذكر اسمنا يثير لديهم الرعب والملح... يا لسخرة القدر! إننا لسنا أشباحاً... إننا لسنا أمواتاً... حيناً لو أن الأمر كذلك... لكان هذا أهون وأفضل.

كان عليّ أن أفضّ على جرحي، وأزرد لوعتي وألمي. وأن أطيع ابتسامة على شفتي، وأتظاهر براحة البال، وأصنع الفرح، كان عليّ أن أجِد الكلمات المناسبة، وأتبادل مع الغير عبارات اللياقة والمجاملة. ماذا فعلت يا إلهي كي أستحق كل هذا؟

انسحب لوك بارير بعدما استأذن بالانصراف إلى عمله. الأمر الذي أراحنا وطمأننا. لأن هذا يزيح عن كاهلنا عبء التظاهر والتكلف. عدا عن أن زوجته آمن جانباً منه، ومن السهل التعامل معها. بلطافة وحنان، أدخلتنا إلى المطبخ وراحت تضع أمامنا الطعام والشراب وهي تردد:

يا لصغاري المساكين... يا إلهي كم أنا سعيدة...!

استغرقنا عدة ساعات في الأكل والشرب، يرافقنا الإحساس المستمر والدائم بأن هنالك خطراً

داهماً قد يافتنا في أي لحظة. ومع هذا، استحوذت على اهتمامنا أحاديث ميشال بارير التي كانت تدور بمجملها حول أصدقاتنا القدامى.

أخبرتني كيف تم تدمير بيتنا، وعن أسماء بعض الأشخاص من الحاشية، الذين تدافعوا وتسابقوا لنهبه وسرقته، ابتلعت دموعي، ومالكت نفسي كي لا أبكي.

أعلمتني أيضاً بموت جدي خديجة منذ عشر سنوات وأكثر، لقد كانت امرأة شجاعة، كانت تقوم بدور صلة الوصل، وتتجول على دراجتها كي تسلم بنفسها البريد والرسائل إلى رجال الشرطة الذين كانوا يعملون في تاماغت كي يخلوها بدورهم إلينا. عاود جدي الزواج مرة أخرى بامرأة صغيرة السن.

كذلك قالت لنا بأن أحد أبنائها المدعو فيليب، الذي يعيش في باريس، هو في زيارة عابرة للمغرب برفقة زوجته جانين، وهي رفيقة مدونة قديمة، وأنه سيكون مسروراً جداً بزيارتنا.

طوال الوقت كنت أخشى أن يزلّ لسان أحد منا بكلمة واحدة تكشفنا وتفضح أمرنا. لقد صعدت عندما أدارت التلفزيون. إذ إننا لم نر أبداً صورا ملونة إلا في صالة السينما. ظهرت صور متحركة على الشاشة العملاقة، وعبد اللطيف تستر أمامها. غاب عنها حوله، كان مأخوذاً كلياً بالمشاهد التي كانت تعرض. لقد عاد طفلاً في الثالثة من عمره، يفقهه لأقل طرفة.

كنت قلقة بشأنه. خفت عليه من الغرق في هذا السيل الجارف من المعلومات والاكتشافات. ربما كانت هنالك مضار لهذه الوتيرة المتدفقة والمتسارعة. وربما ستحدث له خللاً نفسياً لا تحمد عواقبه. وقد يثير هذا شكوك ميشال بارير حول الظروف التي كنا نعيش فيها في المعتقل. وهذا ما لا أَرْغب به، أردت أن أكون مقتضية قدر الإمكان.

كان الوقت يمر. فيما كنا نتابع الثروة حول موضوع وآخر، كانت تترسخ قناعاتي بأن الإخفاق كان حليفنا حتى هذه اللحظة. ورحت أؤمن التفكير في الموت، لأنه هو خيارنا الوحيد، في حال أنهم أعادوا القبض علينا. إن وضع حدّ لحياتنا لأهون علينا من هذا. كان من السهل علينا أخذ هذا القرار بين قضبان السجن، في حين أنه بدا صعباً جداً بعد هروينا. لقد استيقظ حبّ الحياة في نفوسنا فجأة بعد سبات عميق.

عاد لوك بارير إلى البيت بعد الظهر. لم يكن عنده نية أن يغضّ طرفه عنا. لم يصدق كلمة واحدة من

مزاحمتنا. وراح يعاود طرح الأسئلة نفسها علينا آلاف المرات دون أن يبدو عليه الرضا من إجاباتنا. حاولت زوجته جاهدة إعادته إلى رشده، لم تفتأ تطلب إليه أن يدعنا بسلام: وأخذت تقول:

- ألا ترى أن هؤلاء الأطفال كانوا يعيشون في كابوس... لوك دعهم وشأنهم... كلما فكرت بجميع هؤلاء الناس الذين غدروا بهم، وكيف كانوا يعاملونهم من قبل...

كلما كنا نغير مجرى الحديث بالسؤال عن أخبار هذا البعض أو البعض الآخر، كان هو يأبى إلا أن يعود إلى حيث يريد ليتابع استنطاقنا والتحقيق معنا. انتهى بأن أعلن لنا بأنه لا بد من الاحتفال بتحررنا وإطلاق سراحنا. ارتأى الاتصال بجدي لأنه، على حد قوله، يستحق هذه الفرحة. أي ورطة هذه! كيف أقمه بالمدول عن رأيه دون أن أثير شكوكه المتأججة؟

قلت له:

- إنه رجل عجوز، ولن يتحمل رؤيتنا بهذه الحالة التي تثير الشفقة. نفضل أولاً أن نسترد صحتنا ونستعيد قوتنا قبل أن نتصل به. إنه كل ما تبقى لدينا من عائلتنا. ولا نريد أن نغامر بفقدانه.

الحقيقة بالطبع كانت مختلفة كلياً. لأن البوليس كان لا شك يراقب هاتفه ومزله. ستكون عرضة لأن يلتقى القبض علينا على الفور.

هبت ميشال باريس لنجدتنا قائلة:

- دع لهم الوقت الكافي كي يرتاحوا، غداً سيذهبون لرؤيته.

ثم خاطبتنا قائلة:

- لا تخافوا، سنحضره نفسياً لهذا قبل ذلك، سأنتصل به بنفسي. اطمئنا.

كنا على وشك الجلوس على طاولة الطعام عندما سمعنا باب البهو يفتح. سمعنا شهقة رجل في الممر. علم فيليب باريس بنأ عودتنا وحضر لزيارتنا مع زوجته وابنه. ضمنا إلى صدره وهو يبكي. وكان يردد نفس العبارة التالية:

- ليس صحيحاً، يا له من كابوس، لماذا فعلوا بكم هذا؟

ثم لم يلبث أن هدأ روعه، وراح ينظر إلينا، ويقول لنا بأن رؤيتنا مجدداً هي أجل هدية قدمتها له الحياة.

هذا العشاء كان الأكثر غرابة وإيلاماً في حياتي. كان فيليب يضحك حيناً ويضرس في وجوهنا

أحياناً بابتسامة غير مصدقة. حاولنا بدورنا أن نحافظ على مظهرنا الطبيعي بالرغم من أننا كنا في غاية التأزم النفسي والإرهاك الجسدي.

بعد العشاء، أراني لوك بارير غرفنا في الطابق. رفضت بتنهيب تلك التي اقترحها عليّ، متذرة بأنني أرغب أن أنام بمفردي. وافق بدون أي تذمر من طلبي هذا الذي أردت من ورائه الحصول على غرفة فيها هاتف.

عاود لوك بارير الصعود، ماداً يده لي بحبوب منومة، كي تمكن من قضاء ليلة سعيدة ومريحة. أخذتها منه وشكرته. وما إن أدار ظهره حتى سارعت لرميها في حوض الحمام. كان هدياني وتطيري يزادان حدة وياضطراد.

أخذنا حماماً بالدور. اكتشف عبد اللطيف ما هو روب الحمام بعد أن استعمله لأول مرة. كنت آخر من دخل الحمام. وأنا أنزع ثوبي عني، كانت بعض أجزائه عالقة مما اضطرني أن أجذبه بعض، فإذا بي أسلخ جلدي دون أن أدري، إذ يبدو أن الدم الذي كان يسيل من ساقي كان قد لصق القماش به، حتى إنني لم أع أنني جرحت عندما كنت أحاول أن أنفذ من الفتق الضيق، كان الألم لحظتها فظيماً، ولكنه زاد سوءاً الآن. كان حذائي ملتصقاً بقدمي. كان من المستحيل عليّ أن أتمكن من خله.

أغمضت عيني، عددت حتى الثلاثة، ثم جذبته بقوة. عضضت على شفتي كي لا أصرخ. لقد اقتلعت أظافر قدمي، مسية التزييف. اندفع الدم على الموكيت.

كالمجنونة، رحت أبحث حولي عن شيء أسح به هذه الآثار العالقة. فجأة فتح الباب، خبات نفسي بروب الاستحمام. رأت ميشال بارير بقع الدم على الموكيت. سألتني باهتمام:

- ما الذي حصل؟

- ليس بشي بال، أغلقت الباب على إصبعي.

بان عليها الارتعاب. أصبح الوضع خارج حدود السيطرة. بعدما خرجت، سارعت إلى الاستحمام، جففت نفسي قدر الإمكان ثم أخذت أنظف ما أحدثته من أضرار. كانت قد أعارتني قميصاً للنوم، لكنني بقيت جالسة طوال الليل، كي لا أوسخ الملابس والشراشف بقدمي التي استمرت تشرف بحدة.

قضيت الليل بطوله وأنا أكتب. رسالة إلى جان دانييل، وبعض القصائد وعدة رسائل استغاثة

أخرى. حوالى الرابعة صباحاً، رفعت مساعة الهاتف بأطراف أصابعي. وإذ بلوك يسألني على الطرف الآخر إذا كنت بحاجة إلى شيء ما. أجبته بارتباك:
- لا، ولكن خيّل إليّ أنني سمعت رنين الهاتف.
- إنك لا شك تحلمين...

حوالى السادسة والنصف، من صباح الثلاثاء، نهضت، ارتديت ملابسى، ثم ذهبت كي أرى إخوتي، كانوا جميعهم مستيقظين، طلبت منهم أن يرتدوا ملابسهم بسرعة، ثم نزلت إلى المطبخ.
كانت ميشال بارير تندبن بإحدى الأغاني وهي تقوم بتحضير فطور الصباح. كانت الطاولة مجهزة، ورائحة الخبز المحمص والقهوة تفوح من المكان. كل شيء كان يبدو طبيعياً، باستثنائنا نحن الذين كنا بعيدين عن كل ما يمت بصلة إليه.
عانتها، سألتني بحنان إذا ما كنت قد نمت جيداً. قاومت دموعي، هزتي بها أبدته من لطف ظاهر حيالي... سألتها عن سر غياب لوك، أجابني:
- كان من المستحيل منعه من ذلك... إنك تعرفين طبيعته جيداً... لقد استغلّ السيارة وذهب كي يعلم جلدك...

صعدت كي أنظر رؤوف بهذه الكارثة. وإذا بفيليب يصل كي يتناول معنا فطور الصباح. انتحى به رؤوف جانباً، وسأله إن كان بإمكانه أن يصطحبنا بسيارته. أجاهه:
- بطيئة خاطر، ولكن إلى أين تريدون الذهاب.
- سنخبرك بذلك لاحقاً...

أدعيت أمام ميشال بارير أنني سأقوم بجولة أنا ورؤوف برفقة فيليب.
كنا قد عايّنا أمس موقع السفارة السويدية، إنه ليس بعيداً من هنا. كانت هلم فرصتنا الأخيرة لطلب حق اللجوء السياسي، مع ثقتنا الضعيفة بإمكانية نجاحنا في ذلك.
أرشدنا فيليب إلى الطريق، وعندما اقتربنا من المكان، أشرنا عليه بالوقوف.
نظر إلينا مطوّلاً، دون أن ينبس ببنت شفة. كانت أمارات وجهنا وصمتنا قد أغتتا عن التعبير.
عندما شرخنا له حقيقة وضعنا، أخذ يرطم رأسه بمقود السيارة، مطلقاً صيحات اللوعة والغضب وهو يقول:

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ أليس لهذا الكابوس من نهاية؟

كان من المستحيل أن ننجح بتهديته روعه. حاولنا أن نخفف عنه وكأنه طفل صغير. ثم قال له رؤوف:

- اسمع جيداً، سندخل الآن إلى مبنى السفارة، وستطلب حق اللجوء السياسي. إذا لم نحضر خلال ربح ساعة، هذا يعني أن الأمور تَمت كما نرغب. وكل ما نطلبه منك فيها لو أخفقتنا أن نقلنا فوراً إلى محطة القطار.

واقق وهو يركي. كان مستعداً أن يفعل أي شيء من أجلنا. للدخول إلى السفارة كان يجب علينا أن نقف صفّاً، ونتظر كي يحين دورنا. بعد مضي عشر دقائق، نفذ صبر رؤوف. أخذ ورقة، وكتب عليها بحروف كبيرة.

- أبناء الجنرال أوفقيير يطلبون حقّ اللجوء السياسي من الدولة السويدية. مرزنا الورقة من تحت الباب الزجاجي الذي كانت تجلس خلفه امرأة شقراء، فارعة الطول. تناولت الورقة، قرأتها، ثم ما لبثت أن هبّت واقفة. عندها بدت بضخامة شكلها كاللارد العملاق، وهي تحدجنا بنظرات قاتلة، قالت لنا بتقطع وهي تشد على مخارج الحروف:

- انصرفوا فوراً...

بارتعاب، غادرنا المكان هرباً بسرعة الخيال. إنها السويد، بلد حقوق الإنسان...!

كان فيليب ما زال ينتظرنا داخل السيارة. كان علينا العودة إلى منزلهم كي نأتي بعبد اللطيف وماريا. فتحت لنا أمه الباب. لم تفهم لماذا كان يتحب بهذه الطريقة من يدري، ربما كانت ترفض أن تواجه الحقيقة. ثم لم يلبث أن دخل لوك بارير، يتبعه خالي الصغير وحيد، كان وجهه متورماً، وعيناه دامعتين. كان بارير قد ذهب إلى منزل جدي حيث وجد وحيد وأخبره بأنه تم إطلاق سراحنا. إنهار خالي بين ذراعيه وهو يقول له:

- لقد فزوا.

لقد علم بذلك من قوات أمن الدولة الذين اقتادوه ليلة أمس. ظلوا طوال الليل يوسعون ضريباً على قدميه كي يجبروه على الاعتراف بمكان وجودنا. لقد أعادوه إلى منزلهم قبل نصف ساعة فقط من وصول لوك بارير. لم يرنا وحيد منذ رحيلنا إلى آسا. وانقطعت أخبارنا عنه منذ أن أصبحنا في تاماغت.

باستثناء أنهم من وقت لآخر، كانوا يلغونه بوفاة واحد أو آخر منا. وهكذا، جعلوه يعتقد أن مريم توفيت، تلاها رؤوف، لأتبعه أنا. جعلني أقسم حقاً بأن أمي والآخرين ما زالوا جميعهم أحياء. كان يصبح ويكي، ويتحب ثم ما يلبث أن يندفع نحونا ليعاقتنا بالدور.

تأثرت كثيراً برؤيته، كنت أحبه كأخي. ولكنتي تماسكت، أجبرت نفسي على ضبط ردة فعلي. لم تكن اللحظة المناسبة للاستسلام إلى المشاعر. لم أكن في حالة تسمح لي أن أجاريه في عواطفه. كنت أريده أن يهالك نفسه، ويعني أن حياتنا على المحك ولا وقت للدموع. كدت أموت خوفاً لمجرد التفكير أنهم ربما كانوا على بعد خطوات هنا بآثره. قلت له ببرود متعمد:

- ماذا ينفع بكائك اليوم؟ في حين أنكم تخلّيتم جميعكم عنا طوال الخمس عشرة سنة المنصرمة. إذا كنت تريد أن تبرىء نفسك، لا يوجد إلّا حل وحيد أمامك وهو أن تروي قصتنا بالكامل للصحافة العالمية، لأننا لن نكون أحياء لنفعل هذا بأنفسنا. ثم تدبّر أمرك، إننا بحاجة إلى المال. أخذ لوك بارير يصبح قاتلاً:

- لماذا فعلتم بي هذا؟ لقد وثقت بكم. وفتحت لكم بيتي! لن يكون بإمكانني العمل في هذا البلد بعد اليوم! سيطر دونني...
أجبهته وأنا أحاول تهدئته:

- لم يكن بيتي أن أكذب عليك، أو أن أستغلك لأرسي... إننا وحيدون في هذا العالم، ولم نكن نعرف أين نذهب... إذا كتمنا عنك الحقيقة، فهذا فقط لأننا أردنا حمايتك. هكذا يمكنك أن تقول صادقاً للسلطات بأنك لم تكن تعرف شيئاً، وبأننا خدعناكم جميعاً.
حاولت زوجه جاهدة أن تهدئ من روعه. فيها انفعلي فيليب وراح يلومه أخذاً عليه أنه لم يفعل شيئاً من أجل مساعدتنا. وقال بآلم:

- إننا جميعنا مذنبون... جميعنا متآمرون في هذه الفضيحة التي يندى لها الجبين.
لم يكن في حوزة وحيد المال. طلب قرصاً من بارير الذي سلّمنا ثلاثة آلاف درهم دفعة واحدة. أودعت مخطوطة القصة لدى فيليب وجعلته يقسم لي بأنه سيخفي أثرها في مكان آمن ريثما يعيدها إليّ في يوم ما. لقد وعدني. لكنه كان خائفاً لدرجة أنه سارع إلى إتلافها ما إن خرجنا من الباب.
أعطينا ميشال بارير ملابس جديدة. تلقيت ثوباً بنفسجياً، وصندلاً ذا كعب عالٍ، بحيث أبدو في

مظهر لا يثير الفضول. كذلك الأمر بالنسبة لرؤوف وعبد اللطيف اللذين ارتديا ملابس مناسبة. صعدنا إلى سيارة تاكسي، وطلبنا من السائق أن يوصلنا إلى محطة قطار الاكندال، لأن المغادرة عبر محطة مدينة الرباط مغامرة محفوفة بالمخاطر. ونحن كان في نيتنا الذهاب إلى طنجة.

طنجة

لماذا طنجة بالذات؟ أولاً، لم نكن نعرف إلى أين نذهب؛ ثانياً، بدت لنا هذه المدينة محطة مناسبة ننطلق منها في مغامرتنا المجهولة.

كنّا بأمر الحاجة للنوم، وكنا في قمة إرهاقنا، واكتئابنا، وبأماننا من كل الإحباطات والخضات التي منيّا بها خلال هذين اليومين الماضيين. فضلاً عن أن آل بارير كانوا قد أعلموني بأن أحد المعجبين القدامى، صلاح بلا فريج، كان يمتلك فندقاً في طنجة، وربما كان بإمكانه أن يساعدنا في مطلق الأحوال، أصبحت الدار البيضاء والرباط مدينتين خطيرتين بالنسبة لنا، كان يلزمنا قاعدة تتحرك منها، فلم لا نجرب حظنا في طنجة؟

التجأنا إلى موقف للسيارات حيث اختبأنا، كي نبقي بمنأى عن الأنظار، لا سيما وأن أماننا ساعتين ونصفاً من الانتظار قبل حلول موعد القطار. ذهب رؤوف لشراء التذاكر ثم عاد لينضم إلينا في غبشنا خلاصاً. بدأنا نهذي ونحن نتخيل الآلاف من مخططات الحرب، التي كان كل واحد منها أشد غرابة من الآخر. بما أثار تهكمنا، فرحنا تقهقه ونضحك بالرغم من اليأس الذي كان يعترينا، والذي كنا نخفيه بهذه الدعابات الطفولية.

عندما فكرنا في مغادرة المغرب سباحة عبر مضيق جبل طارق، أبدت ماريا مخاوفها من أسماك القرش، وأخذ رؤوف يهازحها، متهاكماً من حولها الشديد. قال لها بمرح:

يا طفلة المجاعة، أي قرش يرغب في عظامك؟

أما عبد اللطيف الذي كان من عادته أن يأخذ الأمور ببساطة، فقد أرجعته الفكرة لأنه لا يجيد السباحة. هذأ رؤوف من روعه، وقرر أن نشترى لدى وصولنا إلى طنجة بذلة نجاة معتبرة تليق حتى بـ«كوستو». ورحنا نتخيل مواقف وأموراً لا تخاطر إلا على بال المجانين. قررنا أن نطلي بشراتنا بدهن الفقمية كي نتمكن من مقاومة البرد. وأن نستحصل على جبوب ضد الخوف من القرش كي نطمئن

ماريا، وأن نستخدم منارة ضوئية كي ندلّ السفن على نقطة تواجدها.

هذه الترهات الحمقاء كانت تساعدنا على التماسك. فاجتياز مضيق جبل طارق مسباحة مشروع سخيف، بدون شك، لكنه بدا معقولاً قياساً بالنفق الذي حفرناه بأيدينا، وهرونا المليء بالمفاجآت. ونحن في غمرة جنوننا، وضعنا العديد من السيناريوهات التي لا تعد ولا تحصى، والتي كان نصفها ناجحاً ونصفها الآخر فاشلاً.

لقد وصلنا إلى طنجة كان يلزمنا مكان نأوي فيه كي ننام، وذلك قبل الاتصال بـ«إلافريج» لأن الذهاب إلى الفنتي كان أمراً محفوفاً بالمخاطر، حيث سيطلبون منا أوراقنا الثبوتية، ثم لم تكن نرغب كذلك بأن نهدر مالنا.

لم تكن نعرف الكثير من الناس في طنجة، ثم إن الاستقبال الذي منيّا به في الرباط جعلنا نخشى أن نلدغ مرة أخرى. بالإضافة إلى أن رجال الشرطة يبحثون عنا منذ يومين، ولعلمهم بدون شك شملوا أيضاً مدينة طنجة يبحثهم. بعدما انكشف أمرنا، عملوا إلى وضع كل أصدقائنا تحت المراقبة، لذا، لا بد لنا أن نكون على درجة عالية من الحذر.

اتفقنا على أن نقيم بأيّ ثمن علاقات تعارف جديدة في القطار. لقد سميت أنا ورؤوف جامهين أن نمّد شبكتنا حول المسافرين، اتبعنا في خطتنا الطريقة الكلاسيكية والمعهود، ما نريده هو الإيقاع برجل وامرأة من عامة الشعب، على شيء من الطيبة والسذاجة، كي تنطلي حيلتنا عليهما، ونحن نتحرى داخل المقصورات وجدنا «عصافيرنا النادرة» التي نبحت عنها. كانت المرأة تجلس إلى يسار النافذة، والرجل قبالتها في الجهة الأخرى. كان في الثلاثينيات من عمره، تبدو عليه اللطافة والتواضع، لم أتأخر كثيراً كي أنغمس في التفرس به.

لم يكن الإغراء مدعاة للاستمتاع بل كان وسيلة للاستمرار والبقاء. جلست قبالة الرجل، فيها جلس رؤوف قبالة المرأة التي كانت مغربية، في حوالى الخمسينيات من عمرها، بديئة مختلفة باللحم، وترتدي ملابس بالية الموضة، زهرية اللون، وتضع المساحيق الصارخة. التفت إلى رؤوف وهمست في أذنه وأنا أكتسب ضحكتي:

— أيها المسكين... أنظر ماذا ينتظرك.

كنت أشعر بالبرد والنعاس، وأرتجف كالريشة في ملابس الخفيفة. عرض علي الرجل كنزته.

شكرته بفرنسية مشوية باللهجة الإيطالية. هذه المرة لم نأت من بلجيكا بل من إيطاليا، حتى إننا أطلقنا على هذه «الخطبة الحريمية» الجديدة اسم ألبريني. وخيراً فعلنا، لأن هذا الرجل كان قادماً لتوه من بلجيكا حيث يعمل هناك طباًخاً، وهو الآن في إجازة لرؤية عائلته التي تقطن في طنجة. لم تلبث المرأة بدورها أن اشتركت معنا في الحديث. سألوها عن الوجهة التي قدمنا منها. تظاهرت أمامهم بأننا من جنوب إيطاليا، لفتت المرأة انتباهي إلى أن لي بشرة سمراء أسوة بالشعب المغربي. غيرت مكاني لأجلس بالقرب من الطباخ. لوهلة تملكني الإرهاق، فتركت رأسي يقع على كفه. تحاشيت النظر إلى رؤوف. إذ لا شك أنه غاضب من رؤيتي وأنا أتمادي مع الرجل طمعاً بالحصول على سقف يؤويننا. لم أكن بدوري مسرورة بما أقوم به. ولكن هل كان لدينا خيار آخر؟!

كانت السكة الحديدية تمتد على طول الساحل الرملي الأبيض اللون. كان عبد اللطيف يتابع المناظر التي تمر أمامه بمزيد من البهشة والغرابة، فهو لم يبحراً في حياته. وأنى له هذا؟ لقد كان في الثانية والنصف من عمره عندما اقتيد إلى السجن. كانت ردود فعله مرتسمة بوضوح على وجهه لدرجة أنه استوقف المرأة التي راحت تسأله باهتمام إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها منظر البحر. غيّرنا مجرى الحديث، كي نتحاشى التوغل في مزيد من التفاصيل حول حياتنا. كانت المرأة متشككة وحذرة بعض الشيء، فيما كان الرجل مسترسلاً في أحلامه، لا شك أنه كان مقتنعاً أنني لن أحتاج إلى وقت طويل كي أقع في حباله. ويبدو أن هذا الهاجس بدأ يُسجل لعبه. الساعات الأربع التي استغرقتها الرحلة كانت بمثابة تعذيب وعقاب لنا. كانت أعصابنا مشدودة كالونند من شدة الخوف، ومن التهادي في تمثيل دور ألبريني المرهق، والذي ألهانا عن التفكير في المصائب والمخاطر التي تنتظرنا.

أخيراً، وصل القطار إلى طنجة. تبادلنا نظرات ذات معنى قبل أن ننقل فوراً إلى التنفيذ. تفاهما دونها حاجة إلى الكلام. تأبطت ذراع الطباخ، فيما التصق رؤوف بالمرأة، وانضمت ماوريا إلى عبد اللطيف. كان رجال الشرطة على رصيف المحطة يراقبون نزول المسافرين من المقصورات بتكتم شديد لا يشير الانتباه. فالبلاذ في حالة طوارئ، وهم يحثون سرعاً في كل مكان. لعل الحكومة كانت في ورطة كبيرة بسبب حساسية هذه القضية، فهي كانت خائفة من تأليب الرأي العام عليها فيما لو كشفت النقاب عن هوية المطاردين، والظروف التي رافقت اعتقالهم خلال خمس عشرة سنة.

وهذا ما تأكد لنا لاحقاً.

ما إن بدأ الناس بالخروج من القطار حتى هرعنا للاتدساس بين هذه الجموع المتدفقة. نجحنا بالخروج من المحطة بسلام. فالشرطة تبحث عن أربعة لصوص فارين من السجن، وليس فتاة عاشقة تتأبط ذراع خطيبها، ولا أيضاً عن شاب طويل القامة نحيل يلوذ بلحم جبيته البدينة. ولا كذلك عن زوجين شابين يتقدمان وهما يدوان على أتم تفاهم وانسجام.

ما مساعدنا كذلك أنهم لا يعرفوننا ولا يمتلكون أي صورة حديثة العهد لنا. هذا ما أخبرنا به لاحقاً مدير قوات أمن الدولة. منذ ١٩٧٢، كان لدينا الوقت الكافي وزيادة كي تكبر وتتغير...

لم يفهم الطباخ لماذا انسحب وجهي فجأة، وتوترت أعصابي. لقد اعتبر ذلك بسبب رؤيتي رجال الشرطة، وقال لي معتزلاً:

-نعم أفهمك... ولكن الأمر هكذا هنا... إنني آسف جداً. في بلدي ترين رجال شرطة في كل مكان.

تركنا المرأة «السمنة» بعد أن أعطتني عنوانها، إنها تعمل مكرتيرة في الرباط. تعلقت بذراع الطباخ، فهمس لي بارتباك ظاهر:

-لماذا لا نتخلصين من الآخرين؟

أجبت بتملص:

-لا أستطيع أن أشتت عائلي. إنهم لن يفهموا هذا...

حاولت أن أعرف منه أين يسكن، لكنه لم يجاوبني.

هذا المسير في شوارع طنجة المضاء ليلاً بدا وكأنه حلم. كانت نسبات البحر تداعب وجوهنا، والرائحة المشبعة باليود تملأ صدورنا. كانت صفارات البواخر، تذكرنا بالسفر والحدود المشرقة والممتدة. لقد كانت الحرية هنا... على مرمى حجر مثلاً، يلزمنا القليل كي ننعم بها من جديد. كان يسحرنا نمط الحياة الليلية الذي يتجه أهل هذه المدينة محاولين تقليد الإسبان. لكن طنجة العابثة كان لها وجه آخر. لقد كانت معقل الأصوليين ومركز المخدرات والتهرب. لذلك كانت مرتعاً خصياً للقوات المساعدة التي كانت تكثف من حواجز التأكد من الهويات بشكل مستمر. لم تكن على علم بكل هذا من قبل.

في طريقنا صادفنا جنديين، حل كسب كل منهما بندقيته. تقدّما متّاً وطلباً أوراقتنا الثبوتية. أخذتني الصاعقة، فرحت أنأتمىء ولا أعرف ماذا أقول. أتست نجدتنا من الطباخ الذي احتج عليها باللغة العربية، قائلاً:

- ماذا؟ إنكم تزعمون بأنكم تعملون على جذب السياح إلى المغرب، في حين أنكم تفعلون كل شيء لإثارة قرفهم واشتمزازهم من بلدنا! فهؤلاء بالكاد وصلوا لتوهم من الرباط، وهم يعيشون في روما. لماذا كل هذا التدقيق في تذاكر الهوية؟

لم يبعدا أصيتها عتاً، لكنهما تأثرا بغضب الطباخ ومنطقه، تركا نمر، بعدما عادا عن رأيهما مكرهين كما بدا لي. كانت تلك معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى.

تظاهروا بأننا لم نَح من الأمر شيئاً. شرح لنا الطباخ قائلاً:

- المغرب ليست أوروبا، هذا البلد تحول فعلاً إلى دولة بولسية.

بتنهيب، أبدينا تعجبنا، وأشرنا إلى أن السياسة المعمول بها في إيطاليا مختلفة. احتضن يدي... صدمت، وبدأت أصحو من غفلتي. لقد كان الأمر رائعاً عندما كان لا يعدو مجرد سيناريو وتمثيل، لكن عندما أصبح واقعاً صار مرعباً وليس فيه ذرة رحابة.

كسباً للوقت، توقفت في محل سبّانة، كي نشترى شيئاً نأكله بعد أن كنا قد نسينا جوعنا. راح عبد اللطيف يحمق كالأبله في الرفوف. فهو لم ير من قبل فاكهة معروضة. هزّزته وسأله عما يريد. اختار الليمون لأنه سبق له أن تذوقه في السجن. أما الباقي فقد أثار خوفه لأنه لا يعرف منه شيئاً. كان قد نسيه كلياً بعد دخول السجن.

نفد صبر الطباخ، نأى بي جانباً، وقال لي بأنه سيلتقي ببعض أصدقائه لحل مشكلة الغرفة، وهكذا سيتمكني من إيواء عائلتي.

أرادني أن آتي معه. رفضت، وطلبت منه أن يعطيني عنوان مكان يتواجد فيه. دلّني على أحد المقاهي، ثم تودعنا. تنفست الصعداء، وكنت مرتاحة لأنني أحررت الاستحقاق.

في سنوات السبعينيات، اشترت أمي حصصاً في أحد الفنادق في طنجة يسمى «سولازير» بالاشتراك مع مدام كسوس، الصديقة التي كانت متورطة في قضية بزة أبي العسكرية. اتصلت بها من محل السبّانة، قلت لها:

- ألو، إنتي مليكة... أنا موجودة في طنجة، أحتاج إلى المال وإلى غيباً أمين. هل بإمكانك؟
كانت تبدو مرتبكة وهي تقول:

- نعم... فهمت... لا، لا إن زوجي لم يعد بعد. هذا مستحيل، يجب أن أعود إلى الدار البيضاء غداً.

لم أفهم فوراً لماذا أجابتي بهذه الطريقة المتوترة، وتلك اللهجة الغامضة. خلت ذلك خيانة أخرى من أصدقائنا. غمكتني الحية والإحباط مجدداً، فأسقطتها من حساباتي.
لاحقاً، عرفت أنها، آنذاك كانت عمادة رجال الشرطة، وعندما عدنا والتينا اعترفت لي بأن واحداً منهم كان على وعشك أن ينزع منها الساعة في اللحظة التي أغلقت فيها أنا الخط. كانوا واقفين بأنني أنا من كان على الطرف الآخر.

بالرغم من ذلك، عاودنا المرور إلى فندق «سولازير» الذي كان يقع قريباً جداً. كنا نحتاج إلى عنوان فندق «أهلاً» الذي تعود ملكيته إلى صديقي صلاح بلافريج. قبل مغادرتي إلى طنجة كنت قد طلبت من وحيد أن يتصل به ليعلمه بمجيئنا، لم نعد نعرف إلى أين نذهب. شعرنا أننا مجبرون على مقابلة الطباخ في المكان الذي دُلنا عليه، والذي كان يقع في المكان الأكثر شبهة في طنجة. نزلنا الأدراج التي قادتنا إلى الجزء المنخفض والقديم من المدينة.

كان المقهى يقع في قبو ذي سقف منخفض، مما حدا برؤوف أن يحني قامته الغارضة الطول، وإلا لما تمكن من أن يتقدم خطوة واحدة. لم أر في حياتي مثل تلك المجموعة من ذوي الوجوه الشاحبة. بحارة بندوب، ومدمنو مخدرات بنظرات زائفة، ومهربون، وحتالة من الطبقات الوضيعة. كانوا جميعهم يتحلقون حول طاولة خشبية من النوع الرديء. لم يكن هناك وجود لأي امرأة بينهم، ولا حتى لأي طباخ. انتظرنا قرابة عشر دقائق ثم ما لبثنا أن استعدنا وعينا وأدركنا فداحة خطأنا في التواجد هنا في هذا المكان الموبوء. لذلك هرعنا باتجاه الأدراج، ورحنا نصلعها جرياً، بحثاً عن نسمة هواء نقية.

نفدت السبل، ولم يبق أمامنا إلا بلافريج. كنا في قمة الإنهاك والتعب ولا قدرة لنا على المتابعة سيراً على الأقدام. ركبنا سيارة أجرة، كان سائقها رجلاً مسناً، قصير القامة، ويبدو عليه أنه من الأصوليين. جلس رؤوف إلى جانبه، فيها جلسنا نحن في المقعد الخلفي.

كان فندق «أهلاً» على بعد ثلاثين كيلو متراً من المدينة. اجتازت السيارة الأماكن الأهلة، وراحت

تتهب طريقاً سالكاً. بعدما سرنا مسافة وجيزة، توقفنا بسبب ازدحام السيارات. كان هناك شيء يثير الفضول في هذه المنطقة الريفية الفاحلة ولا يثير بالخير. ونحن تقترب قليلاً، لمحنا حاجزاً ضخماً تقيمه فرقة من الجيش، والشرطة، والقوات المساعدة، والدرك، وقوات أمن الدولة. كل هؤلاء «الطيبين» كانوا يبحثون عنا.

السائق الذي لم يعد بإمكانه أن يخطو إلى الأمام، بدأ يغلي من الغضب. لم يتجرأ رؤوف على مجرد الالتفات. لكننا لم تكن بحاجة أن نتكلم كي نعبّر عن مدى الرعب الذي كان ييمن علينا، شبكتنا أيدينا بقوة شديدة أنا وإمباريا وعبد اللطيف، لدرجة أن أطفالنا غرزت في اللحم. كان الصمت ثقيلًا ينذر بالخطر. عندما جان دورنا، دارت عجلات السيارة بثقل كي تقف بمحاذاة الحاجز. اقترب أحد رجال الشرطة وهو يمسك مصباحاً ضوئياً في يده، سلطه باتجاهنا، أكرهت نفسي على رسم ابتسامة مصطنعة، أطفالاً المصباح ومال على أحد زملائه يحادثه، ثم عادا سوية وسلطوا علينا مجدداً مصابيحهما الضوئية. ارتعدت فرائصنا. خيل لي أنني أسمع صوت طرقات قلبي الحنيفة، ورحت أنساءل كيف حصل أنهما لم يسمعا هذا الضجيج الذي كان يصم الأذان. قلت لنفسي، وأنا أكاد أصاب بالإغماء، إذا تأخروا دقيقة واحدة فقط، فإنني لا شك سأموت بنوبة قلبية.

كانوا يبحثون عن أربعة مساجين هاربين. لم يخطر على بالهم قط مجرد المقارنة بيننا وبينهم. في أذهانهم، أن من غير المنطقي أن نتواجد على بعد ثلاثين كيلومتراً من طنجة، إذ لا شيء نفعله هنا. الأرجح أن نكون في طريقنا إلى المرفأ والطرقات التي تؤدي إلى خارج البلاد. بعدما أبعدنا الأضواء أعطينا إشارة للمرور. لم نسترد أنفاسنا إلا على بعد عدة كيلو مترات لاحقاً.

فندق أهلاً

ما إن وصلت إلى فندق أهلاً، حتى توجهت فوراً إلى قسم الاستعلامات، طلبت مقابلة السيد بلافريج بصوت واثق، وحددت للموظف قائلة:
- من قبل مدام ألبرتيني.

تفاجأ عامل الاستقبال، لم يتوقع أن امرأة بهذا الشكل الغريب تربطها علاقة معرفة بالمدير. اعتذر بأنه ليس موجوداً، لقد توجه إلى الرباط. عبست، وتظاهرت بالغضب والاحتجاج، ورحت أقول

بصوت مرتفع:

- ماذا؟ إنها فضيحة، أين هو جناحي؟ لقد تم حجزه باسم ألبرتيني.
أردت أن أكسب بعض الوقت. وأجنبهم سؤالي عن جوازات السفر.
أصررت أن يتصلوا هاتفياً بالسيد بلافريج ويعلموه بأن مدام ألبرتيني بانتظاره. عاد عامل
الاستقبال بعد عدة دقائق وقال لي:

- السيد بلافريج طلب منا أن نجد لك غرفة.
لكنتي كنت مسبقاً أعرف ماذا سترتب على هذا الأمر، وقع ما خشيت، طلب مني العامل جوازات
سفرنا، تظاهرت بالغضب قائلة:
- أنا صديقة مالك الفندق، وتلحق بي هذه الإهانة.

بعصبية مفتعلة استدوت بمجموعة يتبعني الآخرون، توجهنا إلى مقصف الفندق القريب من
الاستعلامات، وطلبنا بعض القهوة، علماً ترفع قليلاً من معنوياتنا.
ذرع عامل الاستقبال المكان ذهاباً وإياباً، إلى أن تجرأ أخيراً واقترب منا قائلاً:
- ألا تودين سيدتي المجيء للعشاء.
أجبهت باستعلاء مقصود:
- لا تتعب نفسك من أجلكنا، سنغادر الفندق.

بدأ العمال يمدحونا بنظرات تساؤل وفضول، استوقفهم سر التناقض بين زينا المهلهل وتصرفاتنا
المتعالية. حتى إن البعض منهم ظل يدور حولنا.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة. قررنا أن نختبيء بالقرب من المسيح، ثم بعدها نقضي ما تبقى
من الليل في ملهى الفندق. كان يوجد على العشب بعض الكراسي الطويلة الموضوعة بشكل دائري.
ألقيت بنفسي فوق واحدة منها، كانت مبللة بالماء، ترطبت ملابسي الخفيفة، في غبائنا المظلل بالأشجار،
التصقنا، واحدنا بالآخر، بحثاً عن قليل من الدفء. لقد كنا نرتجف من شدة البرد. بفارغ الصبر، رحنا
نتظر أن يفتح الملهى أبوابه كالعادة في منتصف الليل.

خلال خمس عشرة سنة، فكرنا ملياً بعودتنا إلى الحياة. أنا التي كنت في مراهمتي مولعة بالرقص،
وأتحين الليل، كي أطلق لنفسي الحبل على الغارب، لا أعرف الآن ماذا حصل. إما نحن من تغير وتبدل

وإما البشر والأشياء. في علبة الرقص، صرعتا الموسيقى الصاخبة، وأزعجت حيواننا الأضواء الباهرة. وكأننا كنا داخل غرفة تعذيب. لم نقو على تحمل هذا الاعتداء السافر على حواسنا، لا شعورياً للفنا بالفرار كي ننجو بجلدنا.

هذه الحادثة زادت من حدة شعورنا بأننا «ملغنون» ولا شيء آخر. مرة ثانية تنقلب الأمور ضدنا، وتسبب لنا الأذى وتخدش مشاعرنا. لكن روح النكتة لدى رؤوف تدخلت كالعادة، كي تضمّد جراحنا. ونجح بتجوير ضحكاتنا وهو يعلّق على بعض زبائن الملهى بتهكم وسخرية. عدنا إلى المقصف... وقبنا في داخله حتى موعد إغلاقه في الساعة الرابعة فجراً... استطاعت مكان وجود الحمام في الفندق. قضينا فيه ما تبقى من الوقت، كان رؤوف وعبد اللطيف في القسم المخصص للرجال، فيما أنا وماريا اعتصمنا في حمام النساء. وأنا غتجة خلف قطعة أثاث في الممر المؤدي إلى الحمامات رحت أقوم بحراسة نومهم إلى أن طلع النهار.

في الصباح، غسلنا وجوهنا، وتزيّنا، ثم رتبنا قدر اللازم هندامنا ومظهرنا. دخلنا إلى صالة الفندق كما لو أننا قدمنا لتونا. كنا نمشي بتشاكل ونكتم أآاتنا، والألم يأخذ منا كل مأخذ، لا يوجد مكان في جسدنا إلا وكان يشكو من شيء.

ومع هذا، كان علينا أن نتحل بالمستوى اللائق كي نقوم بالأعباء المترتبة على هربنا. لم يكن لعب هذا الدور المضني مهمة سهلة. كنا نخوض معركة بقاء مجهولة النتائج ونحن نتزف من الإنهاك والوجع، والرعب، وتكالب الناس والزمان علينا. كنا بحاجة ماسة إلى العاطفة والحسب والاطمئنان... كان الوضع رهيباً ومجحفاً أيضاً... ولكننا لم نكن نملك حق الاختيار.

كان السياح يروحون ويمشيون، لقد كانوا ينزلون من باصات تقف أمام الفندق، ويروحون يروحون بكل اللغات. كانوا، يشراتهم البروزية التي لوحتها الشمس، يبدون فرحين مبتهجين وأحياناً متأففين متذمرين لأنهم يعانون من عسر الهضم بسبب بعض الأطباق، أو لأنهم زادوا عليهم أسعار بعض الرحلات.

كانت الحياة تنحرك أمام أنظارنا بفرح وحبور، وبساطة وتيسير، وكنا نحن خارج معادلاتها ونعيش مطرودين على هامشها. كل شيء يدفعنا إلى أن نكون من بين الأموات، ونحن كنا تناضل

ونأمل أن نكون من بين الأحياء. تركنا صالة الفندق، وتوجهنا إلى الحديقة المحاطة بالأشجار الرائعة. جلسنا، وتحدثنا مطولاً. كنا في يوم الأربعاء، الواقع في ٢٢ نيسان/ أبريل. كان قدم قرابة ثلاثة أيام على هروينا، دون أن ينجحوا بإلقاء القبض علينا. كنا ما زلنا ملاحقين، ومرتبين، ومتكبرين... لكننا كنا أحراراً. لقد تمكنا من احتقارهم والامتخاف بهم. ومن هنا كنا نعتبر أن هروينا كان ناجحاً مهما حصل. ولعل هذا يعزينا قليلاً...

اشتقنا لأمي وأختي كثيراً، إننا نفتقدن بشدة. كنا نتطرق إلى ذكرهن بالدمع حيناً وبالضحكات أحياناً. ترى كيف عاملوهن عندما اكتشفوا فرارنا؟ متى سيجمع شملنا مجدداً؟ لم يكن يجاوبنا إلا الصدى وكانت أسلنتنا تبقى معلقة... كي يزيد قلقنا وهماً.

ما زلنا في بحيرة ومال متحركة. لم نحسم أمرنا، ولا نعرف أين نذهب، أو بمن نصلى. قررنا أن نخبر إذاعة «فرانس أنتر». لسوء الحظ، لم تكن نملك رقم الهاتف، فضلاً عن أن إجراء المكالمات كان يتم بواسطة عاملة هاتف الفندق، وفي قسم الاستقبال بدؤوا يشكون بأمرنا.

كان حلنا الوحيد أن نجد حلفاء يساعدوننا على إنجاز بعض المسائل العالقة. منذ الصباح الباكر، ألقينا بشباكتنا على عجوز فرنسية لطيفة وأنيقة. كان يرافقها ابنها وهو أستاذ رياضيات، في الخمسين من عمره، كان يبدو ضعيف الشخصية، وتحركه أمه بأطراف أصابعها. قررنا أن نسعى إلى كسب ثقته كي تتولى بنفسها الحصول على هاتف الإذاعة بالنيابة عنا. لذلك، رسمنا خطة مدروسة، تضاف إلى قائمة أكاذيبنا الطويلة، ورحنا نبحث الفرصة المناسبة لتنفيذها.

بالإضافة إلى هذه السيلة المستترة، كان يلزمنا أصدقاء «احتياط»، يستطيعون دعوتنا إلى العشاء أو استضيفوننا في غرفهم. وهكذا، وقع اختيارنا على معلم ركوب الخيل في الفندق الذي استأثرت ماريّا، وعلى عامل استقبال كان ينظر إليّ برقة، وعلى زوجين إسبانيين شابين، كانا لطيفين ويشوشين.

قامت ماريّا بمغامرة عاطفية مع المعلم، كان الأمر بمثابة اكتشاف جديد بالنسبة إليها. كم كانت مسحورة، عندما خفق قلبها، في تجربة جديدة مع رجل لأول مرة. إنها في الخامسة والعشرين من عمرها، وبحق لها قانونياً أن تحب وأن تختار حياتها، مع أنها في الواقع بالكاد كانت تعتبر في العاشرة من عمرها... ولا تعرف إلا ما تلقت في دياجير السجن.

من جهتي، تلافطنا أنا وعامل الاستقبال الذي أعطاني موعداً في غرفته في تمام الساعة الثالثة.

وافقت وأنا أقول في نفسي سأخلق له علماً عندما يجين الوقت.

وأنا أنتظر حلول الموعد قررت تعقب السيدة المسنة كي أعرف في أي جزء من الفندق كانت تنزل.

بعدما وجدتها، رحت أتبعها خلسة أمام المصعد، بدأت ترغي وتزبد وتكيل الشتائم للإسيان وعدم احترامهم للوقت. وافقت في سري على ما قالته وأنا أبتسم.

كانت امرأة طيبة وخدمية، وتعبر عن سعادتها إذا التقت بأحد ما يفهمها. كانت أحاديثنا معها تدور بمجملها حول أمور سخيفة وعامة وكنا دائماً نختمها بعبارة «إلى اللقاء لاحقاً»...

وأنا جائدة إلى الصلاة، صادفت «فتى الاستقبال». كان يبدو منهما كماً ومتوتراً. بادرني قائلاً:

- دعينا نلغ الموعد، ليس عندي وقت. جميع الزبائن مصابون بالرعب. ويريدون العودة إلى ديارهم. رجال الشرطة في كل مكان.

تساءلت ببراءة مقصودة:

- ولكن لماذا؟ ما الذي حصل؟

- إنهم يبحثون عن أربعة مجرمين، أربعة فارين خطيرين.

وتركني واقفة في مكاني وعاد إلى سنيحة.

أعلمت بالأمر أخوتي، كادوا يفقدون صوابهم من الهلع، شأني أنا. من هم المجرمون؟ نحن؟ ومن هم الخطيرون؟ نحن أيضاً؟ إننا مهددون بأن يبطشوا بنا بدون أي وثيقة رسمية. ولكن لا وألف لا، لن نمنحهم هذه المتعة بقهرنا وتعدينا، لأننا مستتحر. راح عبد اللطيف كالمحموم يبحث عن مفاتيح كهرباء، كي يتمكن من صعدنا بالكهرباء عندما تدق الساعة. اجتاحتنا اليأس والاكتئاب مجدداً، فرحنا نهلي، فيا أنا وماريا أخذنا نشهق ونبكي.

كنا نجلس في مقصف الفندق. وإذ بالسيدة الفرنسية تدخل برفقة ابنتها. ألقت علينا التحية، ثم اقترست منا عندما لاحظت حالتنا المزرية البادية بوضوح علينا. سألتها بلهفة: لماذا اليك؟ انتبهنا مصابنا بالإضافة إلى اهتمامها كي نلعب التمثيلية التي كان بيتنا أن نؤديها أمامها.

أختنا، صحافية في إذاعة «فرانس أنتر» وقد تقرر إدخالها إلى مستشفى «؟يل جريف» لمعالجتها من سرطان في الثدي. أهلنا لا يعلمون بعد بالأمر. ونحن لا نعرف كيف نتصل بها في المحطة. علقت

قائلة:

- ولكن يا صغيرتي العزيزتين، لماذا لا تتصلان براديو ميدي ١٠٩؟ إنهم سيزودونكما بهاتف «فرانس أنتر» في باريس. وهكذا ستطيعان الاتصال بأخكما.

كان من المسلّم به ألا نخبرها عن شكوك عمال الهاتف بنا. اكتفينا بمتابعة بكافتنا ونحن نسترق النظرات من طرف أعيننا.
رحت أنشج وأقول:

- لا نستطيع أن نقوم بذلك بأنفسنا... ما إن نهم أن نتكلم حتى نفجر في البكاء.
لا شك أننا كنا مقنعات بما فيه الكفاية، من فرط تأثرها بدموعنا، اقترحت علينا أن نذهب بنفسها بحثاً عن رقم الهاتف من أجلنا. ما كادت تغيب حتى رجعت وبيلها ورقة صغيرة مدتها إلينا وهي تبسم. لقد اتصلت بـ «ميدي ١» حيث أمدوها برقم هاتف «فرانس أنتر». شكرنا جهودها ثم انسحبنا، بعدما اتفقنا على موعد لاحق مع إخوتي.

تركت ماريّا تتدبّر أمرها مع عامل الهاتف، وأكدت عليها أن تطلب التكلم مع آلان دو شالفرون. إنه أحد الأصوات البارزة في إذاعة فرانس أنتر. كنا أكثر ما نتابع برنامجه، حتى بتنا نشعر أننا نعرفه جيداً.

انتظرت أختي في صالة الفندق ريثما تنتهي من مهمتها. أتت بسرعة على وجهها أمارات النصر. لقد نجحت بدبلو ماسيتها أن تكسب موافقة ورضا عامل الهاتف... بضربة حظ رد عليها دو شالفرون لأنه كان موجوداً وحولوا له الخط، قالت له:

- إننا أبناء الجنرال أوقير، لقد هربنا بعد خمس عشرة سنة من الاعتقال بعد أن حفرنا نفقاً داخل سجننا، وحالياً نحن في طنجة. نحن نرغب بالمساعدة. نريد أن نتحدث إلى رومير باديتير ونطلب منه أن يكون محامياً لنا.

في البداية، لم يصدّقنا الصحافي، ظل يردد بسخرية:
- ما هذه الوحشية...؟ هذا كثير...

ثم ما لبث أن طلب منا دليلاً. ورجانا ألا نرتعب، وأن نحدد له المكان الذي يستطيع أن يطلبنا فيه. أعطينا رقم هاتف الفندق والاسم الحربي «ألبرتيني».

وضعتنا الساعة، ونحن نرتجف من الانفعال. بعد عشر دقائق عاود الاتصال بنا، ذكرنا قاتلاً:

- إنه سبق صحفي لا يصدق، هل تدركون حقيقة الأمر؟ هل تعلمون أن فرنسوا ميران سيحط في المغرب خلال عدة ساعات في زيارة رسمية؟

لقد اتصل آلان دو شالفرون بمحطة مطار أورسي، حيث تم الاتصال بالرئيس، وهو في طائرته الكونكورد، ونقل إليه الخبر. وأخبرنا أن بادينتر لا يستطيع أن يدافع عنا، لأنه حالياً رئيس المجلس الدستوري. اقترح علينا الصحفي أن نتصل بالمحامي كيجمن. وعرض علينا أن يتولى الأمر بنفسه بعد أن وعدنا بمعاودة الاتصال بنا.

تركت ماريانا تتابع رصد التحركات، وهرعت إلى الموقف لأزف الخبر لأخوتي، ارتجيت بين ذراعي رؤوف وأنا أنشج بالبكاء... أخبرته عما جرى. المسكين عبد اللطيف كان يملق في وجهي محاولاً أن يفهم مغزى ما أقول. محطة أورسي، والكونكورد وبادينتر كلها أسماء غريبة لا تعني له شيئاً. انضممنا جميعاً إلى ماريانا، كان آلان دو شالفرون قد عاود الاتصال بها مجدداً. وهي كانت بانتظار قدومنا لكي تبدأ بالحديث معه. عبر الهاتف، أملينا عليه النداء الذي كنا نرغب بتوجيهه إلى الملك. ذكرنا له في سياقه أننا لسنا سوى أطفال، وأنه من الظلم والإجحاف أن تتم معاقبتنا لأننا نحمل اسم أبينا.

ثم أعلمنا الصحفي بأن مبعوثاً سيحضر من محطة أورسي لكي يرانا في نفس المساء. أعطينا موعداً في الموقف.

انتظرنا مجيء الليل بمزيج من الفرح والحذر. هل ستحمل زيارة ميران لنا الخير؟ لم أعد أثق بأي شيء. ولكنني كنت أنتظر على آخر من الجمر مقابلة هذا المبعوث الذي كان يير؟ به كارين، مراسل إذاعة فرانس أنتر في طنجة. ما إن وصل حتى كشف لنا عن هويته. فاجأنا بروده، لقد كنا نعتبره بمثابة منقذ لنا، وتوقعنا منه كلمات أكثر حرارة وعاطفة... ولكنه حافظ على مسافة بيتنا وبينه مما أربكتنا بعض الشيء. ابتعدنا داخل الموقف كي نتجنب بعض الأنظار التي قد توجه إلينا.

التفت يمتة ويسرة كي يتأكد من أن أحداً لا يتعقبه، ثم أخرج قلماً وراح يسألنا بجفاف إذا كنا فعلاً أبناء أوقفير. وأضاف قائلاً:

- كل واحد يستطيع أن يدعي هذا، أعطوني دليلاً على صحة ادعائكم.

بدأت أتحدث عن النشاطات السياسية لأبي، لكنه قاطعني قائلاً:

- حلتني عن حياته الخاصة جداً... عن علاماته الفارقة...

أجبت بأنني لم أعرف أبي كثيراً، ولكنني أعطيت تفصيلاً لا يعرفه إلا من عايشه عن قرب. أخبرته عن آثار جرح في أعل ساعده الأيسر، أصيب به من جراء انفجار قذيفة.

بانت عليه علامات الرضا من هذه المعلومة الدقيقة. وراح يطرح علينا آلاف الأسئلة الأخرى. قبل أن نفرق، أعلمنا بأنه في اليوم التالي، خلال النهار، سيأتي المحامي دارت؟ بل وهو معاون كيجمن، سيحضر من باريس خصيصاً لمقابلتنا.

لم نعرف ماذا نفعل، عدنا إلى المقصف، كان يعجّ بشلة غريبة، يبدو عليها أنها منحلة، الشباب يتزوّنون بطريقة مستهجنة، والصبايا يصبغن وجوههن بالمساحيق الصارخة. يرتشفن الويسكي، ويدخنن السكاكر، كان الجو موبوءاً وماجناً، والمغازلات تجري على المكشوف، حتى رؤوف لم يتنج بدوره من نظراتهن الوقحة.

كان عامل الاستقبال يجلس إلى جانبي. قال لي مستغراً:

- أنا لا أفهمكم، لماذا لا تمجزون غراً هنا، في هذا الفندق؟

أجبت بملص:

- لأننا نقيم في أفضل فندق في كل مدينة طنجة.

عرض علينا فنجاناً من القهوة، شربناه بدون أي تحفظ أو حذر. كان ملغوماً بمادة المخدرات، كان يريد أن يضع يده على سرنا. لم تراوهم أي شكوك بشأن هويتنا، ولكنهم ربما تصوروا بأنني وماريا من بنات الهوى وأن رؤوف كان يديرنا. أوريا كنا مهربين إيطاليين أو إسبانيين، ومنتظر موعداً مشبوهاً سيعقد في الفندق. في مطلق الأحوال، لم ينظروا إلينا بعين التقدير والاعتبار. تحت تأثير المخدر، رحنا نهذر ونهذي، ولا نعرف ماذا نقول. اقترح علينا عامل الاستقبال أن نذهب للنوم في صالون الفندق المغربي. قال لنا:

- أنتم تهذون كثيراً... هيا اذهبوا إلى هناك، ما من أحد... وستكونون في أمان...

تبعنا اللحاق به، وكان الجواب هذا هو الذي يتظره. كان هذا دليلاً واضحاً بالنسبة إليه على أننا في ورطة، ولكنه لم يكن يعرف بالضبط ما هي.

نام رؤوف وعبد اللطيف على الفور، فيما بقيت واقفة على طولي أنا وماريا طوال الليل، كنا في حالة من التوتر الشديد تمنعنا من النوم. لدى استيقاظهما كانا ما يزالان يعانيان من بعض الشرود والاضطراب، كما الحال بالنسبة لي وماريا.

توجهنا إلى الموقف... لم تمكن من منع أنفسنا من الضحك. ولكننا جاهدنا كي نتخلص من هذه الحالة التي كانت تعترينا قبل وصول المحامي، وإلا كيف سنبو أمامه؟ رأينا من المناسب أن يتم اللقاء في صالة الفيديو الصغيرة الموجودة في الفندق. ما إن اكتشفناها حتى اتخذناها ملجأ لنا. لقد كانت غجاً رائعاً. كنا نشاهد... التلفزيون الملون. كان يبهرننا ويخطف أبصارنا. لم نكن قد سمعنا أبداً بالصحون اللاقطة. ولطالما تساءلنا باستغراب: ترى كيف يصل بث محطات الإرسال التلفزيونية الإسبانية إلى المغرب؟ حقاً إنه لغز عجيب! وصل المحامي برنارد دارت؟ يل في ساعة متأخرة من يوم في ٢٣ نيسان/ أبريل يرافقه إير؟ به كرين الذي كان يحمل آلة تصوير. في المطار، لم يشك أحداً بالأهداف الكامنة وراء زيارته، تركوه يمر بسلام. بعكس ما حصل أثناء رحلة العودة، لقد أخضعه رجال الشرطة للتحقيق على دفعتين، قبل أن يخلوا سبيله.

أشار دارت؟ يل في حديثه إلى دور فرنسا الرائد في مجال حقوق الإنسان، وأقسم لنا بأن مصالح بلاده الاقتصادية لن تمر على حساب قضيتنا. ثم سلمني رسالة من الرئيس ميتران مفادها:

- يجب أن تكونوا فخورين بأنفسكم، ففي العالم ملايين الأطفال المضطهدين والمقتولين، والمحتجزين، لكنكم ستبقون الوحيدين الذين واجهوا وصمدوا وناضلوا حتى النهاية.

أعطانا ورقة كي نوقعها، تفيد بأننا نوكل مكتب المحامي كيجمن مهمة الدفاع عنا. بعد ذلك، أعلمنا بأنه يجب أن يأخذ لنا صوراً فوتوغرافية. في اللحظة التي كان فيها يضغط على زر آلة التصوير، فتح الباب وأطل عامل الاستقبال. نظر إلينا مطولاً قبل أن يعاود الخروج.

حدد دارت؟ يل لنا موعداً آخر، في المساء. بعد مغادرته سيطر علينا شعور بالنشوة. لقد قطعنا شوطاً صعباً ومهبياً. ونجحنا بإخطار الصحافة والرأي العام. لقد استمعوا إلينا بجدية تامة، مما هدأ من مخاوفنا، وأعطانا بارقة أمل بأن النصر ربما بات وشيكاً، وأثنا مستغندو قريباً أحراراً، وأن شملنا على وشك أن يلتئم.

عندما عاد في المساء، هذه المرة بدون كرين أعلمنا دارت؟ يل بأن كل شيء قد أصبح جاهزاً لرحيلنا،

المزمع... في اليوم التالي الساعة العاشرة والنصف صباحاً. وما إن نصل إلى القنصلية الفرنسية حتى يعاجلوا إلى نقلنا بطائرة إلى فرنسا.

لفت انتباهه إلى خطورة وضعنا الراهن، وغافوا إزاء حالة الاستنفار التي تستهدفنا، ومفاجأة حامل الاستقبال لنا بالأمس في صالة الفيديو، والحذر الشديد الذي يعاملنا به عمال الفندق، والذي يزيد من سيء إلى أسوأ. لذلك فإنه من المخاطرة إطالة انتظارنا أكثر. اعتذر قائلاً إنه لا يستطيع أن يغير في الأمر شيئاً، وما علينا إلا اليقظة والحذر حتى نحين ساعة الصفر.

عقب مغادرته، حاولنا أن نخفف من تحركاتنا داخل الفندق بقدر الإمكان.

في الليل، وحنا نقرب من الغرف. كنا نتصور جوعاً. منذ ثلاثة أيام ونحن نعيش على الكاكر والقهوة. كان يوجد أمام الأبواب صوانٍ عليها بعض فضلات الطعام. رحنا نتنافس على بقايا الخبز والجبنة... بعدما اقتربنا من غرفة الزوجين الإسبانيين، طرقت الباب. فتح الرجل، كان يرتدي سروالاً قصيراً، نظر إلّي متفاجئاً، سألته بابتسامة رقيقة:

- أليك سيكارة حشيش؟

ابتسم بدوره لنا، ودعانا للدخول.

كانت زوجته مستلقية في السرير، ذعرت عندما رأتنا ندخل الواحد تلو الآخر. أشار علينا بالجلوس على الديوان. بعد ثلاثة أيام من متابعة هذين الزوجين باهتمام ودراسة حركاتها وسكناتها خلصنا إلى أنها من النوع الذي يتقاسم مع الآخرين كل شيء، بما في ذلك الحب والسلام، وتعاطي المخدرات. لفّ سيكارة محشوة بالمخدرات، أخذ منها عدة أنفاس، أعطاها لزوجته، ثم إلّينا نحن. تظاهرنّا بأننا ندخن، تعلمنا درساً لن ننساه أبداً من فنجان القهوة الملقومة. كان وؤؤف يدخن على طريقة لويس دوفيس في فيلم «الدرك في سان تروبيز». ثم يمد لي اللقافة قائلاً بنشوة مصطنعة:

- يا للحلاوة... يا للحلاوة...

ثم ننضجر بالضحك الصاخب، يجارينا بذلك الزوجان الإسبانيان، ربما كانا يعتبران أن حالة المرح والإثارة التي تعترينا مردها إلى سيكارة الكيف.

كالصرعى، نام الزوجان بلا حراك. وهذا ما فعلناه نحن أيضاً على الديوان. عند طلوع النهار، أيقظتنا جميعاً زقزقة العصافير المغردة. نظر إلّينا الزوجان باستغراب. لقد فاجأهما وجودنا داخل

غرفتها. ثم لم يلبث أن تذكر اسمها المخدرات. اقترحت علي المرأة بلطافة أن أستخدم صالة الحمام كي أقوم بزينة الصباح. كانت هذه المرة الأولى منذ أربعة أيام. عادة كنت أتمشى النظر إلى المرأة تجنباً لرؤية وجهي الملتف. كي أعطيه، وضعت طبقة سميكة من مساحيق التجميل التي وجدتها على أحد الرفوف. كذلك فعلت ماريا.

تركناهما بعد أن شكرناهما. توجهنا مباشرة إلى المقصف بانتظار مجيء دارت؟ يل.

سبعنا نداء الاستعلامات:

- المطلوب حضور الأنسة أوفقي فوراً...

تصرفت وكأن الأمر لا يعني. ألم يكن اسمي أكبريني؟

لكي أكون صادقة كلياً مع نفسي، أشير إلى أنني لم أكن أعتقد قط بأننا سننجو، وإن تكن قد اقتربتنا كثيراً من الهدف. كان يراودني إحساس دائم بأنه سيعاد اعتقالنا، حتى وأنا في قمة نشوتي لم أستخف أبداً بقدرة عدوي. لكن كل هذا أصبح سيان عندي. لقد أكملنا اللعبة حتى الرmq الأخير.

لقد كنت فخورة بنفسي وبأخوتي كما كان أبي أيضاً.

- المطلوب حضور الأنسة أوفقي فوراً....

مرة أخرى يلعلع النداء، كانت الساعة العاشرة وخمساً وعشرين دقيقة، من نهار الجمعة الواقع في ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٧. توجهت إلى صالة الفندق. بدلاً من أن أجد سيارة المحامي دارت؟ يل، شاهدت شاحنة الشرطة، التي توقفت أمام الباب الزجاجي. عشرات رجال الشرطة بملابسهم الكاكية اللون، ورشاشاتهم. راح الجنود يتزلزون الواحد تلو الآخر من الشاحنات التي أخذت تتوقف في قافلة طويلة تعد بالعشرات. ضربوا طوقاً حول المكان، وتوزعوا بمجموعات في حالة استنفار. لكزت رؤوف بكوعي هامة:

- الشرطة هنا في كل مكان، لقد وشوا بنا.

اندفعوا يهرولون في كل الاتجاهات... ما إن رأهم الزوجان الإسبانيان اللذان قد وصلا للتو للانضمام إلينا، حتى ابتعدا هرباً وهما يركضان. لا شك أنهما تساءلا عن سر الجريمة التي اقترفناها. وربما تبادر إلى أذهانها أن سبب ذلك يعود إلى تعاطينا المخدرات، وليت الأمر كان هكذا.

التوقيف

نصف دزينة من الضباط انقضوا علينا. واحد منهم طلب منا إبراز بطاقات هويتنا.

- أنت مليكة أوقير؟ سألوني.

- لا، مطلقاً. إسمي ألبرتيني. أجتهم باستعلاء.

حاولت أن أتماسك حفاظاً على ماء وجهي. بدوره أطلق رؤوف نفس الكذبة. الرجل الذي كان يبدو عليه أنه المسؤول الأمر، استدار وأعطى إيعازاً لرجال الشرطة بأن يطوّقونا. تقدموا بانجماها، وأحاطوا بنا، بخرقة من يده أوقف تحركهم، بعدما صرنا محاصرين داخل كهاشتم. بما أن اعتقالنا يجب أن يتم بهدوء تام بدون لفت أي انتباه، أجبرونا على اجتياز الممر وهم يدفعون بعنف برؤوسنا نحو الأسفل. أمام أنظار السياح المحملة برعب. بلمحة خاطفة لمحنا السيدة الفرنسية وابنها، والزوجين الإسبانيين وهم يعودون على أعقابهم.

أصعدونا الشاحنة، واقتادونا إلى مفرزة طنجة. أمام المدخل، كان رجال الشرطة يصطفون كسياج وكأنهم يريدون إلقاء التحية علينا. كانوا يرمقوننا بنظرات تنضح بالتقدير والإعجاب، أحدهم كان يلرف الدموع حارة. ما كنا لتفاجأ لو أنهم صفقوا لنا طويلاً... لقد عاملونا معاملة الأبطال. من كل حذب وصوب، كنا نشعر بنظرات تنم عن الاحترام. مما ضاعف من إحساننا بالفخر. أخذوا مقاييسنا، وبصماتنا، وأدخلونا إلى غرفة التصوير، بلغ اعتزازنا أوجه عندما اتصل المدعي العام أمامنا بوزير الداخلية إدريس البصري وقال له:

- ولكتني أقسم لسعادتك بأنني اعتقلتهم. أقسم لك بحياة أولادي. يا صاحب السعادة... إنهم جميعاً الآن هنا أمامي... نعم... الأربعة: مليكة، رؤوف، ماريا، وعبد اللطيف. نعم... نعم... إني أنا شخصياً من اعتقلهم... بالطبع بتكتم شديد... نعم مؤكداً... كما تأمر سعادتك.

رحنا أنا ورؤوف تبادل نظرات ذات معنى... ونكتم ضحكة خفية. كانت أطرافي ترتجف من فرط التأثر والانفعال، ولكن لم يكن الوقت مناسباً للاتقياد وراء المشاعر والأحاسيس.

في إحدى الزوايا، كان ذوو «القبعات الكبيرة» يتناقشون فيما بينهم. ثم أعطوا الأوامر السريعة لاصطحاب عبد اللطيف. كنت أجنّ لرحيله. كنت خائفة أن يستخدموه للضغط علينا. ولكي يؤكدوا لي هواجي، تعمّدوا أن يرموني بنظرات جامدة.

بعدما شاهد رجال الشرطة الصغار جزعي، همسوا بأذني ألا داعي للقلق. لأنهم يحاولون تrehina وفرض هيتهم علينا ليس إلا. لقد تمعدنا السلطة، واتصلنا بالخارج... بمواجهتنا... وصلوا إلى حائط سدود. لقد ربخنا هذه الجولة على الأقل.

شيئاً فشيئاً... أخذ الحرس يتخلون عن تحفظهم ويُرخون لأنفسهم العنان. لقد امتعاضوا عن حديث الصمت والإشارات، بالمباشرة والمنطوق، أتوا إلينا وتحدثوا معنا على سجيتهم. لقد بكى البعض منهم، كانوا يعرفونا عندما كنا صغاراً، وكانوا يعملون في فريق المراقبة التي كانت مخصصة لأبي عندما كنا تسكن في شارع الأميرات. والبعض الآخر كان في تامناغت، وكان يشارك في عمليات تريب المواد الغذائية والرسائل إلينا.

قالوا لنا بتأثر:

- يحق لكم أن تفخروا بأنفسكم، لقد رفعتم شأن البربر عالياً. وأعدتم إحياء ذكر أبيكم.

اقرب منا المسؤولون الرسميون، وهم يملقون ويدهنون، يريدون أن نتق بهم، فيا أخذ المدعي العام الحديث قائلًا:

- لا داعي للخوف. أخوكم سيعامل جيداً. هو من عمر ولدي... وقد شاركت في حفل ختانه.

ثم اقتادونا من الغرفة. ونحن نصعد الأدراج، سألت مجدداً أحد رجال الشرطة إذا كان عبد اللطيف فعلاً في مأمن ولا خطر عليه.

قال لي:

- أوحقاً تمتددين هذا... لن يتجرأ شخص ما على لمس شعرة من رأسه. منذ أربعة أيام وهم جميعاً في مأزق حرج لا يعرفون كيف يخرجون منه، لا يأكلون ولا يشربون... إنه، يقصد الملك، يدير شخصياً هذه القضية ويشرف بنفسه على تطوراتها وحشيتها، ولو أنهم لم يلقوا القبض عليكم، لكانوا هم من سيضربون ويقتلون...

سرت إشاعة تفيد بأنه خلال مدة هربنا، منع الملك أبناءه من مغادرة القصر في مراكش وفرض عليهم لزوم أماكنهم... خوفاً من انتقامنا... أدخلونا إلى غرفة واسعة الأرجاء. وما أحاد الطمأنينة إلى نفسي أن عبد اللطيف كان هنالك بانتظارنا. كان هناك أيضاً بعض الرسميين يقفون أمام النافذة. اقتربت منهم، فجأة، فقدت الإحساس بقدمي، وشعرت أن الغرفة تدور بي، وقلبي ينفق بقوة،

تدافعوا للإمساك بي وإسنادي.. ربا تراكم الأحداث واختلاط المشاعر، بالإضافة إلى الخوف على عبد اللطيف، أدى بي إلى فقدان توازي.

ذهب أحدهم كي يحضر كوباً من عصير الليمون. فتحوا النافذة ونصحوني أن آخذ نفساً عميقاً. كانت المقرزة تطل على إحدى الكنائس. جلست أنظر بشروء إلى الخارج وإذ بي أرى طيفاً يتراءى أمامي. إنها السيدة مريم العذراء وهي تحمل بين ذراعيها طفلها السيد المسيح، وترمقي بنظرات تنضح بالفرقة والحنان. كنت أقع أرضاً من شدة تأثري. هكذا، إنها كانت دائماً هنا عندما كنا بحاجة إليها، ترهاناً، وتحميناً. ناديت الآخرين بإشارة خفية، كي يروها هم أيضاً بدورهم. كانت الرسالة واضحة... إنها تريدني أن أتماسك تماماً مثلما فعلت عندما كنا نحضر التقى. سرعان ما تمالكت نفسي، وشعرت بأنني لست وحيدة في هذا العالم.

لم يتراجعوا عن مزاعمهم وافتراءاتهم. كان من المستحيل علينا دحض اتهاماتهم بأننا تمكنا من الهرب بمساعدة الجزائري ويتواطؤ منها. استجوبونا أنا وروؤف كلاً على حدة، دائماً بنفس أسلوبهم المعسول، بأنهم يعرفون أبي وجدي، وعمي، وبأننا من عائلة عريقة... لا يصح لها أن تفعل ذلك... وبأننا يجب أن نتعاون معهم ونخبرهم الحقيقة. وكانت أمثلتهم الصاعقة على النحو التالي:

- لماذا اتصلتم بمحام فرنسي؟ لماذا لم تتقوا بالمؤسسات المغربية؟ لماذا لم تطلبوا العفو الملكي على قبر محمد الخامس؟

- أنت ابنة القصر، وتعرفين العادات جيداً... لم يكن جلالته ليرفض أبداً منحكم العفو، وكانت كل الأمور ستتم على أفضل وجه.

- والآن كونوا صادقين وأخبروني عن المتواطئين معكم. قصة التفق هذه تريدونني أن أصدقها؟ وأنتم لا تملكون أداة مناسبة تحفرون بها... عدا عن أن الرقابة كانت مشددة... من غير الممكن الهروب من بير جديد.

بسرعة لفقت الإجابة، تركت الأمر كلياً لمحدثي، المفتش العام، الجنرال غسوس أحد الأقارب البعيدين لمدام غسوس. كنت أتساءل في داخلي، ترى إلى أين يريد الوصول، لأنه كان من الواضح أن لديه فكرة معينة في رأسه. كان من حين لآخر ينظر إلى الساعة المعلقة قبالة مكتبه، وقد بدت على

وجهه أسارات القلق والإرهاق... أخيراً فهمت... إننا نقرب من وقت نشره الأخبار. أدار الملباع.
بعد المقدمة والموسيقى، تلا المنيع العناوين:

- هروب يثير الذهول، نفذه أربعة من أبناء الجنرال أوفقير.
أطفالاً كسوس الجهاز بغضب. التزم الجميع الصمت. أخرجوني من الغرفة. عندما انضممت إلى
رؤوف أخبرته بما سمعته للتو، لكنه رفض أن يصدقني قائلاً:

- كيككا، لا شك أنك تعلمين، ما تتوقين إليه تتصورينه وكأنه حقيقة.
- رؤوفه أنا ليست مجنونة، أستطيع أن أعيد لك كلام المنيع بحذافيره كلمة... كلمة.
وبالرغم من صعوبة الأمر، تمكنت أخيراً من إقناعه...

إجتاحني شعور داخلي بالسلام وبالطمأنينة والأمان. ما لم أعرفه منذ سنوات طويلة. هذا الإعلان
الإخباري كان دليلاً ساطعاً على فوزنا. وأخيراً أصبح العالم بأسره على علم وخبر.
بعد نصف ساعة لاحقاً، عاد كسوس لرؤيتنا مجدداً. من خلال تقاطيع وجهه أدركت بأن شيئاً ما
قد تغير في وضعنا.

بدون شك، لقد سعوا إلى إقناع الفرنسيين بعدم نشر الخبر، وربما أيضاً حاولوا إلهامهم بأن قضية
أوفقير هي قضية داخلية مغربية بحتة، بالرغم من أنها قضية انتهاك صارخ لحقوق الإنسان. لسوء
حظهم لم يعد بإمكانهم إبقاء الموضوع طوي الكتمان، ومعاملتنا كالسابق.

اقتادونا إلى غرفة أخرى. كانت فارغة. أرسلوا يحضرون الفرش الجديدة التي وضعها رجال
الشرطة أرضاً. ثم حملوا إلينا الصواني الممتلئة بالطعام. أكلنا بشهية... كانت عامرة: خبز، وزبدة،
وشاي. بالنسبة لنا، كان مركز الشرطة بمثابة فندق خمسة نجوم. لقد افتعلنا هراكاً وغمزحنا ونحن
نرتب أماكن نومنا، كنا في قمة الإرهاق والسعادة أيضاً. لقد انتهت مهمتنا.

غفونا ونحن نفكر ببقية أفراد عائلتنا. الآن بإمكان أُمِّي أن تفخر بأبنائها. خلال أربعة أيام،
نجحنا، بإمكانياتنا المتواضعة، أن نضع سمعة البلاد على المحك.

إنهم يعاملوننا الآن باحترام. بتنا نشعر أننا مخلوقات بشرية... وننظر بعين الرضا والاعتبار إلى
أنفسنا.

في اليوم التالي صباحاً، سمح لنا المدعي العام باستخدام صالة الحمام الخاصة به، نادراً ما رأينا بمثل

مساحتها. أكثر من مئة قارورة مختلفة كانت مصفوفة ومرتبّة فوق رفّ المرأة، من ماء الكولونيا، إلى العطر، ومعجون الحلاقة، وشامبو للشعر، ومرطب للشعر كذلك.

بالنسبة لنا، نحن الذين عشنا إحدى عشرة سنة ونحن نكتفي بنصف علبة تايد شهرياً، بدت لنا هذه الرفاهية الباذخة مضحكة إلى درجة البكاء. كنا قد نسينا كل شيء عن مجتمع الاستهلاك. وكيف يكون بمقدورنا أن نكّس كل هذه الأشياء التي لا طائل منها.

كالأطفال الصغار رحنا نبث بالقوارير، نترع أغطيها، نشم رائحتها وندلق ماء الكولونيا والعطر، ونضع المطريات.. أخذنا تلهو ونلعب كما يحلو لنا، لكننا كنا نتحاشى النظر إلى المرأة، وإذا حصل هذا مرة، كنا نسارع إلى إبعاد أعينا عنها. كان أكثر ما يزعجنا تلك النظرات إلى أعيننا، وتلك التجاويف التي تحيط بها والتي كانت تذكرنا بأطفال العالم الثالث الذين يعانون من المجاعة وسوء التغذية. أوصلنا الباب، كي نستحم ونحن نفتح الحنفيات على آخرها. مما أدى إلى إحداث فيضان، عاجلنا إلى وضع المناشف وأثواب الحمام فوق الموكيت... خرجنا ونحن نضحك، وتتصاعد منا رائحة العطر بقوة. كان رؤوف بحاجة ماسة أن يفحصه طبيب الأسنان. كانت خراجات أسنانه متفخة وفي حالة مزرية. حتى إن الطبيب الثمرن الذي ألقى نظرة عليه، رفض أن يضع يده فيه وأن يلمسه مجرد دلمسة. كان الالتهاب خطيراً وقد يسبب له سكتة قلبية. غما استوجب إخضاعه إلى عملية جراحية لاحقاً.

حاول غسوس أن يعاملنا بحيادية، كما كان يقتضي عمله، ولكن كانت تحترق لهجته الجافة بواذر الإعجاب بماثرنا والثناء لسوء حالنا. لا بد أن مظهرنا كان رثاً للغاية ويشير الشفقة كي يقترح علينا من تلقاء نفسه أن يبدل لنا ملابسنا بأخرى جديدة...

اصطحبونا إلى وسط المدينة في السيارة. تدفقت الذكريات دفعة واحدة. رحت أفكر بتلك السنوات الإحدى عشرة التي قضيتها في القصر، حيث كنت خلالها، كما الآن، أرى العالم يمر من أمامي، وأنا قابضة أحق في من وراء الزجاج. طوال حياتي كلّها كان العالم الخارجي بالنسبة لي بعيد المنال. سألت نفسي: ترى كم من الوقت يلزمني بعد كي يتسنى لي أن أتذوق طعم الحرية؟ إنه لأمر سهل أن أقفح الباب الآن. لكنني لم أجد أقوى على ذلك.

داخل المحلات حيث اقتادونا، كان البائعات يعملن تحت إمرة البوليس وضمن دافرتهم، ونخبريه، لقد كنّ من خيوط الشبكة التي يحكمون سيطرتهم من خلالها على البلاد والعباد.

كانوا يحاطبوننا باحترام، ويريدون إشباع أنفه رغباتنا، لكنني لم أكن أشعر برغبة في أي شيء، سيما وأن لا شيء يلائمني. كانت مريم نحيلة جداً، والثياب تبدو فضفاضة عليها، فيما كنت أنا متورمة ومتفخخة. لقد اخترت ثورة، وسترة طويلة، وداخل محل الأحذية، فضلت حذاء مفتوحاً طلباً للراحة. كانت قدماي دائماً داميتين، لكنني كنت قد فقدت الإحساس بالألم.

نقلونا إلى السدار البيضاء، إلى مركز شرطة بن شريف الذي يثير ذكره خوف ورعب المعتقلين السياسيين، والذي يديره اليوسفي، القائد العام للشرطة في المدينة. هو الذي كان قد استجوب أمي بعد عدة أيام من موت أبي، وهو الذي تم إرساله إلى تامناخت بعدما اكتشفوا «شكنا».

صعدنا أدراجاً وهبطنا أخرى، واجتزنا ممراً طويلاً كان في نهايته بانتظارنا كل من اليوسفي، العبوش، ومدير جهاز المخابرات، وثلاثة قادة آخرين. لو أن أحد المخرجين كان يصور هذا المشهد لأضاف عليه المؤثرات الصوتية التي تحرك المشاعر وتخرجها إلى حيز الوجود أو لأضافها مع صباح السجناء في زناياتهم وهم يهتفون للاحتفاء بانتصارنا. لكن شيئاً من كل هذا لم يحدث. لقد واكب مجيئنا صمت مطبق. كان ثقيلًا، بدلاً من أن يمرر المشاعر كان يحجرها ويكثفها. لقد عشنا لحظة غير متوقعة، هؤلاء الرجال الخمسة، خدام النظام المخلصون، كانوا يهتفون نحن؟ قال لنا اليوسفي:

«برا؟»، في الحقيقة إنه الهروب الكبير...

وراح يمتدح شجاعتنا. عندما كان يحدثنا كنت أنظر بعيني نحو الأرض. مما دفعه للتعليق على هذا بالقول:

«لا تفعل... بالكاد وصلت، وها أنت تضحى بالبلاطات كي تتمكني مجدداً من الهرب. ألا تعتقدين أن مرة واحدة تكفي؟»

سألنا فوراً عن أخبار بقية أفراد العائلة. طمأنونا بأنهم جميعهم بخير وأعلمونا أننا ستقابلهم الآن مباشرة. نادى اليوسفي رجلاً مستأً كان يتعلم حذاء بالياً، كانت مهمته تعصيب أعين المساجين. كان يمسك عصا بيده. وهو يمر أمام الأبواب. كان يصيح «باندا باندا»، لذلك صاروا ينادونه «باندا». لقد فتح باباً وأدخلنا إلى إحدى الزنانات. كانت سيده عجوز تتناول الحساء... إنها

أمسي. الإضراب عن الطعام، محاولة الانتحار، والهم والقلق بعد هروبا، كل هذه الأحوال جعلتها تشيخ قبل أوانها. كانت تحمل ببطء وتثاقل المعلقة بيدها وتثنيها من فمها، كل عوارض الشيخوخة تبدو عليها بشكل مرعب. رفعت عينيها السوداوين الواسعتين نحوي. كان يرقد فيها حزن سرمدى، لم يترك مكاناً لأي ومضة فرح. لم تعرفني. تدافعا نحن الأربعة وجثونا أمامها على ركبنا، أخذت يدها بالارتجاف. وضعت المعلقة على الطاولة وهمست بصوت منخفض بالكاد سمعناه:

- أطفالى... هل أنتم... حقاً أطفالى؟

لقد تغيرنا كثيراً، ربما لهذا لم تعرف هويتنا على الفور. ليس فقط بسبب الملابس الجديدة. إن تلك الأيام الأربعة من الحرية أعادت إلى أعيننا بريق الحياة الذي طالما اعتقدنا أنه انطفأ إلى الأبد. لقد كنا في الضفة الأخرى، خارج الجدران، في حين كانت ما تزال هناك تتجرع العلقم. كانت أمي تضع غطاء على رأسها. عندما هربنا، كانت قد أقسمت هي وسكينة أن تحلقا شعرهما نهائياً إذا مرت اثنتا عشرة ساعة على رحيلنا دون أن يتمكنوا من إعادة إلقاء القبض علينا. وهكذا وقتا نذرهما.

كانت ميمي بيضاء مثل الطباشير، والدعير يطل من عيني حليلة وعاشورا. بعدما انقضت اللحظة الأولى للمفاجأة، تعانقنا جميعاً مطولاً. ضحكنا وتدحرجنا أرضاً وهتفا:

- لقد انتصرنا... تخلصنا من الكابوس الذي انتهى. لم نعد في بير جديد.

وصلت أمي والفتيات إلى مركز شرطة بن شريف منذ نهار الأربعاء الواقع في ٢١ نيسان/ أبريل. أي بعد ثلاثة أيام من هروبا. في البلد كانت ظروف احتجازهن رهيبة.

أوقفوهن على الحائط، صفّاً، كن يرتدين الجلابيب العسكرية، وكانت القلنسوة الداكنة تغطي أعينهن المعصوبة. أجبروهن على الوقوف بهذه الوضعية عدة ساعات بدون حراك وهن يستمعن إلى صرخات الألم التي كان يصدرها بورو وهم يقومون بتعليبه داخل الغرفة المجاورة، وكان يصيح ويصرخ بأن لا ذنب له... ولا علاقة له بما حصل... لقد أبقوهن بدون طعام... عدة أيام.

كانت سكينة أضعف من أن تتحمل الوقوف طويلاً... انهارت أرضاً وأغمي عليها. الطعام الوحيد الذي أعطي لهن كان معجنات خاصة بالكلاب، وشراباً لا اسم له، تظفو على سطحه بعض حبيبات الأرز.

عندما استجوبوا أمي وحققوا معها، لاحقوها بأسئلتهم كي تعترف إلى أين كنا تنوي أن نذهب. كانت تجهل بأن خطة السفارات كانت قد أخفقت كلياً. وهي تظن بأنها تبعدهم عن مكاننا، أجابتهم بأننا نزمع التوجه إلى طنجة.

كانوا يرون أنه من المستحيل أن نكون قد تركنا بير جديد. لعلنا برأيهم توجهنا نحو حدود الصحراء الغربية. لكن مليكة السينة ابنة صديق جدي، بلغت عن وجودنا في الرباط. زودهم هذا بالدليل الواضح. يمكننا التواجد في كل مكان في المغرب. لقد قتشوا الرباط. وطنجة... لقد ظنوا أننا كنا على وشك المغادرة والمهرب من البلاد.

قبل ساعتين فقط من وصولنا إلى مركز شرطة بن شريف، توقفت المعاملة الخسيسة مع السجناء. لا، بل أحضروا لهم الطعام، اللحم المحمر، واللوبياء الخضراء، في صحون وليس في أوعية من الحديد الأبيض اللون. أدركت أمي عندها أنهم أعادوا القبض مجدداً علينا. ولاحقاً أكد لها الخبر العبوش، مدير جهاز المخابرات.

لقد رويناقصة هربنا بكل تفصيلاتها وتشعباتها. كنَّ يرمقنا بنظرات غير مصدقة، بدا على ملاعبهن مدى شعورهن بالفخر والاعتزاز بنا.

ونحن نسردهن على مسامعهن أخبارنا، كانت أمي لا تفك تنهض من مكانها، لتتقدم منا وتلامسنا... وتقبلنا... وتعاقنا وتردد نفس العبارات:

ـ أبنائي... صفاري الأعداء... عجيب كم تغيرتم!

إن أفظع ما واجهنا هو أننا لاحظنا بأننا لم نعد نشكل جزءاً من المجموع كما كنا سابقاً، ما جعلنا نشعر بعقدة الذنب، لذلك رحنا نصفي بكل جوارحنا لما كانت ترويه لنا أمي وسكينة، أردنا أن نكفر عن كل تلك اللحظات من الحرية التي عشناها بدونهن.

بعد الهروب

في الساعة الثامنة والنصف، من صباح الهروب، دخل الحرس كالعادة إلى زنزانة أمي، وأحضروا لها القهوة التي أعدتها عاشورا... بدؤوا يفتشون كلبهم. كانت أمي هادئة. لقد قضت النساء الخمس الليل، وهن يرتجفن من الملح والخوف علينا، خصوصاً عندما سمعن نباح الكلاب الشاردة. ولما رأوا

أنا لم نرجع، عاد إليهن تدريجياً هدوؤهن وطمأنيتهن.
قاموا بجولة في أنحاء زنازتها باستثناء الحمام الذي كان بابيه شبه موصد. أجابتهم أمي عن تساؤلهم الصامت قائلة:

- إن ولدي مريض، قضى الليل بطوله في الحمام. هل تريدون الدخول كي تتأكدوا؟
رفضوا بتهديب بالرغم من إلحاحها، ثم خرجوا بعدما أغلقوا الباب خلفهم، ليدخلوا إلى زنازتنا.
كانت مسكينة، متحيرة لاستقبالهم بعدما أنهت مهمة إعادة سد النفق بنجاح. أبدوا دهشتهم لرؤيتها.
عادة كنت أنا أتقدم لمحادثتهم. كانت أخي قوية الشكيمة، لقد أمدها نجاحنا بالكثير من العتفوان والشفقة بالنفس.
- مليكة وماريا في العادة الشهرية.

كانت هذه هي العبارة الوحيدة التي كان يكفي التلقظ بها كي يمتنع السجانون من الاقتراب.
كانت مسكينة قد ربت أسرتنا بطريقة تجعلهم يعتقدون بأننا مازلنا نضطجع نياماً. كمعادتها، بقيت ميمي مختبئة تحت أغطيتها، ولم تكشف قط رأسها. ولكنها، في اللحظة التي بادروا فيها إلى ترك الغرفة، تنهدت تهيدة مسموعة. طمأنتهم، كل هذه التفاصيل، كانت جزءاً من خطة شاملة وضعت فيها بدقة كل النقاط على الحروف. دخل الحرس إلى غرفة «النفق» فتشوا، نقيوا، ضربوا على الحائط. لم تطأ أحذيتهم الغليظة، ولو مرة واحدة، البلاطات المفضية إلى النفق.

انتقلوا بسرعة إلى زنازنة عاشورا وحليمة، للقيام بزيارتهم الاعتيادية. أمي ومسكينة، كانتا تترقبان تحركاتهم المسموعة بدءاً من خطواتهم وصولاً إلى خشخشة مفاتيحهم... حتى الآن لا داعي للقلق.
كانت مشاعر أمي موزعة بين فرحها لنجاحنا، وبين تألمها من أجل هؤلاء الأشخاص المساكين، اللذين يراقبون حياتنا في السجن وينظمونها منذ إحدى عشرة سنة. لا شك أن هربنا سيعرضهم للخطر.

فقط قبل أن يصلوا إلى زنازنة رؤوف، راحت أمي تضرب بقوة على بابها. عادوا بخطواتهم إلى الوراء. وسألوها عما تريد. قالت:

- نسيت أن أخبركم شيئاً مهماً جداً، عودوا أدراجكم إلى هنا.
استجابوا لطلبها، أعادوا فتح زنازتها ودخلوا، خاطبتهم قائلة:

- إليكم التالي: إن مليكة، ورؤوف، وماريا، وعبد اللطيف قد فروا.

لم يتأثروا البتة بكلامها... وراحت تستحث انتباههم الواحد تلو الآخر وهي تقول:

- إذهبوا إلى الحمام، وسترون بأنفسكم أن عبد اللطيف ليس هنا. واذهبوا إذا شتم إلى الفتيات،

وإلى رؤوف، ارفعوا الأغطية، وانظروا في كل مكان، وفتشوا تحت الأسرة... لن تجدوا شيئاً، لأنهم قد هربوا. تأكدوا مما أقوله لكم.

لزمهم حوالي ربع ساعة كي يستوعبوا حقيقة هذا الخبر. عندما كانت أمي محتمة راحوا ينظرون إليها بشفقة وخنان. اعتقدوا أنها أصيبت فجأة بالجنون، سارعوا إلى تهدئة روعها وهم يقولون:

- عمالكي نفسك، سيدة أوفير... إنك امرأة عاقلة ومتزنة... ولا يجدر بك هذا...

أكملت أمي حتى النهاية. ولم تركهم يمضون في طريقهم قبل أن تندفع كالمجنونة أمام أنظارهم المشدوهة إلى دخول الحمام، ورفع الأغطية عن السرير... وأخيراً قالت لهم بحدة:

- بأي لغة تريدونني أن أكرر القول لكم؟ إن أربعة من أبنائي قد فروا، وهربوا...

عندها، أخذوا ينتشون في كل مكان، وهم يتبعونها. ثم راحوا ينظرون بدهشة واستغراب إلى بعضهم البعض. هذا صحيح، إن عبد اللطيف ليس هنا. أعادوا فتح زنزانتا. لقد ظنوا ريباً أن عبد اللطيف نجح بالتسلل إلى زنزانة الفتيات، وأنه اختبأ هناك ليرعبهم ليس إلا. استقبلتهم سكية بابتسامة. بادروها بالقول:

- إنهما ترقدان في سريرهما... لأنهما في العادة الشهيرة... تعرف هذا ونصده جيداً... تماماً كما أكدت لنا...

- لا، إنهن ليستا هنا... أنظروا...

رفعت الأغطية، كانت تكلس تحتها كمية من الملابس. لا شعورياً اتحنوا للتفتيش تحت الأسرة... في الزوايا، والغرف... اندفعوا إلى زنزانة رؤوف... النتيجة هي عينها... وبدون جدوى.

طار صوابهم من وقع الصدمة. إن هربنا سيحكم عليهم بالموت المؤكد. عادوا إلى زنزانتا وفي أيديهم المعاول، وراحوا ينكشون الأرض دون أن يعثروا على أي عثر. ولم يفهموا شيئاً من هذا اللغز. أصيبوا بالهلع والفرع، وراحوا يصيحون ويصرخون وهم يندفعون ويتراكمون في كل الاتجاهات. اقتحموا زنزانة حليلة وعاشورا، وانهالوا عليهما بالضرب بعنف كي يجبروهما على الاعتراف.

إنهم ما كانوا يجبروا على لمس أمي أو أخواتي. عندها، تدخلت أمي وأخذت تطرق على بابها، محاولة التكلم معهم، ولكن حالة الغضب والانفعال التي كانت تسيطر عليهم أصمت أذانهم. لم تأس، شرعت تصرخ بأعلى صوتها وتقول:

- اهدؤوا، وتمالكوا أعصابكم. وتوقفوا عن نكش وتدمير كل شيء. إنكم تعرفون كيف يفكرون في الرباط. إنهم عندما سيصلون إلى هنا، وسيرون ما فعلتم... سيتهمونكم بالتواطؤ والضلوع بهذا الأمر...

يا للمساكين، لقد كادوا يقعون أرضاً من شدة الخوف والرعب. قالوا بياس واستلام:
- الحق معك... سنعيد كل شيء كما كان من قبل.
قالت لهم:

- لا، لقد تأخر الوقت، يادىء ذي بدء، وقبل كل شيء، أرسلوا بلاغاً إلى الرباط.
كان الحرس في قمة الإرباك. بورو لم يكن هناك يومها. فهو لا يكون في الخدمة نهار الأحد. عادة كان يذهب فيه لرؤية أطفاله، ويعود صباح اليوم التالي. ماذا سيفعلون؟ كيف سيتصرفون، ويتحركون؟ لا أحد منهم يعرف الإجابة على هذا. راحوا يتخبطون في حيرتهم وضياعهم... لكنهم عادوا وأذعنوا إلى نصائح وتوجيهات أمي، وصل خبر هروبنا مباشرة إلى القيادة العليا ووزير الداخلية. بعد مضي ساعة تقريباً، وصل «المحترم» بورو الذي، منذ حوالي شهرين، راح يهدد أمي بركلة من قدمه. آه... كم حاملنا باحتقار وازدراء واستخف بنا، بشكله الذي كان يشبه الغوريلا، وعينه الحمراء. بورو الذي كان معتزاً بمهارته في إخضاعنا وترويضنا، يقف الآن أمامها، أمام أمي، بوجه أصفر كالشمع، وعينين مسبتين، ويتحاشى النظر إليها وفي عينيه آثار الهزيمة...

كانت أمي ترقص سرّاً من فرحها، ولكنها كانت متحفظة ومتأسكة أمامها؛ كان هروبنا ضرباً من المستحيل. وكان في ظنهم أننا لا شك نخبون في مكان ما هنا. أمر بالبحث والتدقيق فوق السطوح. لكن دونها نتيجة. لقد عادوا بأفئ فارغة.

رفع عينيه إلى أمي وقال لها بصوت مرتجف:

- هكذا إذن، لقد هربوا...

في أقل من ساعة، بان عليه الهم والغم، وكأنه غدا بطرفة عين عجوزاً هرمّاً، وزاد عمره عشرين

سنة. وداعاً للغرور، والادعاء، واللؤم، والاستعلاء. ها هو بخطوات مترددة ومبعثرة يدع أمي وسكينة تقودان تحركاته وسكناته. كان يشبه محكوماً بالإعدام وهو في طريقه إلى المقصلة.

احتجز الحرس أمي وأخواتي في زنزانتنا. بقين هكذا مدة، ومن في حالة انتظار، لاحقاً، سمعن هدير سرب من الطائرات للروحية تملق في السماء، وتخط فوق الحقول. العديد من الضباط ذوي الرتب الرفيعة اجتاحتوا أرجاء الثكنة، فتحت أبواب السجن. دخل رجال الشرطة ومعهم كلاب ألمانية متوحشة. راحت الكلاب تستنشق رائحة ملابسنا ثم أفلتوها في الطبيعة، ثم أخاف أمي وأخوتي كثيراً. تم استبدال المخازنية بقوات من الدرك.

بعدما عصبوا عيني أسي، اقتادوها إلى داخل الثكنة، وأجلسوها بوحشية وعنف. لم يعد الأمر منوطاً بالحرس، أو يوزو، على الأقل هؤلاء كنا قد بدأنا نعرفهم. إنهم ضباط قدموا لتوهم، يتكلمون بخشونة، ويقسوة، وبدون إنسانية. إنهم سيجعلونها تدفع ثمن جساتنا.

كانت أمي ترتجف خوفاً لكنها لم تدعهم يهزمونها معنوياً. فهي من السؤال الأول بادرت إلى مقاطعة من كان يستجوبها. خاطبتها بالقول:

- جنرال بن سليمان، لا داعي للمواربة، لقد عرفت صوتك.

هب الرجل واقفاً، حل مكانه آخر. حتى وهي معصوبة العينين كانت تشعر بمدى ارتياكهم... لقد كانوا جميعهم من المقربين لأبي، ولقد استقبلتهم مئات المرات في منزلها. لم تلبث كذلك أن عرفت هوية الآخر، قالت له باحترار:

- حتى إنك لا تملك ذرة واحدة من الشجاعة كي تواجهني. على أي حال أنت مجرد جندي لا أكثر ولا أقل. إنك مجبر على استجابتي وأنت تعصب عيني أليس كذلك؟ اعلم أنكم معها فعلتم، حتى لو ذهبتم إلى آخر العالم، فإنني سوف أعرفكم جميعاً دون استثناء.

رفضت أن تخبرهم بأي شيء. وبالرغم من خوفها، ظلت تتصرف بكرامتها وشجاعتها. حاولوا إقناعها كي تتجاوب معهم قائلين:

- سيدة أوفقيز، كوني متفلة. إذا لم تفصحي لنا عن مكان تواجدهم، هذا من شأنه أن يعرضهم للخطر. إن الذئاب الموجودة بوفرة في المنطقة قد تفترسهم وتلتهمهم.
- إنني لأفضل أن تفترسهم الذئاب على أن تفعلوا ذلك أنتم.

أعادوها إلى زنزانتها. حلت سكية في غرفة التحقيق مكانها، وهي معصوبة العينين كذلك. كانت في التاسعة من عمرها عندما أدخلت إلى السجن، لذلك كان من الطبيعي ألا تعرف أحداً منهم. لكنها كانت بعد كل تحقيق تصف أصوات الضباط بدقة، لأي. لقد كانت تكشف هويتهم على الفور. كانوا يريدون أن يعرفوا مكاننا، مستخدمين لتحقيق مآربهم كل الوسائل، من تهديد وإرهاب وتوسلات، وترغيب، وتحجيل، لكن سكية بقيت صامدة لم تن أو تتأثر بالرغم من القلق الذي يملأ قلبها. كانت المرة الأولى التي يدخلون فيها إلى هذا السجن. وهم يعيدونها إلى زنزانتها سمعتهم سكية يناطبون بورو. قال له الجنرالات باستكار:

- سبيلخون جلدك. كيف تجرأت على جعل هؤلاء الأطفال يعيشون في هذه الظروف المزرية؟ بالنسبة لنا اعتدنا على رداء المكان وبؤسه. كنا قد أدمنّا على كل ما هو بشع وقبيح واعتدنا عليه. لكثرة استخدام الفحم للطبخ، كانت الجدران مغطاة بطبقات سميكة سوداء من الدخان الأسود، كان كل شيء مقبّناً، وداكناً ويتندى بالرطوبة التي تتسرب من كل مكان. أما مستلزمات الرفاهية والراحة فكانت كناية عن فرش من القش، وعلب من الكرتون، كنا نستخدمها كقطع أثاث. إن الحيوانات كانت تعامل في أقفاصها أفضل بكثير مما كنا نعامل نحن. كان لا يخفى على الجنرالات بأن الملك كان ينفذ انتقامه فينا، ولكنهم ما كانوا ليتخيلوا أننا نعيش في هذه الظروف القاهرة. بالنسبة لهم كنا نلقى الكتب، والبريد، وكنا مدللين. لقد استجوبوا سكية حول غذائنا. اعترفت لهم بأننا نسينا كيف يكون طعم بعض المواد الغذائية مثل الحليب، والزبدة، والفاكهة. أخبرتهم بالتفصيل عن مكونات وعناصر وجبات الطعام التي كنا نتناولها. وتطرقنا بالذكر إلى ساندويشات الأعشاب المسلوقة. ما صدم الجنرالات وأرعبهم أن المواد التموينية المتنوعة كانت تصل بشكل طبيعي إلى الثكنة، وأن الجنود لم يُجرّموا من أي شيء.

لم يضمعوا أيديهم على مكان النفق بعد. حتى بعد مضي أربع وعشرين ساعة. هم دائماً لا يفهمون كيف تمكّنّا نحن من الهرب. كيف يمكن أن يحفر النفق؟ يلزمه معدات، وسواعد. أمي، وسكية، وميمي كنّ في حالة جسدية تثير الشفقة. من أين عساهن يأتيّن بالقوة المطلوبة لحفره؟ بهذه الأسطة، كانوا يلاحقون سكية بإلحاح وبدون توقف.

بعد عدة تحقيقات، ضاقت ذرعاً بما كان يبش في صدرها، فأطلقت الحقيقة الصارخة في وجوههم

كبر كان يتفجر:

- أيها السادة، خذوا علماً أننا لم نكن بحاجة إلى سواعد مقتولة، لكي نشور ونتمرد ونهرب من ناركم وجحيمكم. كان يلزمنا خمسة عشر عاماً من السجن فقط، وخمسة عشر عاماً فقط من المعاناة المريرة والمعاملة اللاإنسانية، وخمسة عشر عاماً فقط من الجوع، والبرد، والخوف، والحرمان. أما فيما يخص الذكاء فاعلموا أن الفضل يعود لكم، لقد منحتُمونا خمسة عشر عاماً من التحامل كي ينضج ذكاؤنا ويثمر. ألف شكر لكم.

أسقط ما بيدهم، وفقدت كل أساليهم. يريدون معرفة ما جرى بحذافيره، حتى بالقوة إذا اقتضى الأمر.

لكن سكية وقُريت عليهم العناء، وراحت تروي القصة من ألفها إلى يائها من تلقاء نفسها: كم أزعجهم وأثار حنقهم الكلمات والتسميات التي كانت تستخدمها في حديثها، كانت تعبر بلغتنا «الخاصة والسرية»، حتى إنهم اعتبروا أنها تستهدف بذلك الاستهزاء والاستخفاف بهم. لم يفهموا الشيء الكثير مما كانت تقوله سيما المصطلحات التي كنا نتداولها مثل: «الفيلة» و«أكياس الرمل»... بالرغم من الرعب الذي كان يعشعش في قلبها، حافظت أختي على تماسكها وتهليها. كانت التحقيقات منهكة. وسكية، بالرغم من شجاعتها، لم تكن متهورة، لقد أجابت على أسئلتهم بذكاء واختصار. كانت واعية للدور الذي كان عليها أن تلعبه بمواجهتهم. يجب الإشارة إلى أنها تصرفت بشكل رائع ومذهل. لقد كانت للمرة الأولى نجم المشهد، هذه الشابة، ابنة الأربع والعشرين سنة وهي التي سجنّت منذ أن كانت في التاسعة من عمرها. كانت حكيمة، استمادت فجأة القدرة على النطق والكلام. لقد تكشف عنها ملامح شخصية طريفة، ذكية، مراوغة، متهمكة، وفظة. لقد كانت تمسك بأنفاس جمهورها، حتى وهو في قمة غضبه من جارتها.

بالرغم من نبرة التهديد التي كانت تشوب كلامهم، إلا أنهم كانوا يدون مسحورين، ومهتمين، وأحياناً جزلين وفرحين. كانت استجواباتهم تدور على النحو التالي:

- ولكن، بما أنكم لا تملكون ساعة، كيف تسنى لكم معرفة تحديد الوقت اللازم لإعادة سد

التق؟

- إنه كورنيليوس.

- من هو كورنيليوس هذا؟ متأمر؟ لا تسخري منا، وإلا...

- ولكن قولي لنا... هل اعتقدتم أنفسكم غاليه؟

كانت سكية تتلذذ وهي تراهم يستشيطون غيظاً.

- إنه حدث القرن هذا الحرب... هذا لا يصدق...

من حين لآخر كانوا يقاطعونها قائلين:

- لأبيكم كل الحق بأن يفخر بأبنائه.

أرادوا أن يعرفوا هوية ذلك الذي علمهم وثقهم في السجن.

أجابتهم قائلة:

- إنها مليكة. لقد علمتنا القراءة والكتابة، والمحادثة، والجلوس على طاولة الطعام. لقد ربنا

وثقفتنا، وشدت أزرنا. كانت لنا بيثاية الأم والأب والمعلم. إننا ندين لها بما نحن عليه.

كانوا جميعهم يدخنون أمامها. بعد مغادرتهم، راحت تلتقط الأعقاب. رآها أحد الضباط وهي

تفعل هذا، اقترب منها وقال لها:

- ما كنت لأبقى على قيد الحياة لو أنني تحملت ما حملتموه أنتم.

ثم مد إليها يده بالسجائر...

كانت تعطيهم تفاصيل محددة وملموسة مما دفعهم في النهاية إلى تصديقها. لكنهما لم تكن تريد أن

تدلم على المكان الذي حفرنا فيه النفق. قبل هروينا، اتفقنا على أنهم يجب أن يجدوا ذلك بأنفسهم.

وكم كان يحلو لها أن تتلاعب بهم وتتقاذفهم كالكرة...

أخيراً، وجدت أن اللعبة قد استغرقت وقتاً طويلاً وكافياً... وأنهم بدؤوا يشتملون، ويفقدون

أعصابهم، ويهددون، ويعاملونها بعنف شيئاً فشيئاً.

لذلك، قادتهم إلى الزنزانة، وقالت لهم:

- إن النفق موجود هنا. ابحثوا عنه.

نزعوا العصبة عن عينيها. لاحظت أن جميع الجنرات كانوا من ذوي الرتب الرفيعة. سلطوا

مصابيحهم الضوئية فوق البلاط... طلبوا منها أن تنتظر مجيء مصور الفيديو، قبل أن تفتح الحفرة.

كانوا يريدون تصويرها وهي تقوم بذلك كي يرسلوا دليل هريتا إلى الملك، كما اعتقد.

نزعت سكة البلاطات، أزال طبة الإسمنت، سحبت بمفردها «الفيلة» و «أكياس الرمل»، أمام أعينهم الجاحظة. نادوا رجال الدرك لكي يتأكدوا من وجود الممر. ثم أرسلوا المصور كي يلتقط صوراً لمجرى النفق، ولأدواتنا الزهيدة، من ملعقة، ومقبض سكين، وغطاء علبه سردين. أحضرت الكلاب المدربة ما كنا قد رميناه عندما هربنا، مثل الفلفل، وقصيب الحديد وأسبالتنا. استكشفت طائرات المليكوبتر المنطقة بأسرها دون أن تعثر علينا... لقد تبخرنا...

هكذا انتقلوا بأسي والأخريات إلى مركز شرطة الدار البيضاء. كان الخوف والقلق يفترسهن جميعاً، لا يعرفن أي شيء عنا، لقد انقطعت عنهن أخبارنا. ولا يعرفن شيئاً عن مصيرنا المجهول.

في مركز شرطة بن شريف سيطرت أسي بالكامل على أعصابها، وحاولت أن تهدئ من تلاطم أفكارها. لقد استتجت من تصرفات هؤلاء السجانين بأنهم لم يجذبونا بعد، وهذا كل ما كان يهمها. تعرضت حليلة عدة مرات للضرب واللطم، والصفع، لم تتألك نفسها من إعطاء دروس لرجال الشرطة في الأخلاق، مما أخرجهم عن طورهم. لعلهم وجدوا أنها امرأة مغرورة، تحبنا وتخلص لنا. هذا كل ذنبها. قالت لهم:

- تبعتهم إلى السجن، لأنني أردت ذلك. ولو قدر لي العودة إلى الورا لما فعلت إلا هذا. لا تعتمدوا عليّ ألبتة أن أتاكم معكم ضلهم ولا تنتظروا مني أن أخونهم. أوقفوا معاملتهم السيئة فقط قبل وقت قليل من وصولنا نحن، سيما عندما أخذ العالم بأسره علماً بموضوع هربنا.

لم يعد بمقدورهم أو لمصلحتهم منذ الآن فصاعداً أن يسمحوا لهم بإساءة معاملتنا، وهكذا لقد قضينا ليلتنا هنا نتحدث ونضحك ونتعاطق، وتبادل التهاني. لقد انتقمنا لأبي. أخذنا نحتفل منذ الآن فصاعداً بالتاسع عشر من نيسان/ أبريل تاريخ هربنا، إنه اليوم الذي أعيدت لنا فيه كرامتنا.

دامت الإقامة في بن شريف شهرين ونصف الشهر. لم نتوقف خلالها عن التهام الطعام. ظلت صواني الطعام تروح وتجيء. في الأيام الأوائل كانت ممتلئة باللوبياء الخضراء، وشرائح اللحم،

والأرز، والخلوى، ومع أن لائحة الطعام لم تكن متنوعة، إلا أنها كانت بالنسبة لنا ملوكية جداً. لكي نبقى أوفياء لعاداتنا المتبعة في السجن، أطلقنا لقباً على رؤوف وهو «بوسته»، التي تعني «سناً وحيدة»، لأن المسكين لم يعد يملك إلا ثلاث أسنان فقط. إن شكل أخي في حد ذاته كاريكاتوري، بطوله ونحوله، وخطوده العالية، وعقته الذي يشبه مفتاح سدادات القناني، وفكه الذي تزينه سن وحيدة تلتصع كحبة ماس.

أعطونا جهازاً تلفزيونياً ملوناً، نحن الذين كنا لا نعرف إلا الأبيض والأسود. اكتشفنا العالم بالألوان. كان المقرب يتهدى أمام أعيننا المشدوطة. لم نعد نعرفه، لقد تغير كثيراً. وجدت نفسي أقتنعهم بأن الفضل في تحديث البلد يعود للملك. كنت ممزقة بين الإحساس بمشاركة الشعب افتخاره ببلده وبين الإحساس بالحق على الحاكم الذي حقق نجاحه بوسائل غير شريفة.

لقد تزوجت ابنته، الأميرة مريم، وكانت التقارير تتوالى عن العائلة الملكية. فجأة اختفت من ذهني صورة الجلاد، ولم أعد أرى إلا ذلك الرجل الذي رعى طفولتي وأحيت كثيراً. لم أتمكن من حبس الدموع التي سالت بغزارة فوق وجهي. هذا التصرف أذهل الآخرين، إنهم لا يستطيعون أن يفهموا سر هذا الإخلاص للماضي الذي ما يرح متوقداً في نفسي. هكذا كنت أنا دائماً أترجى ما بين الحنين والغور، وبين التآمر والخوف، وبين الحب والبغض.

إلى جانب التلفزيون، حصلنا أيضاً على جهاز فيديو. كان العبوش يمتلك مكتبة؟ فيديو مليئة بالأفلام. بطيئة خاطرة كان يعبرنا بعضاً منها. كان رجال الشرطة يتحدثون كثيراً عن فيلم «روكي» للممثل سيلفستر ستالون. ونحن كنا من المعجبين به. لكن تبين لنا أن هذا الفيلم كان إباحياً. هكذا إذن، بدأ النجم العظيم سيلفستر مشواره السينمائي. ما كدنا نشاهد بعض لقطاته حتى أصبنا بالذعر... ثم لم نلبث أن انفجرنا بالقهقهة. في اليوم التالي، شكرت أمي العبوش على «التربية الجنسية» التي قرر أن يلقيها لأطفالها. يا للمسكين، وهو في غاية الارتباك والانهج عاج، انخرط في التبرير والاعتذار.

أعيد فتح ملف التحقيقات. إنهم في الوقت الحاضر يعلمون كل شيء حول عملية الحرب ولكنهم كانوا يريدون أن يعرفوا دوافعنا. لقد لامونا لأننا اتخذنا محامياً فرنسياً وليس مغرباً. وكأنه كان عندنا خيارات. غالباً، ما حاولوا إيقاعنا في أفخاخ، غير أن خمسة عشر عاماً من السجن كانت كافية لنا لكي

نتعلم جيداً كيف نحاور ونناور، وهذا كان يعيق تقدمنا. لم نعد نعرف إلى أين يتجه مصيرنا، ولا أي شيء عن أخبار دارتقيل.

بعد اجتماع عائلي، قررنا الكتابة إلى الملك. كنا نريد أن نطلب منه السماح لنا بالمجرة إلى كندا. العروش كان خائفاً وقلقاً من أن نساقي ويصل بنا الأمر إلى حد إهانة جلالة الملك. لم يكن هذا في نيتنا على الإطلاق. قراءة رسالتنا جعلت جيبه يندى بالخرزي والعار، وراح يلفت انتباهنا إلى ما يراه «خطأً فادحاً» باستكار:

- لا تقولوا هذا! لا تقولوا هذه... وهنا... وهنالك...

لقد حسمنا أمرنا، ولا مجال لإجراء أي تعديل على النص الذي كتبناه. لم نعد نريد البقاء في المغرب، وكندا كانت اختياراً جيداً، لأن الملك ما كان يسمح لنا أبداً بالرحيل إلى فرنسا. كنا في حيرة من أمرنا، إذ لم يعد بإمكانه أبداً إخفاء قضيتنا التي باتت معروفة عالمياً. لكننا كنا نجهل تماماً ما الذي يتوي الأكن أن يفعله بنا.

بانتظار الحصول على الرد، رحنا نتصرف كمساجين نموذجيين في هذا المركز الذي بدا لنا وكأنه الرفاهية بعينها، بعد كل البؤس الذي عشناه. لم تكن تعارض أبداً، حتى عندما كانوا يعصبون أعيننا كي يصطحبونا إلى دورة المياه، أو الحمام. إنها المرة الأولى التي تعجبنا فيها هذه الحراسة، ونستمع بها، إذ إنها كانت ترفعنا إلى مصاف الأبطال الذين نكن لهم الإعجاب.

لم يكن يخفى علينا التقدير والإعجاب الواضح الذي كان يظهر جلياً في نظرات رجال الشرطة، وكنا نستطيع أن نقرأه في أي لحظة. كل يوم كنا نزداد معرفة وإدراكاً لدى حجم انتصارنا على الملك، وانتقامنا منه. حتى إنهم كانوا يقولون لنا وهم يرفعون لنا شارة النصر:

- لقد تمكتم منه.

في أحد الأيام، فيما كنا نلزع المر ذهاباً وإياباً، صادفنا اثنين من المساجين الفلسطينيين، وجهاً لوجه. رأهما رجال الشرطة ولكن متأخرين، هرعوا باتجاههما لكي يصطحبوهما بعيداً. لكن تسنى لهم الوقت الكافي كي يعضوا لنا بأننا قد انتصرنا وهم يرفعون لنا أيديهم بشارات النصر. في نهاية المر، بعد الهجمات، كانت ترتفع شباك حديدية يجرسها دائماً أحد رجال الشرطة وهو يبرزته العسكرية وسلاحه الكامل، هذه المراقبة المكثفة كانت تثير فضولنا، ولكثر ما لاحقنا رجال الشرطة بالأسئلة، اعترفوا

لنا أنها تفضي إلى داخل المكان الذي يتم فيه استجواب المساجين والتحقيق معهم.
أردنا الذهاب إلى هناك معها كلف الثمن. لاقى طلبنا استغرابهم الشديد، ولكن بسبب إصرارنا
الدائم وإلحاحنا، انتهوا بأن سمحوا لنا بذلك. بعدما اجتزنا الشباك الحديدية، وجدنا ممراً ضيقاً تحفّت
به أبواب الزنانات. رجوت الشرطي أن يصطحبني إليها، هزّ كتفيه وقال باستسلام:
- كما تشائين، ولكنني أحذرك أن هذا سيفقدك صوابك.

أضواء مصباحاً غازياً، كانت الزنانة ضيقة وذات سقف منخفض جداً للدرجة أننا لا نستطيع أن
نقف في داخلها أو نتمدد على طولنا. كان فيها رجل يستلقي على الأرض الإسمتية العارية. كان يبدو
خائراً القوي بدون حراك. لم يميزني في العتمة الخالكة. رحت أنظر باتجاهه، امتلأت عيني بالدموع،
ثم همست له بكل جوارحي:
- صبراً جيلاً... كان الله في عونك.

لمت نفسي كثيراً. لأن ما فعلته كان بمثابة إعطاء نقطتين من الماء فقط إلى شخص كاد يموت من
شدة الظمأ في صحراء قاحلة. فيما كان الشرطي يغلّق الباب، تسنى لي أن أرى وجه السجين وهو أخذ
في الارتجاف. لم أتمالك نفسي ورحت أنشج بالبكاء... قال لي الشرطي:
- لقد حذرتك، ونصحتك بعدم المجيء...
هذا الرجل، كان سجيناً سياسياً. إنه واحد من كثيرين آخرين.

كنا نتظر رد الملك، بدون أن تأمل وتعلق بالأوهام كثيراً. بعد مضي شهرين استدعانا العروش،
وأعلن لنا أن جلالة وضع تمت تصرفنا مؤقتاً، في مراکش، منزلاً مفروشاً، ومجهزاً بكل وسائل الراحة
حتى إنه كان محاطاً بحديقة. وأتينا ستكون مكفولين بالكامل، من غذاء، وملابس، وعلاج...
لمن كان مثلنا خارجاً من الجحيم، كان هذا العرض غير المتوقع بمثابة النعيم. سنسكن فيه ريثما
يأخذ الملك قراره في موضوع طلب الهجرة الذي كنا قد أرسلناه له.

لاقى هذا الخبر ترحيباً حاراً. في غمرة حماسنا غضضنا الطرف عن إثارة الأسئلة الحساسة والمقلقة.
ترى هل ستال حريتنا في أحد الأيام؟ ومتى؟ وكم سيستغرق ذلك من وقت؟
لم نجرؤ على جعل تلك الأسئلة تطفو على سطح تفكيرنا. لقد كنا منهارين من شدة الإرهاق
والإنهاك. وكان أقصى ما نتمناه في تلك الآونة هو الطعام والنوم.

مراكش (١ تموز/يوليو ١٩٨٧. ١٩ شباط/فبراير ١٩٩١)

سنة أشهر من الغبطة!

المنزل الذي أغدق به جلالته علينا يقع في تاركة، على بعد عدة كيلومترات من مراكش، مقر الاصطياف المفضل لدى البورجوازية البيضاء. في حياة أبي، أمارنا وزير الداخلية آنذاك مزرعة فيها، حيث كنا نحب تمضية إجازات الشتاء، وتركب الخيل في نهاية الأسبوع. لقد كانت لنا فيها ذكريات جميلة.

من بين كل الفيلات الموجودة في هذه النواحي، كانت؟ يلاتا هي الأكثر عزلة، تستورها الجدران المرتفعة التي لم تكن نرى من خلالها إلا أعالي الأشجار.

المنزل الذي يعود تاريخه، بلا شك، إلى عهد الاستعمار، له مساحات شاسعة، مظهره مقبول أكثر منه مريحاً.

بعد بير جديد، بد لنا هذا المنزل كقصر. كان يسعدنا بممراته الطويلة، وإضاءة غرفه وإشراقها، وتعددتها. كانت معظمها تقع في الطابق الأول. كنت أنقسم غرفتي مع ماريا. وكانت سكونية مع ميمي. انفصلت أمي وعبد اللطيف كل في غرفته. أمارؤوف الذي كان بحاجة للهروب والابتعاد عن «جنس الحريم»، فقد استقل في غرفة تفضي إلى الحديقة. فيها عاشورا وحليمة استقرتا في مكان قريب من المطبخ. كشأن كل البيوت البورجوازية الجميلة كان يشتمل على صالونين. أحدهما كبير مفروش على الطريقة الغربية، عدة كنبات، ومقاعد موزعة حول موقد كبير. فيها كان الشاي أصغر حجماً، ديكوره مغربي، تغطي أرضه عدة فرش، بالإضافة إلى الطاولات المنخفضة.

نحن الذين كنا نفتقد بشدة إلى الضوء، أسعدنا كثيراً بياض الجدران، وتعدد النوافذ، ومديدات الكهرباء. كان لدينا أيضاً مياه شفة، ومياه باردة وحارة، ومغاطس للاستحمام، ومنشآت صحية في منتهى الروعة والفخامة.

إنه ليس الجنة، بلا شك، ولكن لا تشويه شائبة أبداً مقارنة بوضاعة بير جديد.

بحماس، راح الصغار يندفعون في كل مكان ويتركضون ويضحكون، ويصيحون ويتكفون فيها بينهم على توزيع الغرف وتقسيمها. لم أجارهم في فرحهم وانبهارهم. كان مزاجي متعكراً، فمرة أخرى مزيد من الأبواب، مزيد من الجدران، ومزيد من رجال الشرطة، والمنوعات. لا خروج، ولا

نزها، ولا حياة خاصة... إلى متى سيستمر هذا؟ إلى متى؟

لقد كان سجنًا، وإن كان، بمواصفاته، يشبه أي منزل طبيعي. أين هي الحرية التي حلمنا بها كثيراً؟ كي لا أفسد عليهم فرحتهم، أخرست هواجسي وحزني، وجاريتهم في تحركاتهم بقناع زاهب. وورحت أهدف معهم قائلة بتصنع مفتعل:

- نعم... نعم... كم هو مدعش ورائع...! بالطبع ستكون سعداء هنا... ثم أليست هذه مرحلة انتقالية إلى الحرية ليس إلا؟

فلتذهب كل الهواجس والشكوك إلى الجحيم. فليؤجل هذا إلى ما بعد. إننا نعيش اللحظة الحاضرة... لقد أعطونا مطلق الحرية لاختيار أثاث غرفنا، وملابسنا، واحتياجاتنا اليومية. كان يكفي أن نطلب حتى نحصل على ما نرغب به من كتب، وديسكات، وأشرطة؟ فيديو، وأوراق، ودفاتر، وأقلام، ومجلات نسائية، وصحف مغربية. أما فيما يتعلق بالصحافة الدولية، من لوموند و ليبراسيون... و... فكان يجب ألا نحلم بهذا. لقد أمدونا كذلك بأجهزة الستيريو، والتلفزيون، والفيديو، والراديو.

لقد أوكلت إلى رئيس بلدية مراكش ومساعدة مهمة شراء حاجاتنا اليومية. في اليوم الأول، اقترحوا علينا أن نحضر لائحة بالمواد التموينية المطلوبة. كان بإمكاننا نيل كل ما نصبو إليه ونشتهيه.

في البداية لم أفهم ماذا كانوا يقصدون بكلمة «كل شيء». كتبت أكتفي ببعض الطلبات، دون أن أجرو على التهادي أكثر. كان «كيلو من اللحم» يدولي كافياً لتسعة أشخاص أسبوعياً، ثم إن إضافة كلمة «زينة» أو مجرد التكبير بها كان يتهيا لي أنها غير معقولة. وأروح أقول في نفسي إن التردد لن ينفع معهم. يجب علي أن أصر... بدأت أسألم بتردد وخوف:

- هل يمكننا أن نحصل أيضاً على الفاكهة؟ على الحليب الطازج؟ على الشوكولا؟ هل البون بون؟ هذه السلع الغذائية لم تعد ممنوعة!!؟

إذن هم حقاً يعنون ما يقولون. بإمكاننا أن نطلب «كل شيء» وكما نشاء حقاً، هذا لا يصدق ومن غير المعقول!

كنا كلنا طلبنا منهم شيئاً أحضروه... وهكذا أخذنا، مرة بعد أخرى، نتشجع ونتجرأ. بات الطعام هو شغلنا الشاغل، وهدف حياتنا الوحيد. في كل الأمسيات كنا نفرق في تفكير عميق وجلدي

في لائحة وجبات اليوم التالي. وتداول في شأنها مع الطباخ الذي وضعته الشرطة تحت تصرفنا. عندما وصلنا، كان هذا الرجل الطيب لا يعرف كيف يطبخ. عندما غادرنا المكان بعد أربع سنوات، كان قد أصبح طاهياً ماهراً ومعتبراً.

كيف لا؟ ونحن كنا قد أصبحنا متطلبين فوق العادة فيما يخص نوعية طعامنا وأطباقنا من كسكس، وطاجين، إلى الكريب، والحلوى، والكريب، وسلطة الفاكهة أيضاً. ولا أنسى أن أشير إلى أننا كل يوم كنا نحظى بقلب كاتو عشو بالكريب. الاتهام والابتلاع كانا وسيلتنا الوحيدة ريثما لكي نستعيد طعم الحياة، أو ريثما لتعويض ما فاتنا أو حرماننا منه من غذاء طيلة خمسة عشر عاماً.

غالباً ما كنت أستيقظ مدهورة في منتصف الليل، والعرق يتفصد من جسدي من جراء هذا الكابوس المرعب الذي كان يتفرض عليّ ويلاحقني. وأروح أهدىء من روعي بأننا لسنا في بير جديد، وأن بورو ليس هنا، ولا بن عيش. كانت أشباحهم لا تنفك تطاردني وتهاجمني وتسرق النوم من أجلي.

بعدما أياأس من المحاولة، أسارع إلى وضع دثاري، والتوجه نزولاً إلى المطبخ. وهنا كان لا بد لي من أن أصادف أحد أفراد عائلتي من الذين أصابهم الأرق مثلي، وهو عائد إلى غرفته بصينية مليئة بشتى أصناف الطعام. ما إن أميزه في العتمة حتى كنت أبادره هامسة: من هذا؟ رؤوف؟ ماذا تأكل؟... عبد اللطيف؟... ماذا تشرب؟

وغالباً ما كنا ننفضر بضحكات مكتومة، ثم نعود معاً إلى البراد لكي نجري مقارنة بين اختياراتنا. ونروح نلتهم ونبتلع حتى التخمة. لقد كان إشباع هذا السمار الليلي يؤكد لنا أننا لم نعد نقيم في آتون ذلك الجحيم المستمر.

كانت أجسامنا تفتقر لكل شيء، وتشكو من كل شيء. كانت أمراضنا لا تعد ولا تحصى. كلفت البواسير أختي ميمي الإقامة شهراً كاملاً في المستشفى. لم نعرف أسباب الحرارة التي كانت تصيبنا غالباً، ولا الخراجات، لقد فقدنا قسماً كبيراً من شعرنا، وكانت عضلاتنا مضمحلة، ولحمنا ذائباً وأسناننا منخورة بالسوس ومهترئة. لم يبق لنا إلا الجلد والعظم... وحتى هذا كان في حالة مريئة...

ولكننا انكينا على تناول الطعام، والفيتامينات، والأدوية. بالرغم من هذه الكميات الهائلة التي

كانت تدخل جوفنا، كنا كمن يصب ماء فوق الرمل لشدة ما كانت أجسامنا جافة ويابسة. لكي أستميد بعضاً من لياقتي البدنية. انغمست في ممارسة الرياضة البدنية كل صباح، من ركض، وتمارين سويدية، ومشي سريع، ولعب الكرة مع إخوتي. طلبت منهم تزويدي بمؤلفات حول غذاء الرياضيين، وأصبحت، بعد فترة وجيزة، موسوعة حية في هذا الموضوع. اتبعت هذا النظام الغذائي مدة ستين كاملتين، لكن جسدي ظل في حالة يرثى لها. ومع هذا، أرغمت نفسي على المضي قدماً، وكأنني كسيحة تحاول جاهدة أن تجرب المشي.

في نهايات كل شهر، كنت أستمع إلى الموسيقى، وأقرأ، ألهم الكتب بنهم لا يوازيه إلا نهيمي للطعام، ويسيل لعابي للروايات، والمقالات، وكتب التاريخ التي تدور حول الحرب العالمية الثانية وروسيا. كل الكتابات تثير شهيتي. فلا أهدأ أو تفر عيني حتى أغترف حفنة من كتوزها وخيراتها. في الفترة الأولى، لم أكف فقط بالقراءة. كنت أشعر بأنني جاهلة ومعدومة الثقافة. رحت أتعلم وأحفظ الكلمات والأشعار عن ظهر قلب، وأستعين بالقاموس عند الضرورة، وأندوق ما أنتجه بودلير، وشاتوبريان، وأعيد صياغة الجمل وتهجتها كطفل في مرحلته الابتدائية.

لقد حصلت خلسة على آلة كتابة صغيرة تعود ملكيتها إلى جدي لأبي، ورحت أدون بعض الملاحظات والأفكار لوضع سيناريو. وكنت أيضاً أواظب على تدوين يومياتي.

كنت مدمنة على مشاهدة الأفلام، والمسلسلات التلفزيونية، وإن كان يثير حيرتي القسم الأكبر منها. شعرت أن فيلم «إي تي ET» كان لغزاً يصعب تفكيك رموزه. لم أفهم شيئاً عن الصحن الطائرة، ولم أفقه مغزى الفيلم ولم أستوعب حكمته. بدا لي أن خمسة عشر عاماً من التخلف عن مواكبة الحضارة من الصعب تداركها وتجاوزها. من جهتها، كانت سكينه ترسم وتستمتع إلى أغاني باتريسيا كاس التي تكن لها إعجاباً شديداً. وفيما كان عبد اللطيف يلعب كرة القدم، كان وديف يبدأ مسرته الجامعية الأولى بالمراسلة في الحقوق. أما أمي فقد كانت تهوى سماع نشرات الأخبار ومطالعة الصحف التي يحضرونها لها. كنا نحاول جميعاً إعادة تأهيل أنفسنا، كل على طريقته. في المساء، نظم أعياد الميلاد حيث كانت الشموع لا تزيد ولا تنقص عن إحدى وثلاثين. إنه مبدأ لم نحد عنه. ما إن تحين الساعة السابعة حتى يضج البيت ويهدر بغبطة وحيور. ونروح نكوي الملابس، ونخيط حواشيها، ونصبغ شعرنا ونسرحه ونضع مساحيق التجميل، وطلاء الأظافر. ثم نلتقي جميعاً أمام مائدة فخمة وأخذة.

هذه الحياة التي بدأت لتوها، أعادت إلينا تدريجياً أحاسيس ومشاعر خلنا، في أقبية السجن، أنها قد ماتت إلى الأبد. فإذا بنا «نتخل عن زي القتال» ونودعه في أحد الأدراج المقفلة حتى إشعار آخر. ها نحن نستعيد إنسانيتنا من جديد، ويحقق في أجسادنا وقلوبنا حب الحياة.

غالباً ما كنت أقع أسيرة موجة غامرة من الاكتئاب، يرافقها بلبلة واضطراب، وكأنتي عدت مرافقة مرة أخرى. إنني في الرابعة والثلاثين، ما زال يعذبني الشعور بالفراغ العاطفي والوحدة. أشعر ببأس. إنني بحاجة ماسة للحب كأني فتاة من بنات جنسي. كم وكم أقضي من ساعات في غرفتي وحيدة أبكي.

كانت هناك أغنية مفضلة لدينا لا نمل من سماعها، إنها أغنية المقدمة التصويرية لفيلم «ضوء العادلين» التي يؤدنها شارل آزنافور وعنوانها «كون». ما إن نسمعها حتى نبدأ في التمايل على أنغامها وكل واحد منا ملتصق بالآخر، ونحن نردد اللازمة التي نحفظها ظهراً عن قلب. تقول كلماتها: أن تُبعث من موتك فذلك أفضل لك.

ترى ما الذي يجعلنا نشقق بالكاء جميعاً عندما نسمعها. أهو صوت آزنافور المؤثر؟ أم هي الكلمات التي تبدو وكأنها كتبت خصيصاً لنا؟

كل صباح يأتي «الحاج» المفوض إلى الفيلادلتجسس أخبارنا، ولكي يتحرى إذا ما كنا راضين عن مصيرنا. في الحقيقة، هو مكلف بجس نبضنا فيما يخص عز منا على الإقامة في كندا. إننا نعرف هذا ولنا مغفّلين.

نعرف جيداً الطريقة التي يتبعها النظام. إنهم يسمعونك معسول الكلام، ويعملونك تنام على الحريز، ويمتصون شكوكك وحزنك. فقط في اللحظة التي لا تتوقعها ولا تتظرها يوجهون إليك الضربة. لحسن الحظ، أننا تمرسنا في لعبة «الهر والفأر»، ويتناعرف كيف نتحاشى الوقوع في مطباتهم، ونجنب الأفخاخ التي ينصبونها لنا. نعرف متى نصمت، ومتى نتكلم، وكل شيء بمقدار.

إننا نعيش في حالة ترقب وانتظار، اختفت نهائياً أخبار المحامين دارت؟ ييل وكيجمن. هذا الصمت يقلقنا. إننا نعامل بالحسنى الآن، ولكن بدأ صبرنا ينفد. إننا لا نستطيع أن نمشي، ونركض، ونتنفس حتى ضمن الحدود الضيقة والمهمة التي رسمت لنا.

أخيراً، في الثالث من شهر تموز/ يوليو، أعلمونا بزيارة جورج كيجمن. إنها المرة الأولى التي تقابله

فيها. كان واضحاً تأثيره برويتنا، واحترامه لشخصنا. كان حديثه متقناً، لقد أخبرنا بأنه قد فقد واحداً من أفراد عائلته في معسكر للاعتقال خلال الحرب العالمية، وبأنه يعرف مدى ألمنا ومعاناتنا، وهو يجد نفسه مجبراً على الدفاع عن قضيتنا إلى أبعد حد، وبأنه لن تهدأ تأثيرته حتى نستعيد حريتنا.

بدلي كلامه صادقاً، ومليئاً بالتعاطف والشفقة إزاء ما كابدها وتحملته من معاناة. أخيراً، هنالك من يتحسس آلامنا، ويعترف بمظلوميته. أخيراً، هنالك من يفهمنا وهذا يثلج صدورنا ويعزينا.

لقد روى لنا تفاصيل لقائه مع الملك الذي جرى منذ عدة أيام. أخبرنا أن الملك تحدث عنا بحرارة وعاطفة. وأنه يعجبني كاتبته. ولقد أخبره بأنه هو من تولى تربيتي، وأعطاني أول حلقة مساختة في حياتي، وأنه راح يضحك وهو يتذكر مقالي وحلي عندما كنت صغيرة.

وزعم قائلاً: «أنظر في أي قضية تيسة أجد نفسي. إن النقطة السوداء الوحيدة التي تعذبني أيضاً هي قضية عبد اللطيف الصغير»^{١٩}

بدا المحامي كيجمن متأثراً جداً بعلاقة «البنوة» هذه التي تربطني بالملك، ويجهل حقيقة هذا الجزء من قصتي. حتى إنه قال لي بصوت متهدج:

«يا مليكة... أنعرفين؟ خلال عادتتنا التي استمرت ثلاث ساعات كاملة، كان يردد اسمك بلا توقف. جلالة يكن لك الكثير من العاطفة.

لقد كنا جميعاً أكثر ارتياحاً وتشكيكاً منه حول تأثير الملك وحساسية مشاعره المزعومة بشأننا، ولكننا لم نتلق بحرف واحد واحتفظنا بردة فعلنا لأنفسنا.

طلب المحامي من الملك أن يعطينا حريتنا ويطلق سراحنا. لم يعارض الأمر ولكنه رفض أن يدعنا نرحل إلى فرنسا. كانت حججه واهية للغاية. لقد تدرع جلالة بأن لديه خوفاً من أن يتعرض لحياتنا أحد أفراد الجالية المغربية هناك. وروى لنا كيجمن هذه الواقعة بسخرية وعدم تصديق واضح لحسن نوايا الملك، عدا عن أنه حاول دحض ادعائه بقوله: «ولكن يا صاحب الجلالة... آل أوقوير يريدون الهجرة إلى كندا». تظاهر الملك بالاندحاش والذهول، وبعد تفكير اقترح أن يرسلنا إلى إسرائيل. أما تعليقه فقد كان منطقياً لا يناقش. لقد ادعى بأن ذكرى أبي كانت محترمة هناك سبباً وأنه ترك اليهود المغاربة يهاجرون بالآلاف^{٢٠}. لقد أهمل الإشارة إلى أنه يتغيبنا إلى بلد في حالة حرب ويضعنا تحت رحمة أي متطرف قد يستطيعون إقناعه بآلاف الحجج كي يزيلنا من الوجود.

شعر كيجمن بالفخ الذي يتضمنه مثل هذا الاقتراح. حاور الملك وجادله كثيراً. في نهاية المطاف استحصل منه على وعد قاطع بأننا سنحوز على جوازات سفر وعلى تأشيرات دخول إلى كندا. أعرب جلالتة أنه لا يريد أن يسمع أبداً بأي حديث بشأننا، وفي المقابل يجب علينا أن نلزم الصمت التام حول كل ما عشناه وتكبدناه. عقد كيجمن هذه الصفقة معه نيابةً عنا.

كانت هنالك رسالة أخرى أراد المحامي أن يبلغني إياها. لقد اتصل به آلان ديلون، وأكد له على صداقته لنا. أبدى استعداده أن يساعدنا في الموضوع المادي، وأن يتولى دفع التكاليف والأتعاب القانونية إذا اقتضت الحاجة. أضاف كيجمن أن الممثل لن يتخذ أي موقف سياسي، فمصالحه في المغرب لا تزال قائمة.

مع هذا، لقد شعرت بالمواساة والتشجيع من خلال هذه اللفتة الصغيرة وأثرت بي. هكذا، آلان ديلون لم ينسني. لا شك أنه قد تلقى إحدى رسائلنا الصغيرة التي كنا قد كتبناها وأرسلناها إلى عدد من الشخصيات السياسية، ومعارفنا القدماء، عندما هربنا إلى الرباط. من بينهم جميعاً، كان هو الوحيد الذي تحرك وعبر عن نفسه وهذا أثر بي إلى الأبد. مع ذلك رفضت العرض الذي تقدم به، وطلبت من كيجمن أن يشكره بالنيابة عني. كان الصيف محرقاً تلك السنة، إلا أن هذا لم يؤثر بنا البتة. لقد تمحدد موعد رحيلنا إلى كندا في آخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وبإمكاننا أن نتحمل إزعاجات الحرارة بانتظار ذلك. إننا سعداء، ومتشون، ومتصرون، سيكون بمقدورنا أن نعيد صنع حياتنا من جديد.

المجهول سحرنا. لقد وضعنا مشاريع فائقة الجنون. سنعيش جميعاً في مزرعة مؤلفة من سبعة منازل، موصولة ببعضها البعض عبر ممرات أرضية، تفضي إلى صالة ألعاب. لن نتزوج، لكننا سنقيم الكثير من علاقات الحب. سنبقى عائلة متحدة، لن نفرق عن بعضنا أبداً. الصغار سيتابعون دراستهم، والكبار سينخرطون في ميدان العمل. يماودنا هنياتنا المعتاد من وقت لآخر. التفكير بأنهم أرادوا التخلص منا يفرق روعي ولكنني أجبر نفسي على طرده، تماماً مثلما أتجنب فكرة أن كل هذا كان مستحيلاً، لأنه جميل جداً حتى يكون حقيقياً، وأنا لن نصبح طلقاء أبداً.

أخيراً أذنوا لجليدي بالمجيء لرؤيتنا. لقد أخبرونا بذلك كما دتسهم في آخر لحظة. لقد وصل يوم ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر. هو في الثانية والسبعين من عمره، وما زال كمهدنا القريب به، رجلاً

جيلاً، طويل القامة، وقوراً، بالكاد تظهر بعض التجاعيد في وجهه. نظرته الدامعة تدل على مدى الحزن الذي يمتلئ في صدره. وما إن رأانا كلنا مجتمعين حتى أجهدش بالبكاء، ولم يتمالك نفسه إلا بعد حين.

ضمّ أُمِّي بين ذراعيه، وراح يعانقنا الواحد تلو الآخر، وهو يرمقنا بنظرات يختلط فيها الحنان والحزن الدفين. بدا عليه الهم جلياً. من المؤكد أن منظرنا البائس قد أثار شفقتة ولوعته، وكذلك منظر وجوهنا الكالحة، الذي أربكه وأرعبه. أين هي من الوجوه الصغيرة التي عرفها تنضج بالصحة وتضج بريمان الصبا. لقد تغيرنا كثيراً، بعدما قسا علينا الزمان وجار. المسكين لا يصدق رجوعنا إلى الحياة. ويعتبر هذا معجزة لا تصدق.

أشعر بغصة في حلقِي، أريد أن أبكي، يستعصي عليّ البكاء، أريد أن أناديه «بابا الحاج». يستحيل النداء. في صغري كنت أخاطبه هكذا. ولكن منذ أن مات أبِي باتت لفظة «بابا» تعلق في حنجرتي. هذا الحاجز الذي لم أستطع أن أتجاوزهُ أو أتخطاه، وتركتهُ يبعد بيني وبين هذا الرجل العجوز... الذي، دونها ذنب ارتكبه، رحت أتفادله وأتمحاشاه.

تلك اللحظة كانت مؤثرة للجميع. منذ وقت طويل لم أر أُمِّي بهذه السعادة. إنها متعلقة كثيراً بأبيها. لقد كافح خلال كل هذه السنوات كي يتزعنا من قم القدر الوحشي. لقد اتصل بمنظمة العفو الدولية، ومنظمة حقوق الإنسان، ومنظمات أخرى كثيرة. لقد راسل كل الشخصيات السياسية، وقابل الأمير مولاي عبد الله الذي أتاح له إرسال الكتب إلينا.

انقطعت أخبارنا عنه نهائياً، منذ أن كنا في تامناغت. في مناسبات مختلفة وعلى دفعات، صدق بأننا متنا قتلًا بالرصاص. لقد أخبروه بأن ميمي قضت في إحدى نوبات الصرع، وأنتي قتلت أنا ورؤوف، بينما كنا نحاول الهرب. أحد أصدقائه أكد له بأنه رأى بأم عينيه جثة أُمِّي في مستشفى ابن سينا.

لقد سلّم بقدرنا، وأقام الحداد علينا. رفض أن يصدق خالي وحيد عندما أقسم له أنه شاهدنا نحن الأربعة أحياء عند آل بارير. أخبرنا عن موت «ماما» خديجة، وعن زواجه الجديد. إننا نعرف بكل ذلك... لقد أخبرنا به آل بارير. ولكننا لم نكن نعرف بأنه رزق بمولود أسماه رؤوف. لامته العائلة وعاتبته على هذا الاختيار.

لا نطلق اسم أحد الأقارب الأحياء على المولود الجديد. لكنه قال وهو ييكي:
- لقد كنت متأكداً كلياً... بأنكم قد متم...

تأثرنا كثيراً بما فعله لإحياء ذكرنا.

منذ أن اعتقلنا، تعرض أقاربنا إلى العديد من المضايقات، والمراقبة، والتحقيق، والاستجواب، وكل أنواع التفتت والتجسس والتضييق. لقد أوصد المجتمع المغربي أبوابه في وجوههم، وما عاتته عائلة أبيي كان أقسى وأشد وطأ، هنالك في الصحراء، تعرضوا للنبذ، وحُرموا من كل شيء. ولم يعد أحد يتعامل مع كل من يمت بمعرفة أو قرابة لآل أوقير.
لقد روى لنا هذا وهو يغالب دموعه، ويحبر نفسه على التسم، وهو يردد بين جملة وأخرى: «إن الله كبير».

بدأت التحضيرات لرحلة السفر المقررة في ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر. تكفل رئيس البلدية بشراء الحفائب والملابس لنا. ابتاع لنا أيضاً المعاطف، والسترات الواقية من المطر، بالإضافة إلى الأحذية الضخمة المناسبة للمناخ البارد. كم كان يروق لنا وضع لوائح الشراء. كنا نتفنن في اختيار الموديلات والألوان التي نريدها. كنا مثل أطفال صغار أمام شجرة عيد الميلاد، أو أمام واجهة محل ألعاب. أعطونا تذاكر هوية، وجوازات سفر، ثم عادوا واستردوها عشية سفرنا. هذا الأمر أثار حفيظتي، لا شك أنه يخفي شيئاً ما وراءه. إنني أشعر بهذا، لكنني لا أستطيع أن أبرهنه. حاولت أن أقنع نفسي بأن هذه هواجس لا صحة لها، وبأن كل الاستعدادات تدل على أن السفر بات وشيكاً، ومؤكداً، لكنني كنت أقنع أكثر فأكثر بأنهم لن يدعونا نرحل بسلام. خفّ حماسي كلياً ولم أستطع أن أجاري الآخرين في بهجتهم، وانهاكهم في ترتيب هئامهم وحلتهم، ولا ألقى بالاً لتسريحة هذه، أو لملايس تلك.

خلال الليل، أوقظ أمي... أبشها مخاوفي وشكوكي. ترفضها جملة وتفصيلاً، وتتهمني بأن مخيلتي مريضة معذبة. إنها أشد سذاجة مني، فهي ترفض دائماً أن تنظر إلى الجانب السيء للأمور. الحياة في القصر علمتني الحذر. أعرف أنه يجب ألا نأخذ على محمل الحسنى هذا الضوء الأخضر من الملك.
أخرج من غرفتها منهارة... وعلى حافة البكاء. وحده رؤوف يستطيع أن يفهمني. أتسلل إلى غرفته... يصغني إليّ بتحفظ... ثم سرعان ما يقتنع بصحة حدسي. لا تغمض جفونه فيما تبقى من الليل، ولا أنا أيضاً.

في الساعة السابعة صباحاً، من يوم السابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، كنا جميعاً على أهبة الاستعداد وفي كامل ملابسنا، وزيتنا، وكانت حقائبنا أيضاً مجهزة. في الحقيقة، لقد نسينا ماذا يعني ركوب الطائرة والسفر. كان مظهرنا سخيلاً وهندامنا مبالغاً فيه. كل واحد منا كان يثير السخرية أكثر من الآخر. كنا نحاول أن نكون في داخلنا بمستوى تألق مظهرنا الخارجي.

رحنا نؤدي الدور الذي يجب علينا أن نلعبه على أكمل وجه. بتوتر وعصبية، كنا نتنظر في الصالون، أنا وروؤف يبدو أكثر إرهاقاً من الآخرين، إنهم لا يشكون بعد بشيء. بالنسبة لهم، خلال عدة ساعات سنطير بعيداً. يا للمساكين المغفلين...

أرمقه بنظرة ذات معنى... يبادلني ببسامة عصبية. أمي تضبط إيماءاتنا بالجرم المشهود. ارتحفت يداها المعقودتان فوق حقيبة يدها، وشحب لون وجهها. ترى هل زعزعت غلاوفي ثقتها أخيراً؟ فجأة يصل العبوس، المفوض الحاج، عثمان بوعبيد^(١)، ورئيس البلدية، دفعة واحدة. يبدو عليهم الانزعاج والارتباك، ويتحاشون نظراتنا ويتفادونها.

نظرة تساؤل أخرى أتبادلها وروؤف. ترى كيف سيقلون الخبر إلينا بأن هذا الرحيل ليس سوى كذبة مزيفة؟ لا شك أنه سيلزمهم خيلة واسعة وخصبة.

في الواقع، ليسوا بحاجة إلى هذا، إنهم يتدبرون أمرهم جيداً... تسيل الكلمات على شفاههم بانسياب... رقاقة... عذبة... إنها بحر من عسل... يختمون كلامهم وهم يخاطبون أمي بقولهم: -جلالته يطلب منكم أن تترثوا قليلاً بعد... إنه ليس مهياً كلياً على تقبل فكرة رحيلكم. أيتها الحاجة، جلالته يرغب برؤيتكم قبل رحيلكم.

مرة أخرى أيضاً، ينهار حلمنا ويطول حبسنا أربع سنوات طويلة من الانتظار.

السجن النهبي

ولكن، سيدة أفقر، لا يمكنكم أن ترحلوا ما لم تقابلوا جلالة الملك ولا تنسي أنكم أنتم أيضاً قد طلبتم رؤيته بأنفسكم.

انقلبت الطاولة علينا. مضت أمي قدماً في اللعبة، وكتبت رسالة ملتصقة لقاعة بالملك، بناء على رغبته المزعومة. ولكن النتيجة جاءت بشكل آخر...

أدركت أن هناك أسباباً أخرى وراء إجهاض سفرنا. لقد رفضت أمني التوقيع على تعهد خطي بأنها لن تتقدم بشكوى ضد الدولة المغربية، وذلك بالرغم من تعهد كيجمن أمام الملك بذلك. ربما لم ينتبه كيجمن إلى مدى خطورة المشاكل الصحية التي نعاني منها، ولا أدرك حجم الأضرار. ستة أشهر تلت بير جديد، وما زلنا في حالة جسدية مفاجئة. أربعة منا يعانون من مشاكل رئوية مهددة بالانتكاس والتدهور.

كيف يخاطر بإظهارنا للملأ، ونحن في حالتنا الراهنة، ألا يعتبر هذا دليلاً حياً وساطعاً على انتهاكه الفاضح لشرعة حقوق الإنسان؟ أدركت دائرة الهجرة الكندية حقيقة وضعنا، والصحافة لا تنفك تتحدث عن قضيتنا وعن رداءة وضعنا الصحي... لقد أضحي هذا شغلها الشاغل. والملك لا يريد هذه الدعاية السيئة. يجب أن نتردد صحتنا وعافيتنا قبل أن يدعنا نواجه الخارج.

ولكن حتى اليوم، وإن قلنا كل عناية الأرض مجتمعة، ما زلنا نحمل بعد على أجسادنا آثار تلك السنوات الرهيبة. ميمي مطية دائمة لتوبات الصرع. وماريا أصيبت ب سرطان المثانة، ورؤوف يتخطى في داء التهاب الشعب الصدرية. وأنا وسكينة نعاني من وضع صحي مهزوز وغير ثابت، أما فيما يخص أخي عبد اللطيف، فإن روحه، قبل أي شيء آخر، هي التي أطفئت وأخذت، ومع هذا، ظل للمحامي يصدق وعود الملك حتى الدقيقة الأخيرة. كان يتظرنا في الدار البيضاء حيث كان من المتوقع أن نستقل الطائرة. كان يجب أن يتم رحيلنا في سرية تامة. ولكن سرهان ما تسرب الخبر، وراح يمثلون عن الجالية اليهودية المغربية يتظروننا في مطار مونشريال وهم يحملون يافطات ترحيب.

رفعت وزارة المالية الحصار عن مبلغ أربعة ملايين درهم قامت بوضعها في تصرفنا في إحدى البنوك الكندية. وبالنسبة للمحامي كيجمن كان هذا المال بمثابة دليل إضافي على نوايا الملك الحسنة. من جهتي كنت أميل إلى الاعتقاد بعدم صحة سفرنا، وأن كل هذا لم يكن إلا مسرحية مدبرة. إن الملك لم يتخالص بعد معنا، وما زال علينا بعد أن ندفع الثمن.

لقد رأينا كيجمن مجدداً بعد ذلك بعدة أشهر، في بداية سنة ١٩٨٨. كان يستشيط غضباً. أعلن لنا بأنه سيلاحق المغرب أمام السلطات الدولية، وأشار بإصبع الاتهام إلى العيوش قائلاً: -إنها غلظتكم، وغلطة الذين يمحرونكم... ليس من عادتي أن أتعامل مع أناس لا يحترمون كلمتهم...

انتحت سكينه به جانباً وسأله إذا ما كان انتحارها يمكن أن يخدم قضية إطلاق سراحنا. منذ يوم ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر، وهذه الفكرة تسكنها وتلحّ عليها. تنهد كيجمن وراح يكيل التهم لهذا النظام الذي يقتل الأطفال الأبرياء.

أرعد وأبرق كالعاصفة بعض الوقت، لكنه عاد وسكن. لم يؤد غضبه إلى أي نتيجة، كشأن الإضراب عن الطعام الذي بدأه في نيسان/ أبريل ١٩٨٨ بعد عدة أسابيع لاحقة من تاريخ زيارته. لقد دام هذا الإضراب عشرين يوماً كاملاً مما استدعى حقناً المتواصل بالأمصال، كنا في منتهى الإعياء، لكننا لم نلق بسلامة إلّا يأساً من الواقع القائم. كان الأمل معدوماً من أن تلين قلوبهم المتحجرة. راح مشروع سفرنا يتراجع مع الوقت. عدنا من جديد سجناء كما كنا منذ خمس عشرة سنة. لقد كنا نعيش جملة من التقلبات المتناقضة، تارة مستسلمين وطوراً ثائرين، حيناً سلبيين ومذعنين وأحياناً متمردين.

عوضاً عن التباكي على الذات، كان يراودني إحساس جارف بأن قلدي تحسّن، وبات أفضل، بالرغم من كل ما يواجها من ويلات ومخاطر. إننا ندين بذلك إلى ما بذلناه من جهود. وما نمتلكه من نفاذ بصر. كان الملك قوياً جداً... وكنا نحن ضعفاء جداً... ألا يحق لنا على الأقل أن نشعر بالرضا لأننا تمكنا من ليّ ذراعاه؟

عدنا إلى الوقوع في الرتابة والملل. ولم نعد نحلم ونأمل. نقرأ، نمارس قليلاً من الرياضة... نشاهد التلفزيون... يلعب عبد اللطيف كرة القدم مع حمزة الذي يماثله في العمر... وهو ابن عم لنا يقيم معنا منذ أن أتى مرة لزيارتنا.

أذن لعائلتنا بالمجيء لزيارتنا في آخر الأسبوع، بعد جهد جهيد. كانوا يفتشونهم بدقة وبانتظام. لكننا لم نعد ننظم الحفلات عفواً وبدون مناسبة، باستثناء أعياد الميلاد، انتهت العصر ونيات التي كنا نواظب عليها بفرح... انتهت مآذب العشاء التي كنا نتخلق حولها جميعاً ببهجة وسرور. كل واحد منا يأكل وحيداً بمفرده في غرفته.

إننا نعيش حياتنا في ملابس نومنا التي اهترأت لكثرة ما غسلت وأعيد غسلها. نمشي حفاة الأقدام، ولماذا نتجشّم عناء الاعتناء بمظهرنا؟ عندما تتصادف في المنزل، لا شعورياً نروح نردد نفس الأسئلة التي مللناها لكثرة ما طرحناها وأعدنا طرحها:

- متى ستحل عقدة قضيتنا؟ متى سيطلقون سراحنا ويمرروننا؟

ما يفرق مراكش عن بير جديد هو الضوء، سيبا في الصباح... لم تكن نفوت هذا المنظر الرائع، إنها لحظة ولادة... وعودة إلى الحياة... إنه إحساس مؤثر. طوال النهار، نبقي في الخارج للاستمتاع قدر الإمكان بهذا المشهد الساحر. عندما يهبط الليل، لا نتعب أبداً من مرأى الأضواء، ومرأى البيت مشعشعاً.

يصلني بريد من أصدقائي القدامى، لكنني لا أطيق تحمل اعتذارهم، ولا إحساسهم بعقبة الذنب حيالنا. ومضائلهم الطويلة والمملة تبعث على الضجر، إذ يبررون بقوة خمس عشرة سنة من الصمت واللامبالاة. لا أريد أن أعيد توثيق العرى مع الماضي، وليس لدي ما أجيهم به. عدا عن أنهم لن يفهموا شيئاً... علمنا بموت عمي هاشم... لم يسمحو لنا بالذهاب إلى مأتمه وإن تحت المراقبة والحراسة المشددة. لقد توفيت «نانا» جدي قبل وقت قصير من موعد هربنا. المسكينة لم ترق عينها برؤيتنا مجدداً قبل موتها.

إنهم كنا بتربية عشرات الحيوانات من المهررة، والكلاب الضالة... إنها تعيش معنا، وتأكل، وتنام. لا ندعها تغادر المنزل مطلقاً خوفاً عليها من أن تلقى نفس مصير حماماتنا التي كُبحت في تامناغت. إننا نصب كل اهتمامنا وحبنا على هذه الحيوانات المؤلفة من عشرة هررق، وثلاثة كلاب. هل لهذا علاقة بما نعاناه من نقص عاطفي، وكبت جنسي؟ أم هي تعبير عن توق دفين للأومة، والأبوة؟ لقد بلغنا منذ زمن بعيد سن الزواج والإنجاب، عندما كنا في السجن، كانت لنا سطوة على رغباتنا ونزواتنا. ما إن كانت تطل برأسها حتى كنا نعاجل، دونها صعوبة، إلى وأدها وإخادها. خلال الستة أشهر الأولى في مراكش... غفلنا أن نوصد عليها بالقفل والمفتاح فإذا بها تدلف إلينا وتسلل من بين دفتي الباب. إنها لا تني تلح علينا، وتضرب من حولنا حصاراً. بعد خديعة «سفرنا الملقق»، عكفنا على مقاومتها وطبيها، وإعادة ترويضها مجدداً، هذا آمن لنا... ما دام الأسر قدرنا.

ما كنا لتحمل خمسة عشر عاماً من السجن في هذه الظروف التي نجياها الآن والتي تعتبر نسبياً مريحة. أخطر ما فيها أنها توهمك بأنك تملك بعض الحرية، وبأنك تستحصل على المستلزمات الحياتية من أكل وشرب، ونوم، وملبس، ومتزل فاخر... إننا نفضل العدم على القليل، والمضي في القتال على الامتسلام والخضوع... إن سياسة أنصاف الحلول والانتظار والتسويق... تدخل اليأس إلى

قلوبنا... وربما ستهلكنا.

ما أبشع الشعور المرعب الذي طغى علينا... الشعور بأننا لن نذوق مطلقاً طعم الحرية... إنه سراب لن ندركه أبداً... فنحن ما كنا نلمسها بأطراف أصابعنا حتى عادت وانتزعت عنوة منا... ما زلنا ندور في حلقة الشيطان... وتطارفنا الكوابيس في الليل والنهار.

ها هو التشدد في معاملتنا يعود من جديد. زرع رجال الشرطة بعض أجهزة التنصت في مدخنة الصالون... اكتشفها رؤوف صدقة... عطلها... قابلوا الأمر بتدابير ثأرية، قاموا بالتشويش على قناة البث التلفزيونية (TV5) التي تتحدث عن المغرب. راحوا يشددون من حولنا المراقبة والحراسة. رفضوا إعطائي بعض الكتب التي كنت قد طلبتها، والتي تعالج موضوعي الثورة الروسية، وألمانيا النازية، أما السبب، فذلك لغز لا أدركه...

ما زال لدينا بعض الشلوات من روح النكته والدعابة. طلبنا منهم أن يحضروا لنا شريط «المحروب الكبير»... وبالطبع لقد رفضوا كما توقعنا...

نويت أن نحفر نفقاً كي نعود المحروب مرة أخرى. أرض الحديقة سهلة الحراثة، لكن هذا سيطلب جهداً جسدياً... وهذه نقطة ضعفنا. حتى إننا فكرنا بإحدى الطائرات الصغيرة، وكيف أنها ستأتي وتمخط في الحقل الذي يقع خلف الحائط. فكرة الحرب هذه من شأنها أن تساعدنا على الصمود، وتثبت لنا بأننا لم نمت بعد كلياً... وأنا لسنا مدفونين أحياء.

كنا في مراكش عندما اندلعت حرب الخليج التي خدمت جيداً قضايا الملك. لقد سمحت له أن يفرض نفسه كوسيط لحل نزاعات العالم العربي، وأن ينجح في التعميم على قضية السجناء السياسيين والعديد من المفقودين، والوضع المزري للسجون، والعبث بشريعة حقوق الإنسان، وتلك كانت بمجملها تظهر الوجه الحقيقي للحاكم الذي لا يعرف الرحمة أو الشفقة. لقد أراد ببساطة أن يضع كل هذه القضايا في طي النسيان.

خلال ما يقارب عشرين سنة من الاعتقال، تعودنا على تحليل الأحداث الإقليمية والعالمية، ومعرفة تأثيرها وتفاعلاتها على مجرى قضيتنا. ترى هل في هذه الحرب فائدة ما لنا؟

إنها لن تغير مصيرنا قيد أنملة. بعد ستة، لاحقاً، في سنة ١٩٩١، نشر في فرنسا كتاب لـ جيل بيرو، «صديقنا الملك»، علمنا بالخبر بواسطة التلفزيون المغربي، والذي أثار موجة من الاستكار في أرجاء

البلاد. هذا الكتاب لم يدخل البهجة إلى قلب الملك. الحكومة والشعب أعربوا عن تأييدهم الكامل للملك الحسن الثاني.

طلبوا منا أن نساهم في حملات الدفاع ضد هذه الجريمة النكراء. كان علينا أن نكتب رسالة ندين فيها بيرو، ونؤكد بشدة، وعلى رؤوس الأشهاد، أن جلالة كان ملكاً عظيماً ويتمتع بشخصية مميزة واستثنائية.

بنورهما أكد العروش وبوجيبه أن هذا الكتاب يقف وراءه أعداء المملكة، دانييل ميران، وجورج كيجن، وأنها الرأس المخطط والمدير له. كان علينا التخلي نهائياً عن محامينا الذي تجرأ على مهاجمة شخص الملك. لقد نشرت هذه الرسالة «القسرية» في مجلة لوفغارو.

كنا، بالرغم من آلاف الخطط والأحاييل مجبرين على كتابة هذا «الفرمان»، ولم يكن أمامنا إلا الإذعان. ورغم ذلك لم تنشر الرسالة إلا في مرحلة متأخرة جداً. ولكن هل سننال حريتنا ثمن ما فعلناه؟

أحضر والنا كتاب «صديقنا الملك»، مع أنه كان ممنوعاً في المغرب. أرادونا أن نطلع بأنفسنا على ما جاء فيه، لغاية ما يضمرونها في أنفسهم. من شراسة هجمته على الملك... أخذني تفكيري إلى أن هذا ليس إلا الانقلاب العسكري الثالث. هكذا، أحداً من الخارج، فرنسي يتجاسر على النيل من شخص الملك، ويتهمة ويدينه دون أن يرف له جفن، أو تأخذه رجفة أو خوف.

هذا لا يمنع أن هذا الكتاب كان حافلاً بالوقائع الملفقة، إذ يبدو أن الكاتب قد أعار أذنه بالكامل إلى الكثير من الشائعات المختلفة. هكذا، عندما روى بالتفصيل قصة أسرنا في فصل «أقنعة الحديد»، وصولاً إلى ملابس هربنا، لم يكن موضوعياً، ولم يتوخ الحقائق المؤكدة، بل عتمد على اختراع جملة وقائع لا أساس لها من الصحة. لقد ألح بيرو، مثل كثيرين قبله، إلى أننا ما كنا لنتمكن من الهرب بأنفسنا. وبلاستند لما ذكره، فإن واحداً من السجائين «المرتبين»، أو أكثر، مذل يد المساعدة من الخارج. كان لهذا الكلام وقع الخنجر في قلوبنا، نحن الذين لم نملك، طوال عشرين سنة من السجن، إلا كبريائنا، وأكفنا العارية، هذه التي حققنا بها فكرة الهروب.

ثم لا يلبث أن يعدل عن نغمته هذا، ليستج بأنهم في هذه الحالة، ما كانوا ليتركونا نتدبر أمرنا

في العراء بدون مال، أو دعم...

كانت الاعتداءات الشخصية أشد إيلاًماً. لقد أشار إلى أن أمي كانت صبوة الضباط الشباب المفضلة عندما كانت في عهدة أبي. في المقابل هو لا يعرف شيئاً عن ظروف طلاقهما، ويخلط ما بين التواريخ، والأسباب، والأحداث، ويصل به الأمر أن ينسب لأمي تهمة إقامة علاقة مع الملك الحسن الثاني. ويضيف، بدون أدنى دليل، أن «كل الرباط تتهامس بأن سكية كانت ابنة الملك». هذا «الإعلان» أدى إلى اضطراب وإرباك أختي الصغيرة لمدة طويلة. حتى أننا لم أنج من الثروة والأقاويل. بالنسبة إليه، «لقد سرت على خطي أمي فيما كان أبي يفضّ طرفه، لأنه كان معتاداً على تصرفاتنا»، بالإضافة إلى غير ذلك من الادعاءات والتلميحيات على هذا النمط، والتي كانت تملأ صفحات الكتاب.

بعدما عشت رجحاً من حياقي داخل القصر، في وسط الحاشية، صرت معتادة على الشائعات، لدرجة أنها لم تعد تؤثر بي البتة. ولكن ما يحز في قلوبنا جميعاً أنا وأمي، وإخوتي، هو أن رجلاً من وزن جيل بيرو قد تدنى إلى هذا المستوى. لقد أضاع فرصة ذهبية من أجل إعداد كتاب موثق وجدي. تأملت لهذا أكثر مما تأملت بسبب تلك المعلومات المضللة. هنالك أشياء كثيرة حقيقية تستحق أن تذكر وتقال، ولا حاجة للاستعانة بها «بثروى وثشاع». الحقيقة وحدها كانت تكفي كي تدمر هذا الجائر. ومع هذا، لا يمكننا إلا أن نسجل له جرأته. إنها المرة الأولى التي يهاجم فيها أحد ما شخص الملك، وهذا الأمر وحده كفيل أن يمنعنا من القيام بأي ردة فعل متوافقة له أو قد تضر به.

ثم إنه بالرغم من تضميناته المسيئة لنا، ذكر في مكان آخر من كتابه الآتي:

«أي معايير أخلاقية غريبة تلك التي تبيح له أن يفرض، خلال خمس عشرة سنة، كل هذه الأحوال والويلات على أطفال أبرياء؟ هل هنالك في العالم قانون يقضي بإزالة العقاب بذرية المجرم؟». في مطلق الأحوال، إننا شاكرون له التفاتته لنا بشكل أو بآخر.

آخر النفق

في منتصف شهر شباط/فبراير ١٩٩١، جاء لرؤيتنا كل من العبوش، بوعبيد، ووالي مدينة مراكش. كانت المحادثة معهم شبيهة تماماً بلعبة الشطرنج. كان كل واحد منهم يحرك أحجاره وفق ما يقول الآخر، فيما كنا نحن نتمعن ونستروى قبل أي

سؤال أو إجابة. ودون أن يبدو عليهم، كانوا يحاولون، عبر جرعات صغيرة، أن يقتلوا إلينا بعض المعلومات المهمة.

أول مجئنا إلى مراكش، كانوا قد ذكروا لنا بمرارة، وأيضاً ببعض الغضب، بأننا نستطيع أن نكون فخورين بأنفسنا، وأن هربنا سيكون له صدى ومضاعفات سياسية أكثر مما يمكننا أن نفكر أو نتصور.

لقد أبدى بو عبيد هذه الملاحظة قائلاً:

-بفضل الدوي الذي أحدثه هروبكم في أنحاء العالم، فإن الصحافة العالمية ستتهم أكثر فأكثر بمصير السجناء والمعتقلين السياسيين في المغرب^(١٧).

في هذا اليوم، كان «ملاككتنا الحارسون» يجلسون على الديوان، ويتحدثون ويثرثرون دونها هدف، وعلى غير عادتهم كانوا يفرقون ويسهبون في التفاصيل.

في هذه الجلسة، حاول الوالي أن يستغني كي يخرجني عن طوري، فراح يتحدث بسخرية عن حركات التحرر النسائية. لم أفهم الغاية التي يريد أن يصل إليها من خلال تصريحاته الطفولية. بعد ثلاث ساعات من الحديث الفارغ، نظر إليّ بو عبيد فجأة وقال:

-إنكم طلقاء...

انفجرت هذه القنبلة تحت أقدامنا. لكنها لم تؤثر بنا ألبتة.

إننا لا نفهم، أو بالأحرى لا نريد أن نفهم، ما يجري ويحصل.

رحنا نتابع الحديث وكأننا لم نسمع شيئاً. بذهول شديد، تبادل الوالي والعبوش وبعبيد النظرات المستغربة. فيما كنا نحن في وادٍ آخر، بعيداً عن «أقاويلهم الملققة». فقد شعرنا بأن هناك شيئاً غريباً ما يحصل.

راح العبوش يصرخ قائلاً:

-يا إلهي... منذ تسع عشرة سنة ونصف وأنتم تتظرون هذه اللحظة. هل هذا هو فقط كل ما فعلته بكم؟ أنتم طلقاء... هل تسمعونني؟ إنكم طلقاء... أحرار...!

أحرار؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ منذ لحظة فقط كنا ما زلنا سجناء، وما هم لتوهم يعلموننا بأننا غدونا أحراراً... وبأن كابوسنا يوشك على نهايته... في ثانية فقط لا غير يعيدون إلينا حررتنا التي

انتزعت منا طوال ما يناهز عشرين سنة... في ثانية فقط يقلب الشيء إلى ضده... يا الله... ما أوهم
الشجرة التي تفصل بين الأشياء... التي تخضع لمشيئة الملك ومزاجه!

هل صحيح أنهم يقولون الحقيقة؟ أليس هذا مجرد كلام ليس إلا؟ يريدون أن يتلاعبوا بنا ويتخاذفونا
كالكرة مرة أخرى. قبل أن نستوعب جيداً معنى هذه الكلمات وكنهها «إنكم طلقاء... أحرار»، غرقنا
جيماً في حالتنا القديمة التي لم نقدر أن نتخلص منها أبداً... فنحن لسنا سوى «طرائد سحينة» بين
أيدي الجلال العابثة، ومتى كانت الطريدة تصدق صياداً وتثق به؟

إننا الصمت المطبق، ولم نجرؤ حتى على تبادل النظرات... كنا ككتايل الرخام... لا حس ولا
حركة...

كان يلزمنا بعض الوقت لتقبل هذه الحقيقة المذهلة بأن الملك أخيراً منحنا بركته، وغفر لنا، وعفا
عنا...

إذن لقد أثر ضغط الرأي العام، والتدخل الأمبركي والفرنسي.
عندما استعدت القدرة على التطق مجدداً، سألتهم لماذا انتظروا وقتاً طويلاً قبل أن يعلنوا لنا هذا
النبأ...

أجابوني بالقول:

- منذ بعض الوقت، ونحن نعقد الاجتماع تلو الآخر، من أجل إيجاد الصيغة المثل التي نرف لكم
بها هذا الخبر... خفنا عليكم، من وقع المفاجأة، أن يختل توازنكم... كانت مهمتنا أشبه بالمستحيلة،
ونحن لم نشأ أن نصعقكم... ونقتلكم...

أحرار... هكذا إذن... إننا أحرار... ولكن ماذا نفعل، وإلى أين نذهب؟ لا منزل... ولا
أصدقاء... ولا... وماذا عساهم سيفعلون بنا عندما نصل إلى الرباط؟ هل سيلقون بنا على قارعة
الطريق مثل طرد بريدي مهمل؟

قالوا لنا ونحن نستجمع شتات أفكارنا:

- تمهلوا، وخذوا وقتكم كي تتادوا على فكرة أن جلالة الملك صفح عنكم واعتقكم. سوف نأتي
في طلبكم خلال أسبوع من الآن.

ما إن غادروا حتى اندفعنا إلى العناق والبكاء... أيعقل هذا؟ هل حقاً قد زال إلى الأبد هذا

الكابوس الذي جثم دهرأ فوق صدورنا؟ هل نحن في حلم أم في علم؟ لقد اجتاحتنا موجة من السعادة... وأخرى مناقضة من الضياع والخواء.

أسبوع واحد لم يكن كثيراً علينا كي نألف هذه الفكرة ونعتاد عليها.

لقد تغيرت ساعات النهار وتبدلت، لم تعد هي نفسها كما كانت عليه مسبقاً. ارتدت النهارات حلة زاهية قشبية... أشرقت ابتسامة الشمس والتمتع ثغرها الجميل، وشعشع وجهها الجميل أكثر وتألقت أكثر. لم يعد للمغيب كتيماً يدعو إلى الانتحاب والبكاء... ازدان الكون بألوان البهجة والفرح... عاد للسما أزرقاقها، وللطبيعة خضرتها وبهاؤها... ولنا أحلامنا المنسية التي خلناها ماتت منذ زمن بعيد. ها هي قلوبنا تحقق للحياة من جديد... وها نحن نحلم... ونحلم... ونحلم...

يقول رؤوف:

- أنا... سأعرض ما فاتني من وقت ضائع مع النساء...

تحلم سكية:

- من جهتي سأتعلم عزف الموسيقى... وأقابل باتريسيا كاس.

يصرح عبد اللطيف:

- سأصبح لاعب كرة قدم محترفاً...

تهمس ميمي وهي تممر خجلاً:

- أحب أن أتزوج وأنجب طفلاً...

وماذا عني أنا؟... أنا... أنا أريد أن أحب، وأسافر، وأجوب الأرض، وأضحك... وأغني...

وأتكلم عما يشغل عقلي وقلبي... فأتناول ما يحلو لي من طعام وشراب... وأكون مطلقة الحرية...

أن أعمل في حقل الإعلانات... وأمثل في السينما... وأدرس وأستكشف وأرتشف فتشجاناً من القهوة

على رصيف مفهى، وأروح أتأمل زحمة السير وحركة المارة... ولا يهم أن أقوم بكل هذا دفعة واحدة

أو على دفعات...

لم نكد نستيقظ من هذه الأحلام الجميلة ونعود إلى الواقع حتى أخذنا الخوف والطمع، هل مستمكن

فعلاً من تحقيق كل هذا؟ ألم يتأخر الوقت، ويفت الأوان؟ كلما اقتربنا من الاستحقاق... كان يزيد

شعورنا بالرهبة أكثر فأكثر... ولكي نستعيد رباطة جأشنا... شغلنا أنفسنا في توضيب حقائقنا،

وحزم أمتعتنا... كما كان مقرراً في آخر كل أسبوع.

حضرت عائلتنا لرؤيتنا، لم تنفوه أمامهم بكلمة واحدة عن الموضوع.

الحالة مواقبت التي كانت وسيطة روحانية، كانت تقرأ لنا باستمرار طالعنا على بطاقات من ورق. كانت دائماً ترى بأن موعد إطلاق سراحنا بات وشيكاً، لكنها لا تستطيع أن تحدد تاريخه. ذلك السبب، أخذت كالعادة بطاقتها وطلبت مني أن أقتطع جزءاً منها بيدي اليسرى. أعلنت لي فوراً، وبدون مقدمات، بأن فك أسرنا بات على قاب قوسين أو أدنى... قلت لها وأنا أهر كسفي:

- كسفي عن هذه المهرات يا مواقبت... ألا ترين أنك تبالغين بعض الشيء في لعب دور الوسيطة الروحية... أتى لنا هذا؟ ونحن منذ أربع سنوات ونصف نتظر هذه اللحظة التي لم تأت... لا شيء البتة يدل على أن هذا «الحادث السعيد» في طريقه إلينا...

المسكينة راحت تصرّ، وأنا بدوري رحت أستكر وأنفي... كانت متأكدة بأن بطاقتها لا تخطيء أبداً... توصلت إليّ أن أعترف لها بالحقيقة، وحاولت الإيقاع بأسي وأخوتي لتزع منهم ما يدعم حدمها. ولكن كنا جميعاً لا حياة لمن يتأدي. استمرت «لعبة الأعصاب» هذه زهاء ساعتين بالضبط. بعدما اعترفت لها أخيراً بالحقيقة التي كنت أتلفظ بها بصعوبة بالغة فقلت بتهجئة متقطعة:

- إننا طلقاء... أحرار... مواقبت... لقد أطلقوا سراحنا...

ما يسمى الحرية (خاتمة)

الخطوات الأولى

ها قد أفرج عنا... وأطلق سراحنا.

لكثرة ما أدركنا هذه الكلمات في رؤوسنا، وحلمنا بها خلال عشرين سنة، ليلاً نهاراً في مجاهل الأسر، اختلط علينا الأمر... لم نعد نعرف ماذا تعني بدقة وبالضبط.

فكلمة حر تعني: الخروج إلى الشارع دون أن يجري في أعقابك رجال الشرطة.

على مدار خمس سنوات تلت... بقينا مطاردين، وموضوعين تحت المراقبة المشددة، والتنصت، والتجسس... لقد ضيق علينا الخناق.

كلمة حر تعني: الحق بممارسة العمل.

لم يتمكن أحدٌ غربي من إيجاد عمل في طول المغرب وعرضها، وهذا ليس إلا بفضل شجاعة رب عملي الذي لم تؤثر عليه الضغوطات والممنوعات. كلمة حر تعني: نعاشر من نشاء، ونحب من نشاء، ونذهب حيث نشاء.

لقد تعرض كل أصدقائنا إلى الاستجواب من قبل قوات أمن الدولة. انتزعوا منا جوازات السفر ولم يعيدوها إلينا. ومع هذا كان يجب علينا أن نعتبر أنفسنا أحراراً... فكيف بركم يمكن هذا؟ أما أخطواتنا الأولى نحو الخارج، فلقد تمت في ٢٦ شباط/ فبراير من سنة ١٩٩١، احتفاءً بولادتي الجديدة؛ كنت قد احترت باختيار هندامي. ارتديت سروال جينز، وقميصاً رجالياً، وضعت عليه ربطة عنق، وفوقه سترة حريرية كحلية اللون. أريد أن أكون في منتهى أناقي وأنا أستقبل الحرية، وأستمتع بها. ها هي حقائبنا مجهزة، وحيواناتنا تنتظر بهدوء في أفقاصها... إنها تعلم بأن هذه اللحظة من حياتنا مصيرية وتاريخية.

إنها المرة الأولى التي تنتظر فيها رجال الشرطة وقوات أمن الدولة بفارغ الصبر. قافلة من السيارات والشاحنات تتوقف أمام المنزل، وذلك في نهار الجمعة الواقع في ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٩١. حركة ناس، وضجيج، وذهاب وإياب، ومرح ومرج...

بلا شك، هذه الدلائل تشير بوضوح إلى أننا صرنا أمياد أنفسنا. لقد شاهدنا في هذه الساعة عدداً من البشر لم نشاهده على مدى عشرين عاماً. ما إن انفتحت أبواب الحدائق حتى بدأ قلبي يخفق بسرعة لمرآها. إنه شعور هائل لا ينسى. إنها لن تغلق علينا أبداً بعد اليوم.

انطلقت القافلة بعد أن أخذنا أماكننا داخل السيارات. كل شيء يتداخل ويختلط في رأسي، الأصوات، الروائح، الألوان، المشاعر والانتفعالات. أخيراً، بات بإمكانني أن أنظر نحو الخارج بدون حزن أو خوف أو ارتعاب. كم يسحرني منظر هذا الشارع بكل تفاصيله الصغيرة: هذان عاشقان يمسكان بأيدي بعضهما البعض، وتلك أم برققة ابنتها، وهذا كلب يقفز بمرح، وذلك عصفور يحط على غصن شجرة. كل هذا سيصبح عما قريب مشاعاً ومتاحاً أمامي... ومن حقي...

توقفت العجلات عن الدوران في مدينة صغيرة، اقترحوا علينا النزول من السيارة كي نتحرك دورتنا الدموية قليلاً، ونعيد ضخ الدم إلى أرجلنا. توجسنا شراً... ورفضنا النزول... أي لعبة هذه التي سيلعبونها معنا الآن؟ ترى هل من شرٍ يترى بنا؟... بعد محادثات طويلة قبلنا عرضهم...

ونحن ندخل إلى المقهى، أصبت بدوار، رحت أجر قدمي جراً. كيف أتصرف؟ وماذا أفعل؟ لقد نسيت كيف أطلب بعض المشروبات التي أرغب بها من عامل المقهى؟ كيف أقول له أحضر لي شراب الكوكاكولا بهدوء واسترخاء؟ كيف يمكننا أن ننمى بسرعة في دورة الحياة؟ في هذا المصنف حيث نقف صفاً... نفتك بأعصابنا هذه الأضواء الباهرة، والموسيقى الصاخبة. نشعر وكأننا في براثن فخ مطبق علينا.

إننا نفضل العودة إلى داخل السيارات.

أخذت الرحلة من مراكش إلى الرباط حوالي ثلاث ساعات. قضيتها في مراقبة المشاهد الخارجية بنهم وشراسة، فأنا كنت قد تمكنت من أن ألاحظ التغيرات الواضحة التي طرأت على المغرب عندما هربت من جهة، ومن خلال الأفلام والبرامج التلفزيونية من جهة أخرى. كنت أنظر إليها بعين الرضا والتقدير. يذهلني هذا الشعور بالحب لبلادي، وأتمتع من شدة سطوته التي لم تتل منها وطأة الماضي الشخين.

وأخيراً توقفت القافلة عن المسير في الرباط، أمام منزل خالي وحيد. كانت العائلة كلها مجمعة بانتظارنا أمام الباب، كانوا يرتدون الزي المغربي. لقد أعدوا للمناسبة الحليب والتمر، كما تقتضي عادات الاستقبال والترحيب. كانت تلك اللحظة تفجج بالفرح، فيما كان الحزن يملأ النظرات والعيون. وهل يمكننا نحو عشرين سنة بلحظة واحدة؟ هذا محال... لن نتمكن أبداً من إزالة آثار الدهر.

لم أعد أعني كيف نزلت من السيارة... كل ما أتذكره ضباب. أعلم فقط أنهم عانقوني، ضموني، وراحوا يمررونني من واحد لآخر... من فرط انفعالي، كنت أتمرك ألياً... كالمثومة مغناطيسياً. خلال الأيام التي تلت، كان المنزل لا يكاد يفرغ كي يعود ويمتلئ. نودع العاشق... ونستقبل المشتاق... كانوا جميعاً مستعجلين لرؤيتنا. بينهم من انتظر يومين أو ثلاثة للحصول على إذن القصر كي يتمكن من المجيء لرؤيتنا.

كانت صديقتي حورية من أول الواصلين. ما زالت على عهدنا حتى إنها قررت أن ترافقنا إلى المنفى. لم تكذب تراني وأنا أقف في أعلى السلام، حتى اندفعت باتجاهي. تراجعت خطوة إلى الوراء، أريد أن أذهب، لا أريد أن أوثق العرى التي انقطعت مع ما يذكرني بشبابي الضائع. لقد اعترفت لي بأن

نظرتي أفرعتها. ويأثني بدوت غريبة... وماذا أقول أنا؟ ألم يتحولوا هم جميعهم أيضاً إلى غرباء؟... إنها ليست مزحة... إنها عشرون سنة.

وأنا أجلس على كرسي، أنظر إليهم وهم يمرون أمامي، إنني لا أفهم لماذا يروحون يتحبون ويكون ما إن يلمحوننا. هل أفرعتهم أشكالنا؟ هل تغيرت وتشوهت إلى هذا الحد؟ هل هرما وشخا؟ أشعر بالخطر يري في جميع أنحاء جسدي، لقد انقبض قلبي، وأرغب أن أقفل على نفسي وحيدة في غرفة مظلمة. هذا من المستحيل. شقة خالي صغيرة للغاية. إننا ننام مكسبين في الصالون. في الأيام الأولى، لم يغمض لي جفن أبداً.

أصر عليّ وحيد كي أخرج من المنزل قليلاً. ولكن كيف أخرج؟ إن الصحفيين يرايطون أمام الباب، ويطلبون إجراء مقابلات معنا، ونحن نرفض ذلك. كيف يمكنني إذن أن أواجه هذا الحشد؟ لقد لزماني ثلاثة أيام كاملة لكي أنجهر فقط على الاقتراب من الباب. عندما طلبت من خالي أن يفتح لي، قال باندماش واستكار:

- كيكا ما الذي يصيبك، لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ في الوقت الحاضر أنت حرة...

انشق الباب بمتهى الخفة والهدوء... خاطرت بإلقاء نظرة على الخارج. كل شيء بدا مشوشاً أمامي... الأرصفة، السيارات، المارة، بدا المشهد كالباطون المسلح... مما أدخل الرعب إلى قلبي... فخلت لوهلة أنني ما زلت حبسة السجن. دار رأسي... وكدت أقع مغشياً عليّ. يجب أن أتريث بعضاً من الوقت قبل أن أصبح جاهزة لمواجهة الخارج، أما بالنسبة لإخوتي فقد كان الوضع مختلفاً... لقد تمكنا من الخروج مباشرة وبدون أي مشكلة.

العبوش وبوعبيد «ملاكنا الحارسان»، يأتيان كل نهاية بعد ظهر، يومياً، لرويتنا. يجلسان في الصالون وكأنهم من أهل البيت ويطلبان من وحيد، بدون أي حرج، أن يقدم لهما كوباً من العصير. ويروحان يحاولان إخراجنا من حالة الصدمة التي ما زالت تطنى علينا. يتحدثان في كل شيء... وينتكان ويمزحان، بهدف إضحكتنا.

كيف يمكن لسجانينا القدامى أن يتحولوا هكذا بين ليلة وضحاها؟ أهم الآن جلاؤنا أم حماتنا؟ تنصارع في داخلي كل هذه الأحاسيس المتناقضة. إنهم يدون وكأنهم يملكون الحلول لكل مشاكلنا، وأنهم يمسكون بأيديهم مفاتيح حياتنا. يريدون أن يقرروا بالنيابة عنا، ويحيوا بدلاً منا. إنهم يسدون

لنا النصائح لأدق التفاصيل. وما يثير عصبيتهم هو تعقب الصحافة لنا، لا يريدوننا أن نتجاوب مع أسئلتهم وطلباتهم. جلالته لن يتحمل حدوث مثل هذا الأمر.

ندمنا لأننا أطلعنا. كان الأفضل لنا أن نتحدث مع الصحافيين ونستفيد من وسائلهم الإعلامية كأداة ضغط. ولكن شخصية المساجين ما زالت تتلبسنا، ونحلي علينا تمركاتنا وتصرفاتنا. ما زال يسكتنا هلع غير منطقي، يصعب السيطرة عليه، يرافقه إحساس دفين بالخزي... لم نتخلص منه طوال مدة وجودنا في المغرب.

رجال الشرطة يراقبونا في الليل والنهار. لا نعرف إذا كانوا يجمعوننا أو يراقبونا من خلال هذا الدور الذي يضطلعون به وهو الحراسة والملازمة الدقيقة والمكثفة... فهم لا يتركونا أبداً... إنهم كظلتنا. لقد وضعوا لنا سائقاً تحت تصرفنا. على الأرجح هي الطريقة المثلى لوضع يدهم على تمركاتنا. لا عجب فهم يتبعوننا في كل حركاتنا وسكناتنا، ويتنصتون على مكالماتنا الهاتفية، ويحققون مع كل من يقترب منا. إننا في قمة الحرية أليس كذلك؟!

خلال أيام الحرية الأولى، تلقينا اتصالاً هاتفياً من المحامي كيجمن. ترى هل نصحوه بعدم المجيء لرؤيتنا؟ لقد اختفى ولم يعاود الظهور ثانية. بعد اتصاله مباشرة، أعلننا لنا بأن جلالته أعطى الأمر لاثنتين من المحامين الكبار، الناصري والأندلي، لاستعادة ممتلكاتنا.

أتى المحاميان المشهوران لزيارتنا، كل على حدة. زعم كل منهما أنه يكفي أن نقدم لها لائحة تفصيلية بممتلكاتنا، كي يعاجلا إلى وضع الأمور في نصابها وعلى أسرع وجه. فعلنا ما أشار علينا به ورحنا ننتظر بلا جدوى.

اقترحت علينا إحدى القريبات البيت في شقتها، أقمت فيها أنا وماريا وجميع حيواناتنا. قليلاً ما كنا نخرج، إننا نسير بمحاذاة الحائط خشية الاقتراب من وسط الرصيف. يربنا الضوء... والضوء... والسيارات. إننا تترنح مع كل خطوة ونكاد نقع أرضاً. كانت لدينا قناعة راسخة وثابتة بأن كل الناس يميلقون بنا، إذ لا شك أن أشكالنا كانت تبدو غريبة. كنا نحرص على الظهور اللائق، ونعنى بزيتنا وملبسنا وإن لمجرد اجتياز الشارع. كانت هذه طريقتنا للاحتفاء بـ«الحرية».

لاحقاً، عندما نجحت في تخطي الحدود الجغرافية الضيقة التي كنت أقترق في داخلها، ورحت أزور أحياء أخرى من المدينة، وأستقل بمفردي سيارة الأجرة أو القطار، أو أسير على الأقدام في

بعض الأماكن المجهولة... لم أتخلص من شعور الملح والرعب الذي يعصف بي فجأة وأنا في وسط الرحلة... فأروح ألهث وأتصبب عرقاً وأفقد القدرة على تحديد الاتجاه المطلوب...

كذلك الأمر في باريس، وبعد مضي ثماني سنوات على خروجي من السجن، يحصل لي دائماً أن أرتعب من الحشد وأتوه عن السكة التي من المفترض أنني أحفظها عن ظهر قلب. لم أعد أستطيع الاستدلال على الأمكنة والاتجاهات. يجب علي أن أتعلم من جديد، كيف أمشي، وأنام، وأتناول الطعام، وأحدث، وأعبر عن أفكاري. مشكلتي ليست فقط مع المكان بل أيضاً مع الزمان، أصبحت كل الأوقات والمواقف عندي متشابهة ومتداخلة... لا أميز الدقيقة من الساعة، وأول النهار من آخره... فالיום قد يصبح أسبوعاً، والأسبوع شهراً... وحتى معرفة وتيرته، هل هي بطيئة؟ سريعة؟ أم هادئة؟... الله وحده أعلم... وحتى الآن لم أتعلم...

غريب هو الإحساس الذي يتأبنا عندما نبعث إلى الحياة من جديد. في البداية، كان يحصل لي أحياناً أن أشعر بالإشباع والارتواء. السماء، والشمس، والضوء، والضوء، وكل حركة أو سكتة، كانت كلها تطربني وتهكني في آن معاً. ثم لم ألبث أن صرت أكثر جرأة وإقداماً. أخذت أرتاد المقاهي... والمطاعم. وأدخل إلى المحلات التجارية والأسواق، وأقود السيارة... على قفاتها، كانت هذه النشاطات تمنحني إحساساً بوجودي... وأتني أعيش حياة طبيعية.

كل يوم يمر بسلام كان بمثابة معجزة تدخل إلى قلبي النشوة. فأتطلع بلهفة إلى اليوم الآخر الذي سيليه. وأعرف من بهرجات الحياة، البس، وأتزين، أضحك وأمرح، ألم أكن بهذا الدور أكنب على نفسي؟ هل كنت أهرب من الواقع الأليم؟ كنت أريد أن أقنع نفسي بأنني تجاوزت عقدة الماضي، وبأن تلك السنوات العشرين لم تعد تثقل كاهلي، وبأنني لست أبالي إذا كنت محملة بعمر لم أعشه وذهب هباء منثوراً.

أحياناً أشبه نفسي بطفل ظل طوال حياته يشاهد مدينة الملاهي والألعاب دون أن يتمكن من الانضمام إلى جبهة الأطفال المحتفلين... لم أعش أبداً في قلب الحدث، كنت دوماً على الهامش... ولكن هل يعني هذا أن حياة الأسر والاعتقال كانت خالية وخاوية؟ لا، بالطبع لا، إن التجربة التي خضتها داخل السجن كانت أغنى ألف مرة من تجارب آخرين خارجه. لقد اختبرت الوجه الآخر للحياة من ألم وخوف، ورعب، ومعاناة، وجوع، ويرد... تعلمت ماذا تعني الحياة وماذا يعني الموت.

وتأملت ملياً في الخلق، والكون. واكتشفت نفسي ومن أكون وأيضاً ما أكون... علمني السجن أن الإنسان أقوى من الظلم والقهر والطغيان والحرمان والتعذيب والمستحيل.

إنني لأرثي لكل هؤلاء البشر الذي يعيشون خارج قضبان السجن، ولم تتسنّ لهم الفرصة ليعرفوا القيمة الحقيقية للحياة.

قطع حمزة دراسته في كندا كي يقضي أوقاته إلى جانب عبد اللطيف، معاً راحا يعيشان حياة لاهية عابثة... لم يتركاً تسلية أو هواً، أو مغامرات مع النساء تحب عليهما. كانا يقضيان أوقاتها في السهر، والرقص، وسماع الموسيقى. كانا يدوان في قمة سعادتهما. ولكن ترى هل حقاً هذه هي السعادة؟

أما سكينه فقد انغمست بالرسم والكتابة... فيها كانت ميمي تتابع العلاج بعناء شديد. من جهته رؤوف، كان في سباق مع الزمن كي يعوض كل ما فاته من مغامرات جنسية. وهذا ما كنت لا أتفق معه أبداً عليه، لأن هذا ما هو إلا هروب من مواجهة الواقع للريرس. وهذا العبث غير المجدي لم يكن سوى هروب إلى الأمام. إذ لا يمكن له أن يحل محل الحب الكبير والحقيقي الذي وحده يملأ نقصنا العاطفي ويعطي لحياتنا معنى. إنني لا أؤمن إلا بالحب الكبير الذي ما زلت أنتظره.

راحت أمني تبحث عن أصدقائها القدامى، عادت المسكينة وهي تهرج أذبال الحية، معظمهم أداروا لها ظهورهم باستثناء قلة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة. غدا اسم عائلة أوفقير مصدرأ يشير الرعب والنفور. لقد أسقطه الناس من حساباتهم ومن قاموس تداولهم، لدرجة أنهم اعتبرونا في عداد الأموات. لهذا لم يسر أحد لرجوعنا. بلغت بهم القسوة إلى أن يستخفوا بمصائبنا، وكأننا كنا طوال عشرين سنة نقضي أيامنا في متجع سياحي، وقد عدنا للتو منه. والدليل على رأيهم أننا ما زلنا أحياء وتتمتع بكامل قوانا الجسدية. بالنسبة لهم والدنا كان مجرماً خائفاً تجرأ على محاولة قتل الملك، فنال العقاب الذي يستحقه، ومن ثم ألسنانحن ذرية هذا الرجل الذي ناصب الملك العداة؟ إنهم لا يقولون هذا صراحة في وجوهنا... ولكنهم يهيمون به لبعض أقرابنا.

بمناسبة عيد ميلادي الثامن والثلاثين الواقع في ٢ نيسان/ أبريل، أي بعد مضي شهر ونصف على مغادرتنا مدينة مراكش. تلقيت أربعمائة بطاقة معايدة، واصلتني من كل أنحاء العالم، وكان هؤلاء الناس قد علموا بإطلاق سراحنا من منظمة العفو الدولية، ورغبوا بإبداء تضامنهم وتعاطفهم بهذه الطريقة، ويقدر ما أثر بي هذا الأمر، فلقد أثار حفيظتي، لأنه أتى متأخراً. كم كنا بحاجة ماسة إلى

هذا النوع من الاهتمام ونحن وراء قضبان السجن. ونحن طلقاء، ماذا ستفيدنا التمنيات الآن... لقد فات الأوان. هذا الشعور كان يزداد يوماً بعد آخر... لقد فات ألوان الحب والصدقة، والعائلة. ترى هل ما زال هنالك وقت بعد للحياة؟ عندما كان يتأبنا هذا الشعور بالحياة والإحباط كنا نتساءل، ألم يكن من الأجدي لنا لو أننا قد متنا؟

بعد عدة أسابيع على مغادرتنا السجن، اصطحبوني أنا وأخي رؤوف إلى علة ليل جديدة «آمزييا» وهي الأشهر في مدينة الرباط. في هذا المساء، كان ولي العهد سيدي محمد وأخواته يجلسون في مقصورة خاصة هناك، يراققهم بعض أفراد حاشيتهم. لم يكذبوا حتى أرسل بطلنا للانضمام إليه. عرفت الأمير عند ولادته. كان له من العمر تسع سنوات عندما احتجزنا. إنني أدين له بالجميل لأنه وفر عليّ ذلّ الانحناء لتقبيل يده. لقد تغير كثيراً، إنه رجل ناضج الآن، أتذكره عندما كان طفلاً صغيراً، ومن خلاله أستعيد في خيالي صورة الملك، الذي يشبهه كثيراً. كنت متأثرة للغاية، وهو كذلك. لقد أجاد انتقاء الكلمات التي نجحت في دغدغة أحاسينا، أبلغنا بأن منزله سيكون مفتوحاً دائماً لنا، وسيكون هو أيضاً في خدمتنا لأي طلب مساعدة قد نحتاجها، وأنه يمكننا طرق بابه ساعة نشاء.

ثم استدعى مدير مكتبه وأعاد أمامه ما سبق أن قاله لنا. التفت باتجاهنا مضيقاً:
- ما فات قد مات. يجب أن تنظروا إلى الأمام، ولا ترجعوا إلى الوراء أبداً. لأن صفحة الماضي قد انطلوت.

لم يأت أبداً على ذكر أبيه ولو من بعيد. كانت الأميرة للا مريم تقف خلفه، بدت شاحبة ومضطربة كشأننا نحن، غير أنها لم تنبس ينث شفة، ضجت مدينة الرباط نبأ لقائنا. لاحقاً، نشر مقال حول هذا الموضوع في جريدة اللوموند أشار الكاتب فيه إلى أن الملك أراد عبر هذا اللقاء استخدام تكتيك يدخل ضمن استراتيجيته الجديدة لإعادة الإصااك بقضية أوقير. وأضاف بأن جلالة أرسل أبناءه في جولة استطلاعية يحشون خلالها عن أفق لإمكانية إجراء مصالحة.

لم تتأخر كثيراً ردة فعل سيدي محمد ولقيفه على هذا المقال. منذ ذلك الوقت بدأ يحاول أن يتجنبنا عندما نتقابل مصادفة.

أما لقائي مع لالا مينا فقد جاء في مرحلة متأخرة. دعيتي إلى تناول طعام الغداء، وافقت... لا أشعر بأي عداء نحوها. فرويتها معناها أن أرى طفولتي، وأن أحبي في داخلي تلك الأحاسيس التي كانت مدفونة في أعماق نفسي، لكنها لم تمت. أردت أيضاً بهذا أن أثبت للملك بأنني أعرف أن أميز بينه كعدوي، وبين سائر أفراد عائلته.

لم تترك لالا مينا إقامتها بشكل دائم في فيلا ياسمين. ولكنها أقامت ميداناً للخيل في أرض واسعة شاسعة تقع في محيط مدينة الرباط، على مسافة ليست بعيدة من قصر دار السلام. ما زالت مولعة بالخيل كمهدي الدائم بها. إنها هي من كان ينظم ويرعى مسابقات الخيل في المغرب، ولقد افتتحت وشيدت عدة مراكز لركوب الخيل في البلاد.

كسي أصل إلى مكانها، كان يجب علي أن أجتاز نصف مساحة الميدان سيراً على الأقدام. وأنا في طريقي، التقيت العديد من الوجوه التي أعرفها، بادر أصحابها لتحيتي وإلقاء السلام علي. أخذتني المفاجأة والانفعال: هكلنا إذن... إنهم لم ينسونا بعد!

رأيتها تقف خلف باب زجاجي كبير. لم تتغير كثيراً، عرفت فوراً في هذه المرأة الضخمة تلك الفتاة الصغيرة التي كانت رفيقة طفولتي. ما زالت تحتفظ بنفس الابتسامة، والملمح والتقاطيع، والنظرة الطفولية.

ما إن لمحتني الأميرة قادمة حتى خرجت من مكتبها، تجمدت عدة ثوانٍ منزهلة في مكانها، ثم مشيت يبطء في اتجاهي... لم تلبث أن أسرعت الخطى، وركضت ملقية بنفسها بين ذراعي. ضمتني بقوة، وأخذت يدي بين يديها. لم تنطق كلمة لعدة دقائق... ثم نجحت في تحريك شفتيها لتقول لي: - كيكا... هل أنت بخير؟

تبعته إلى غرفة مكتبها، وأنا أحاول أن أخنق انفعالي وألا أظهر منه إلا أيسره. ولكن كيف!؟ هذا الصوت، هذه المشية... تلفحني رياح الماضي، ضحكاتنا... العابنا، زازيت، الأعياد، هامانيا، وكذلك ريفل المربعة...

أصدرت أوامرها بالآلة يزعجنا أحد، أغلقت الباب خلفنا. بقينا واقفتين وجهاً لوجه. بصمت تام... استحال علينا الكلام. نظرت إلي طويلاً... وأنا كذلك. إغرورقت عينا بالدموع. قاومت هي البكاء... لكن شفيتها راحتا ترتجفان... ثم انتفضت فجأة... ضربت الطاولة بقبضتها وهي تتمتم

بغضب:

- إنها وصمة عارٍ على جبين عائلتنا.

طرحت عليّ أسئلة عديدة، كانت تريد أن تعرف كل شيء. بالرغم من عاطفتي الكبيرة لها... إلا أنني بقيت متيقظة وحذرة. أعرف جيداً محيطها، إن أقل كلمة سأنفوه بها ستكون مدار بحث وتأويل، وأخذ وعطاء، وتناقضها الشفاء والألسن. وسأعرض نفسي للقال والقال...

قالت لي:

- أخبريني، أحقاً أنهم كانوا يقتلون حاماتكم؟ هل صحيح أنهم كانوا يقتلون اثنتين أو ثلاثاً منها يومياً؟

إذن كانت تعرف كل شيء عن حياتنا... يوماً بيوم... وأولاً بأول!!!

تحدثنا طويلاً. راحت تزودني بأخبار البعض وتطمئني عن البعض الآخر. روت لي أن لطيفة زوجة الملك تولت الدفاع عن قضيتنا بدون هوادة، وهذا ما لا يدهشني من امرأة مثلاً تتحل بمثل شجاعتها. لم تترك مناسبة دينية أو عيداً أو احتفالاً إلا وحاولت أن تتوسط لنا عند الملك، وتطلب الشفاعة لنا. حتى عندما كان الملك يذهب لرؤية ابنته الصغيرة، التي أسماها سكيته. من شدة حبه لها كان يكفي لأي محكوم بالإعدام أن ينطق اسمها أمامه حتى يصفح عنه ويساعه. كانت تتحين هذه اللحظات الحبيبة وهو يلعب ابنته كي تذكره بنا وخصوصاً بأخي عبد اللطيف، عليها بذلك تحرك فيه وترأ حساساً، يحرك مشاعره نحونا، لكنه لم يكن يتجاوب معها أو يصني إليها. بقدر ما كنت سعيدة برؤية صديقة طفولتي مجدداً، بقدر ما كنت خائفة ومرعبة وأنا أخايرها. عصفت بي القلق وورحت أتساءل في نفسي إذا ما كنت قد أكثرت من الكلام. لعل فرحتي بلقائها قد أنستني جيطي وحلري، فانسقت لا شعورياً وراء عاطفتي وانفعالي.

غالباً ما كانت للا مينا تدعوني. كانت تريد أن ترضني من جديد في عالمها الذي بات غريباً بالنسبة لي ولم يعد يعنيني. رحت أباعد بين زيارة وأخرى حتى انقطعت كلياً عن الذهاب لرؤيتها. باعدت بيننا الحياة، لكنتي ما زلت أحمل لها في قلبي الحب والحنان. ما زلت أرى فيها طفولتي، ومراهقتي... إنها أختي، ورفيقة وحدتي. لا يمكنني تحت أي ظرف أن أكن ذرة من العداء لها أو لولاء الذين لطالما أحببتهم في القصر.

قطعاً، إن المغرب لم يعد يرغب بنا. لقد سُدت في وجوهنا أبواب العمل. لولا صلابة رب عملي نور الدين عيوش وشجاعته، لما تمكنت من إيجاد عمل في وكالته السياحية «شمس»، إنني مدينة بالكثير لهذا الرجل. إنه لم يخش الضغوطات، ولا المضايقات، ولا رجال الشرطة. تعلمت لديه خلال ثلاث سنوات إدارة الإنتاج، كانت أول مهنة لي. أما معاشي الأول فقد كان من حصة أُمِّي.

حققت مبني حلمها. تزوجت من مصور تلفزيوني. أبصرت ابنتها نوال النور في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤. كذلك رؤوف بدوره أصبح أباً، لقد رزق بابتة في شهر أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، أسماها تانيا، ولدت في جنيف، لكن أخي لم يستحصل على إذن بخوله السفر إلى سويسرا كي يستقبل بغسه مجيئها إلى الحياة، وينعم نظره بأول ابتسامه لها.

بمشقة وعناء، نجحت ماريا أن تتبنى صبيّاً صغيراً راثعاً اسمه مايك، ومنحته اسم أوفقيير. تسكن عاشورا معها كي تساعد على تربيته. فيها رجعت حليلة إلى أحضان عائلتها حيث راحت تعاني وتشتكي من عدم فهمهم لها. وراح داء السرطان ينهشها. المسكينة كانت أكثرنا تضرراً وإصابة، ثم لم تلبث أن عادت لتعيش مع أُمِّي.

عكفت مسكينة على تأليف الأغاني وتلحينها، والكتابة والرسم. حيث أصبحت مواهبها تتألق وتشرق. طلبت جواز سفر لكنها لم تنجح بالحصول عليه.

ساعدنا العديد من الأصدقاء على تجاوز مشكلة النقل، والإقصاء، والوحدة وفقدان الحرية. سندس، ونائلة، ونوال، وصباح، صديقاتي اللواتي وجدتهن من جديد، أحطني بمحافظتهن، دون أن يكثرن بها كنّ يتعرضن له من استجواب وتحقيق، ومطاردة وملاحقة، وما يقابلن به من استياء عام. لقد تملكني قناعة راسخة لا تترزع بأن حياتي لن تكون أبداً في المغرب.

في ربيع سنة ١٩٩٥، دعيت إلى حفل زفاف صديقة لي. تزوجت من كميل الذي علنا ورائنا، والذي بقي على حاله كما كنت دائماً أنجليه: طيباً وخلصاً. عادةً، أتهرب من هذا النوع من حفلات الاستقبال، والمناسبات الاجتماعية. إنها تضايقني وترزعجني. فأنا أكره تلك النسوة المزدونات بالحلي، المتزوقات المترينات، ونظراتهن التي تتضح بالنفاق، وقيمنهن للزيفة المخادعة، والملحن، وسلطتهن، واحتقارهن للشعب الفقير والمستضعف. وصل ثلاثة رجال وهم أصدقاء للعروس، قادمين من

باريس. مشاركون هذا المساء في زفافها. المدحوات «العازيات» في غاية الترقب والإشارة. كن يتهايمن فيها بينهن بأنهم رجال ذوو طلعة بية، وذكاء، وفوق كل شيء «غير متزوجين».

بعد ظهر ذلك اليوم، مروا للقيام بزيارة سريعة للعروس لإلقاء التحية عليها. بينما اندفعت النسوة للاحتفاء بهم، وملاطفتهم، كنت أنا منهمكة في عملي، أتناقش مع المصور هنا، أراقب عمل مصمم الديكور هناك، أعني بالشراشف، وأضع طبقة من الطلاء، أرتب الورود والأزهار وأنسقها... كنت أتحرك كمقارب الساعة، لم أكف لحظة واحدة عن العمل والدوران، ولكن هذا لم يمنع أن أختلس إليهم نظرة متفحصة من حين لآخر.

لفت انتباهي أحدهم، بقامته الطويلة، وابتسامته، ونظارتيه المستديرتين وعينييه المعبرتين... ولكن يجب ألا أحلم. هذا الرجل ليس لي ولن يكون أبداً من حظي. لا أريد أن أتورط في علاقة مع رجل فرنسي، وعلى أي حال، لا يحق لي بعد أن أسافر، وأنحطى عتبة الحدود. ثم يبدو أن إحدى المدحوات قد أوقعت في شباكها... واستأثرت به... فلماذا أتعب قلبي بهذه الأفكار التي لا أعرف من أين تأتي وتندفق على رأسي...

حوالي الساعة الثامنة، عدت إلى منزلي كي أبدل ملابسي، وأضع قفطان السهرة. رن التليفون على الطرف الآخر، صديقة لي، تقرأ الطالع ساعة بساعة. بدت لي غريبة بعض الشيء، لم تكن في حالتها الاعتيادية. بادرتني فوراً بالقول:

- كيكا... لقد قابلته... إنه هو... قابلته...

- ولكن من؟... عمن تتحدثين؟

بنفاد صبر ردت:

- أنت تعلمين جيداً عمن أتكلم... لقد رأيته مئات المرات في «بطاقتي» التي لا أنحطىء. هذا الذي وصل من المحيط الأطلسي... إنه رجل حياتك. إنه موجود هنا، لقد رأيته... لكنك لم تنتهي للأمر... متعودين وترينه هذا المساء...

ضحكت في سري من هذه الترهات... إنها خرافات ليس إلا... ويجب ألا أعيرها أدنى اهتمام. وصلت إلى السهرة، والفضول يعصف بي. وجدت نفسي في حالة ترقب وانتظار. يبدو أنني تأثرت دونها إرادة مني بما قالته لي. هذا الحفل، هو أول خروج حقيقي لي إلى المجتمع منذ زمن بعيد.

بدوت في متهى البساطة في مظهري الخالي من أي إسراف، ويزيتي الخفيفة، بالقياس مع تلك الفتيات اللواتي كن يرتدين ملابس فاخرة، وفي غاية التأنق والتزوق. ولكنني لم أبال... فهذا سيان عندي. فأنا منذ زمن سحيق تجاوزت هذه العقد... ورميت خلف ظهري كل هذه البهرجات. لقد اكتويت... وعرفت المعنى الحقيقي للحياة.

ها هم أصدقاائي يملسون حول طاولة، جنباً إلى جنب مع هؤلاء «الباريسيين». راحوا يلوحون لي، ويشيرون لي للانضمام إليهم. شعرت بالارتباك. كل النظرات كانت منصبة علي... أفقدتني توازني... جلبة الموسيقى، وهرج المدعوين، والفقهقات والضحكات... ندمت على مجيئي... يا ليتني لم أوافق على الحضور. في مطلق الأحوال، فإنني لن أمكث طويلاً. أحسني شراباً... وأبارك للعروسين، ثم أغادر فأنا لم أجد معتادة على كل هذه التجمعات والحشودات... أشعر بتوق كبير إلى غرفتي الصغيرة... يا إلهي كم أوحشتني.

ها هو الرجل الذي استوقفتني بعد الظهر يقف فجأة، ما إن رأي، وفي أقل من ثانية، حتى جلس إلى جانبي. أخبرني بأنه مهندس معماري، وبأنه قد نشأ وترعرع في لبنان. إنه يتكلم اللغة العربية بطلاقة... ولا تخفى عليه خافية... ولا تقوته همسة من همساتنا... أو نكتة من نكاتنا التي كان من المستحيل ترجمتها ولا حتى إلى أي لغة.

لقد عرف منذ اللحظة الأولى بأنني لست سوى طفلة متكررة بزي امرأة. إنه سريع الملاحظة، وذو بصيرة نافذة. لم يرغب عنه ارتجاف يدي وهو يأخذها في يده، ولا تقلص أصابعي وتشنجها... ولا تهتج صوتي واضطرابه وأنا أرد عليه وأخاطبه، ولا كذلك ارتباك نظراتي.

كان عقلي يعمل بسرعة رهية... ورحت أتساءل في نفسي... عن جدوى إطالة الحديث مع هذا الرجل... وإلى أين سيقودني الأمر... سمعت هاتفاً يأمرني بأن أسترخي، وألا أقيم وزناً للهواجس التي تحتاحني... وأنه رجل يبعث على الثقة، فلماذا إذن كل هذا الخوف... إذ لا مبرر له. لا شعورياً وجدتني أمضي قدماً في الحديث معه... وأخذ خوفي يتلاشى تدريجياً...

أعتقد أنني معه كنت مرتبكة أكثر مني خائفة... كنت أشعر أنني أعرفه منذ قرون وقرون، إنها المرة الأولى التي يمنحني فيها رجلاً ما هذا الإحساس بالراحة والأمان. أخبرني حدسي بأنه لن يهتز أو يتأثر أو يخفض لأي ضغوطات قد يتعرض لها. علمت أنه سيحيني لشخصي... دون التذكير بأي

محاذير...

لم يخطئ حلمي أبداً. فأريك لم يخب أمني مطلقاً... في كل اللحظات الحرجة والحساسة. لم يتخل عني. وقف إلى جانبي... شدّ أزرعي، منحني الشجاعة والثقة، وأعاد إليّ بهجة الحياة. إريك حوّل ظلمتي إلى نور وأنقذني من الهلاك... لقد روضني حبه ولينّ طباعي، وكبح جماحي... فأنا لم أكن امرأة سهلة... كنت عصبية على الحب وعلى أن يجيني أحد أو أقع في حبّ أحد... إذ لا أحد أبداً، ولا حتى هو، يستطيع أن يدرك حجم الغم الذي يكلبنا ويقتل كاهلنا... كلما داهمني الكابوس وأقض مضجعي أشعر أنه هنأني إلى جانبي يهددني ويخفف عني... ويهدئ غضبي ويحمد نوبات جنوني، ولا ينكر عليّ حفي بأن أدخلو إلى نفسي من وقت لآخر، ويأخذ بيدي عندما تشد عليّ الخناق أشباح الماضي التي تابغثني على حين غرة وتزج بي في غيبوبة، بعيداً عما يدور حولي. لقد أقر بالاختلاف الموجود بيننا، وبأنني لن أصير أبداً مثل الآخرين.

قبل أن أقابل إريك كنت أعتقد جازمة أن حياتي صارت رفاتاً. تآثرت أشلاؤها في عتمة السجن... وبأنني لست إلا واحدة من تلك العصافير المشخنة الجريحة التي تريد أن تختبئ لتتموت. إن حياتي لن تكون أبداً في المغرب.

مع أنني أحب وطني بعمق... أحب أرضه وتاريخه... أحب لغته وعاداته وتقاليده.

أحب شعب المستضعف المقهور... لكنه متعالٍ وشامخ ومغطاه على مر العصور.

ليس بيني وبينه حواجز وسدود... بيني وبينه قصة حب خالدة لا ينطفئ أوارها... إنني ابته البارة أبداً... من صلبه ولدت أنا... ومن ترابه. ما أسعدني عندما يقولون لي بأنني «شعبية»... إنه وسام فخر أعتز به... وأعذب مديح سمعته في حياتي...

وأنا ملقاة في غياهب السجن... ساعدتني على الصمود والبقاء... تلك الكراهية التي كانت ثملاً قلبي لجلاذي... والتي خلّت آنذاك أنها تشمل كذلك بلادتي...

لكنهم ما إن أطلقوا سراحي... حتى انطفأت نيرانها وهدئت. اليوم، حين نحاول الكراهية أن تنزّ بقرنها... وتنفو إلى السطح من جديد... أعيدها بكل جوارحي إلى القعر... لا أريدها أن تنفص عليّ عيشي... وأن تدمر ما تبقى من حياتي...

إن الكراهية تهش الروح... وتضعف الجسد... إنها لا تعجدي نفعاً، ولن تعيد إليّ الذي مضى...

ولا عمري الذي ضاع سدى... ولن تعوض خسائر عائلتي، ولن تبلم جراح أُمِّي وإخوتي، وأخواتي... الكراهية مدمرة... قاتلة... فتاكة... ونحن نريد أن نحيا بسلام هذه السنوات المعدودة... وقبل فوات الأوان...

لقد أنقذتني الصحراء من التهلكة... من الثلاثي والضياح... من التيه والشتات... لقد وجدت فيها ضالتي... وجدت فيها أمني وطمأنيتي وسلامي... واتممتي... فأنا منها وإليها... إنها مهد آبائي وأجدادي... لقد تعلمت منها دروساً وعبراً... تعلمت منها أننا نحن بني البشر لسنا سوى عابري سبيل في هذه الحياة الفانية... وبأنه لا ينفع التباكي على الماضي... ولا إطالة الوقوف على الأطلال... وبأن أتقبل قدرتي بكل صبر وشجاعة، وأن أتخل عن أقنعة الزيف والصنع... وأن أكون أنا... فقط أنا...

أشعر أنني أتيت من هذه الأرض، وبأنني أنتمي إليها روحاً وجسداً. وسط هضابها النحاسية العتيقة، وفي رحاب رمالها السمراء الذهبية، وفي جنبات واحاتها المأهولة بالرجال السمر. أدركت منبت جذوري، وأنتي مغربية في الصميم وحتى العظم وفي أحماق الأحماق. لكنني أشعر أيضاً بأنني فرنسية الثقافة، واللغة، والتفكير. لقد وضعت الحرب أوزارها إلى الأبد. وهأنا أخيراً أبتعاش في داخلي الشرق والغرب بسلام.

على مدار سنة كاملة، ظل إريك بوردروي يقوم برحلات الذهاب والإياب ما بين باريس والدار البيضاء ليقابل مليكة، المرأة التي يحبها.

في ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٦، فرّت ماريا أوفقير، الشقيقة الوسطى للمليكة، من المغرب، على متن سفينة، مصطحبة معها مايكل، ابنها بالتبني، وابنة عمها، عاشورا الشتا. وقد وصلت إلى فرنسا عبر الأراضي الإسبانية.

لقد كانت عملية الهروب هذه بمثابة خاتمة لما عاشته عائلة أوفقير من كابوس. فتحت الضغط الدولي أعادت الحكومة المغربية إلى أفراد العائلة جوازات سفرهم ومنحتهم الإذن بمغادرة أراضي المملكة المغربية.

في ١٦ تموز/يوليو ١٩٩٦، وصلت مليكة أوفقير إلى باريس برفقة أخيها رؤوف وأختها سكية. كان لها من العمر يومئذ ثلاث وأربعون سنة قضت عشرين منها في السجون المغربية، التي دخلتها

وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وخمساً قيد المراقبة بعد إطلاق سراحها.
في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، عقد قران مليكة أوفقيير وإريك بوردروي في مبنى بلدية
الدائرة الثالثة عشرة في مدينة باريس.

الهوامش

- (١) تتشتر في المغرب ثلاث لهجات بربرية أماسية هي: تاشلحيت المنتشرة في جنوب المغرب، تامزيغت المنتشرة في منطقة
الأطلس المتوسط، وتلزيغت في منطقة الريف.
- (٢) المسيرة الخضراء: في أواخر أيام حكم فرانكو، كانت إسبانيا لا تزال تبسط سلطتها وسيادتها على الصحراء الغربية. حينها
طالببت جبهة البوليساريو، بإنشاء دولة مستقلة. وفي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٥، أصدرت محكمة العدل
الدولية في لاهاي، اقتراحاً قانونياً ينص على منح الحكم الذاتي للشعب الصحراوي. في أعقاب ذلك أعلن الملك الحسن
الثاني الدعوة إلى تنظيم مسيرة جماهيرية ضخمة، تتطلق باتجاه الصحراء الغربية، للمطالبة بإعادتها إلى حظيرة المغرب.
لاقت الدعوة إقبالاً شعبياً حاشداً لا مثيل له، حيث ضمت حوالى ٣٥٠ ألف شخص، وكانت سابقة في تاريخ المغرب،
حل خلالها المشاركون أعلاماً صغيرة باللون الأخضر الذي يرمز للإسلام، بالإضافة إلى نسخ من القرآن الكريم. انطلقت
المسيرة في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر حيث تواجد للانضمام إليها آلاف الأشخاص من كل أنحاء المناطق المغربية، بالإضافة
إلى والدين آخرين من موريتانيا، ومن سبع دول عربية أخرى. اختزقت الحشود الخط الحدودي الفاصل بعمق يبلغ طوله
عشرة كيلومترات. هذا التحرك الرمزي أتاح للملك ممارسة ضغط على مدريد من جهة، وتفاخي عملية عسكرية مكلفة
من جهة أخرى. وفي نفس الوقت أشبع رغبة التوسعية وكسب تأييد المعارضة وقطاع كبير من الرأي العام المغربي. وكان
من شأن المسيرة أن دفعت الحكومة الإسبانية إلى توقيع اتفاق في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ينص على منح السيادة على
الصحراء الغربية إلى المغرب وموريتانيا، وقد تم التوقيع على قانون الاستقلال في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر وهكذا استعاد
المغرب سلبياً نفوذه على الصحراء الغربية.
- (٣) الباشا الكلاوي هو باشا مراکش، وقد ساهم في إقالة محمد الخامس في العام ١٩٥٣ ونفيه.
- (٤) الطلّبة هم رجال توكل إليهم عائلة الفقيه مهمة السهر على الجثمان وتلاوة القرآن عليه.
- (٥) وميلة بن عمار كانت زوجة الرئيس الحبيب بورقيبة الثانية.
- (٦) الخطب المفتوح عنوان برنامج إذاعي يشرف عليه ويثبه الصحافي غونزالغ سان بري عبر أنثير محطة أوروبا رقم ١. كان
البرنامج يثب منتصف الليل طوال ساعة كاملة ويفتح أنثيره للمستمعين طالباً منهم للمرة الأولى في تلوين الإذاعات
الفرنسية التدخل في شتى المواضيع. دام البرنامج خمس سنوات وتوقف مع مطلع الثمانينيات.
- (٧) إدريس البصري: وزير الداخلية المغربي منذ العام ١٩٧٥ والرجل الثاني في نظام الحسن الثاني. أمّاله الملك الجديد محمد

الخاص مباشرة بعد توليه الحكم سنة ١٩٩٩ م في إطار التغييرات لتحسين صورة المغرب في مجال حقوق الإنسان.

(٨) المامونية: فندق فخم في مدينة مراكش.

(٩) راجيو ميلدي ١: إذاعة مغربية تبث برامجها من الشمال المغربي باللغتين الفرنسية والعربية.

(١٠) بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ هاجر اليهود المغاربة بكثافة إلى إسرائيل وفرنسا وكتنا وقد سهل لهم الجنرال أولفير ذلك وكان له في الجالية جملة من الأصدقاء.

(١١) عثمان بوعبيد كان رئيس مكتب وزير الداخلية إدريس البصري.

(١٢) في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٨٧ طلب البرلمان الأوروبي من المغرب تحرير ٤٠٠ من سجنائه السياسيين. وفي العام ١٩٩١ حيث منظمة أمنستي لحقوق الإنسان قرار المغرب الإفراج عن ٢٧٠ سجيناً أمضى بعضهم تسعة عشر عاماً في السجون. بمناسبة ذلك الإفراج أبعده إبراهيم السرفاني إلى فرنسا قبل أن يعود إلى المغرب بعد ارتقاء محمد السادس العرش.

لكن منظمة أمنستي أضافت حيث ذلك أن السجون المغربية تفصل بالمساجين وأن معظم هؤلاء من الصحراويين ونحست بالذكر معتقل تزامرت في الأطلس الأهل الذي جرى تلميره لاحقاً.

في العام ١٩٩٨ اعترف المغرب عبر جمعية حقوق الإنسان بولادة ٥٦ سجيناً سياسياً بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٨٠ من أصل ١١٢ «مفقوداً»!

التجينة والقرصان

٢

مقدمة

٧

القسم الأول شارع الأميرات

١٥	أُمِّي العزيزة
٢٧	قصر سيدي (١٩٥٨-١٩٦٩)
٢٧	عهد محمد الخامس
٣١	تربية الأميرة
٤٠	الحياة في القصر
٥٤	أنا والملك
٦٢	مراهقة وحيلة
٦٨	الرحيل من القصر الملكي
٧٣	منزل عائلة أوقبير (١٩٦٩-١٩٧٢)
٧٣	العودة إلى المنزل

٧٨	أبي وأنا
٨٥	شابة مدللة
٩٠	انقلاب الصخيرات
٩٥	ما بعد الصخيرات
١٠٠	الانقلاب العسكري الثاني سنة ١٩٧٢
١٠٦	وفاة أبي

القسم الثاني عشرون عاماً في السجن

١١٧	سنة في الصحراء (٢٥ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٢ - ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٣)
١١٧	واحة آشا
١٢٣	أكدز، المحطة المؤقتة (٢٨ نيسان / أبريل - ٣٠ أيار / مايو ١٩٧٣)
١٢٦	«زوين، زوين، بيزاف»
١٢٩	أسوار تامناغت (٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٣ - ٢٦ شباط / فبراير ١٩٧٧)
١٢٩	قصر الكلاوي
١٣٩	راسبوتين
١٤٤	المقاومة
١٥١	سجن الأشغال الشاقة في بير جديد (٢٦ شباط / فبراير ١٩٧٧ - ١٩ نيسان / أبريل ١٩٨٧)
١٥١	البداية السيئة
١٥٧	الجحيم
١٦٦	الجوع
١٧١	شهر زاد
١٧٦	الأمرأض والآفات
١٨١	التهكم والسخرية
١٨٣	عشرون عاماً خارج الزمن
١٨٦	الليل
١٩٠	الحب والجنس

عائلي	١٩٢
ليلة السكاكين الطويلة	١٩٤
التفك	٢٠٢
الهروب	٢١١
الهاربون (١٩-٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٧)	٢١٥
التيه	٢١٥
الدار البيضاء	٢٢١
الرباط	٢٢٩
طنجة	٢٤٣
فندق أهلاً	٢٤٩
التوقيف	٢٦٠
بعد الهروب	٢٦٧
مراكش (١ تموز/ يوليو ١٩٨٧- ١٩ شباط/ فبراير ١٩٩١)	٢٧٩
سنة أشهر من الغبطة	٢٧٩
السجن الذهبي	٢٨٨
آخر التفك	٢٩٤
ما يسمى الحرية (خاتمة)	٢٩٨
الخطوات الأولى	٢٩٨
إريك	٣٠٨

ملحق التجينة والقرصان

أعيدوا إلينا إبلنا!	٣١٥
شكوى دار الجديد إلى نقابة اتحاد الناشرين اللبنانيين	٣١٦
دار ورد ترد على دار الجديد	٣١٨
هنيئاً لمن قرّضَ «التجينة»	٣٢٠
آداب المهنة فوق التريس	٣٢٢

هذه نسخة معالجة
لنسخة متوفرة على النت

قمنا بمعالجة مصوراتها
مع تصغير الحجم
ورفع جودة الملف

فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

سيرة مليكة أوفقيير، (وعائلتها)، من «الحرية»
خلف أسورا البلاط المغربي إلى «الحرية»
بعد عشرين عاماً من شتى ألوان الاعتقال

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة